الجامعـــة الأردنيـــة
كلية الدراسات العليا

الحياة الاقتصادية وأثرها في الشعر الأموي

إنعام موسى إبراهيم رواقة

إشراف

الأستاذ الدكتور هاشم ياغي

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراة في اللغة العربية وآدابها، بكلية الدراسات العليا في الجامعة الاردنية

أيلول، ١٩٩٥م

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٩٩٥/٩/٣٠ وأجيزت

أعضاء اللجنة		التوقيع
الأستاذ الدكتور هاشـــم ياغـــي	(مشرفاً)	....
الأستاذ الدكتور محمود السـمرة	عضواً	....
الأستاذ الدكتور محمـــود ابراهيم	عضواً	....
الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي	عضواً	....



إلى والدي الحبيب الذي علّمني أن استيقظ والناس نائمون، وأن استغفر والناس مذنبون ...

إلى والدتي الحبيبة التي علمتني كيف أعزف لحن الوفاء في زمان الغدر ... والرُقي في زمن التردي ... اليهما أهدي ثمرة جُهدي وعنائي

شــــكر وتقـــدير

إلى أستاذي الذي يعطي ما عنده من معرفة لطلبته لا رغبة في الشهرة الباطلة... إنما رغبة في العطاء... والفرحة في إذاعة العلم وانتشار الفضيلة... إلى أستاذي الدكتور هاشم ياغي تحية شكر وتقدير على ما بذله لي في هذا البحث من دراسة أو تصويب أو نصح أو إرشاد جزاه الله خير الجزاء، وأمدَّ في عمره.

المحتويات

ملخّص الرسالة

الحياة الاقتصادية وأثرها في الشعر الأموي

انعام موسى إبراهيم رواقة

إشراف

الأستاذ الدكتور هاشم ياغي

يعتبر العصر الأموي مرحلة ذهبية لدراسة الحياة الإقتصادية وأثرها في الشعر، كون العرب انطلقوا انطلاقةً ضخمةً خارج الجزيرة العربية بفعل الفتوح، وتمصير المدن في المناطق المفتوحة كالكوفة والبصرة وواسط والرُّصافة والرملة، وبفعل ذلك تغيرت ألوان الإنتاج إلى جانب نظام الكلأ الموجود في البادية، فصار نظاما الزراعة والتجارة من أهم ألوان الإنتاج في بيئات الشام والعراق والحجاز وللصلة الوثيقة بين الظروف الاقتصادية، وكل إنتاج أدبي سادت ظواهر أدبية مميزة، منها؛ ظاهرة التكسب التي شاعت في العراق وبين البداة فوفد الشعراء إلى مراكز الثراء متكسبين ثم دخلوا منطقة الإعلام وحمل بعض شعر الفتوح، ملمحاً اقتصادياً، بدا ذلك في كثير من قصائد المادحين والهجائين والمستجدين والشعراء الجند، وبدت ظاهرة شكوى الفقر والاحتجاج الاقتصادي، ونلمح فيها هموم الإنسان العربي في الفترة الأموية، وما يعانيه من ضيق اقتصادي بفعل البيئة أو بفعل سياسة الحكومة، خاصةً في نظام توزيع العطاء، وجبي الصدقات، وكثرة الضرائب الباهظة.

ولم يخلُ شعرُ الغزل بألوانه أبداً من تفسير اقتصادي ذي ارتباط وثيق بالبيئة الإقتصادية، والأحوال الحضارية والإجتماعية.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، والصلاةُ والسلامُ على رسول الله.

وأما بعد:

فقد بدأت صلتي بهذا النوع من الدراسات عهد تحضيري رسالة الماجستير التي درستُ فيها وجهين من وجوه الشعر؛ وهما الوجهان السياسي والاجتماعي في شعر الشريف الرَّضيّ، أحد شعراء العصر العباسي، ولتكمل رؤيتي العامة في العلاقة بين الشعر والمجتمع كان لا بدَّ من دراسة الوجه الاقتصادي، وأثره في الوجهين السابقين، وأثرهما معاً في الوجه الإقتصادي ومن ثمّ أثره في الشعر. ولذا استقر رأيي بمعونة أستاذي على توسيع دائرة البحث، واختيار منطقة مضيئة من مناطق الحضارة العربية، وهي العصر الأموي، فكان عنوان البحث: (الحياة الاقتصادية وأثرها في الشعر الأموي).

واخترت المنهج الإجتماعي في دراسة الشعر، وهو المنهج الذي يرى الصلة الوثيقة بين الأحوال الاجتماعية والظروف الاقتصادية من جهة، وكلٍّ إنتاج أدبي من جهة ثانية، لا، بل لهذا المنهج صلة وثيقة بمعظم ألوان النشاط الإنساني، وقوى الإنتاج الاقتصادي.

وانكببتُ أجمعُ المادة من كتب التاريخ والأخبار، وكتب المغازي والسير، والتراجم، ودواوين الشعر المجموعة، والمجموعات الشعرية وغيرها، حتى اكتملت المادة لديَّ، ثم بدأتُ بدراستها من الداخل، ومما لفت نظري لدى دراستي هذه أن الحياة الإقتصادية تبدو أكثر وضوحاً في المادة النثرية منها في الشعر، وأشد سطوعاً، مما جعلني أستعينُ بالروايات التاريخية والخطب والرسائل الديوانية لإضاءة البحث، ثم استقر لديَّ بعد النظر في المادة المتوفرة أن أجعلها في هذه المقدمة، وستة فصول، وخاتمة عرضت فيها ثمار البحث.

أما الفصل الأول فعنوانه: (البنية الاقتصادية) ومحاورها:

أ- البيئات الاقتصادية- الجغرافية منها، ودورها في سيادة نظامها الاقتصادي وبينت الخراج الذي جبي من بعض البيئات، وكذلك أنواع الإنتاج.

ب- الفتوح: على أنها عامل مهم في تطور الاقتصاد الأموي، ونظرة القادة والولاة والدولة والجند لها، وتنبه الدولة إلى دور الغنائم في الاستمرار بالفتوح، ومالها من دور مهم في الإتجاه نحو المدنية والاستقرار، وتنشيط حركة التجارة.

جـ- الأنظمة الاقتصادية: من زراعة وتجارة وكلأ وصناعة وحرف، وقد عرضت لنظام الإقطاع ومشكلة ملكية الأرضيين، وتوحيد العملة والمكاييل وايجاد مراكز العشور، وتدشين المنشآت الحضرية الجديدة وربطها بالبيئة الاقتصادية.

الفصل الثاني وعنوانه: (البنية الاجتماعية):

وتتشكل من محورين

١- الفئات الاجتماعية من عرب وموالٍ ورقيق؛ وأثرها في التطور الاقتصادي.

٢- ومستوى المعيشة ومحاورها:

أ- الطعام والشراب.

ب- واللباس والزينة.

جـ- واللهو والغناء والترف.

د- وحركة البناء والعمران.

والفصل الثالث بعنوان: (ظاهرة التكسب في الشعر الأموي) وجاءت في أربعة محاور:

١- بيئات التكسب.

٢- السياسة والتكسب.

٣- والبناء الاقتصادي والتكسب.

٤- والتكسب المبتذل والقيم.

أما الفصل الرابع فعنوانه: (أثر الحياة الاقتصادية في شعر الفتوح).

وتناولت فيه ظاهرتين:

١- الظاهرة الأولى: شعر الفتوح الذي أبرز الحياة الاقتصادية تحت مظلة الفتح إلى جانب الكسب، وظهرت فيه صورة الإنسان العربي المنطلق

الرسالة الإسلامية ويقوم بواجب الجهاد ويجلب الغنائم بعد النصر، وفي الوقت ذاته يخسرون الجنود وعدّة القتال، وهم يبنون الدولة الفتية، ونجدها في عدة مظاهر.

٢- والظاهرة الثانية: شعر الفتوح الذي غلبت عليه جوانب الكسب، ونجدها في مجالس التكسب، وعلاقة الراعي وبالرعية، والاحتجاج الاقتصادي، وشعر الحنين إلى الوطن، وشكوى الغربة والجوع، ورفض التجمير في المناطق المحاصرة، والحديث عن الفيء والغنائم وغيرها.

والفصل الخامس وعنوانه: (شكوى الفقر والاحتجاج الاقتصادي في الشعر الأموي) بدت فيه هموم الشاعر، وسجَّل فيه الشعراء علاقة الحكومة بالشعب من خلال أنظمة الإنتاج.

أما الفصل السادس فعنوانه: (التفسير الاقتصادي لشعر الغزل) وفيه أنواع الشعر وأمكنة انتشارها، وربطها بالبيئة الاقتصادية:

١- الغزل الحضري.

٢- والغزل السياسي.

٣- والغزل العذري.

٤- وصورة الغزل عند شعراء البلاط.

وقد تناولت هذا الشعر من جانب اقتصادي، ورأيت العلاقة الاقتصادية بادية في هذا الشعر، فالشعر الغزلي الذي ساد في مدن الحجاز يختلف عن الشعر الغزلي الذي ظهر في العراق، وبعض هذا الشعر يلمح فيه أثر الحياة الاقتصادية المباشر وبعضه كان للاقتصاد أثر غير مباشر في وجوده ومميزاته.

ثانياً: أهم المصادر والمراجع:

إضافةً إلى مناقشاتي مع أستاذي الجليل الدكتور هاشم ياغي، وما فيها من آراء قيمة، وإشارات لامعة، واستبصار قويم، فإنه لن يفوتني أن أشير إلى أهم مصادري التي اعتمدت عليها، وانتفعت بها:

١- أحمد بن يحيى البلاذري في كتابيه انساب الأشراف، وفتوح البلدان. تميز

الكتابان بعرضهما الدقيق للبنية الاقتصادية، ومقدار الخراج الذي جبي من كل فتح، وتمصير المدن، والبيئات الاقتصادية، والاصلاحات الزراعية وغيرها.

٢- محمد بن جرير الطبري وكتابه تاريخ الرسل والملوك المشهور بتاريخ الطبري كان من أهم الكتب التاريخية التي اعتمدت عليها في فصل البنية الاقتصادية.

٣- أبو عبيد القاسم بن سلاّم: وكتابه الأموال، اعتمدت عليه كثيراً في الأمور الفقهية والمالية من صدقات وفيء، وغنائم، وعشور ومكاييل وحمىً وخراج وإقطاعات، وما لها من دور في تطوير الحياة الاقتصادية.

٤- قدامة بن جعفر- وكتابه الخراج.

٥- يحيى بن آدم- وكتابه الخراج.

٦- أبو يوسف- وكتابه الخراج.

اعتمدت على هذه الكتب في الفصل الأول اعتماداً كبيراً.

٧- المسعودي (مروج الذهب ومعادن الجوهر) عرض فيه مؤلفه نتفاً رائعة ومتميزة لمصادر الغنى والترف والمال ولكنه كان مبالغاً جداً، ولذا كنتُ على حذر وأنا اعتمد كتب المسعودي.

٨- اليعقوبي وكتابه المعروف بتاريخ اليعقوبي تميز صاحبه بالمبالغة الشديدة لتحامله البين على الأمويين.

اعتمدت الكتب السابقة كثيراً في الفصلين الأولين، أما في الفصول الأربعة الأخرى فكان جلُّ اعتمادي على دواوين الشعر المجموعة، والمجاميع الشعرية كالمفضليات، وحماسة أبي تمام بشروحها، وكتب الأدب كالأغاني لأبي فرج الأصفهاني، والكامل للمبرد، والحيوان والبيان للجاحظ.

وأما مراجعي الحديثة فكانت في اتجاهين:

١- الكتب ذات النهج الاقتصادي البحت، منها:

أ- أبحاث الدكتور صالح العلي الإجتماعية والاقتصادية لتاريخ الاقتصاد العربي في المراحل الإسلامية؛ صدر الإسلام، والدولة الأموية، والدولة العباسية.

ب- وأبحاث الدكتور عبد العزيز الدوري المتعددة والمتميزة في التاريخ الإقتصادي العربي، سواء كانت كتباً أو أبحاثاً وقد كثر عددها وتنوعت فوائدها.

٢- والكتب ذات النهج الأدبي. وكانت كثيرة ومتعددة، بعضها شكل محوراً مهماً في رسالتي، وبعضها أفدت منه كثيراً، ولكني لم أجعله مرجعاً في رسالتي لعدم اتفاقه وعنوان البحث، وغاياته.

ومن النوع الأول:

أ- إبراهيم الغماري المغربي: (شعر الفتوح الإسلامية في العصر الأموي) رسالة ماجستير أفدت منها كثيراً في الشعر المجموع، ولكني اختلفت مع صاحبها في نهج الدراسة وغايتها ونتائجها.

ب- طه حسين: (حديث الأربعاء): تضمّن إشارات جيدة للعلاقة بين الغزل والاقتصاد، اتفقت معه في بعضها، واختلفت معه في بعضها الآخر.

جـ- مخيمر صالح: (شعر الاحتجاج الاقتصادي في العصر الأموي) كتاب قيم على صغر حجمه، ولكن صاحبه اقتصر فيه على تناول نصّين اقتصاديين- إن جاز التعبير- وتجاوز عن أشياء كثيرة، واتفقت معه في عنوان أحد فصول البحث.

د- نبيل خانجي: أثر الحياة الاقتصادية في شعر البداة في العصر الأموي- رسالة ماجستير، فعلى إفادتي الكبيرة منها إلا أنها اقتصرت على بيئة البادية وشعرها، فكانت رسالتي إضافة إلى هذه الرسالة.

ومن النوع الثاني:

١- أحمد كمال زكي: الحياة الأدبية في البصرة حتى نهاية القرن الثاني للهجرة.

٢- حسين عطوان:

أ- الشعراء الصعاليك في العصر الأموي.

ب- والوليد بن يزيد، عرض ونقد.

جـ- و(الشعر بخراسان من الفتح إلى نهاية العصر الأموي).

٣- شوقي ضيف:

أ- العصر الإسلامي.

ب- والتطور والتجديد في الشعر الأموي.

جـ- والشعر والغناء في المدينة ومكة.

٤- النعمان القاضي (شعر الفتوح الإسلامية) التي اقتصرت على الفترة الراشدية.

٥- هاشم ياغي: (معاناة ومعايير من جمال في طائفة من القصائد الجاهلية والمخضرمة) أفدت منها كثيراً في الرؤية وطريقتها في التناول لا سيما دراسة نص عبدة بن الطبيب.

٦- يوسف خليف: «حياة الشعر في الكوفة حتى نهاية القرن الثاني الهجري».

وإلى ما سبق درست كماً كبيراً من الدراسات ذات العلاقة ببحثي، سواء كانت في صميم البحث، أو في المنهج وطريقة التناول، أو في عصر البحث، ومن هنا كان مرجعي الأول والأخير هو الشعر فهو الخصم والحكم. وأخيراً أرجو ألا أكون قد ابتعدت عن العمق والموضوعية، وحمّلت النصوص الشعرية فوق طاقتها، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

البنية الاقتصادية

أولاً: البيئات الاقتصادية

لعلّ من المفيد جداً لإدراك الحياة العامة لأمةٍ ما، والحياة الاقتصادية بشكلٍ خاص أن نعرف طبيعة البيئة التي عاشت في ظلها تلك الأمة. ومعرفة الدور الذي تلعبه البيئة الجغرافية في خلق بيئة اقتصادية مميزة، ينشط فيها اقتصاد الأمة وامتداد هذا التأثير إلى الشعر والإبداع ليكون له نكهة خاصة تعبّر عن جدلية المجتمع والبيئة، لذا أرى أن احدّد هذه البيئات جغرافياً كما وردت في الكتب الجغرافية والتاريخية القديمة، وكيف أبرزوها موطناً اقتصادياً، وكذلك أبرز النظم الاقتصادية التي سادت في كل من بيئات الشام والعراق ونجد والحجاز.

١- بيئة الشام

مما يلفت النظر تجاهل الجغرافيين الأوائل كابن خرداذبة (ت٢٧٢هـ) واليعقوبي ت(٢٧٨هـ)، وابن رسته (ت.٢٩٠هـ)، وابن الفقيه (ت.٢٩٠هـ) الحديث عن بلاد الشام وحدودها، واقتصروا في وصفهم للإقليم على الإشارة إلى بعض مدنه وكوره وأجناده. وكان الاصطخري (ت٣١٨هـ) أقدم الذين حددوا بلاد الشام إذ قال:

«فأما الشام فإن غربيها بحر الروم، وشرقيها البادية من أيلة إلى الفرات ثم من الفرات إلى حد الروم، وشماليها بلاد الروم، وجنوبيها مصر وتيه بني اسرائيل، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح، ومما يلي الروم الثغور المعروفة كانت قديماً تعرف بثغور الجزيرة، وهي ملطية والحدث ومركش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة وأذانه وطرسوس»[١].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، طبعة ليدن: ص١٥٣ انظر الاصطخري: مسالك الممالك: ليدن، ١٩٢٧-ص٥٥.

وحدّد ابن حوقل (ت٣٥٦هـ) بادية الشام بأنها المنطقة من بالُسْ إلى أيلة مواجها للحجاز على بحر فارس إلى ناحية مدين، معارضاً لأرض تبوك حتى يتصل بديار طيء من بادية الشام[١].

وأفرد للجزيرة الفراتية فصلاً خاصاً وتوقف عند كل مدينة من مدنها، ووصفها وصفاً اجتماعياً واقتصادياً طريفاً، فذكر منها نصيبين، والموصل، وسنجار، وبرقعيد، ورأس العين. وأمد وجزيرة ابن عمر، وديار مضر، وقرقيسياء، ثم بواديها. وذكر أهم مدنها وسكانها، وطرق عمارتها، ومزروعاتها، وتجاراتها، وأسواقها، ورخص أسعارها[٢]، ويكون بذلك قد تجاوز الحدود الجغرافية ليدخل في صميم الحياة الاجتماعية لهذا الإقليم، وعلى أنّ وصف ابن حوقل للشام في عصره، إلا أنه يدلنا على أن الشام تميزت ببعض هذه المواصفات قبل هذا العصر. ووصف اسواق الموصل بأنها كانت واسعة، وأحوالها في الشرف والغنم ظاهرة، وهي مدينة أبنيتها بالجص والحجارة، كبيرة غنّاء، وأهلها عرب، ولهم بها خطط وأكثرهم من ناقلة الكوفة والبصرة، وكانت من عظم الشأن بصورة أكابر البلدان، وكان بها لكل جنس من الأسواق الاثنان والثلاثة والاربعة حتى يكون في السوق المائة حانوت وزائد، وبها من الفنادق والمحال والحمامات والرحاب والساحات والعمارات، ما دعت إليها سكان البلاد النائية فقطنوها، وجذبتهم إليها برخصها وميرها وصلاح أسعارها فسكنوها[٣].

وتوقف المقدسي (ت٣٨٠هـ) ملياً عند فلسطين وأحسن وصفها، ووصف تضاريسها الطبيعية فذكر السهل الساحلي فجبال لبنان، فالأغوار، فشرق فلسطين ويبدو أنه عني بالحواضر أكثر من البوادي.[٤] وقسّم الجغرافيون إقليم الشام إلى ست كور متبعين في ذلك ترتيباً جغرافياً، والكور هي: قنّسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين والشراة. وهذا التقسيم تقسيم إداري أصلاً وهو ما سميّ

---

(١) المصدر السابق: ٣٠.

(٢) المصدر السابق، ١٨٩-١٩١.

(٣) المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم: مكتبة خياط -بيروت- لبنان: ١٨٦.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ١٩١.

بالأجناد، وبعضهم جعل قنسّرين شيئاً، وحمص شيئاً اخر مع أن البلاذري يروي أن حمص وقنسرين جندٌ واحد. ويوضح مصطلح الجند فيقول فيه:

«سميت كل ناحية لها جند يقبضون أطماعهم بها جند، وذكروا أن الجزيرة كانت إلى قنسرين، فجندها عبد الملك بن مروان أي أفردها فصار جندها يأخذون أطماعهم بها من خراجها، وأن محمد بن مروان كان سأل عبد الملك تجنيدها ففعل ولم تزل قنسّرين وكورها مضمومة إلى حمص، حتى كان يزيد بن معاوية، فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج وزواتها جنداً»[1].

وملاك الأمر أن بلاد الشام قديماً هي بلاد الشام الآن: سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والموصل. واشتهر اقليم الشام بوفرة مياهه، وكثرة أنهاره، واعتدال مناخه، وتنوع حاصلاته، والتفاف أشجاره، ويسود مناخ البحر المتوسط في سواحل الشام الشمالية، ويسود مناخ السهوب في الهضاب الشرقية، بينما يسود المناخ الصحراوي في البادية، وتزداد الصفة الحرارية القارية كلما ابتعدنا عن الساحل إذ يظهر بجلاء المناخ القاري في الغور والبقاع[2].

طبيعة تضاريس المكان، وبيئته، ومناخاته المتعددة وكثرة أنهاره تدلنا على أن النظام الاقتصادي السائد في بلاد الشام كان نظام الزراعة، ومما يدعم هذا الرأي طبيعة نظام الضرائب الذي فرضه المسلمون على مدن الشام عند الفتح، وقد شملت الضرائب العينية خلاً وزبيباً وزيتاً وعسلاً وحنطة[3].

وأكثر الأمويون من الإقطاعات في بلاد الشام، وساعد ذلك على تكوين الملكيات العربية الكبيرة فيها، واستمرار النظام الزراعي فيها، وسيادة الاستقرار وظل نشوء الملكيات الكبيرة خلال القرنين الأول والثاني للهجرة معتمداً على الإقطاع

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان: تحقيق رضوان محمد رضوان: دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٣، ١٣٨.

(٢) فالح حسين الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي: ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م نشر بدعم من الجامعة الأردنية: ص٢٣.

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال تحقيق خليل هرّاس -مكتبة الكليات الأزهرية ط١ - القاهرة- ١٩٦٨، ص٥٥، ٣١٥، ٩٦٥، وسيشار إليه بكتاب الأموال.

من الصوافي والموات[1] وكثُرت الأراضي المقطعة حول دمشق وحمص، وكانت جنبتا بردى مروجاً مباحة فيما بين أهل دمشق وقراها، ليس لأحد منهم، فأقاموا بها، وأحيا كل قوم محلتهم، فبلغ ذلك عمر، فأمضاه لهم، وأمضاه الخلفاء من بعده وساهم اقطاع التوطين في خلق ملكيات عربية للأراضي فنزل العرب بمواضع نائية من المدن أو القرى، وأذن لهم في اعتمال الأرضين التي لا حق فيها لأحد[2].

وشاع إقطاع المقاتلة، واستمر منح الإقطاعات إلى نهاية العصر الأموي ومن ذلك إقطاع المقاتلة القطائع في انطاكية، وكذلك في طرطوس ومرقية وبانياس[3] وأقطع عبد الملك المقاتلة قطائع جديدة في أنطاكية وعسقلان وقيسارية وصيدا وجبيل وبيروت وعسقلان[4] واستمر التوسع في تكوين الملكيات الكبيرة، حتى برزت أساليب زراعية منها الإلجاء[5] خوف الجباة فانتقلت بالُسْ وقراها إلى ورثة مَسْلَمة ابن عبد الملك بعد أن لجأ إليه أهلها وطلبوا منه حفر قناه من الفرات إلى أراضيهم[6] وشاع شراء الاراضي الخراجية حتى أصدر عمر بن عبد العزيز أمراً بمنع بيع الأراضي الخراجية حماية لبيت المال، وربما للحد من تكوين الملكيات الكبيرة، وكان قد بعث رسالة إلى ميمون بن مهران: «أما بعد؛ فحل بين أهل الأرض، وبين بيع ما في أيديهم، فإنهم إنما يبيعون فيء المسلمين»[7].

وامتلك العرب الأشراف خلفاء وأمراء وسادات إقطاعات بالشام، بل حرصوا

---

(١) عبد العزيز الدوري: نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية: مجلة المجمع العلمي العراقي - بغداد- ١٩٧٠ ص٨.

(٢) فتوح البلدان: ١٧٨ انظر ابن عساكر تهذيب تاريخ مدينة دمشق: تحقيق عبد القادر بدران: دار المسيرة- بيروت: ١٩٧٩، (وسيشار إليه بابن عساكر ج١/١٨٥.

(٣) فتوح البلدان: ١٣٣، معجم البلدان: ياقوت الحموي: دار صادر -بيروت: ٢٧٠/١.

(٤) فتوح البلدان: ١٢٧، ١٣١-١٣٤ عبد العزيز الدوري: العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام: بحث قدم لمؤتمر بلاد الشام، الجامعة الاردنية- ١٩٧٤: (ص٢-٥).

(٥) انظر: ص ,ﻫ من هذا الكتاب.

(٦) فتوح البلدان: ١٥١.

(٧) الاموال: ١٣٦.

على ذلك، فكانت لمعاوية ضيعة بالبلقاء تدعى (بقبش)[1] وامتلك عمرو بن العاص ضيعة في بيت جبرين تدعى عجلان[2] وأقطع يزيد بن معاوية سعيد بن مالك بن بَحْدل الكلبي إقليم بيت الأبار[3] وأقطع عبد الملك القعقاع ضيعة قرب حلب[4] وكانت لروح بن زنباع قطيعة من عبد الملك وكذلك الزملكا لحفص بن عمر وسعيد بن عثمان، وكان عبد الملك وأبناؤه، وخالد بن يزيد والوليد بن يزيد من أكثر الناس تملكاً في الشام، فكان لسليمان بن عبد الملك بستان في دمشق خلف مرج عذراء، ولبني سليمان أملاك في فلسطين[5] ولروح بن الوليد بن عبد الملك حوانيت ولسعيد بن عثمان قطيعة في دمشق[6]. وأحيا هشام الرُصافة وأسسها مدينة، وحفر فيها نهرين هما الهني والمري[7] وحرص على تملك الضياع في الشام وكانت له ضيعة تسمى الزيتونة[8].

وللمناخ دور كبير في إبراز الشكل الاقتصادي للمكان، واعتمدت بلاد الشام على الأمطار فذكر المقدسي: «أن الشام بلد يمطر في كل سنة فلا يتعطل الزرع إلا أنه ربما أخصب، وربما أجدب»[9] وتبعاً لذلك سادت الزراعة البعلية، وإلى جانبها ظهرت الزراعة المروية نظراً لكثرة الأنهار والعيون والقنوات والبحيرات، كنهر العاصي وبردى والأعوج، ونهر الأردن، والعوجاء وقويق، والذهب والساجور، وازدهرت الزراعة في بلاد الشام خصوصاً الأشجار المثمرة في المناطق الجبلية

---

(١) فتوح البلدان: ٩-١٠.

(٢) فتوح البلدان: ١٣٨.

(٣) ابن عساكر: ٧١/٦.

(٤) فتوح البلدان: ١٤٦.

(٥) ابن عساكر: ٢٣٩/٥، تاريخ الرسل والملوك : الطبري: تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دائرة المعارف، مصر، ١٩٦٤: ٢٦٦/٧ وسيشار إليه بتاريخ الطبري.

(٦) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز: تحقيق أحمد عبيد: مكتبة وهبة- مصر- ط٢- ص ٥٩.

(٧) فتوح البلدان: ١٨٠، ٢٤٩.

(٨) تاريخ الطبري: ٧/ ٢٠٥.

(٩) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢١٢.

كالعنب والرمان واللوزيات، وكذلك زرعت الفواكه، وشاعت البساتين، وعرف الزيتون في القدس والخليل وغيرها[١].

وذكر اليعقوبي في معرض تاريخه عن الخراج بأن خراج فلسطين استقر على اربعمائةٍ وخمسينَ ألفَ دينارٍ، واستقر خراجُ الأردن على مائةٍ وثمانينَ ألفَ دينارٍ، وخراجُ دمشقَ على اربعمائةِ ألفٍ وخمسينَ ألفَ دينارٍ، وخراجُ قنسرينَ والعواصمِ على اربعمائةِ ألفٍ وخمسينَ ألفَ دينارٍ وخراجُ الجزيرةِ؛ وهي ديارُ مضرَ وديار ربيعةَ على خمسٍ وخمسين ألفَ ألفَ درهم[٢].

ولم نجد في المصادر إشارات ذات قيمة إلى المهن وبعض الحرف التي تدل على وجود الصناعة المتطورة. في حين نجد بعض المروج الخاصة بالبداة خصوصاً في الجزيرة الفراتية فاستمر نظام الرعي في بوادي الشام مما يعني أن البادية مظهر اجتماعي واقتصادي كان موجوداً إلى جانب النظام الزراعي، ولكنه قياساً إلى النظام الزراعي لم يك يشكل اقتصاداً قوياً وذا قيمة.

وكان أكثر عرب الشام قديماً من القحطانية وكوّنوا إمارة الغساسنة من آل جفنة، وفي أخبار الفتوح كانت اليمانية تفضل المسير إلى الشام، واستطاع القصر الأموي في دمشق جذب الشعراء إليه فوفدوا على الخلفاء بشعرهم مادحين أو متكسبين أو مؤيدين للنظام الحاكم بلسان قبائلهم حيناً، وبلسانهم أفراداً حيناً أخر. فاستقطب القصر الأخطل وجرير والفرزدق والكميت بن زيد والطرماح بن حكيم والأحوص، ونصيب، وكثير عزة، وابن قيس الرقيات وغيرهم وكان بعض الخلفاء شعراء كيزيد بن معاوية، والوليد بن يزيد[٣]. ونشط الشعر في القصر، واستقطب بعض الخلفاء المترفين كيزيد بن عبد الملك وابنه الوليد المغنين وعقدوا لهم الحفلات الغنائية، وشارك الوليد بن يزيد أيضاً في مسيرة الغناء العربي فصنع بعض الألحان، وأشار على الملحنين بعمل لحن في نصٍ ما، خصوصاً الشعر

---

(١) فالح حسين: الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي: الجامعة الأردنية ١٩٧٨، ٢٨-٤٩.

(٢) تاريخ اليعقوبي: دار صادر -بيروت- ١٩٦٠: ٢/ ٢٢٠-٢٢١. فتوح البلدان ١٩٣.

(٣) شوقي ضيف: العصر الإسلامي- دار المعارف- ط١٢: ص ص ١٦٥-١٦٦.

المدحي. وشاع الترف والغناء في المرحلة الأخيرة من مراحل عمر الدولة الأموية وذلك بعد انتقال خبرات الحجاز العاصمة الأولى إلى الشام. وعلى ذلك لم نر للشعر سوقاً كأسواق الجزيرة العربية، أو كسوق المربد في العراق، لضعف الشعر في اليمانية كون سكان الشام أكثرهم من اليمانية.

٢- بيئة العراق

ذكر القدماء العراقَ بالعراق مرّة، وبالسواد مرّة أخرى وسادت الأخيرة لدى المؤرخين. وعرفت حضارتها بحضارة الرافدين وقصد بهما دجلة والفرات، ووجود النهرين العظيمين في العراق، وخصوبة أراضيه هيّأا للحضارة أن تقوم على رافديه فكانت حضارة بابل وأشور وأكد وسومر. وتحدّه جبال طوروس من الشمال، والبادية من جهة الغرب الموازية لنجد والحجاز على ديار أسد وطيئ وتميم وسائر قبائل مضر واستثنيت الموصل من العراق إذ كانت ضمن حدود الجزيرة الفراتية، التابعة إدارياً إلى الشام[1].

وعلت منزلة إقليم العراق في نظر أهله إذ بلغ العراق في عصر ابن حوقل منزلة عالية كان من الصعب أن يصلها دون أن تكون له مقدمات في العصر الأموي فقال فيه: (فهو أعظم أقاليم الأرض منزلة، وأجلُّها صفةً، وأغزرها جبايةً وأكثرها دخلاً، وأجملها أهلاً، وأكثرها أموالاً، وأحسنها محاسن، وأفخرها صنائع »[2].

وبلغت مساحة العراق لما أمر عمر بن الخطاب بمسحه ستةً وثلاثين ألف ألف جريب، فوضع على جريب الحنطة أربعة دراهم، وعلى الشعير درهمين وعلى جريب النخل ثمانية دراهم، وعلى جريب الكرم والرُّطاب ستة دراهم، وبلغت جبايته مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم وجباه عمر بن عبد العزيز مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف، وجباه الحجاج بن يوسف ثمانية عشر ألف ألف درهم، وأسلف الأكرة ألفي ألف درهم وحمل ستة عشر ألف ألف، ومنع أهل السواد من ذبح البقر، فقال شاعرهم:

---

(١) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي- دار المعارف- ط٦: ص٣٥- ٣٩.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ٢١٠.

شكونا إليه خراب السواد فحرَّم فينا لحوم البقر[١]

أبرز لنا النص السابق النظام الاقتصادي الذي كان يسود العراق، وهو النظام الزراعي، كما هو واضح من نظام الخراج، وفيه إشارات بينة إلى أنواع المحاصيل التي كانت تزرع في العراق. واستمر النظام الزراعي مسيطراً على اقتصاده في العصر الأموي. وكان الحجاج قد سدَّ البثوق[٢] وبنى الجسور، وجفف المستنقعات والبطائح ومنع الفلاحين من ذبح البقر للقيام بمهام حراثة الأرض، ولم يكتف بذلك بل جلب إليه الجواميس من الهند والسند. وكان يقوم على الزراعة النبط. ومنعهم الحجاج من مغادرة قراهم، وختم عليهم، وتمرد الفلاحون على هذا القرار وشكلوا قوة لا يستهان بها، احتاجت إلى جبروت حجاجي لمنع ضائقة اقتصادية ستمر بها البلاد، وتمتحن بها الحكومة. وتكفلت الدولة بحفر الأنهار وبناء القناطر والجسور حين الحاجة إلى ذلك على نفقة بيت المال. وبدت العناية بالإصلاح الزراعي مبكراً جداً عهد عمر بن الخطاب حين أمر بحفر نهر الأُبلَّة، وحفر الحجاج أنهار النيل والزابي والصين في مدينة واسط[٣].

واستشرت القطائع في العراق أكثر منها في الشام، وشاع فيها إحياء الموات، وأكثر زياد بن أبيه والحجاج وخالد القسري من إقطاع الأنهار فذكر البلاذري عدداً من الأنهار منحت كإقطاع، منها سويدان، ونهر البنات ونهر حميدة، ونسب إلى امرأة من آل عبد الرحمن، وخيرتان، ونهر أم حبيب بنت زياد، ونهر ابن عمره، وزيادان[٤].

وعُني الولاة العراقيون بميناء الأبلة الذي أنشئ أيام الحجاج، وكان على صلة بالهند، وصارت البصرة تعرف بأرض الهند، وتزايدت القيمة التجارية للبصرة في القرن الثالث الهجري حتى قال الجاحظ: «إن الأبلة في عصره كان يدخلها في

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ٢١٢؛ ابن خرداذبة مسالك الممالك- ليدن- ١٩٨٩- ص، ١٠٤-١٠٥.

(٢) البثوق: جمع بثق والبثق: موضع انبثاق الماء من نهر أو غيره.

(٣) فتوح البلدان ٢٨٩.

(٤) فتوح البلدان: ٣٥٣-٣٦٢.

اليوم ما بين ألفي سفينة تمر، وأكثر في كل يوم ..[١]»، وجعل الحجاج واسطاً مركزاً تجارياً عظيماً تربطها بالكوفة والبصرة والأحواز طرق تجارية داخلية، وفرضت العشور، وتحولت حركة التجارة من الشام إلى العراق، وأنشئت المراسي والسفن وتعهدت الدولة بالطرق البرية كمسلك التجار اليهود[٢] فكانت التجارة أحد الأنظمة الاقتصادية السائدة في العراق إلى جانب النظام الزراعي الضخم -كما سنرى في الصفحات القادمة.

وانتعشت الحياة الاقتصادية في العراق كثيراً، وأنشئت المدن، ووسّع بعضها، واقيمت الأسواق فكان سوق المِرْبَد[٣] أشهر معلم حضاري وتجاري ترك الحجاج فيه بصماته الواضحة في توطيد الدولة الأموية، وزيادة مواردها. فكان المربد سوق البصرة التقى فيه التجار من داخل العراق وخارجه، وتحول إلى منتدى ثقافي شهد صراعات الفرزدق وجرير وغيرهم، إذ كانت النقائض الوجه الآخر لسياسة الدولة الأموية وإذا نشطت قصور الخورنق والسدير في الحيرة أيام المناذرة بالشعر ومجالس الأدب فإن البصرة قد ورثت الحياة العقلية النشطة في الحيرة، فظهرت مدرستا البصرة والكوفة، في كل فنون الفقه والأدب والنحو عصر بني أمية، فكانت مدرسة الحسن البصري، وواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال، وظهرت مدرسة البصرة اللغوية والنحوية، ومدرسة الكوفة أيضاً، واشتد التنافس بين المدرستين حتى بلغ أوجه أيام الدولة العباسية.

ومن مدن العراق المشهورة البصرة والكوفة وواسط والقادسية والحيرة، وأكثر الجغرافيون من ذكر البصرة والكوفة وروي أن أنهار البصرة عدّت أيام ولاية بلال بن أبي بردة فزادت على مائة ألف نهر وعشرين ألف نهر تجري في أكثرها

---

(١) الجاحظ: الاوطان والبلدان: ٣/١٤٤.

الأبُلة: بضم أوله وثانيه، بلدة على شاطيء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة وهي اقدم من البصرة، لأن البصرة مصرّت أيام عمر بن الخطاب، وكانت الأبلة حينئذٍ مدينة، وقال الأصمعي: جنان الدنيا ثلاث غوطة دمشق،ونهر بلخ، ونهر الأبلّة. انظر معجم البلدان- مادة أُبلة.

(٢) ابن خرداذبة: مسالك الممالك، ١٥٣-١٥٤.

(٣) المربد: ربد: أقام: المربد. موقف الإبل ومحبسها وبه سمي مربد البصرة، كان سوقاً للإبل، وكان الشعراء يجتمعون فيه-انظر معجم البلدان: مادة مربد.

الزوارق[1] أما الكوفة فهي قريبة الأوصاف من البصرة وهواؤها أصح، وماؤها أعذب، وهي على الفرات وبناؤها كبناءِ البصرة ومصرُها سعد بن أبي وقاص وهي خطط لقبائل العرب إلا أنها خراج بخلاف البصرة مدينة عشرية[2] أما واسط فمدينة محدثة في الإسلام أحدثها الحجاج بن يوسف، وهي مدينة تحيط بحدها الغربي البادية بعد مزارع يسيرة، وهي خصبة كثيرة الشجر والنخل والزرع، واصح هواءً من البصرة[3] وهذا يعني أن الحضارة قد غزت العراق كما غزت الشام، فلا نجد لنظام الكلأ وجوداً إلا في بوادي العراق الشرقية، وعلى ذلك كانوا يتساقطون إلى مراكز الولاة وإلى المدن طلباً لنوالهم. ونزلت القبائل في البصرة والكوفة نزولاً قبلياً، وكان معظم أهل العراق عدنانيين، والشعر في عرب الشمال، فنشط الشعر في العراق نشاطاً ملموساً وقالوا في خصوماتهم القبلية، وفي الشعر السياسي أيام معاوية وعلي. ورفدت العراق قصور بني أمية في الشام فظهر فيهم الفرزدق والكميت بن زيد والمتوكل الليثي وغيرهم كثير. ومن جهة ثانية استقطبت قصور ولاة العراق الشعراء للإشادة بأعمالهم، والشدّ على أياديهم بصحة أعمالهم، فكان من الولاة الحجاج وخالد القسري، وعمر بن هبيرة، ويوسف بن عمر منفذين لسياسة الدولة الأموية، فأغدقت هذه القصور على الشعراء الأموال، وأدرك الشعراء ما كان يريد منهم الولاة للإشادة به أو تفخيمه، وملك الولاة القدرة على الإقطاع دون إذن الخلفاء فأقطع عمر بن هبيرة من أملاك المغيرة بن المهلب المهلبان[4] وأقطع للعباس ابن الوليد بعضاً منها واحتفظ بالباقي لنفسه، وأقطع المرغاب لهلال بن أحوز[5] ولا بد أن الشعراء قد طمعوا في الاقطاع أو احتاجوا إليه.

وظهرت شخصية العراق الثقافية وناهضت قصور خراسان، خصوصاً قصور المهالبة وكانت خراسان في بدء الأمر تابعة إدارياً للعراق ويقبض الجند أطماعهم أي رواتبهم من خراج خراسان، وكان والي العراق هو الذي يولي من يشاء من موظفي خراسان. وكانت خراسان تحاول الاستقلال عن التبعية للعراق بين الفينة

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ٢١٥.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ٢١٢.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ٢١٤.

(٤) فتوح البلدان: ٣٦٠.

(٥) فتوح البلدان: ٣٦٢.

والفينة، وقد يتجرأ الوالي على خلع الخليفة، وخلع يزيدُ بنُ المهلب يزيدَ بنَ عبد الملك فقال يزيدُ بنُ الحكم:

أبا خالدٍ قد هجتَ حَرْباً مريرةً … وقد شمَّرتْ حربٌ عَوانٌ فشمِّرِ

فإنَّ بني مروانَ قد زالَ ملكُهمْ … فإن كنتَ لم تشعرْ بذلك فاشعر

فمت ماجداً، أو عش كريماً فإن تمت … وسيفك مشهور بكفك تُعذَرِ[١]

فضج قصر المهالبة بالشعراء الوافدين إليه مادحين متكسبين، رغبة في عطايا الوالي من غنائم الفتح، أو غيره وشهدت قصور الحجاج ويزيد بن المهلب تساقط عدد من الشعراء للتكسب، وكان طمعهم في المال أو الإقطاع أو رفع ضائقة اقتصادية عنهم ممّا كان لها دور في دخولهم حيز الإعلام. وهذا ما سنراه في فصل التكسب.

ولم تظهر صورة خراسان حتى نهاية العصر الأموي على أنها مصر مستقل عن العاصمة أو العراق، ينعم بالأمن السياسي والاقتصادي، ولكنها شكلت احدى المقاطعات التابعة للعراق، وشخص الوالي والي خراسان مسؤول من قبل والي العراق يأخذه بالغنم والغُرْم. وكذلك لم تظهر صورة خراسان على أنها مدن تمارس الحياة الاقتصادية بطمأنينة، ولم يمارس العرب حياتهم الاقتصادية بيسر وسهولة، وظلت خراسان تشكل مطمعاً اقتصادياً لا ينضب للجند والولاة والشعراء معاً. مطمعاً في المال والفيء والغنيمة، أو رغبة في عطاء الفاتح[٢].

٣- بيئة نجد والحجاز

اختلف الجغرافيون القدامى في تحديد نجد والحجاز، ولكنهم لم يختلفوا في ذكر موقعها، وذكر الهمداني نقلاً عن ابن الكلبي: أنّ بلاد العرب خمسة أقسام: تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن، وأن السراة يحجز بين الغور (تهامة) وبين نجد وهو (ظاهر) فسمته العرب حجازاً. ونجد كل ما يقع إلى شرق هذا الجبل حتى

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني: دار الفكر للطباعة والنشر ط١-١٤٠٧هـ-١٩٨٦. ١٢/٣٣٨. وسيشار إليه بالأغاني

(٢) الأغاني: ١٦/٢٢٥ خبر حمزة بن بيض مع المهالبة.

العراق[1] فتهامة هي الناحية الجنوبية من الحجاز، ونجد هي الناحية التي بين الحجاز والعراق، والحجاز هي ما بين نجد وتهامة، وهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام، وسميّ حجازاً لحجزه بين نجد وتهامة وتشمل الحجاز: مكة، والمدينة واليمامة[2].

ويقع إقليم نجد إلى الشرق من الحجاز، ويمتد شمالاً حتى يصل إلى العراق والسماوة، والمقصود بها بادية العراق الجنوبية، ويشمل النطاق الرملي الممتد شمالاً، والمعروف باسم النفوذ الكبير الذي كان يطلق عليه قديماً اسم رملة عالج، وتتصل رمال الدهناء بالنفوذ الكبير من الجنوب الغربي، وتمتد جنوباً حتى تتصل برمال الربع الخالي أو رملة يبرين إلى الجنوب، وتتميز رمالها باللون الأحمر لوجود أكاسيد الحديد بها، وتشمل ديار طيء بجبليها أجا وسلمى وليس في هذه المنطقة أنهار جارية إنما فيها أودية تهبط فيها الأمطار، وتنمو حولها بعض الأعشاب الصالحة للرعي، فهي موطن البدو الرحل الذين يرعون الإبل والأغنام وينتقلون حول المراعي معتمدين على الغيث وينتجعون مساقطه، وإذا ما أجدبت صحراؤهم رحلوا إلى شرق العراق[3].

وكلما توغلنا في نجد توغلنا في البادية، وساد فيها النشاط الرعوي، وهذا لا يعني أبداً أنهم لم يعرفوا الزراعة. لقد سادت زراعة النخيل في الجَّحْفَة في ديار طيء، وكذلك خيبر كانت ذات نخيل وماء وزرع بينما تيماء كانت ممتار البادية. وامتازت الطائف بكثرة الشجر والثمر، وكانت مصطاف أثرياء قريش وأكثر ثمارها الزبيب[4]واشتهرت وهط الطائف بزراعة العنب، وكان لعمرو بن العاص

---

(١) الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع - دار اليمامة-الرياض: ١٩٧٤- ص٥٧.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ٢٩.

(٣) عبد الله الغنيم: جزيزة العرب من كتاب الممالك والمسالك (ابو عبيد البكري): ذات السلاسل ط١-١٩٧٧- ١٤٠.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ٤١/٤.

بستان للعنب بقرية الوهط يعرش على مليون خشبة[1] واشتهرت الطائف وخيبر وفدك وينبع ووادي القرى بالخصب، فانتشرت فيها الزراعة خصوصاً زراعة النخيل، ومع أن نجداً صحراوية إلا أنها عرفت بعض المواطن الخصبة فانتجت الحبوب والتمر واشتهرت اليمامة بحنطتها البيضاء، وتمرها اليمامي. لقد سيطر النشاط الزراعي على المدينة والطائف في حين كانت مكة مركزا لتجارة الجزيرة العربية، وكان الجار فرضة المدينة[2]، وجدة فرضة لأهل مكة، وكانت عامرة كثيرة التجارات والأموال. ولم يكن بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة منها فسيطر النشاط التجاري على مكة ومدن ساحل البحر الأحمر.

وبرز في كلٍ من نجد والحجاز معاً الاتجاه إلى الملكيات الزراعية، والرغبة في الاقطاعات، وحفظ الأزرقي صاحب أخبار مكة عدداً من الحوائط (البساتين) التي كان يملكها معاوية بن أبي سفيان في مكة وضواحيها منها: حائط الحمام وخيف الأرين، وحائط عوف، وحائط مورش، وحائط فرمان، وحائط مقيصرة وحائط حراء، وحائط ابن طارق، وحائط فخ، وحائط بلدح، وغيرها من الملكيات الأخرى في المدينة. وكان قد اشترى الغابة في المدينة من عبد الله بن جعفر بمليوني درهم[3].

وأقطع معاوية مروان بن الحكم قرية فَدَك[4] وكانت غلتها عهد عمر بن عبد العزيز عشرة الآف دينار. وأقطع مروان أيضاً أبا هريرة أرضاً بالعقيق[5]، وكان لعبد الملك ضياع كثيرة منها غرب وقد أقطعها كثير عزة وظهر بعض الاقطاعيين الكبار كعمرو بن العاص، وكانت له ضيعة الوَهْط في الطائف وبلغت غلتها عشرة الآف درهم سنوياً[6]، وكان لعبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان حائط في

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: تحقيق رشدي ملحس، دار الثقافة، مكة- ط٢، ١٩٦٥، ص٧٠.

(٢) معجم البلدان: الجار.

(٣) الزبير بن بكار: جمهرة نسب قريش: تحقيق محمد شاكر: القاهرة- ١٩٦١: ج١/٣٦٥.

(٤) فتوح البلدان: ج٤٥.

(٥) السمهودي : وفاء الوفاء بأخبار المصطفى- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ١٩٧٣ ٣/ ١٠٦٦.

(٦) الزبير بن بكار: جمهرة نسب قريش: ١٧٦.

العرج بالطائف، وكان العرجي من ورثته، و (العرصة) لسعيد بن العاص[١]، وكذلك ابناء الزبير وابناء علي بن أبي طالب، وإلى جانب الملكيات الكبيرة بدأت عمليات حفر الآبار، والإكثار من عيون الماء، ففي مزارع حمزة بن عبد الله بن الزبير بوادي الفُرع عينان غزيرتان، احداهما تسمى الرَّبْض، والأخرى النَّجْف، تسقيان عشرين ألف نخلة[٢] وكذلك عين أم العيال لجعفر بن طلحة وكانت تسقي أيضاً أكثر من عشرين ألف نخلة وقيل إن وادي ساية فيه أكثر من سبعين عيناً[٣]، وأشار الأزرقي إلى أن معاوية حفر عدداً من العيون في مكة، وأقيمت بعض السدود في مكة كسد معاوية، وسد (ساي سد) سنة ٥٨هـ[٤].

وعرفت نجد وبوادي الحجاز النشاط الرعوي، فامتلكت القبائل البدوية القطعان الكبيرة من الإبل والخيل والأغنام، وانتقل بها الرعاة في البوادي بحثاً عن المراعي الخصبة، وطلبوا مساقط الغيث، وكانوا كثيري الحركة لا يستقرون، ويروى أن بني عامر كانوا يتصيفون الطائف لطيب ثمارها ويتشتون بلادهم من أرض نجد لسعتها وكثرة مراعيها[٥] وتولى رعاية الإبل بعض رعاة القبيلة.

ولم تقم علاقات الدولة مع البداة على استعمال العملة النقدية إنما استعملت الإبلة والخيل والمواشي في العطاء والرفد، ويروى أن دُكينْ الراجز مدح عمر بن عبد العزيز إبّان ولايته على المدينة فأمر له بخمس عشرة ناقة[٦]. وأعطى معاوية ليلى الأخيلية خمسين من الإبل[٧]. ورفض ابن ميادة التعامل بالعملة النقدية وفضل الإبل[٨] وأعطى هشام نُصَيب الشاعر عشرة من الإبل[٩].

---

(١) الزبير بن بكار: جمهرة نسب قريش: ٥٢.

(٢) البكري: معجم ما استعجم، ٨١١/٣.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ٢٤٧.

(٤) السمهودي: وفاء الوفاء، ١٠٤٤/٣- ١٠٧٢ وانظر عبد الله السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز، ص٥٠

(٥) البكري: معجم ما استعجم، ٧٧/١.

(٦) ابن قتيبة الشعر والشعراء: تحقيق احمد شاكر: دار التراث العربي-ا لقاهر- ط٣- ١٩٧٧.

(٧) الاغاني: ٢٤٥/١١.

(٨) الاغاني: ٣٠٤/٢.

(٩) الاغاني: ٢٣٥/١.

ويروى أيضاً أن عبد الله بن صفوان بن أمية أهدى معاوية بن أبي سفيان لما حج ألفي شاة[١] واهتم بعضهم بتملك المال فكان لإبراهيم بن هشام المخزومي في حمى ضريّة من كل لون من ألوان الإبل ألف بعير[٢]. وأمر الوليد بن يزيد لابن ميادة بمائة من الإبل من صدقات كلب[٣] ولما مدح نصيب عبد الله بن جعفر أهدى إليه خيلاً وإبلاً[٤]، وكان جبيهاء الأشجعي الشاعر يربي الإبل في الحجاز[٥] وكان ليزيد بن الطثرية وأخيه ثور إبل كثيرة[٦]. وكان عروة بن أُذينةَ نازلاً في العقيق وعنده أغنام يتولى رعايتها راعٍ اسمه كعب[٧]، واستخدم الرقيق في رعي الماشية، وكان بعضهم يشرف بنفسه على إبله ورعايتها كالراعي النميري، ورؤبة بن العجاج ونصيب الشاعر، وذي الرّمة[٨].

وازدهرت التجارة، واعتنى الأمويون بها أيما اهتمام، وأسسوا لها الموانئ، واصلحوها، واعتنوا بالطرق البرية الداخلية بين مدن الحجاز ونجد لا سيما البحرين واليمامة. وعرفت نجد والحجاز التصدير والتوريد، فطارت شهرة السهام اليثربية. وكذلك كانت البحرين مسؤولة عن تصدير الميرة إلى الحجاز، واستغلتها بعض الفتن إذ قطعت النجدية توريد الميرة أيام تأزم الموقف بين الزبيرية والنجدية، وتدخل ابن عباس، فوافق نجدة على إرسالها للحجاز[٩].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية: مكتبة المعارف، بيروت والنصر، الرياض، ط١، ١٩٦٦، ٨/٢٢٥.

(٢) السمهودي: وفاء الوفاء، ٣/١٠٩٤.

(٣) الاغاني: ٢/٣٠٦.

(٤) المبرد: الكامل في اللغة والأدب: تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاته - دار نهضة مصر: القاهرة: ١/١٦٧ /١٠/٢٢٨-٢٣٠.

(٥) الاغاني: ١٨/ ١٠٢. انظر الاغاني: ١٨/ ١٠٠، شاعر بدوي من مخاليف الحجاز نشأ وتوفي في أيم بني أمية، وليس ممن انتجع الخلفاء بشعره ومدحهم فاشتهر وهو مقل، وليس من معدودي الفحول.

(٦) الاغاني: ٨/١٧٧.

(٧) الاغاني: ١٨/٢٣٤-٢٣٥.

(٨) البغدادي، خزانة الادب ولب لباب لسان العرب: تحقيق عبد السلام هارون- الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٩: ٢/٤٠، والاغاني: ١/٣٣١.

(٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ- دار بيروت- ودار صادر- ١٩٦٥- ص ٣/ ٣٥٢.

وذكر ابن الفقيه أن العراق كانت تصدر إلى نجد والحجاز الوشي والخز والفواكه والحديد[١] وفي عهد سليمان بن عبد الملك عمل الوشي الجيد في اليمن والكوفة والاسكندرية، وطارت شهرة الخمر السود التي تغنى بها الشاعر الدارمي[٢]، وظلت مصر تورد إلى الحجاز القمح والحبوب[٣]، وظل التجار الحجازيون يترددون على الشام كسابق عهدهم. ووصل تجارهم إلى الهند، واستوردوا التوابل والياقوت والألماس[٤] واستوردت من بلاد فارس الحديد والفضة والكبريت والمرايا والمنسوجات الرازية والمروية والقوهية وغيرها[٥].

وازدهرت حركة النقد في الأسواق نتيجة ورود بعض الألبسة والعطور الغالية القيمة، وأقبل الناس على شرائها، وشراء الجواري، وازداد الطلب على الرقيق لاستخدامهم في زراعاتهم أو تجاراتهم، واشترى عبد الله بن جعفر جارية من مكة بأربعين ألف درهم[٦].

وبعد أن تدفقت الأموال إلى نجد والحجاز اشتدّ الطلب على بعض الصناعات والحرف، فوجد بعض الناس أن السوق لديهم مفتوح، فشاعت بعض الصناعات اليدوية، واستخراج المعادن كالذهب[٧] وكان في حليّت والحفير، وحجر المِسَنْ في جبل رضوى، وكذلك صناعة السيوف والصياغة التي برع فيها اليهود، وصناعة الجلود وغيرها. وصناعة الصباغة والنسيج[٨] وكان لمعن بن عيسى بعض الرقيق

---

(١) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان- ليدن- ١٣٠٢هـ- ص ٢٥٢.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر: دار الأندلس للطباعة والنشر- بيروت، ٧/٤.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب: تحقيق عبد المنعم عامر- لجنة البيان العربي: ٢٢٠.

(٤) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ٢٥١: عبد الله السيف: الحياة الإقتصادية والإجتماعية في نجد والحجاز، ١٢٥.

(٥) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان،٢٥٤. الرازية نسبة إلى مدينة الري والمروية نسبة إلى مرو، والقوهية: نسبة إلى قوهستان.

(٦) الاغاني:: ١٧/١٧٥.

(٧) تاريخ الطبري ٣١٨/٧ وانظر: الهمداني: صفة جزيرة العرب، ٢٢٩ و٤٠٣.

(٨) ابن سعد/ الطبقات الكبرى دار صادر- بيروت: د.ت. ٢٢٤/٥.

الذين يزاولون مهنة النساجة[1] ويلاحظ أن النظام الحرفي والصناعي كان يتولاه الرقيق.

وخلاصة الأمر أن نجدا سيطر عليها النشاط الرعوي بحكم بيئتها وتكوينها، في حين أن الحجاز ساد فيها النشاطان الزراعي والتجاري، وكان الأخير أكثر بروزاً. وقامت مكة بدور مهم بحكم موقعها على طريق القوافل التجارية مما ساعد في تطور المجتمع الحجازي عامة، والمكي خاصة، وبالتالي ظهرت فئة ارستقراطية في الحجاز لا سيما فئة القرشيين، وتميزوا بقدرتهم التجارية، وحسن تعاملهم مع المادة، خاصة بعد الفتوحات، وفي جاهليتهم أنشأوا لذلك الغرض الأسواق الموسمية كعكاظ والمجنة وذي المجاز ودومة الجندل وغيرها، تعرض فيه المنتوجات العربية والواردات المجلوبة من المشرق والمغرب.

وكون الحجاز العاصمة الأولى للدولة الإسلامية فقد تدفق عليه الرقيق بكل خبراتهم الفنية والعلمية، وازدهرت حركة الجواري، وأقبل الناس على شرائها. ونتيجة لتدفق الأموال في الفتوح الأولى إلى حجر الصحابة وأبنائهم، برز الاتجاه إلى الرفاهية وعاشه الحجازيون عامة والقرشيون خاصة، فسنحت الفرصة أمام الجواري المتحضرة التي حوت خبرات فارس وروما وغيرها أن تؤسس مدرسة الغناء العربي، وتبعاً لذلك ظهر الشعر الذي يخدم هذا الاتجاه فكان الشعر اللاهي ولا بد أنه قد ظهر بفعل ثورة اقتصادية.

ولم نجد شعر التكسب يسيطر على الشعراء الحجازيين، وإن كان فإنهم كانوا يتكسبون من الأجواد، أو بعض الولاة، لتوافر الغنى لديهم، ولكنهم اتجهوا إلى الشعر الغزلي والغناء.

ثانياً: الفتوح

لعل الفتوح من أهم العوامل التي أثرت في الاقتصاد الأموي وطوّرته، وكانت من أهم عوامل الاستقرار والرقي، ولا ننسى أن الفتوح التي كانت تحمل طابع الجهاد المقدّس، لم تخلُ من أهداف اقتصادية ولا غرو في ذلك فنظام الحروب عند كل

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣٢٤/٥.

الأمم، وفي كل العصور لا سيما العصور الأولى للتاريخ الإنساني، والعصور الاقطاعية، يقوم على السيطرة على المقدرات الاقتصادية المستهدفة للأمم المغلوبة، أرضاً كانت أم عقاراً، وعلى هذه الشاكلة كان النظام الحربي الإسلامي: «أسرى وسبي وأرضين وأموال، فالإمام مخير إن أقاموا على كفرهم إما قتلاً، وإما استرقاقاً وإما فداءً بمال»(١).

ومما يميز النظام الحربي الإسلامي تجنب التخريب والابتعاد عن إحراق الثمر والنخيل، وقتل القائمين عليها، وعدم هدم المرافق الحضارية لأنها ستؤول في النهاية إلى الفاتحين، وهذا ما لحظناه في وصايا الرسول- صلى الله عليه وسلم- وخلفائه من بعده، وقال عمر بن الخطاب: «اتقوا الله في الفلاحين لا تقتلوهم إلا أن ينصبوا لكم الحرب»(٢).وكانوا لا يقتلون تجار المشركين وقال عمر بن عبد العزيز: «لا تقتلوا راهباً ولا أكّاراً»(٣).

وتنبه الخلفاء إلى قيمة الغنائم وما لها من دور في عجلة الجهاد، فرغّب أبو بكر جميع العرب بنجد يستنفرهم للجهاد، ويرغبهم في غنائم الروم، فسار الناس إليه من بين محتسب وطامع(٤). وتداعى البدو من نجد واليمن إلى الخليفة، يطالبون الاشتراك في الفتوح، وكانوا يتخيرون المواطن التي يجيدون القتال فيها، وكثر عددهم حتى فرض لهم في العطاء، ولما تثاقل الجند عن التوجه إلى العراق رغبهم في غنائمها وإن غنائم كسرى لا تقل عن غنائم قيصر والشام، وقدم على عمر خلق من الأزد يريدون الشام فدعاهم إلى العراق ورغبهم في غنائم آل كسرى، فردوا الاختيار إليه، فأمرهم بالشخوص، وقدم جرير بن عبد الله البَجَليّ من السّراة ببجيلة فسأل أن يأتي العراق على أن يعطى وقومه ربع ما غلبوا عليه فأجابه عمر إلى ذلك(٥).

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية: دار الكتب العلمية -بيروت- ط١- ١٩٨٥: ص١٦٧.

(٢) يحيى بن آدم القرشي: الخراج: تصحيح أحمد محمد شاكر: المطبعة السلفية: ٤٨- ٤٩.

(٣) قدامه: الخراج وصنعة الكتابة تحقيق محمد حسين الزبيدي: دار الرشيد بغداد-١٩٨١- ص٢٨٤. أكار: المزارع، أكر الأرض: حرثها وزرعها.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية: تحقيق طه عبد الرؤوف سعد: دار الجيل: ٤/ ٢٠.

(٥) فتوح البلدان: ٢٥٣. انظر: قدامة بن جعفر: ٣٥٨، ٣٦٤.

فاشتراط جرير لا يخلو من رغبة بغنائم العراق، وأن صفوف المحاربين في الفتوح لم تخل من نظرة اقتصادية البتة. وهذا ما سنلحظه عند نهار بن توسعة يرثي المهلّب بن أبي صفرة قائد الجيوش في خراسان من قوله:

ألا ذهب الغزو المقرِّبُ للغنى — ومات الندى والجودُ بعد المهلّبِ[1]

فصور الفتح غزواً، بخيراته يسعى به إلى مصاف الطبقة المترفة النبيلة وبالغزو يطلق حياة الفقر، ويحقق ذلك.

والغنيمة ما غنمه المسلمون من أرض العنوة فلهم أربعة أخماسها كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم بخيبر، فتباح أموالها للفاتحين، وكذلك أراضيها وعبيدها، وآية الغنيمة:

«واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء، فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل»[2].

وفي أخبار الفتوح الأولى للشام والعراق ومصر وخراسان، كان المسلمون يضعون رماحهم في منازل أعدائهم، ويسلبونهم، السبي فكان الجند يتنازل عنه أحياناً لأنه يكلّفهم عنت الإنفاق عليهم. وبعضهم كان يبيعه وما يفضل كان يجلب إلى دار الإمارة في دمشق وتتوزعه الأسر القادرة عليه، وتبعث سيول منه إلى الجزيرة العربية. فالغنيمة كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لمن شهد الوقيعة)[3] وتقسمُ الغنائم بعد سلب القتلى، ويجوز قسمتها في دار الحرب، ويجوز تأخيرها أيضا، فأقيمت أسواق الرقيق لا سيما أسواق العراق، وإذا كانت الجنود تقنع بالسَّلب والعطاء والرزق، وتتنازل أحياناً عن الرقيق، فهناك من تنبه إلى ما هو أكثر أهمية، وكان بعيد النظر في رؤيته هذه وهي حيازة الأرضين وطلب الإقطاع بصوره المختلفة. ويروي ابن الجوزي في المنتظم أن عبد الملك كتب إلى عبد الله بن خازم السُّلَمي يدعوه إلى بيعته، ويطعمه خراسان سبع سنين[4].

(١) تاريخ الطبري: ٦/٥٥م. المسعودي: التنبيه والاشراف: دار التراث العربي، بيروت، ١٩٦٨، ٢٧٨.

(٢) القرآن الكريم: سورة الأنفال: ٤٠.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية -دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٩٨٥: ص١٧٨.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: دراسة محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢. ج٦/٢١.

ويزيد الطبري: أنه بعث عبد الملك إلى ابن خازم سنانَ بنَ مكحّلٍ الغنوي وكتب إليه (أن خراسان طعمة لك)[1] وكان معاوية من قبل قد رغّب عمرو بن العاص بمصر، وكانت مصر قد جعلت له طعمة بعد عطاء جندها، والنفقة على مصلحتها[2].

والنظرة في تاريخ خراسان وبلاد ما وراء النهر تدرك سرَّ ذلك النزاع بين الولاة، وكثرة قيام المتمردين بثورات على ولاة الأمر، واستيلائهم على خراج الأرضين هناك. وإن كان الأمر لا يخلو من عصبية قبلية فإنه لم يخل من تنبه المتمردين إلى أهمية المنصب القيادي، وإثراء صاحبه وحاشيته على مقدرات مالية، قد تكون بالتوسع بالفتوح، أو الهدايا أو فرض ضرائب إضافية، كالمهرجان والنيروز والسخرة والهدايا وغيرها.

وجهد الأشراف جداً في أن تسند إليهم مهمة الفتوح لا سيما خراسان لما فيها من خيرات عظيمة، فهذا أمية والي خراسان يقول فيها:

«ما أكتفي بخراسان وسجستان لمطبخي»[3].

وقد تكون خراسان التي أسالت لعاب أشراف العرب في تهالكهم على الفتوح فافنت كثيراً منهم هي التي كانت وراء رفض يزيد بن المهلب منصب والي العراق لأنه لا يستطيع أن يحصِّل فيها أموالاً كالتي يستطيعها في خراسان فاستعفى فأعفي، وأُعيد ثانية إلى خراسان فرفضه العراق يعني أنه أدرك الجدوى الاقتصادية لولاية خراسان، وفرق ما بين المنطقتين[4].

وذكر الطبري خبراً مؤداه أن غنائم المفضل بن المهلب وجنده في باذغيس أن أصاب كل رجل منهم ثمانمائة درهم، ولم يكن له بيت مال، فكان يعطي الناس كلما جاءه شيء. وإذا كانت الأمور المالية لا تقيد، ولا يخبر بغنائمها الخليفة في دمشق

---

(١) تاريخ الطبري: ١٧٦/٦.

(٢) الكندي: الولاة وكتاب القضاة: صححه رفَن كَسّت، مكتبة المثنى -بغداد- ص٣١.

(٣) تاريخ الطبري: ٣١٦/٦.

(٤) تاريخ الطبري: ٥٢٣/٦.

فإن ذلك يجعلنا نتساءل لم ظهر هذا اللون من السيطرة على المقدرات الاقتصادية في منطقة الفتوح، بشكل يحتاج إلى من يحاسبه محاسبة دقيقة، كما حاسب الصحابة عمر بن الخطاب يوماً على حُلل اليمن ودهش الولاة الفاتحون من كثرة الأموال التي كانت تدرها قرى البلاد المفتوحة، كما حصل من عبد الله بن عامر بن كريز عندما أرسل الربيع بن زياد الحارثي إلى زالق، فافتتحها عنوة، وسبى منها عشرة آلاف رأس، وأصاب مملوكاً لدهقان زرنج، وقد جمع ثلاثمائة ألف درهم يحملها إلى مولاه، فقال له: ما هذه الأموال؟ فقال: من غلة قرى مولاي، فقال الربيع: آلهُ مثل هذا في كل عام؟ قال: نعم[1].

فدهشة الولاة من كثرة الأموال لا تخلو من تحوّلات نحو الاتجاه المادي الذي لم يكونوا يعرفونه إلا قليلا من جهة. ومن جهة أخرى فكثرة الأموال في البلاد المفتوحة قد تكون حافزاً قوياً للفاتحين للإصرار على التوسع في الفتوح، وهم يتذكرون فقر الجزيرة العربية وأكنافها وما فيها من جوع وإقلال، وتعب شديد في تحصيل القوت، وقد عبر عنه بعض الشعراء في قصائدهم كما سنرى في فصل الفتوح.

ومنْ إغراءات الفتوح كثرة الأموال التي تتحصل في جيوب الولاة من الهدايا التي كانت تقدم من الأمراء والدهاقين، أباريق وصحاف ذهب وفضة، وديباج مروي وقوهيٍ وهروي وغيرها[2]. حتى دعا الأمر عمر بن عبد العزيز إلى إصدار قرار يقضي بإلغاء هدايا أعياد النوروز والمهرجان[3].

أما ما يخص الفاتحين ولاة وجندا فنظام العطاء، وأول فرض للعطاء كان أيام الخليفة عمر بن الخطاب، واستند فيه إلى دعامتين: درجة القربى من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ودرجة الاسبقية للإسلام وبشهود المواقع الأولى. وفي الحالة الأولى بدأ بعائشة -أحب زوجات الرسول إليه ففرض لها في اثني عشر ألفاً،

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، دار صادر بيروت، (د.ت): ١٢٧/٣ (زالق).

(٢) الطبري: ١٣٩/٧.

(٣) الطبري: ٥٦٩/٦، تاريخ اليعقوبي: ٥٤/٣.

وسائر أزواجه صلى الله عليه وسلم في عشرة الآف، ثم لعلي بن أبي طالب خمسة الآف، ثم لمن شهد بدراً من بني هاشم[١].

ويروي أبو عبيد القاسم بن سلام أن عمر أول ما فرض الأعطية فرض لأهل بدر من المهاجرين والأنصار ستة آلاف ستة آلاف، ويروى عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب فرض لأهل بدر المهاجرين من العرب والموالي خمسة آلاف، وللأنصار ومواليهم أربعة آلاف أربعة آلاف[٢]. ومما يتبع العطاء نظام الرزق، فاعطى كلاً من المقاتلة جريبين من الحنطة شهرياً رزقاً، وقدَّر ذلك على أساس مقدار حاجة الفرد للاستهلاك الشهري[٣]. ولكثرة الضغط على الدولة الأموية أنقص سعيد بن العاص الجريب من ثمانية أرطال إلى خمسة أرطال ونصف، فشكاه الناس، وقال أحد الشعراء:

يا ويلتنا قد عُزِلَ الوليدُ وجاءنا مجوّعاً سعيدُ

ينقصُ في الصاعِ ولا يزيدُ فَجُوِّعَ الإماءُ والعبيدُ[٤]

وبنى زياد بن أبيه دار الرزق لتخزن الحنطة فيها، ويأتي الناس لأخذ أرزاقهم منها، وكان زياد يكثر من تفقدها[٥].

وتعرض العطاء كما تعرض الرزق للنقص، وأضحى يشكل أزمة اقتصادية تتهدد الدولة لا بد من معالجتها قبل أن تستفحل، فأنقص معاوية شرف العطاء من ألفين وخمسمائة درهم إلى ألفي درهم ولعله اتخذ هذا التدبير لارتفاع سعر الفضة، وازدياد قيمة الدرهم بالنسبة للدينار[٦] ولمّا كان شرف العطاء الذي يدفع

---

(١) الأموال: ٣٢٠.

(٢) الأموال: ٣٢٥.

(٣) الاموال: ٢٤٦، فتوح البلدان: ٤٦.

(٤) صالح العلي- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، في البصرة: في القرن الأول الهجري: دار الطليعة بيروت - ط٢- ١٩٦٩ ١٦٨.

(٥) أنساب الإشراف: البلاذري: تحقيق احسان عباس، بيروت، فيستبادن شتاير، ١٩٧٩. ج٤ / ق١/١٨١، ١٨٦.

(٦) صالح العلي- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية: في البصرة: ١٥٢.

في الأصل لأهل الأيام والفتوح الأولى تقديراً لهم لمساهمتهم في تلك الحروب الخطيرة الأولى، وأن شرف العطاء لا يورث فإن الخلفاء فيما بعد كانوا يضيفون بين آونة وأخرى أسماء تحل محل المتوفين. وأما مقدار العطاء فكان يختلف حسب صنف المقاتلة، ويتدرج من مائتي درهم فثلاثمائة فاربعمائة فخمسمائة فسبعمائة فألف، فألف وخمسمائة درهم[١].

ونفهم مما سبق أن العطاء أولاً وأخيراً كان لا يُقدم إلا لمن يؤدي شرف الخدمة العسكرية، وكان عطاءُ هشام بن عبد الملك إلى مولى له كان يقوم مقامه في الحرب[٢] وكان هشام دقيقاً جداً في فرض العطاء وقليل المحاباه، يرفض زيادة في عطاء مولى له كان قد طلب منه زيادة عشرة دنانير في العطاء لأنه أحسن في تعمير أرض هشام، فرفض الأخير قائلاً: (ما يخيل إلى أحدكم أن عشرة دنانير في العطاء إلا بقدر الجوز[٣]، لا لعمري لا أفعل»[٤]. ولدقته مدحه عبد الله بن علي بن عباس فقال جمعت دواوين بني مروان فلم أر ديواناً أصحّ ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام[٥]وظل العطاء خاصاً بالمقاتلة فقط ولذا كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن الحُصين:

«أن مرْ للجند بالفريضة، وعليك بأهل الحاضرة، وإياك والأعراب، فإنهم لا يحضرون محاضر المسلمين، ولا يشهدون مشاهدهم»[٦].

حرم الأعراب من حق العطاء لأنهم لم يشاركوا في شرف الفتح، ولعل الفتوح كان لها دور كبير في مشاركة الناس بالجهاد للحصول على العطاء.

---

(١) صالح العلي- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة: ١٥٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٠٢/٧ ويسمى المجاعلة.

(٣) ڤالترهنتس المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ترجمة كامل العسلي منشورات الجامعة الأردنية، ص ٢٢ الجوزة العادية تزن ٧ مثاقيل وتزن ٢٩،٧٥غم.

(٤) تاريخ الطبري: ٢٠٣/٧.

(٥) تاريخ الطبري: ٢٣٠/٧.

(٦) الأموال: ٣٢٥.

وترتبت على الفتوح ظاهرة حضارية مهمة، فبعض من القبائل التي شاركت في الفتح اتجهت إلى حياة الاستقرار، وتركت الرعي والغزو والتنقل بحثاً عن الماء والكلأ. واعتمدت على دخل ثابت هو العطاء والرزق. وهذه الخطوة الأولى من خطى تبدل الحياة العربية بفعل الفتوح إلى الاستقرار بدلاً من طول الترحال. والشيء البدهي هنا ألاّ ننكر أنه بعد توقف حركة الفتح، واقتناع الجند بالغنائم، وتبذيرها بسرعة بعد طول حرمان، واعتمادها على العطاء والرزق فقط، جعلها تحسّ بمدى الفجوة التي حصلت بينهم وبين عرب المدن، وخاصة أثرياؤها، أثرياء مكة التجار الذين استفادوا من حركة الفتح بالعمل على زيادة ملكياتهم الزراعية والتجارية أيضاً -كما سنرى في أشعار الشعراء- بعد أن انتقلت الحركة الاقتصادية من الحجاز إلى الأمصار الأخرى، الشام والعراق[١] وهذه التطورات زادت في حدة التباين بين رجال القبائل وأهل المدن القدماء، وأكسبته حدة، ظهرت آثارها جلية في الفتنة الأولى[٢].

ولا اخال أننا مغالون إذا قلنا: إن العصبية القبلية التي اشتدت أُوارها في العصر الأموي خاصة في العراق وخراسان والجزيرة الفراتية كانت لا تخلو من صراع اقتصادي بينهم بديلاً عن الغزو القبليّ على المراعي والحمى، وهذا ما جعل قبائل بكر ترفض استئثار ابن خازم بالأمر دونهم فقالوا: (علام يأكل هؤلاء خراسان دوننا)[٣].

ويكاد الأمر يكون نفسه بين قيس وتغلب في الجزيرة الفراتية فكانت الأخيرة تسكن أصلاً هناك حيث ديارهم، ولما نزلت قيس الجزيرة قاسمتهم أرضهم ومعاشهم ومراعيهم وأموالهم، فنشبت الحروب بينهما.

ونشطت الفتوح حركة التجارة لا سيما تجارة الرقيق، وكان لكل سبي مواصفاته، وكذلك أسعاره، وكثر الإقبال على الوصائف الرومية، وفي أخبار

---

(١) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي: دار الطليعة- بيروت- ط٢ - ١٩٨٠/ص١٨، ١٩.

(٢) عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام: دار المشرق - بيروت- ط٣- ١٩٨٤، ص٨١.

(٣) احسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي: دار الفكر - ط٢- ١٩٧٢: ص ٢٦٨.

الفتوح كانت تذكر مواصفات السبي: (سود الشعور والحواجب، هدب الأشعار)[١] ووصف نصيب الشاعر وصائف البربر التي قدم بها حسان بن النعمان على عبد العزيز بن مروان فقال: «حضرت السبي الذي كان عبد العزيز أخذه من حسان مائتي جارية منها ما يقام بألف دينار»[٢]. وكذلك كثر الاقبال على شراء رقيق النوبة[٣].

ورافقت حركة التجارة الفتوح، فقام بعض الموالي بتزويد الجيوش بالتموين، وبعضهم كان يشتري منهم غنائمهم سواء كانت مواد عينية أم ذهباً أم نقداً أم رقيقاً. ويبادلونهم بها ما يشاؤون[٤].

وفيما بعد بدأ العرب يشاركون بتزايد تدريجي في التجارة نتيجة تجديد أعداد المقاتلة المسجلين في ديوان الجند، وبقاء أعداد كبيرة من العرب خارج الديوان دون عطاء، والتجارة والتجار مع الاستقرار[٥].

ويبدو أن الخلفاء بهدف التشجيع على الفتوح واستمرار الجهاد أحياناً كانوا لا يضيقون على قائد الجيش بأن يكتب إليه مقدار الغنائم، وهذا ما جعلهم يرون أنهم أحق به من الخليفة. وتنبه المغيرة بنُ قُرَّة مولى بني سدوس كاتبُ يزيدَ بن المهلب عندما كتب رسالة إلى سليمان بن عبد الملك يخبر فيها مقدار الغنيمة فقال له:

«لا تكتب بتسمية مال، فإنك من ذلك بين أمرين، إما استكثره فأمرك بحمله، وإما سخت نفسه لك به فسوّغكه، فتكلفت الهدية، فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقبله، فكأني بك قد استغرقت ما سميت، ولم يقع منه موقعاً، ويبقى المال الذي سميت مخلداً عندهم عليك في دواوينهم، فإن ولي والٍ بعده أخذك به وإن ولي من

---

(١) فتوح البلدان: ٢١٠.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب: تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي (د. ت). ٢٢٩، ٢٥٣، ٢٧٢.

(٣) المصدر نفسه: ٢٧٢.

(٤) جمال جودة: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي: دار البشير: عمان- ١٩٨٩: ص١١٢، ١١٣.

(٥) عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية والوعي). مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٨٤- ص٤٢.

يتحامل عليك لم يرض منك بأضعافه فلا تمض كتابك ولكن اكتب بالفتح سله القدوم فتشافهه كما أحببت مشافهة، فأبى يزيد وأمضى»[١].

وما حدسه المغيرة حدث فعلاً فأغرمه عمر بن عبد العزيز الأموال وطالبه بها[٢]. وكانت بعض المواطن كأصبهان مورداً اقتصادياً مثيراً لكثير من الأشراف ومدهشاً لعبد الملك روى البلاذري: أن جماعة كتبت إلى عبد الملك يستعجلونه على نصرتهم إياه، وانحرافهم عن المصعب ولاية أصبهان، فكان يسأل عنها ويقول: ما أصبهان هذه؟ أتنبت الذهب والفضة، لقد كتب إليَّ فيها أربعون كتاباً[٣].

وللفتوح دور مهم في إبراز البيئات الاقتصادية محطّ أنظار أشراف القبائل والنابهين، فدخلوها فاتحين مقاتلين أو ساكنين مستقرين، ففي المرحلة الأولى توجهت أنظار الفاتحين الحجازيين والنجديين واليمنيين إلى الشام والعراق. فافرزت لنا فئة الارستقراطيين الفاتحين، أو الرأسماليين التجار. ومن ثم اتجهوا إلى العمران فمصَّرت الكوفة والبصرة وواسط في العراق، والرصافة في الجزيرة الفراتية واللدّ والرملة في الشام فاستقروا في المدن، واتجهوا نحو الانتاج المستقر المتطور.

وفي المرحلة الثانية قام العرب المستقرون في كل من المناطق المفتوحة في مصر والشام والعراق وخراسان بالتوسع في دائرة الفتح، وازدادت شهيتهم لإضافة موارد اقتصادية جديدة للدولة، ولأنفسهم. وهذه المرحلة لم تشهد حركة انتقال ضخمة لاسر الجند كما حدث في مرحلة الفتوح الأولى إنما كاد الأمر يقتصر على جلب الغنائم، وشغل المناصب، ولذا لم نجد حركة استقرار وطمأنينة في الفتوح المتأخرة فظلت الأمور بين كرٍ وفرٍ فيما عدا خراسان التي شهدت استقرار بعض قبائل قيس وبكر فعادت العصبية بينهم جذعة.

---

(١) تاريخ الطبري: ٦/٥٢٤-٥٢٥.

(٢) التنبيه والإشراف: المسعودي: دار التراث العربي- بيروت- ١٩٦٨، ٢٧٧.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف: مكتبة المثنى - بغداد د.ت: ٥/٣٣٧.

لم تشكل الفتوح مصدر إغراء اقتصادي للجند الفاتحين فحسب إنما كانت أكثر إغراء الدولة في دمشق، أو لولاة العراق ومصر المسؤولين عن تسيير جيوش الفتوح خصوصاً الحجاج الذي تعوّد أن يرضي دمشق وحكامها بكثرة ما تدر الفتوحات عليه من أموال. ونستشف هذه الصورة من كثرة النفقات التي كان يتكلفها الحجاج في تسيير الفتوح إلى كابل وسجستان والهند بدءاً من عدة الحرب، السيف والرمح والفرس، وانتهاء بالخيوط والمسّال والماء. فتكاليف فتح السند تحت إمرة محمد بن القاسم كلفته ستين مليوناً. ولما انتصر ابن القاسم قال الحجاج: الحمد لله الذي أدركنا عدوّنا واشفينا غيظنا وازددنا ستين ألف ألف درهم، ورأس داهر »[1].

وإذا حرصت الحكومة بشخص الخليفة على زيادة مدخرات بيت المال والسعي لتطوير الدولة والارتفاع بها، فقد كان حريصاً أيضاً على الاطمئنان على ما يدخل جيبه لتحسين موقفه أمام معارضيه، واشترائهم بالأموال والصوافي. وتعودهم على كثرة الإنفاق، واستمرار تدفق الأموال إلى جيوبهم جعلهم أكثر جشعاً في الحصول عليها، فكانوا أحياناً لا يقدرون للفاتحين جهودهم في رفع راية الإسلام وتوسيع حدود الدولة وزيادة رقعتها. فإذا غضب على الفاتح غرّمه بقدر ما كان يكتب إليه من الغنائم كما صنع بمحمد بن القاسم، وموسى بن نصير ويزيد بن المهلب وغيرهم «وسخط سليمان على موسى بن نصير اللخمي العامل على افريقية والذي افتتح الاندلس وما والاها، واستصفى سليمان ماله، وأخذه بمائة ألف دينار...»[2]وفي رواية أخرى: (أن سليمان أخذ موسى بن نصير فغرم له مائة ألف دينار وألزمه ذلك، وأخذ ما كان له، فاستجار بيزيد بن المهلب، فاستوهبه من سليمان فوهبه له وماله ورد ذلك عليه ولم يلزمه شيئاً)[3]. ولم يكن الأمر خاصاً بالخلفاء إنما تجاوزه إلى الولاة فخوف يوسف بن عمر خالداً القسري وعماله

---

(١) فتوح البلدان: ٤٢٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٣/٤٢-٤٣.

(٣) فتوح مصر والمغرب، ٢٨٧. انظر الطبري: ٦/٣٢٠-٣٢١، ٧/٢٥٩-٢٦٠ والدينوي في الاخبار الطوال: تحقيق عبد المنعم عامر: مكتبة المثنى. بغداد/ص٢٤٧. انظر فتوح البلدان: ١٦٤-١٦٦.

ووظف عليهم الأموال وعذبهم .. فوظف على أبان بن الوليد البجليّ عشرة آلاف ألف، ووظف على طارق بن أبي زياد عامل فارس عشرين ألف ألف درهم، ووظف على الزبير عامل أصبهان والري وقومتين عشرين ألف ألف درهم وعلى غيرهم ما دون ذلك[١].

ومن جهة أخرى حرصت الدولة على إبراز الجانب الاقتصادي للفتوح وذلك لهدف سياسي هو توسيع رقعة الدولة الإسلامية، وهدف ديني هو نشر المبادئ السامية لرسالة الإسلام، فكانت تطمع الفاتحين بالإقطاع والغنيمة، فشملت طعمة خراج المنطقة كما مرّ معنا. ولغايات الفتح أقطع الجند وعائلاتهم في السواحل المواجهة لخطر الروم، ولم يتوقف الأمر على الجند المسلمين فحسب إنما تجاوزهم إلى الجراجمة وغيرهم من غير المسلمين الذين انضموا إلى جانب الجند المسلمين، فأقطعهم الخليفة في السواحل، وكذلك قاسمهم الغنائم. ولكن هذا الصنيع من الخليفة وقائده يعتبر سابقة محترمة في استغلال الاقتصاد لتوطيد دعائم الدولة الجديدة. وامتصاص العداوة السياسية والدينية من قلوب النصارى كي لا يتعاونوا مع الروم خاصة في سواحل لبنان، ويجعلون انتماءهم إلى الدرهم والدينار لا إلى الدين، وليفضلوا مصلحتهم الشخصية على المصلحة الدينية، ما دام انتماؤهم إلى البيزنطيين لا يقدم لهم أدنى فائدة، بل على العكس من ذلك يجعلهم عرضة لهجمات المسلمين.

ثالثاً: الأنظمة الاقتصادية

١- نظام الزراعة

نتلمس مشكلة ملكية الأراضي من عهود الصلح وأخبار الفتوح، وتضارب آراء الفقهاء، فيما إذا كانت الأراضي فتحت عنوة أو صلحاً وفي ضوء ذلك نستنتج دور ملكية الأراضي في نشوء مجتمع زراعي. وقبل أن نغرق في تفاصيل ذلك لا بد من معرفة الفرق بين أرض العنوة وأرض الصلح لندرك أثره في الإنتاج الزراعي.

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٧٢/٣.

وذكر قدامةُ بن جعفر عن يحيى بن آدم: إنما أرض الخراج ما كان صلحاً على الخراج يؤدونه إلى المسلمين[1] وأرض العنوة ما أوجف عليه المسلمون بخيل فتحت بالحرب دون صلح. واختلف المسلمون في أرض العنوة، فقال بعضهم تُخمّس ثم تقسم الأربعة الأخماس بين الذي افتتحوها[2].

وجعل بعضهم الأمر إلى الإمام، إما أن يجعلها غنيمة بعد تخميسها، وإما أن يجعلها فيئاً فلا يخمسها ولا يقسمها، بل تكون موقوفة على كافة المسلمين كما فعل عمر بأرض السواد وأرض مصر[3]. والغنيمة، فما اصاب المسلمون عنوة ففيه الخمس لمن سمى الله، وأربعة أخماس لمن شهده، وبالتالي فالأرض لا تخمس لأنها فيء وليست بغنيمة، لأن الغنيمة لا توقف، والأرض إن شاء الإمام وقفها، وإن شاء قسمها كما يقسم الفيء. فليس في الفيء خمس ولكنه لجميع المسلمين[4]. وهكذا رأى عمر بن الخطاب في الشام والعراق أنهما غنيمة ولكنه جعلهما فيئاً لما في ذلك من مصلحة للمسلمين لأن الأرض وما عليها هما مصدرا الثروة والعمل.

وإن قسم الإمام الأرض بين من غلب عليها صارت عشرية وأهلها رقيقاً. وإن لم يقسمها، وتركها للمسلمين كافة، فعلى رقاب أهلها الجزية، وقد عتقوا بها، وعلى الأرض الخراج، وهي لأهلها، وإذا أسلم الرجل من أهل العنوة أقرت أرضه في يده يعمرها .ويؤدي الخراج عنها ولا اختلاف في ذلك[5].

وبدت مشكلة الأرضين تطفو على السطح أيضا حينما أراد عمر قسمة الأرضين في الشام، فقال معاذ بن جبل« والله إذن ليكونن ما تكره، إنك إن قسمتها اليوم كان الريع العظيم في أيدي القوم، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدّون من الاسلام مسداً، وهم لا يجدون شيئاً، فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم، فصار عمر إلى قول معاذ »[6].

---

(١) قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة المكتابة، ص٢٠٩.

(٢) المصدر السابق: ٢٠٦.

(٣) المصدر السابق: ٢٠٦.

(٤) يحيى بن آدم: ص ٢٠.

(٥) قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة المكتابة، ٢٠٧.

(٦) ابن عساكر: ٢٣٣/١.

والأمر نفسه حدث في العراق، وروي أن عمر بن الخطاب أراد قسمة السواد بين المسلمين، فوجد الرجل منهم نصيبه ثلاثة من الفلاحين فشاور أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، فقال علي: دعهم يكونوا مادة للمسلمين فبعث عثمان بن حنيف الأنصاري فوضع عليه ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثني عشر[١] وأعلنَ عمر عن رأيه السابق لما اختلف الصحابة في قسمة الارضين فقال عمر: (لولا أني أترك الناس ببّاناً لاشيء لهم، ما فتحت لهم قرية إلا قسمتها سهماناً كما قسم رسول الله -صلى الله عليه وسلم خيبر[٢].

واحتج جمع من الصحابة، ومنهم بلال بن رباح، والزبير بن العوام على رأي عمر وعلي ومعاذ، وفي احتجاجهم ما يشير إلى رغبة المسلمين في تملك الأرض. وفي رأي عمر من الصواب شيء كبير. ونظرة إلى المستقبل لا تخلو من فراسة، ورأى عمر أن من المصلحة إقرار الأراضي على حالها وطلب استطابة قلوب الغانمين، وإذا لم يرضوا بتركها، فالحجة في قسمتها قائمة بما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يختلف اثنان في أن أرض الشام افتتحت صلحاً وعنوة، بدليل اختلاف الصحابة في قسمة الارضين[٣]. وإلى جانب أرض الخراج وجدت أراضي العشر، وعن ابن مكحول قال: «كل عشري بالشام فهو مما جلا عنه أهله، فأقطعه المسلمون فأحيوه، وكان مواتاً. لا حق فيه لأحد، فأحيوه بإذن الولاة»[٤].

والخراج في العراق بداية كان درهماً وقفيزاً[٥] من القمح والشعير على كل جريب عامر أو غامر، بقطع النظر إلى ما يزرع فيه من المحاصيل الأخرى[٦] وروى يحيى بن آدم روايةً مؤداها: أن الخراج يختلف من مكان إلى آخر على قدر قرب الأرضين من الأسواق وبعدها عنه. وأحياناً كان يسقط الخراج عن أراضيهم مقابل

---

(١) فتوح البلدان: ٢٦٦.

(٢) ابن عساكر: ٢٣٤/١.

(٣) فتوح البلدان: ١٥٦.

(٤) فتوح البلدان: ١٥٧

(٥) فالترفانتس: المكاييل والموازين الإسلامية: ص ٦٦، القفيز: يعادل ٩٦٢, ٢٣كغم.

(٦) فتوح البلدان ٢٦٩، الاموال: ٥٨٠.

شروط، كما نلاحظ أن أبا عبيدة أطعم أهل السامرة أرضهم عندما صالحهم بالأردن وفلسطين على أن يكونوا عوناً وأدلاء لهم. وفرض عليهم الجزية فقط، واستمر هذا الوضع حتى خلافة يزيد بن معاوية الذي وضع الخراج على أرضهم[1].

وتتعقد مشكلة الأرض وملكيتها عندما تطفو ظاهرة اقتصادية جديدة في الدولة الأموية، وهي ظاهرة الإقطاع[2].

والقطائع ثلاثة أقسام: موات وعامر ومعادن[3] وأما العامر فما تعيّن مالكوه، فلا نظر للسلطان فيه إلا ما يتعلق بتلك الأرض من حقوق بيت المال إذا كانت في دار الإسلام سواء كانت لمسلم أو لذمي. فإن كان في دار الحرب التي لم يثبت للمسلمين عليها يد، فأراد الإمام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها جاز. كما هو في قطيعة تميم الداري التي استقطعها من الرسول -صلى الله وعليه وسلم- وسأله أن يقطعه عيون البلد[4] والضرب الثاني من العامر ما اصطفاه الأئمة لبيت المال من فتوح البلاد إما بحق الخمس فيأخذه باستحقاق أهله له، وإما بأن يصطفيه باستطابة نفوس الغانمين، فاصطفى عمر من أرض السواد : أموال كسرى وأهل بيته وما هرب عنه أربابه.

أما إقطاع الاستغلال فعلى ضربين:

١- العشر

٢- والخراج

أما تاريخ القطائع في الشام كما وردت في تهذيب ابن عساكر: «فكانت من الأرضين التي كانت بأيدي أنباط القرى، فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة

---

(١) فتوح البلدان: ١٦٢.

(٢) ابن منظور: لسان العرب: دار صادر- بيروت- مادة قطع «والقطائع جمع قطيعة، والقطيعة ما اقتطعته منه، واقطعني إياها: أذن لي في اقتطاعها، واستقطعه إياها: سأله: أن يقطعه إياها، وأقطعته قطيعة أي طائفة من أرض الخراج، وزاد ابن الأثير: سأله أن يجعل له إقطاعاً، ويتملكه، ويستبد به وينفرد»

(٣) الفرّاء- الاحكام السلطانية: الفراء. صححه وعلق عليه محمد الفقي- مطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر ط٣- ١٩٦٦: ص٢٢٨.

(٤) المصدر نفسه: ٢٢٩.

عما كان في أيديها من تلك المزارع، فلحقت أرض الروم ومن قتل فيها في تلك المعارك التي كانت بين المسلمين والروم فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يقبلها والي المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته، وطلب بعضهم إقطاعات فأعطوا »[١].

يبدو أن القطائع في العصر الأموي كانت تمنح من أرض الصوافي والأرض التي باد أهلها، ولم يبق لها وارث، ومن الأراضي التي كانت ملحقة بالأديرة والكنائس، ومعظم هذه الأراضي كانت في بلاد الشام[٢]. وكذلك أرض الجزيرة وحوض الفرات استغلها معاوية ونظم نزول القبائل العربية في الجزيرة، سواء القادمة مع موجات الفتح أو التي تلتها مع مراعاة القرابة والنسب في الإنزال[٣]. وتشجيعاً للسكن والزراعة في تلك المناطق كان رأي عمر في الإقطاع الزراعي « من غلب الماء على شيء فهو له »[٤].

ولغايات الفتح الاستراتيجية أكثر الأمويون من إقطاعات السواحل والثغور نظير ثبات المسلمين أمام الهجمات البيزنطية، وبدا ذلك من أيام عثمان بن عفان إذ أمر معاوية -لما كان والياً في الشام- بأن يقطع الرتب أرضين، ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل، فأدى إلى اجتماع الناس فيها. وأسكن أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلين، وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام، فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام وقوماً لم يكونوا من البعوث، نزعوا من البوادي من قيس، كما أسكن قاصرين قوماً، وكانت بالس وقراها أعذاء عشرية، وأقطع مسلمة بن عبد الملك قوماً من ربيعة قطائع[٥].

---

(١) ابن عساكر: ١/ ٢٣٩.

(٢) محمد خريسات- القطائع في صدر الإسلام: (مجلة دراسات تاريخية. دمشقعدد ٢٧، ٢٨، أيلول-كانون أول١٩٨٧: ص.٦٠

(٣) أحمد بدر- الإقطاع في بلاد الشام: خلال القرنين الأول والثاني للهجرة (بلاد الشام في العهد الأموي. المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام: عمان ١٩٨٩، ص ٣٧٦.

(٤) الأموال: ٤٠١.

(٥) فتوح البلدان: ١٥٤-١٥٦.

وتنبه الأشراف إلى أهمية الأراضي فسألوا معاوية أن يقطعهم من بقايا تلك التي كانت بحوزة معاوية، التي لم يكن عثمان أقطعه إياها، ففعل فلما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان، وقد بقيت من تلك المزارع بقايا لم يكن معاوية قد أقطع منها أحداً شيئاً، سأله أشراف الناس القطائع منها ففعل، ورفع ما كان عليها من خراج[١].

وكذلك شاع إقطاع المدن في بلاد الشام، فدمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل، وهو بأنطاكية، وكثرت فضول منازلها[٢]. وبدت في الشام أيضاً ظاهرة اقطاع الأسواق، فقد منح سفيان بن الأبرد سوق الصياقلة بدمشق قطيعة[٣]. وفي العراق سادت ظاهرة إقطاع الأنهار وما حولها، فشط عثمان اشتراه عثمان بن أبي العاص الثقفي من عثمان بن عفان بمال له بالطائف، ويقال: إنه اشتراه بدار له بالمدينة، فزادها عثمان بن عفان في المسجد، وأقطع عثمان بن أبي العاص أخاه حفص ابن أبي العاص حفصان. وأقطع أبا أمية بن أبي العاص أميتان، وكانت سويدان لعبيد الله بن أبي بكرة قطيعة مبلغها أربعمائة جريب فوهبها لسويد بن منجوف السدوسي، وكذلك قنطرة قُرّة بالبصرة وكان عندها نهر قديم اشترته أم عبد الله بن عامر فتصدّقت به مغيضاً لأهل البصرة[٤].

وأخذ الإقطاع ملمحاً اجتماعياً، فكثرت إقطاعات النساء، ولم يكن الأمر مقتصراً على الرجال فقط، فنهر البنات نسبة إلى بنات زياد بن أبيه أقطع كلّ بنتٍ ستين جريباً. ونهر حميدة نسب إلى امرأة من آل عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس يقال لها حميدة، وهي أمرأة عبد العزيز بن عبد الله بن عامر وكذلك خيرتان لخيرة بنت ضمرة القشيرية أمرأة المهلب، ولها مهلبان كان المهلب وهبه لها. ويقال: بل كان لها فنسب إلى المهلب، وهي أم أبي عيينة ابنه، ونهر أم

---

(١) ابن عساكر: ١/ ٢٤٠.

(٢) أحمد بدر: ٣٧١.

(٣) ابن عساكر: ٦/ ١٨٢.

(٤) فتوح البلدان: ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٥.

حبيب نسب إلى أم حبيب بنت زياد، ونهر ابن عمرة[1] ويبدو أن ظاهرة إقطاع الأنهار بارزة في العراق أكثر منها في الشام.

وسادت الإقطاعات أيضاً في نجد والحجاز، وظهرت الملكيات الزراعية الخاصة، فكانت لمعاوية بن أبي سفيان أموال في المدينة تنتج سنوياً مائة وخمسين ألف وسق من التمر، ومئة ألف وسق من الحنطة، وملك عدداً من الحوائط في مكة والمدينة، وكانت مزروعة بالنخيل[2]. وأقطع فدك لمروان بن الحكم، وأقطع الأخير أبا هريرة أرضاً في العقيق، صارت لأولاده يستغلونها فيما بعده. وملك عمرو بن العاص ضياعاً بالطائف أهمها الوهط. وضيعة علي بن الحسين في المدينة، وضيعة الفديك للمغيرة المخزومي وكان لثور بن الصّمة القشيري مال بالفلج من أرض اليمامة بنجد وضيعة أم العيال لجعفر بن طلحة، أنفق على استصلاحها مائتي ألف دينار وكان فيها عشرون ألف نخلة، وكانت غلتها أربعة آلاف دينار في السنة[3].

وكان الإقطاع على الأغلب بهدف تعمير الأرض وزراعتها، ولذا اشترط زياد في شط الجموم وهي زياذان، على عبد الله بن عثمان: إني لا أنفذ إلا ما عمرتم، وكان يقطع الرجل القطيعة، ويدعه سنتين، فإن غمرها وإلاّ أخذها منه، فكانت الجموم لأبي بكرة[4] ثم صارت لعبد الرحمن بن أبي بكرة وقد يكون إقطاع الأنهار مشروطاً بإحياء الأراضي عليها، وقد يكون إقطاع الأرضين مشروطاً بحفر الأنهار.

ويتم الإقطاع أحياناً بمبادلة الأراضي والدور فلجأ معاوية إلى إقطاع داره التي بسوق وردان في الفسطاط لعقبة بن عامر، وأخذ منه داره القريبة من المسجد لابنه يزيد[5]. وسمح معاوية لأصحاب الإقطاع بمبادلة أراضيهم بأراض في الجزيرة[6].

(١) فتوح البلدان: ٣٦١، ٣٦٢ انظر ٣٥٣.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٢٢٧- ٢٢٩..

(٣) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ٢٢. انظر عبد الله السيف، الحياة الاقتصادية والإجتماعية في نجد والحجاز، ص٥١، وانظر السمهودي: وفاء الوفاء، ٤/ ١١٣.

(٤) فتوح البلدان: ٣٥٩.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب: ١٣٢، ١٣٣، ١٤٥.

(٦) تاريخ الطبري: ٤/ ٢٨٠.

ما سبق لا يعني أن الإقطاع كان هدفه دائماً اقتصادياً فقط فإنه لا يخلو من أهداف سياسية أيضاً، تخدم مصالح الأسرة الأموية لا سيما الفترات الحرجة من تاريخ الدولة. فأقطع عبد الملك حفص بن عمر بن سعيد قرية زملكا بغوطة دمشق[١] وأكثر من إقطاع الأشراف الذين كثر قدومهم إلى دمشق إثر تهجيرهم من مكة أي بعد وفاة يزيد بن معاوية، وكذلك أيام الهجرة الجماعية من الحجاز في سنين القحط المعروفة بسنيات خالد[٢].

وإقرار ملكية القطائع كان يصدر من الخليفة أو من أحد ولاته فنجد أن زياد ابن أبيه، وعبيد الله بن زياد، والحجاج، وعبد الله بن عامر، وعمر بن هبيرة ويزيد ابن المهلب وخالد القسري قد أكثروا من الإقطاعات خاصة إقطاعات الأنهار، ومعظم هؤلاء ولاة تولوا العراق في فترات مختلفة. وشاعت هذه الأسماء في شعر الشعراء الأمويين الوافدين تكسباً ومدحاً وهجاءً رغبة فيما عندهم. وزادت رغبة الخلفاء الأمويين في الاستيلاء على الأراضي والحصول على الإقطاعات خاصة الخلفاء المتأخرين فكتب يزيد بن عبد الملك إلى عمر بن هبيرة أنه: (ليست لأمير المؤمنين بأرض العرب فرضة، فسر على القطائع، فخذ فضولها لأمير المؤمنين)[٣].

وبدأ اهتمام معاوية بالأرض مبكراً جداً حين كان والياً لعثمان على الشام وكان تركيزه على أرض الصوافي، فبعث رسالة إلى عثمان مؤدّاها أن ما أجراه عليه عثمان من الرزق في عمله لا يقوم بمؤونة من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائها، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها، وسمى له المزارع الصافية، وسأله أن يقطعها له ليتقوى بها وأشار معاوية في رسالته تلك أن هذه الصوافي كانت تزرع بالقبالة، وأن قبالتها تدخل في بيت المال، وهي ليست من قرى أهل الذمة ولا من أرض الخراج فوافق عثمان على ذلك، وبقيت بيد معاوية، ثم جعلها من بعده حبساً على فقراء أهل بيته[٤].

---

(١) ابن عساكر: ٤/ ٨٤.

(٢) أحمد بدر: ٣٧٥. وانظر محمد خريسات: القطائع في العصر الأموي، ص ٣٦- ٤٠.

(٣) فتوح البلدان: ٣٥٩.

(٤) ابن عساكر: ١/ ٨٤.

وأكثر معاوية من إقطاع أفراد أسرته مما أثار حفيظة أشراف العرب فعبد الله ابن عباس لم ير حقاً لمعاوية في مال المسلمين إلا ما لرجل منهم[1] وثار في وجه معاوية أحد غلمان الأنصار فقال له: يا معاوية: ما جعلك وأهل بيتك أحق بهذه الأموال منا، وإنما أفاءها الله بسيوفنا ورماحنا[2]. وأنتقده عقيبة الأسدي صراحة فخاطبه قائلاً:

أكلتم أرضنَا فجرَدْتُموها فهلْ من قائمٍ أو من حصيدِ

فهبها أُمَّةٌ هلكت ضياعاً يزيدُ يسوسُها وأبو يزيدِ[3]

ونلمح أيضاً الوحدات القياسية للإقطاعات الممنوحة، فأقطع الحجاج بشار بن مسلم سبعمائة جريب، ويقال: أربعمائة جريب، فحفر لها النهر، وأقطع زياد مرّة مولى أبي بكر مائة جريب[4] وقطيعة لهلال بن أحوز من يزيد بلغت ثمانية آلاف جريب، وقطيعة سويدان بلغت أربعمائة جريب، والمسروقان مائة جريب[5]. ويعلق محمد علي نصر الله على ذلك: «بأن الأراضي الزراعية صارت تمثل شيئاً ذا قيمة في حياة الناس، ولهذا حرصوا على تحديدها عند إقطاعها ليتجنبوا ما قد يثيره، عدم التحديد من مشاكل مع الملاكين المجاورين»[6]. ولجأ بعض منهم إلى التحايل والتزوير في الكتب[7]ولم تكن القطائع مقتصرة على أرض الصوافي كما هو في الشام في بدء الأمر، وعلى إحياء الأرض الموات كما هو في العراق وإنما تجاوزها إلى أرض الخراج ولمّا تهافت الناس على شراء الأرض الخراج لأنها تصبح عشرية

---

(١) البلاذري أنساب الأشراف: البلاذري: تحقيق إحسان عباس بيروت، ١٩٧٩. ٤/ ق٢/ ١١٢، ١١٥.

(٢) أنساب الأشراف: البلاذري: ٤/ ١١٢. القطائع في العصر الأموي، ط٤.

(٣) البغدادي: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: تحقيق عبد السلام هارون- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩- ٢/ ٢٦٠.

(٤) فتوح البلدان: ٣٥٥، وانظر ٣٥١،-٣٦٤.

(٥) فتوح البلدان: ٣٥٨، ٣٥٩.

(٦) محمد علي نصر الله، تطور نظام ملكية الاراضي في الإسلام (نموذج في أراضي السواد)، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص١٧٠.

(٧) فتوح البلدان: ٣٥٥/ ٣٥٦/ ٣٦٢ الطبري: ٧/ ٢٠٥.

كره بعض الفقهاء انتقالها، وفي هذا دلالة على كثرتها أو استشرائها حتى أصبحت ظاهرة ملحوظة تحتاج إلى تدبير. ويرى نصر الله أن الحصول على قطعة أرض في المجتمعات الزراعية يشكل شيئاً في حياة الفرد، لأنها تكسبه مورداً مضموناً للدخل، وتبعاً لذلك فإنها تعطي صاحبها مركزاً مالياً محترماً، ومكانة اجتماعية مرموقة[١]. فحلف ابن عمر أن لا يرى عبيد الله بن أبي بكرة أبداً، ولا يأخذ بركابه، ولا يزوج ولداً من أولاده حتى يأذن عبيد الله بذلك ...»[٢].

ولتؤتي الملكية الزراعية ثمارها كان لا بد من إقامة مشاريع الري وسدّ البثوق، وتجفيف البطائح ليقوم الفلاحون بزراعة الأرض وفي بدء الأمر اتفق الفاتحون مع السكان الأصليين في عهودهم بأن إصلاح الطرق والجسور والأسواق والحرث والدلالة مع الجزاء على أيديهم على قدر طاقتهم[٣]. وبعد تنظيمات الفتح استقرت الأمور على أن الدولة هي المسؤولة عن حفر الأنهار وبناء القناطر والجسور وسدّ البثوق حين الحاجة إلى ذلك على نفقة بيت المال[٤]..

وبدت العناية بإصلاح الأراضي الزراعية، وإقامة مشاريع الري من أيام الفتح الأولى عهد عمر بن الخطاب، إذ أمر أبا موسى الأشعري بأن يحفر لهم نهراً، فحفر نهر الأبلة[٥]. وتنبه معاوية إلى بطائح العراق، وأنفذ إلى عبد الله ابن دراج مولاه أن يستخرج له من الأرضين بالبطائح، ما بلغت غلته خمسة الآف ألف، وذلك أنه قطع القصب وغلب الماء بالمسنيات، ثم أكمل حسان النبطي صنيعة فاستخرج للحجاج أيام الوليد وهشام أرضين من أراضي البطيحة وأنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم، أنفقها مسلمة بن عبد الملك لما استكثرها الوليد على بيت المال وأقطعه إياها، وحفر السيبيين[٦].

---

(١) محمد علي نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي في الإسلام، ١٧٣، ١٧٤.

(٢) ابن قتيبة: المعارف تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف القاهرة، ط٤، سنة ١٩٦٩: ص١٢٥-١٢٦.

(٣) فتوح البلدان: ٢٧٨، الطبري ٤/ ٣٢.

(٤) أبو يوسف الخراج: المطبعة السلفية ١١٨، ١١٩.

(٥) فتوح البلدان: ٣٥١، ٣٥٢، انظر ٣٦٢-٣٦٤.

(٦) فتوح البلدان: ٢٩١، ٢٩٢.

وبلغت الإصلاحات الزراعية والعمرانية أوجها عصر الحجاج، فحفر النيل والزابي، وأحيا ما على هذين النهرين من الأرضين. وحفر نهر الصين لما مصر مدينة واسط، وكان خالد القسري مشهوراً بإصلاحاته الزراعية واستأذن يوماً هشام ابن عبد الملك في عمل قنطرة على دجلة فكتب إليه هشام لو كان هذا ممكناً لسبق إليه الفرس، فراجعه، فكتب إليه: إن كنت متيقناً أنها تتم فاعملها، فعملها، وأعظم النفقة عليها فلم يلبث أن قطعها الماء فأغرمه هشام ما كان أنفق عليها[١].

وعرض فلاّحو بوبلس وقاصرين وعابدين على مسلمة بن عبد الملك أن يحفر لهم نهراً من الفرات يسقي أرضهم على أن يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان الذي كان يأخذه ففعل فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة ووفوا له بالشرط[٢].

وحرصت الحكومة الأموية على سلامة الجسور والبثوق، وإقطاع الأرضين، وحفر الأنهار للفلاحين لتضمن موارد مالية ثابتة لبيت المال في الوقت الذين كثرت فيه النفقات على الحكومة، وبدأ الشعب يتجه نحو الاستقرار والتملك، وترك الرعي وتغيير وسائل الانتاج، والاندماج في مجتمع زراعي. ولترغيب الفلاحين في البقاء في أراضيهم، وتشجيعاً لهم على العمل الزراعي رفع الخراج عن أراضي الذميين إن أسلموا، وشجع هذا التسامح أنباط العراق إلى التسارع للانضمام في صفوف المسلمين، وتبعاً لهذا نقص وارد الخراج. وواجهت الحكومة حينئذ أزمة اقتصادية غير عادية مما جعل الدهاقنة المسؤولين عن جباية الخراج في قراهم أن يرفعوا الأمر إلى الحكومة: (أن انكسر الخراج) واستدعى الأمر إعادة النظر في الخراج فقال الحجاج: إن أسلم الرجل لا يسقط عنه الخراج أبداً، إنما تسقط الجزية فقط، لأن الخراج أجرة وضريبة على الأرض تؤدى إلى الحكومة[٣].

---

(١) فتوح البلدان، ٢٨٩.

(٢) فتوح البلدان، ١٥٦، ٢٨٥.

(٣) تاريخ الطبري: ٦/ ٣٨١.

هذا الصنيع أثار حفيظة الفلاحين المسلمين الجدد مما جعلهم يهجرون قراهم ويتوجهون إلى المدينة، ويقع الحجاج في تحدٍ آخر، ما عساه يفعل في هذه الأزمة الاقتصادية الخطيرة.

لجأ الحجاج في حلها بإعادة الفلاحين إلى قراهم الأصلية، وقال: «إنما الموالي علوج، وإنما أتي بهم من القرى، فقراهم أولى بهم، كما أمر أن ينقش على يد كلّ إنسان منهم اسم قريته»[1]، وبلغ الأمر غاية في الطرافة والأسطورة فروى المبرد قصة تدلنا على خوف الناس والموالي من ملاحقة الحجاج لهم فقال: («يروى عن حسّان المعروف بالنبطي صاحب منارة حسّان في البطيحة قال: أُريت الحجاجَ فيما يرى النائم، فقلت: أصلح الله الأمير ما صنع الله بك؟ فقال: يا نبطي؛ أهذا عليك؟ قال: فرأيتنا لانفلت من نقشه في الحياة ومن شتمه بعد الوفاة»[2].

ويبدو أن عمل الحجاج كان قاسياً جداً حتى روي أن سليمان بن عبد الملك بعد وفاة الحجاج أخرج في يوم واحد ثمانين ألفاً، ورد المنقوشين، فرجعوا في صورة الأنباط حتى قال الشاعر:

جاريةٌ لم تَدْرِ ما سَوْقُ الإبلْ ... أخرجها الحجّاجُ من كِنٍّ وظلْ

لو كان بَدْرٌ حاضراً وابنُ حَمَلْ ... ما نُقِشَتْ كفَّاكِ في جلْدٍ جَلَلْ[3]

وقال شاعر مهدداً أهل الكوفة:

يا أيها الناس قد قامت قيامتكم ... إذ صار قاضيَكم نوحُ بن درّاجِ

لو كان حياً له الحجّاجُ ما سلِمتْ ... كفّاهُ ناجيةً من نقشِ حجّاجِ[4]

---

(١) المبرد، الكامل في اللغة والأدب- تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاتة- دار النهضة مصر- د.ت ٢/ ٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٩٧.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ٢/ ٩٧.

ولتلافي الخطر جلب الحجّاج أيدي عاملة من الخارج للعمل في إصلاح الأرض وزراعتها، وكانوا من زطّ السند وغيرهم، ومعهم أهلوهم وأولادهم وجواميسهم فأسكنهم بأسافل كسكر، فغلبوا على البطيحة، وتناسلوا بها[١].

ويقال: إن عبيد الله بن زياد سبى خلقاً من أهل بخارى فأسكنهم البصرة فلما بنى الحجّاج واسطاً نقل كثيراً منهم إليها[٢].

ولم يكتف الحجاج باستصلاح الأراضي فحسب بل تجاوزه إلى الثروة الحيوانية. فأكثر من الماشية خاصة الجواميس، وألقى بها في جنوب البصرة، وبعث إليه محمد بن القاسم بألوف الجواميس، وبعث الحجاج منها إلى الوليد فيما بعث من الأربعة آلاف، وألقى باقيها في آجام كسكر[٣]. وكثرت الجواميس المجلوبة حتى فرض الفقهاء الصدقة عليها، فكتب عمر بن عبد العزيز: «أن تؤخذ صدقة الجواميس كما تؤخذ صدقة البقر»[٤]. وعقب مصرع يزيد بن المهلب أصاب الحجاج لهم أربعة آلاف جاموسة كانت بكور دجلة وكسكر[٥]. وفي حديث العهود والصلح كان الفاتحون يصالحون على الجواميس، وبالتالي شكلت ثروة حيوانية جيدة. ولما شكا الناس إلى الحجاج قلة البقر حيناً منعهم حد ذبحها لتتكاثر وتستغل في الحراثة فشكاه أحد الشعراء:

شكونا إليه خراب السواد فحرّم فينا لحوم البقر
وكان كما قال من قبلنا أريها السُّها وتريني القمر[٦]

وبدا اهتمام الجند بالزراعة في المناطق المحاصرة، فأمر مسلمة بن عبد الملك الجند المحاصرين القسطنطينية أن يزرعوا، فزرعوا وأكلوا من الزرع[٧]. ولتشجيع

---

(١) فتوح البلدان: ٣٦٨، محمد ضياء الدّين الريّس- الخراج: دار الأنصار: ط٤-١٩٧٧، ص ٢٧٥.

(٢) فتوح البلدان: ٣٦٩.

(٣) محمد ضياء الريس: الخراج ٢١٥، فتوح البلدان: ١٧٢.

(٤) الأموال: ٥٣١.

(٥) محمد ضياء: الريّس: الخراج ٢١٥.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ٢١٢. محمد ضياء، الريّس: الخراج، ٢١٥.

(٧) تاريخ الطبري: ٦/ ٥٣٠، ٥٤١.

المزارعين أقدم الحجاج على إقراض المزارعين قروضاً مالية من بيت المال لمساعدتهم على التغلب على الكوارث الطبيعية التي قد تلحق بحاصلاتهم نتيجة للفيضانات أو انحباس الأمطار، أو تفشي الأوبئة الزراعية، وقام بيت المال بدور بنك التسليف الزراعي، فأقرض الفلاحين مليوني درهم[١].

وبلغ من شدّة اهتمام الحجاج بأحوال العراق الزراعية أنه كان يكثر من استفساره عن الأحوال الاقتصادية وسقوط الأمطار، وانظر خبره مع ليلى الأخيليه[٢] وروي أن الحجاج قال لأعرابي كلمة فوجده فصيحاً كيف تركت الناس وراءك؟ فقال: تركتهم- أصلح الله الأمير- حين تفرقوا في الغيطان، وأخمدوا النيران وتشكت النساء، وعرض الشاء، ومات الكلب: فقال الحجّاج لجلسائه أخصباً نعت أم جدباً؟ قالوا: جدباً، قال: بل خصباً[٣].

وشهد هذا العصر عدداً من المصلحين الزراعيين والمهتمين بالشؤون الزراعية، ومعظمهم كان يتولى منصباً في الدولة، وعلى رأسهم الخليفة هشام بن عبد الملك وعامله خالد القسري. فهما ظاهرتان تختلفان تمام الاختلاف عن شخصية الحجاج، لم يترك الخليفة هشام منفذاً لامتلاك الضياع والأراضي إلا وقد اتبعها. وعهد بذلك إلى حسان، فاستخرج له أرضين من أرض البطيحة[٤]. وكتب هشام إلى عاملة ومنافسه خالد القسري: لا تبيعنّ من الغلاّت شيئاً حتى تباع غلاّت أمير المؤمنين حتى بلغت كيلجة درهماً[٥] وفي الشام استخرج ضيعة الهنيّ والمريّ. ومدّ المياه إليها، وأحدث فيها واسط الرّقة. وكانت له قرية تدعى سلعوس، ونصف قرية تدعى كفرجداً من الرّها، وأقطع دورين وقراها[٦].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ٢١٢، وإحسان العمد: الحجاج بن يوسف الثقفي، دار الثقافة بيروت، ط١، ١٩٧٣، ص٤٧٣.

(٢) ابن عبد ربه الاندلسي العقد الفريد (تحقيق أحمد أمين، وأحمد الزين، ابراهيم الإبياري لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٢، ١٩٥٢ط٢: ١/ ٨٦، ٨٧.

(٣) أبو علي القالي ذيل الأمالي والنوادر: دار الكتب العلمية-بيروت: ص٨٥.

(٤) تاريخ الطبري: ٧/ ١٤٢.

(٥) تاريخ الطبري: ٧/ ١٤٥. تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٢٤.

(٦) معجم البلدان: سلعوس. دورين. والطبري: ٧/ ٢٠٥.

ولا يقل خالد القسري عن هشام في اهتمامه بالزراعة، فملك الضياع الكثيرة في العراق، وكان من الرأسماليين الكبار حتى أوغرت ضياعه صدر الخليفة ففسدت علاقتهما، وصودرت أملاكه، ويرى نصر الله أن نكبة القسريّ المصلح العظيم هي مظهر من مظاهر الصراع بين تملك الدولة المركزية لأكثر الأراضي الإنتاجية، وبين تفتت سلطة هذه الدولة التي تحصل نتيجة الملكية الخاصة، وازدياد مساحتها على حساب ملكية الدولة[1]. وبلغت غلة خالد القسريّ ثلاثة عشر ألف الف، كما أثارت ملكيته وملكية ابنه دهشة أحد الدهاقنة فدخل على خالد ونصحه بإعلام الخليفة بثروتهما خوفاً من مصادرة أموالهما[2]. ولم يكن القسري مهتماً بتوسيع ملكيته الخاصة فحسب بل اهتم بتوسيع ملكية الدولة والسعي لزيادة انتاجيتها، وشهدت فترة ولايته إصلاحات زراعية واسعة كما مرّ بنا. وقد يكون غناه سبباً رئيساً لاهتمامه بالإصلاحات الزراعية، ومهما كانت أهدافه إلا أنها عملت على رفعة الدولة، وزيادة إنتاجها.

ولأهمية الزراعة، وضمان نجاحها ظهرت نظم زراعية لتحسين الإنتاج أو زيادته من جهة، ولضبط العلاقة بين الملاّكين الكبار والملاكين الصغار والفلاحين، ومنها الإيغار[3].

ويرد الإيغار أحياناً بمعنى الإعفاء من الضريبة وذلك بأن يوغر الإمام الرجل الأرض من غير أن يحمل التزاماً مالياً، قد تكون دون أن يدفع خراجاً، أو أن يدفع جزءاً من مال مقابل الإعفاء من الخراج، أو من ضرائب أخرى والإيغار يحمل في ثناياه تمييزاً اجتماعياً للموغر إليه، ويبدو أن هذا الشكل من الأنظمة الزراعية لا يمنح إلا لأصحاب الإقطاعات الكبرى الذين يتحكمون في سوق المال والزراعة.

---

(١) محمد علي نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي في الإسلام، ١٨٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٧/ ١٤٧-١٥٢، وانظر الأغاني: ٢٢/ ٢٨.

(٣) الخوارزمي، مفاتيح العلوم: دار المناهل-بيروت/ ط١ -١٣٩٤هـ/ ٧٣. «وهو الحماية وذلك أن تحمي الضيعة أو القرية فلا يدخلها عامل، ويوضع عليها شيء يؤدي في السنة لبيت المال في الحضرة أو في بعض النواحي»

ومن النظم الزراعية الإلجاء[١] ونظام الإلجاء يوحي بأن ثمة صراعاً بين المالك والفلاح. ووضع الإلجاء الفلاحين[٢] في طبقة المستغلّين بينما صار الملجأ إليهم في وضع الطبقة المستغلة اقتصادياً لأن هؤلاء الحماة يستولون على ما يسمى بالريع الإقطاعي الذي يمثل فائض الإنتاج أو العمل الزائد للطبقة الأولى لقاء تصرفهم بالأرض التي تنازلوا عنها للمتنفذين الذين عادوا فسمحوا لهم بالعمل فيها، والحصول على ما يتبقى لهم من محصولها وغلّتها، وتنبه نصر الله إلى أمر مهم جداً، وهو أن المتأثرين بالزيادة والنقصان يكون تبعاً لدين الدافعين لها أو جنسياتهم، ونوعية الأراضي التي بحوزتهم وجنسية سكانها[٣].

ونلمح أن التلجئة تحمل في طياتها خوفاً ما، يحياه الفلاحون، قد يكون بالتلجئة خلاصهم من تعسّف الجباة وعبثهم بلا شك. أو بحثاً عن الطمأنينة المفقودة والحماية التي يسعى إليها الإنسان، وهي صراع بين الفئات الاجتماعية عصرئذ. وسادت أنظمة زراعية أخرى كالمزارعة والمخابرة والمؤاجرة والمساقاة والضامنة والمزابنة[٤].

ولضمان نجاح العملية الزراعية واستمراريتها مسح العراق غير مرّة، وكذلك الجزيرة الفراتية، فمسح عثمان بن حنيف السّواد، ثم مسحه حذيفة ولاية أبي موسى الأشعري وكان لا بد من عملية المسح هذه لمعرفة المساحات المزروعة من البور، والمزروعة رياً أو بعلاً لوضع الخراج المناسب لها. فجعل عثمان على جريب النخل عشرة دراهم وعلى جريب الكرم عشرة دراهم، وعلى جريب القصب ستة دراهم، وعلى جريب البُرِّ أربعة دراهم، وعلى جريب الشعير درهمين[٥]. ومسح

---

(١) «وهو أن يلجئ الضعيف ضيعته إلى قوي ليحامي عليها، وجمعها الملاجئ، والتلاجئ. وقد يلجئ القوي الضيعة، وقد ألجأها صاحبها إليها»

(٢) المصدر السابق: ٧٣.

(٣) محمد علي نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي في الإسلام، ١٥٧، فتوح البلدان: ٢٩٢.

(٤) الفيروز آبادي: القاموس المحيط: (زرع، خبر، أجر، سقى، ضمن، زبن). ويحيى بن آدم: ٥٩، فتوح البلدان: ١٥٧. المزابنة: بيع الرطب على الشجر، المخابرة: تأجير الأرض على النصف.

(٥) قدامه بن جعفر: الخراج: ٢٢١، فتوح البلدان: ٢٦٩، ٢٧١.

العراق ثالثة في عهد هشام بعد أن تحولت معظم أراضي الخراج إلى أراضي عشرية ليتسنى وضع الخراج على مسائح الأرض، أو مسائح الزرع، وأن يجعلها مقاسمة، وإذا تغيّر سقيها ومصالحها إلى الزيادة والنقصان[١] ثم مسح العراق رابعة في خلافة يزيد بن عبد الملك ١٠٥هـ، وأوكل الأمر إلى عمر بن هبيرة الفزاري ويرى محمد خريسات: أنه قد هدف إلى أمرين: الأمر الأول تحديد المساحات الحقيقية للقطائع، وأخذ الفضول منها للخليفة لعدم وجود أراضٍ له، ثم تراجع لما ضجّ الناس من هذا الصنع. فجعل عمر بن هبيرة يأتي القطيعة فيسأل عنها، ثم يمسحها حتى وقف على أرض، فقال: لمن هذه؟ فقال صاحبها: لي فقال: ومن أين هي لك فقال:

ورثناهن عن آباء صدقٍ ونورثُها إذا متنا بنينا

ثم إن الناس ضجّوا من ذلك فأمسك[٢].

والأمرِ الثاني: أن الخليفة أراد فرض رسوم جديدة على الشجر والنخيل، وقد دعت هذه الإجراءات التي قام بها يزيد المدائني إلى القول بأن عمد يزيد إلى كل ما صنع عمر بن عبد العزيز مما لو وافقه فردّه، ولم يرهب شنعة عاجلة، ولا أملاً عاجلاً، ومن المرجح أن الخليفة قد لجأ إلى فرض الضرائب التي قام عمر بن عبد العزيز بإلغائها بعد أن فشل في تحقيق هدفه الأول[٣].

٢- نظام التجارة

عرفت جزيرة العرب التجارة قديماً بحكم موقعها الجغرافي الذي يتوسط العالم القديم، وينفتح على العراق وفارس واليمن والشام ومصر، وتطل على المنافذ البحرية العالمية: شط العرب والبحر الأحمر، والخليج العربي، وخليج عدن مما كان لهذا الموقع من تنشيط لحركة التجارة، وخاصة الحجاز، وحفظت لنا كتب الجغرافية عدداً من طرق المواصلات التجارية التي تصل بين كل من الكوفة والبحرين ودمشق ومصر واليمن، ورصد صالح العلي عدداً من الطرق التجارية

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ١٩٠.

(٢) فتوح البلدان: ٣٥٩.

(٣) محمد خريسات، «القطائع في العصر الأموي»: ص٥٦، ٥٧.

من كتب السيرة التي تنبه لها الرسول صلى الله عليه وسلم لاعتراض القوافل التجارية فسلك أبو سفيان طريق الساحل، وذات اليمن التي سلكتها سرية بدر[١].

واعترض الرسول وصحبه القوافل التجارية في غزوة الأبواء، ومن هذه الطرق ثَنيَّة المرة وسيف الجار، وبواط والجرّار[٢] ويستدل صالح العلي بذلك أنها كانت موجهة ضد قريش وقوافلها. مما يحمل على الاعتقاد بأنها كانت على طريق القوافل القرشية إلى بلاد الشام[٣]. ولتوطيد الأمن قامت قريش بتأمين سير القوافل، وقد استطاعوا معالجة الأمور بالطرق الدبلوماسية، فعقدوا سلسلة من الاتفاقيات مع القبائل التي تقع على طرق التجارة ليضمنوا بها سير قوافلهم دون أي اعتداء، وهذه الاتفاقات عرفت بالإيلاف.

وقامت الأسواق التجارية والموسمية بدور كبير في تنشيط الحركة التجارية ولم تخل معظم الأمكنة المشهورة في الجزيرة العربية من قيام الأسواق، وعلى مدار السنة في كل من صنعاء والبحرين وحضرموت والطائف[٤] وتنبهت بعض القبائل إلى التجارة وقوافلها، وكانت قد أخذت جُعْلاً مقابل خفارة القوافل، وبعض المراكز كانت تعشر التجارات.

وخضعت بعض الأسواق لبعض القبائل إذا وقعت في منطقة نفوذها، وتنافس رؤساء القبائل في تصريف بضائعهم، وتحصيل الضرائب[٥]. وكان البيزنطيون قد أوكلوا مهمة التعشير إلى بعض القبائل العربية كغسّان وجذام، وتشير المصادر إلى أن الأسواق التي كانت تؤدي العشور هي أسواق بُصرى وأيله وأذرعات، وتولى زنباعُ بن رَوْح الجذامي والد روح بن زنباع جباية العشور[٦].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ١٨٧، السمهودي: وفاء الوفاء، ٢٧٥. انظر صالح العلي: الحجاز في صدر الإسلام ص ٢٩٣-١٩٦.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٨/٢، ١٢، ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ١٧، ١٧٨. انظر ٢/ ١٨٢.

(٣) صالح العلي، الحجاز في صدر الإسلام (دراسة في أحواله العمرانية والإدارية: مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٠م، ط١، ص١٩٣-١٩٥-١٩٦.

(٤) محمد بن حبيب: المحبر تحقيق ايلزة ليختن شتير- دار الآفاق الجديدة، بيروت د.ت: ص ٢٦٤.

(٥) الأزرقي: أخبار مكة، ص٢/ ١٩٠-١٩١. انظر ابن حبيب: ٢٦٤.

(٦) جواد علي المفصّل: دار العلم للملايين- ومكتبة النهضة، بغداد، ط١، ١٩٧١: ٥/ ٣٠٨-٣٠٩.

ولما جاء الإسلام شجّع على التجارة، وكثر الحديث في شؤونها كالميزان والقسطاس والربّا والصكوك ...الخ مما يدل على أن التجارة كانت معروفة لدى عرب الجزيرة، وقد سادها التنظيم، ولا ننسى في هذا المقام أن الرسول صلى الله عليه وسلم قام برحلة تجارية بأموال خديجة إلى الشام[١]. وتنبه إلى دور التجارة في توطيد الدولة الجديدة في المهجر في مكة: «فضرب رسول الله قبة في موضع بقيع الزبير، فقال هذه سوقكم، فاقبل كعب بن الأشرف، فدخلها، وقطع أطنابها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا جرم لأنقلنّها إلى موضع هو أغيظ له من هذا، فنقلها إلى موضع سوق المدينة، ثم قال: هذا سوقكم، لا تتحجّروا ولا يضرب عليه الخراج»[٢].

ولما هددت تجارة المدينة من دومة الجندل بعد أن ذكر الصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم مضايقتهم للتجار العرب، وأن بدومة الجندل جمعاً كثيراً يضايقون من مرّ بهم من التجار، قرر الرسول غزوهم، وعلى أغلب الظن أن غزوة دومة الجندل كانت سعياً وراء تأمين التجارة كما طلب إلى ثمامة بن آثال الحنفي بعد أن أطلق سراحه من الأسر أن يقطع الميرة عن أهل مكة[٣]. وبخروج العرب إلى الأمصار المفتوحة حملوا معهم تجارتهم التي سرت فيهم كما تسرى الدماء في أجسادهم. ويروى أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد يعمل في التجارة[٤] وأن يونس بن عبيد دفع ثلاثين ألف درهم عن صفقة تجارية، وأن إبراهيم التيميّ اشترى من البصرة عبيداً، وباعهم في الكوفة بربح نسبته ١٠٠٪[٥]. وتاجر بعض التجار ووصل ربحه إلى نسبة ١٠٠٪، وابتاع عمرو بن الحريث سفطي كسرى بألفي ألف درهم وباعهما في أرض الأعاجم بأربعة آلاف ألف درهم[٦]. ووصلت أرباح عبد الله بن

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ١/ ١٧١، ١٧٢.

(٢) السمهودي: وفاء الوفاء، ٢/ ٧٤٧. فتوح البلدان: ٢٠٨.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ٤/ ٢١٠.

(٤) الأصبهاني- حلية الأولياء، دار الكتاب العربي-بيروت: ١٩٦٧: ١/ ٩٠.

(٥) الأصبهاني، حلية الأولياء، ٤/ ١٦، ٢١١.

(٦) الدينوري ، الأخبار الطوال: تحقيق عبد المنعم عامر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي-مصر: ١٩٦٠: ١٣٨، ابن الأثير: الكامل، ٣/ ١٦.

عمر من مغانم جلولاء إلى نسبة ١٠٠٠٪ فقاسمه عمر وجعلها ١٠٠٪، وقال له: «وأنا معطيك أكثر ما ربح تاجر من قريش، لك ربح الدرهم درهماً»[١].

ونشطت حركة التجارة الداخلية والخارجية عصر الأمويين، وهيئوا لها مرافقها، فاعتنوا بالجسور والطرق والموانئ والمرافئ، وتشييد الأنهار، ونشطت معها حركة بناء السفن. وبلغ من عنايتهم بذلك أن فرضوا ضريبة الجسور والقناطر، وكانت تؤخذ من التجار لحفظ الجسور التي يمرون عليها لصيانتها[٢]. ولتسهيل التجارة قامت الدولة بعدد من المشاريع الضخمة فشقت الترع والقنوات وأقيمت الجسور بين المدن، وحفرت الآبار التي كانت في طريق الجيوش الإسلامية والتجار، وحاولت القضاء على اللصوص. وحاوّل زياد بن أبيه تطهير الخليج الفارسي من القرصان واتخذت الدولة في عبادان إجراءات للقضاء على نشاطهم الذي يبدو أنه اشتد إثر موت يزيد بن معاوية وأوكلت ذلك إلى عبّاد بن الحُصين[٣]. ومن أكبر المشاريع التجارية «ميناء الأُبلّه» الذي انشئ أيام الحجاج بن يوسف في البصرة، وأقيمت البصرة على طريق التجارة مع الهند، وصارت تعرف بأرض الهند حتى قدر عدد السفن والزوارق في ميناء الأُبُلّة ثلاثين ألفاً بلغ كسب ملاحيها في كل يوم تسعين ألف درهم[٤]. وعنيت الدولة الأموية بمينائي البحر الأحمر الجار وجدّة. واعتبر البحر الأحمر؛ من أهم المنافذ البحرية العالمية لأنه يربط الشام باليمن بمصر بالبحرين، وكذلك بنجد[٥]. ونشطت حركة التجارة في الحجاز بسبب الحج وما يحملون معهم من أموال وعملات ينفقونها طيلة إقامتهم هناك فضلاً عما يحمله الحجاج معهم من هدايا إلى بلادهم. فازدهرت التجارة وانتعشت الأسواق

---

(١) الأموال: ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) محمد خريسات: (عشور التجارة في الجاهلية وصدر الإسلام حتى نهاية القرن الأول الهجري)، مجلة دراسات: مجلد ١٥-عدد ٧- ١٩٨٨، الجامعة الأردنية: عمان: ص٣٧.

(٣) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٦٩/ ٢٣٤، فتوح البلدان: ١٣٥، عبد الله السيف، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز، ص٨٩.

(٤) عبد الرحمن العاني، حضارة العراق (التجارة الداخلية): ٥/ ٢٢٣.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ٨٣. اليعقوبي: البلدان، ٣١٣.

وشيدت مراسٍ للسفن، وكانت السلع التجارية ترد إلى بغداد عن طريق دجلة[١] والفرات ونهر عيسى، وجعل الحجاج واسطاً مركزاً تجارياً عظيماً، وكانت تربطها بالكوفة والبصرة والأحواز طرق تجارية[٢]، وانتعشت التجارة في الجار ابتاع حكيم بن حزام ابتاع من صكوك الجار بمائة ألف درهم، وربح عليها مائة ألف[٣].

وهذا النشاط الكبير للتجارة أوجد مراكز لجباية العشور في كل من مصر وسورية والعراق والمدينة المنورة واليمن، فعرفت بالمآصر مرّة، والمسالح مرّة أخرى، وما يجبى سمي بالمكس حيناً والعشور حيناً آخر[٤]، وعلى كل فالمكوس انتقاص الثمن في البياعة. أما العشور فهي من عشر القوم يعشرهم أي صار عاشراً لهم، وهو أخذ عشر أموالهم[٥]، وبالتالي فهما لفظان يتفقان بأنهما ضريبة يؤديها التاجر إذا سافر من بلد إلى بلد بقصد التجارة، إلا أنهما يختلفان في تحديد المقدار، فالمكوس لا تشير إلى مقدار كمية الضرائب، بينما العشور تشير إلى أخذ العشر[٦].

ووضعت تنظيمات تحدد المقدار الذي يجوز فيه التعشير أو يبلغ نصاب العشور، وكذلك أنواع التجارات، ووضعت العشور على أهل الذمة، فأشار أبو عبيد القاسم بن سلاّم إلى أن عمر بن الخطاب أخذ منهم العشر جرياً على ما كانوا يدفعونه في الجاهلية[٧] والحدّ الأدنى عند بعض الفقهاء مائة درهم، ورأى بعضهم أن تؤخذ من أصحاب التجارات مهما كانت قليلة أو كثيرة، ووضعت على المرأة

---

(١) عبد الله السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز، ٩١.

(٢) حضارة العراق- ٥/ ٣٢١.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ٢٢٣.

(٤) أبو يوسف: الخراج، ٢٩٦-٢٩٧، ويحيى ابن آدم: الخراج ١٦٤ والأموال: ٧١١-٧١٢.

(٥) لسان العرب: مكس، عشر.

(٦) محمد خريسات: «عشور التجارة في الجاهلية وصدر الإسلام»، مجلة دراسات الجامعة الأردنية، ٧/١/٩٨٨، ص٢١.

(٧) الأموال: ٥٧٦.

والرجل، وقال بعضهم بالتفريق بين الذمي والمسلم[١]. وبقي الخلفاء يستوفون هذه الضريبة وفق مقتضيات الحال ومتطلبات الأوضاع المالية للدولة، والظروف الاقتصادية التي يمر بها المجتمع الإسلامي، ومن هنا كان بعض الخلفاء والولاة يلجأون إلى تقليصها أو زيادتها، وفي بعض الأحيان إلى إلغائها وفق الأحوال المعيشية للسكان، أو معاملة الدولة المجاورة لهم[٢].

ولشهرة التجارة فرضت ضريبة البحّاث والكاتب، والبحاث هو الذي يقوم بتفتيش التجار والبحث عن التجارات التي يخفونها، وكانت هذه الضريبة تتراوح بين الدرهم والدرهمين يتقاسمها البحاث والكاتب، ولا تدخل في بيت المال[٣].

واعتبرت أعشار السفن من أهم موارد بيت المال، فضربت على السفن التي تمر ببعض الثغور، فيأخذون عشراً مما تحمله عيناً أو نقداً، فقد كان عمال اليمن يأخذون هذه الضريبة من السفن التي تمر بسواحلهم قادمة من الهند، تحمل الأعواد المختلفة، والمسك والكافور والعنبر والصندل والصيني، فيأخذون الضريبة منه[٤] والمكس على ما فرضه عمر ثلاث درجات، يؤخذ من أهل الذمة (النصارى واليهود) نصف العشر: أي من كل عشرين درهماً درهماً، ومن المسلم ربع العشر، أي من كل أربعين درهماً درهماً، وليس فيما دون المائتين شيء، ويؤخذ من العربان الذين ليسوا من الرعايا العشر كاملاً[٥]، وبالتالي فإن العشور لم تكن ضريبة على التجارة الخارجية فحسب بل أنها تعتبر ضريبة بينية أيضاً أي أنها ضريبة على التجارة الداخلية، يدفعها المكلف ضمن حدود الدولة الإسلامية بل إن ذكرها كضريبة داخلية تكاد تطغى على التجارة الخارجية[٦].

---

(١) الأموال: ٧١٣، ويحيى بن أدم: الخراج، ١٦٨، ١٦٩.

(٢) محمد خريسات: عشور التجارة: في الجاهلية وصدر الإسلام: ص٣٩.

(٣) المصدر السابق: ٣٦.

(٤) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي: راجعه حسين مؤنس: دار الهلال: ١/ ٢٣٥.

(٥) جرجي زيدان: ١/ ٢٣٦.

(٦) فالح حسين، العشور (ضرائب التجارة في صدر الإسلام). دراسات تاريخية، دمشق ١٩٨٨: ص:٤٣.

وأثرت التجارة في مستوى معيشة المناطق التي ازدهرت فيها حركة التجارة وامتدت إلى عصر الجاحظ[١] يكثر الطعام ويرخص، وإن غلت الأسعار كانت تلجأ الدولة إلى معالجة الأزمة، وفي ولاية زياد بن أبيه غلا الطعام في العراق فدفع إلى التجار مالا فابتاعوا به طعاماً، وقال: زيدوه ربعاً ربعاً فلما رخص الطعام ارتجع ماله[٢] ولما ارتفعت الأسعار في نجد والحجاز في سني المجاعة أو الحروب لجأت الدولة إلى تعديل الأسعار فبعد موقعة الحَرَّة وعد يزيد بن معاوية بوضع سعر الحنطة عندهم سبعة أصواع بدرهم، كما هو معمول به في الشام[٣].

أما المظهر الثاني من مظاهر الحركة التجارية فهو الأسواق، لقد عني المسلمون بالأسواق لدى فتوحاتهم للأمصار، وعند تخطيط أية مدينة كان يحدد أولاً دار الإمارة، فالمسجد الجامع فالسوق. ولما خططت الكوفة امتدت أسواقها من قصر الإمارة إلى دار الوليد بن عقبة، وكانت مساحات مكشوفة، وظلت كذلك إلى أن جاء خالد القسري حيث عقّدت بالأحجار خاصة بعد أن أصبحت الكوفة ملتقى القوافل القادمة من شبه الجزيرة العربية. ولما اختط الحجاج واسطاً اختط السوق على مقربة من المسجد الجامع، ودار الإمارة، وكانت أسواق واسط قد امتدت من دار الإمارة التي تقع في وسط المدينة حتى شاطئ دجلة، وبمرور الزمن تكونت أسواق فرعية داخل السوق كما ظهر تخصص في أسواق واسط والموصل فكان سوق البزازين في باب عثمان، والسقاطين قرب دار الرزق، ومخازن الأطعمة عند الكلأ، وسوق الصيارفة، والعطارين والجزارين[٤] واشتهرت البصرة بسوق المربد الذي امتدّ نحو الطرف الغربي من المدينة، وفي أول أمره كان سوقاً للجمال والتمور والأسلحة ثم توسّع في عهد الأمويين فصار مركزاً أدبياً يلتقي فيه الشعراء إلى جانب نشاطه التجاري[٥].

---

(١) الجاحظ: الأوطان والبلدان: الجاحظ: ١٤٥.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف: ٤/ق١/٢٨٦. انظر: الأصفهاني محاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء: القاهرة، ١٩٦٧، ١/ ٤٧٩.

(٣) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة محمد الزبيرين القاهرة، ١٩٦٧، ١/١٧٧.

(٤) فتوح البلدان: ٢٨٤.

(٥) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة: ٢٦٦.

وخضعت الأسواق لمراقبة الدولة وعينت موظفاً يدعى بالعامل على السوق، ويعين من قبل الوالي، ويزوّد ببعض الأعوان الذين يساعدونه على القيام بواجباته[١] وعرف زياد بن أبيه بشدته ومراقبته للأسواق، وكان يأتي دار الرزق كل يوم إلا الجمعة، فيسألهم ما وردها، وما يحتاجونه، وعن الأسعار. وكذلك الخليفة الوليد بن عبد الملك كان يتجول في الأسواق ويسأل عن الأسعار[٢] ومن الذين تولوا الحسبة في العراق داوود وعيسى ابنا علي بن عبد الله[٣]، وكان سعيد بن ميناء عاملاً على أسواق مكة لعبد الله الزبير[٤].

وأوجدت التجارة تنظيمات مالية جديدة تشبه البنوك، وما يدور فيها من استعمالاتهم للحوالات والسفاتج والصكوك لتسهيل عملية التبادل التجاري بين المدن والأقاليم المتباعدة، وتخفيف مصاعب نقل النقود بين البلدان وتعرضها إلى أخطار النيران والنهب[٥] واشتغل الدهاقين بسك النقود وكانوا يشترون فائض بيت المال من الذهب والفضة ويسكوّنها عملة، ومن هنا تلاعبوا بالعملة أحياناً، وتنبه الحجاج لذلك وحرمهم من هذا الامتياز وجعل مهمة سك النقود من مهمات الدولة بعد أن كانت من مهمات القطاع الخاص[٦].

ولعلّ الحركة التجارية وما لها من علاقات اقتصادية مع الدول الأجنبية لا سيما البيرنطيين، كانت من أهم أسباب سك العملة العربية وتوحيدها عهد عبد الملك بن مروان وعامله الحجاج بن يوسف، وصدر منها الدينار الذهبي، والدرهم الفضي، والدرهم النحاسي، وأمر عبد الملك بضرب الدراهم سنة ست وسبعين ثم

---

(١) محمد زيود، نظام الحسبة في الإسلام «دراسات تاريخية ٢٩، ٣٠، آذار ١٩٨٨م، دمشق: ص١٥٣.

(٢) أنساب الأشراف: ٤/ق١/١٨١. تاريخ الطبري، ٦/٤٩٦.

(٣) الطبري: ٧/٢٠٤.

(٤) الازرقي: أخبار مكة، ١٤٥.

(٥) المبرد: الكامل، ١/ ٣٥٥-٣٥٦، صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية: ٩٤م: ٢٩٤.

(٦) فتوح البلدان: ٦٧، ١٤٩، ١٥٣. صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة/ ٢٨٨.

أمر بعد ذلك بضرب الدنانير[1]. وأصدر الخليفة أوامره إلى عامله على العراق بإنشاء دار السكة، واتخذ الحجاج دار ضرب وجمع الطباعين، فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ثم أذن للتجار وغيرهم في أن تضرب لهم الأوراق، واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من فضول الأجرة للصناع والطباعين، وختم أيدي الطباعين[2].

وأنزل الحجاج أقسى العقوبات على كل من حاول غش العملة وإنقاص وزنها أو زيادتها كما فعل بسُمَيْر ضارب العملة اليهودي لإقدامه على سك درهم يختلف في عياره عن العملة الرسمية[3]. ويدلنا هذا على أن العملة الزائفة قد شاعت مما أدى إلى هبوط قيمة العملة وارتفاع أسعار السلع، وزوال الثقة المالية. ولاستيفاء حقوقها من الضرائب خاصة أن هذا الأمر رافق إعادة النظر في وضع الضرائب في العراق بصورة خاصة، وهو من أغنى الأمصار من حيث الموارد بعد المسح الشامل للمنطقة[4].

واعتمدت العملة الجديدة في عطاء المقاتلة وإقراض الفلاحين. وسمح الحجّاج لمن يمتلك نقوداً بإعادة ضربها في دار الضرب، كما أجبر الدهاقين وأصحاب السبائك على ضرب سبائكم نقوداً جديدة، وتقاضى المشرفون على دار الضرب أجراً بسيطاً يسمى ثمن الحطب وأجر الضراب، وكان يعادل درهماً في كل مائة درهم، وفي الوقت نفسه حمل الفلاحين على أداء ما عليهم من أموال بالعملة القديمة، وذلك كطريقة عملية لسحبها من الأسواق[5]، واشتد الولاة بعد الحجاج في تجويد العملة أمثال عمر بن هبيرة، ويوسف بن عمر وخالد القسريّ، وعرفت نقودهم بالهبيرية واليوسفية والخالدية[6].

وتدابير عبد الملك بن مروان في غاية الأهمية إذ أدت إلى إزالة كثير من

---

(١) الدينوري: الأخبار الطوال ص٣٠٦ والطبري: ٦/ ٢٥٦.

(٢) فتوح البلدان: ٤٥٤.

(٣) إحسان العمد: الحجاج ابن يوسف الثقفي، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٧٣، ٤٥٩.

(٤) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي: دار الطليعة-بيروت: ط٢، ١٩٨٠، ص٣٢.

(٥) إحسان العمد: الحجاج ابن يوسف الثقفي، ٤٦١.

(٦) فتوح البلدان: ٤٥٤.

الاضطراب الناشيء عن تباين أوزان الدراهم المتداولة، كما أدت إلى تمييز الدينار العربي، وتحريره من الارتباط بالدينار البيزنطي، وبذا فتح له المجال ليكون عملة ذات شأن دولي في التعامل التجاري والمالي كما حدث فعلاً[1].

ويربط الدوري هذه التدابير بالأزمة المالية التي مرّت بها خزينة الدولة الأموية، وما كان للثورات أمثال ثورة ابن الزبير في الحجاز، وثورة المختار في العراق من نقص في موارد الخزينة[2]. ولا ننسى أن ابن الزبير كان قد نقش درهماً[3] وبعدها لا بد من الالتفات إلى معالجة الأوضاع الإدارية والاقتصادية، والحد من مؤثراتها على مسيرة الدولة، خاصة أن هذه الإصلاحات بدأت في عهد واحد من إصلاحات زراعية. وحفر الأنهار وبناء الجسور، وضبط المكاييل، وتوحيد العملة، وتعريب الدواوين وغيرها.

توحيد العملة لها أبعادها الاقتصادية الخطيرة على مستوى العلاقات الخارجية فدولة بعظم الدولة العربية الإسلامية وفتوتها لا يصح أن تكون معاملاتها التجارية والاقتصادية قائمة على عملة أجنبية، لهذا لا بد من الاستقلال الاقتصادي وتحقيق السيادة القومية، مما ترتب على عملية التوحيد هذه أن ساءَت العلاقات بين العرب وبيزنطة عام ٧٣هـ، والتقت جيوشهما بالقرب من قيصارية. وترى الدكتورة نجدة خمّاش أن توحيد العملة وتعريبها ترتد جذورها إلى اعتبارات دينية؛ فقد كانت النقود مختلفة الأوزان والقيم، دون أن يكون هناك مقياس ثابت موحّد في جميع أنحاء الدولة. يمكن من تحديد النسب بينها، فكانت حالة النقد هذه عائقاً للنشاط التجاري، كما أن الأفراد المسلمين كانوا يلقون حرجاً عند أداء واجب الزكاة[4].

ومما يدعم رأي نجدة خماش أن الحجّاج اهتم بضبط وحدة المكاييل لعلاقتها المباشرة بكمية الرزق من الحنطة التي كانت تمنح لأصحاب العطاء كل شهر،

---

(١) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي٣٢.

(٢) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي٣٢.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية: ١٩٦. وانظر: ناصر النقشبندي الدرهم الإسلامي - بغداد-١٩٦٩- ٢٤/١:.

(٤) نجدة خماش: تعريب النقد وأثره على العلاقات العربية البيزنطية والوضع الإقتصادي (دراسات تاريخية -دمشق- ١٩٨٤): ١٣٩. انظر حسان حلاق: تعريب النقود والدواوين: بيروت- ١٩٧٨: ص٤٤.

وارتباطها بكمية الضرائب العينية التي تجيء من الأرض[١]. وأوجد ما يسمى بالمختوم الحجاجي، ويسمى بالمختوم لأن الأمراء جعلت على أعلاه خاتماً مطبوعاً لئلا يزاد فيه ولا ينقص منه[٢].

٣- نظام الكلأ

طبيعة المجتمع القبليّ في البادية جعلته يعتمد اعتماداً كلياً على التناغم بين جغرافية المكان ومناخه في حياته، فكان الحمى، ويرجع مفهوم الحمى في الأصل إلى ما قبل الإسلام، وهو موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى[٣].

والرجل الشريف في قومه يسعى عادة إلى الاستئثار بالحمى، ومنه حمى كليب وائل، وكان إذا نزل بلداً مخصباً أوفى بكلب على جبل، ثم استعواه ووقف له من يسمع منتهى صوته بالعواء، فحيث بلغ صوته حماه من كل ناحية، فيرعى مع العامة فيما سواه، ويمنع هذا من غيره لضعفاء سائمته وما أراد قرنه معها فيرعى معها، وكان شريك القوم في سائر المراتع حوله[٤]. للحمى ملكية عامة تتصل بالدولة، فتستغلها للصالح العام، أو للشيخ، أو لرئيس القبيلة، ليستغلها لنفسه، علماً بأن ما يملكه الشيخ أو الرئيس تؤول بعض فوائده للعشيرة[٥] وهذا الصنيع يجعل الملكية العامة للقبيلة ملكية خاصة له، والأصل في ملكية الكلأ للقبيلة ضمن حماها ومجالها الحيوي، وثمار هذا الحمى تتيح لأفراد القبيلة أن يفيد المرء منها في رعي مواشيه، أي في تنمية ملكيته الخاصة، فكانت العلاقة بين الفرد والقبيلة علاقة حميمة لأن ملكية الفرد فيها اعتمدت اعتماداً شديداً على الملكية العامة[٦] وكثير من السادة المتنفذين حاولوا تحويل هذه الملكية العامة إلى ملكية خاصة كحمى كليب وائل.

---

(١) احسان العمد: الحجاج بن يوسف الثقفي، ٤٦٣.

(٢) الأموال: ٦٩٣.

(٣) ابن منظور: لسان العرب: مادة حمى.

(٤) ابن منظور: لسان العرب: مادة حمى.

(٥) صالح العلي: «الحمى في القرن الأول للهجرة»: مجلة العرب: ج٧- سنة٣- محرم ١٣٨٩ نيسان ١٩٦٩): دار اليمامة-الرياض: ص٥٧٧.

(٦) هاشم ياغي: معاناة ومعايير من جمال: دار الفجر- ط١-١٩٩٠- ص٥.

ولكن الإسلام تنبه إلى هذه القضية فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "الناس شركاءَ في ثلاثة الماء والكلأ والنار"[١] وفي الوقت ذاته، نهى عن اتخاذ الحمى ميزة خاصة للفرد دون القبيلة فقال: "لا حمى إلا لله ولرسوله"[٢] وإلى جانب ذلك نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم حمى أحماءً لبعض القبائل، فحمى لوفد جرش وقال: "إن لهم حماهم الذي أسلموا عليه، فمن رعاه بغير بساط أهله، فما له سحت"[٣] وهو من قبيل الإقطاع والتمليك: (كل قوم لما أسلموا عليه)، وقد ورد تمليك القبائل غالباً بلفظ أقطع، وأحياناً بلفظ أحمى كما مرّ قبل قليل، وهي ملكية مشروطة بعدم منع الفصل من الموارد التي هي ملك مشاع.

وهناك شكل ثان من الأحماء، وهو ما أحماه الرسول والخلفاء من بعده من أرضين للخيل الغازية في سبيل الله، أو نعم الصدقة إلى أن توضع في مواضعها وتفرق في أهلها وهو تفسير لقوله صلى الله عليه وسلم (لله ولرسوله)، كما هو في حمى النقيع، وحمى عمرُ بن الخطابِ حمى الربَذة، وحمى ضَريَّة. ودخل في حمى ضرية ستة أمواه من مياه بني عبس، ومثلها من مياه بني أسد[٤] واستعمل عليه عمر مولاه هنيّ[٥] وفي عهد عثمان زادت حاجة المسلمين إلى الحمى، فوسع عثمان في الحمى حتى دافع عن نفسه قائلاً: "وأما الحمى فإن عمر حمى الحمى قبلي لإبل الصَّدقة، فلما وُلّيت زادت إبلُ الصدقة فزدت في الحمى"[٦].

ويبدو أن توسيع الحمى يكون أحياناً على حساب ملكية القبائل الخاصة، ولذا اصطدمت الدولة بالقبائل أحياناً خاصة أن الحمى لا يكون إلا في المناطق الخصبة، وقد يعمدون إلى التحريش بالعامل على الحمى أو القيام بالحفائر، وإحياء ما حول الحفائر، أو حفر الآبار كأرض موات، فيستملكها الفرد فتنشأ الملكية الخاصة داخل

---

(١) الأموال: ٤١٣-٤١٤.

(٢) السمهودي: وفاء الوفاء، ٢/٢٢٤. الأموال: ٤١٣.

(٣) حميد الله: الوثائق السياسية، ٨٩.

(٤) الأموال: ٢٧٤. البكري: معجم ما استعجم، (حمى، ضرية).

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٥/١١-١٢- والأموال: ٢٧٤.

(٦) الطبري: ٤/٣٥٤.

الحمى (الملكية العامة). ولما وليَّ ابراهيم بن هشام المدينة احتفر بالحمى (حمى النقيع) حفرةً بالهضبة اليمنى على ستة أميال من ضرية على طريق البكرة إلى ضرية سماها النامية، وأخرى بناحية شعبى ولما هلك ابن هشام احتفر جعفر بن مصعب بن الزبير حفيرة إلى جنب حفيرة هشام[1] فالحفائر الجديدة تلغي ملكية الحفائر القديمة، وللمالك الجديد حق إحياء الأرض حول الآبار. وتقليص مساحة المراعي.

ومن المثير جداً أن النزاع قد يحتدم بين القبائل على الماء والكلأ، فإن احتكموا إلى السلطة فضت المنازعات بأن تحمي الدولة تلك المنطقة المتنازع عليها، ومن حق القبائل التي تستولي الدولة على مناطق كلأها وتجعلها حمىً أن تسمح لها بالرعي، ولذا قال عمر بن الخطاب لأعرابي لما اعترض عليه في الإحماء (والله لولا ما أحمل عليه في سبيل الله ما حميت من الأرض شبراً في شبر »[2].

وقال يوصي عامله على حمى ضرية، وقد أدرك خطورة الحمى وأهمية الكلأ للبدوي: «والله إن هذه لبلادهم، قاتلوا عليها في الجاهلية، واسلموا عليها في الإسلام، ولولا النعم الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت على الناس من بلادهم شيئاً »[3] فالبدوي الذي يعتمد في حياته على الماء والكلأ له عذر كبير في مقارعة السلطة إن استولت على مراعيه وحمتها، وقد يدخل ساحة الموت مع قبائل أخرى إن دخلت حماه، وهذا من شأنه أن يعمّق الإنتماء القبلي للمحافظة على ملكية القبيلة العامة. وبالتالي يجعل الفرد يندغم في القبيلة كي تستقر حياته.

وتظهر أحماء شخصية، إذ حمى الولاة أحماء شخصية منها حمى الوليد بن عقبة فيما بين الجزيرة وظهر الحيرة[4]. وحمى العَذيب الذي حماه زياد بن أبيه

---

(١) صالح العلي: (الحمى في القرن الأول الهجري) ٥٨٨-٥٨٩

(٢) الأموال: ٢٧٥.

(٣) ابو يوسف: الخراج، المطبعة السلفية د.ت. ١٠٥.

(٤) الاغاني: ١٣٤/٥.

بناحية العذيب، وأرعاه مسكينا الدارمي[١] وحِمى عبد الواحد بن الحارث بن الحكم المعروف بمرج عبد الواحد في الجزيرة[٢].

وكان شأن الحمى عند ولاة المدينة عظيماً، واستعملوا عليه عاملاً وحده وكانت إصابته فيه عظيمة، وكان لحواطة سلطان عظيم، وحواط كل ناحية سادة القوم وأشرافهم، وكان يقال لعامل الحمى عامل الشرف[٣]، وكان عامل الحمى أحياناً يمنع الناس من الرعي في الحمى، فلما خرج أبو زبيد في تغلب ليرعيهم منعه الربيع بن أوس الطائي فشكى أبو زبيد أمره إلى الوليد بن عقبة فأعطاه ما بين القصور الحمر من الشام إلى القصور الحمر إلى الحيرة وجعله له حمى وأخذها من الربيع فقال أبو زبيد يمدح الوالي الوليد بن عقبة:

لعمر أبيكَ يا بن أبي مُرِيٍّ ... لغيرُكَ من أباح لها الديارا

أباحَ لها أبارقَ ذات نوْر ... ترعّى القفُّ منها والعَرارا

بحمد الله ثم فتى قريشٍ ... أبي وهبٍ غدتْ بُطناً غزارا

أباحَ لها ولا يحمي عليها ... إذا ما كنتم سنة جزارا[٤]

كان الحمى مظهراً من مظاهر نظام الكلأ، وإذا كانت الأحماء في العصر الأموي قليلة فإن هذا لا يعني أبداً أن نظام الكلأ كان هامشياً في حياة العرب، في كلّ من الشام والعراق ونجد والحجاز فعلى العكس من ذلك كان نظام الكلأ مسيطراً على بادية الشام والعراق وعلى معظم نجد إن لم يكن كلها، وبوادي الحجاز أيضاً. وليست منازعات القبائل وغاراتها إلا مظهراً آخر من مظاهر سيطرة نظام الكلأ فنزاعاتهم كانت على المراعي مرّة، وعلى عيون الماء مرّة أخرى. وفي الحمى نلمح علاقات البداة مع السلطة، وعلى الأغلب هي علاقات نزاع واغتصاب لا علاقة مودة. وأكثر الشعراء من الحديث عن الحمى، كما سنلحظ في فصل الاحتجاج الاقتصادي.

---

(١) الاغاني: ٢٢١/٢٠.

(٢) معجم البلدان: مرج عبد الواحد.

(٣) السمهودي: وفاء الوفاء، ٣٢٣/٢.

(٤) الأغاني ١٥٠/٥ القف: ما يبس من البقول. جزارا: جزراً من الجدب والشدة.
أما أبو زبيد فهو: المنذر بن حرملة الطائي القحطاني عاش زمناً في الجاهلية أدرك الإسلام ولم يسلم، استعمله عمر على صدقات قومه.

الوجه الثاني من وجوه نظام الكلأ نظام الصدقات، والصدقة هي «زكاة أموال المسلمين من الذهب والورق والإبل والبقر والغنم والحبّ والثمار»[١] وقال مالك ابن أنس (ولا تكون الصدقة إلا في ثلاثة أشياء في الحرث والعين والماشية»[٢] ثم اقتصرت الصدقات على المواشي وهو اقتصاد الصحراء وفي غير المواشي عرفت بالزكاة.

وحث الإسلام على الاعتناء بالصدقات وبيّن أصولها، ونصابها، وزمن جمعها، ومكانها، وكيفية توزيعها. اعتماد البداة في معاشهم على الماء والكلأ، وعدم اعتمادهم على العطاء والرزق لعدم مشاركتهم المسلمين في الجهاد لا يلغي اهتمام المسلمين بهم، فالأعراب مادة الإسلام في الجزيرة، وقال عمر في وصيته لمن سيخلفه «وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم مادة الإسلام» وقال: «الاعراب الذين هم أصل العرب ومادة الإسلام أن يؤخذ منهم صدقاتهم على وجهها، ولا يؤخذ منهم دينار ولا درهم، وأن يرد على فقرائهم ومساكينهم»[٣].

لم يكن قرار عمر بن الخطاب قراراً نظرياً في رفع الفقر عن الأعراب والمتبدّين إنما كان قراراً عملياً نستنتجه من قوله لمعاذ بن جبل حين كان على الجند في اليمن فبعث إليه بثلث صدقة الناس، فأنكر عليه عمر صنيعه، وقال: «لم أبعثك جابياً ولا آخذ جزية، ولكن بعثتك لتأخذ من أغنياء الناس فتردها على فقرائهم، فقال معاذ: ما بعثت إليك بشيء، وأنا أجد أحداً يأخذهُ مني، فلما كان العام الثاني بعث إليه شطر الصدقة فتراجعا بمثل ذلك، فلما كان العام الثالث، بعث إليه بها كلها، فراجعه عمر بمثل ما راجعه قبل ذلك، فقال معاذ: ما وجدت أحداً يأخذ مني شيئاً»[٤].

---

(١) الأموال: ٢١.

(٢) مالك بن أنس: الموطأ: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي: المكتبة الثقافية/ بيروت ط٢-١٩٩٢: ٢٤٥/١.

(٣) الأموال: ٧٨٣.

(٤) الأموال: ٧٨٤.

موارد الصدقات يجب أن تبقى محلية، تؤخذ من أغنياء القبيلة وتصرف على فقرائها، ولكن ذلك لم يكن دائماً[١] فأحيانا كانت تصرف نصف موارد الصدقات في فقراء العشيرة، ويحمل النصف الآخر إلى المدينة، وكان رأي عمر بن عبد العزيز أن تقسّم الصدقات كلها في القبيلة[٢]. وكثيراً ما كان سعاة الصدقة يتعدون على الناس، ويتجاوزون الحدود الشرعية، وكان جوان بن عمر بن أبي ربيعة على تبالة فحمل على خَثْعَم في صدقات أموالهم حملاً شديداً، فجعلت تاريخاً إذ قال أحدهم:

ولو شهدَتْني في ليالٍ مضين لي　　　لعاينَّ مُرّاً قبل عامِ جُوان[٣]

واعتدى عمرو بن عتبة بن أبي سفيان على الكلبيين فقال عمرو بنُ العدّاء:

سعى عِقالاً فلم يترك لنا سَبَداً　　　فكيف لو قد سعى عمرو عِقالين

لأصبح الحيُّ أوباداً ولم يجدوا　　　عند التفرُّقِ في الهيجا جِمالين[٤]

وفي المقابل كانت القبائل تمنع الصدقات أحياناً، وقد تعتدي على العامل إن جار في جبيها، وأشار المخبَّل بن شرحبيل البكري إلى امتناع بني زهيرة على مصدّق بني كلب فقال:

فدىً لبني زهيرةَ يوم أقْرٍ　　　وقد خذلوا بها أهلي ومالي

فهم منعوا مظالم آل بكرٍ　　　وقد وردوا لها قبل السؤال[٥]

هذا النص يوحي بأن المصّدقين قد يجورون في جمع الصدقات حتى رآها البداة مظالم كما سنراها عند الراعي النميري، وعمرو بن أحمر وليلى الأخيلية وكثيرين، فوردوا إلى الخليفة أو الوالي يشكون إليهم ضيق الحال، ويشكون إليهم إضرار العريف بالصّدقات فقالت ليلى الأخيلية للحجاج: «أصلح الله الأمير، أضر

---

(١) صالح العلي: «تنظيم جباية الصدقات في القرن الأول الهجري» (مجلة العرب: ج١/ سنة٢تموز/١٩٦٩) دار اليمامة – الرياض: ٨٧٥-٨٧٦.

(٢) نفس المصدر: ٨٧٨.

(٣) الأغاني: ٧٩/١.

(٤) ابن منظور: لسان العرب: عقل. عقال: صدقة سنة.والسبد: شيء.

(٥) معجم البلدان: أقْر.

بنا العريفُ في الصدقة، وقد خَرِبتْ بلادُنا، وانكسرت قلوبنا، فأخذ خيار المال قال: اكتبوا لها إلى الحكم بن أيوب فليبتع لها خمسة أجمال، وليجعل أحدها نجيباً واكتبوا إلى صاحب اليمامة بعزل العريفَ الذي شكته»[١].

وكانت شكوى عمرو بن أحمر أشدّ حدة:

يا يحى يا بن ملوك الناس أحْرَقَنا ظلمُ السُّعاة وبادَ الماءُ والشجرُ

إن تنب يا ابنَ أبي العاصي بحاجتنا فما لحاجتنا وِرْدٌ ولا صدر[٢]

وقد يتجاوز الأمر الاحتجاج إلى القتال والصدام كما امتنع بنو زهير على سعد بن مسعود المازني، وطيء تعدّت على المُجالد ، فقتلته وألقته في البئر فقال شاعرهم:

سلوا الحصيليةَ عن مجالدِ

نحن طرحناه بلا وسائدِ

بجمة البئر ورغم القائدِ[٣].

وكان لنظام الكلأ تأثير شديد في الشعر الأموي، فظهر شعر الشكوى والاحتجاج، شكوى الفقر، والاحتجاج على سياسة الأمويين في التضييق الاقتصادي، أو شكوى السعاة كما سنرى في فصل الشكوى والاحتجاج الاقتصادي.

٤- نظام الصناعة والحرف

مارس أشراف العرب في الجاهلية وصدر الإسلام بعض الصناعات الخفيفة، وحرف ذلك العصر، فكان أبو طالب عطّاراً، وأبو بكر بزّازاً، وكذا عثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف، وكان سعد بن أبي وقاص يبري النُّبل، وكان عمرو بن العاص جزاراً، وكان العوام أبو الزبير خياطاً، وكان الوليد بن المغيرة حدّاداً، وعقبة

---

(١) الأغاني ١١/ ٢٥٠.

(٢) ديوان عمرو بن أحمر الباهلي، تحقيق حسين عطوان مجمع اللغة العربية- دمشق: ١٠٣، نبا بحاجته: أهملها، الورد: أن ترد الإبل الماء لتشرب. الصدر: أن تنصرف عن الماء.

(٣) معجم البلدان: الحصيلية.

ابن أبي معيط خماراً، وكان أبو سفيان يبيع زيتاً وعتبة بن أبي وقاص نجاراً، وأمية بن خلف يبيع البرم، وعبد الله بن جدعان نخاساً، والنضر بن الحارث يغني بالعود، وكان محمد بن سيرين بزازاً، ومَجمِّع الزاهد حائكاً، وأيوب السختياني يبيع جلود السختيان فنسب إليها، وكان المسيب أبو سعيد زيّاتاً، وكان ميمون بن مهران بزازاً، وكان مالك بن دينار ورّاقاً(١).

ويروي الكتاني أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما فتح خيبر سبى فيما سبى ثلاثين قيناً، وكانوا صناعاً وحدّادين، فقال: اتركوهم بين المسلمين ينتفعون بصناعتهم ويتقوون بها على جهاد عدوّهم، فتركوا لذلك، فمن تعلم عليهم الصناعة سمي صانعاً أو معلماً، ومن كان من أصلهم سمي قيناً(٢).

وتخصص اليهود بصياغة الحليّ، وبعد جلاء بني قينقاع أخذ رسول الله آلة صياغتهم(٣) فحليّت السيوف وصيغت الأساور والدمالج والخلاليل والخواتم والأقرطة والتيجان وغيرها، ووجود معدن الذهب في حمى ضريّة ساعد على انتشار هذه الصنعة، وكان معدن الذهب معروفاً «بمعدن حِلّيت» وسمي أيضاً «بالنجادي»، نسبة إلى نجاد بن موسى بن سعد بن أبي وقاص. وقال البكري إنه: «لم يعلم في الارض معدن أكثر منه نيلاً، لقد أثاروه والذهب غالٍ بالآفاق كلها فأرخصوا الذهب بالعراق وبالحجاز»(٤).

وشاعت صناعة السيوف والرماح بنجد خاصة في «حِجْر» وعرفت السيوف الحنفية وعلى الأرجح نسبت إلى قبيلة بني حنيفة التي كانت تقطن اليمامة في نجد(٥).

---

(١) ابن قتيبة: المعارف. ص٥٧٥.

(٢) الكتاني: التراتيب الإدارية: حسن جعنا- بيروت-: ٧٥/٢.

(٣) تاريخ الطبري: ٤٨١/٢.

(٤) البكري: معجمما استعجم، ٨٧٥/٣.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١٨٥/٦.

وشاعت صناعات الجلود في الطائف، واشتهر النعل الطائفي والأهُب الطائفية[١] وفي مكة كانت حوانيت لأصحاب الأدم[٢]، تبعاً لذلك عرفت دباغة الجلود، أما صناعة المنسوجات فوجدت في قرية الوشْم في نجد والظهران، ونسبت إليها الثياب الظهرانية. ونسجت النساء الصوف والقزّ والقطن. وأتقنها العراقيون جداً، وأجادوا نسج الحرير والديباج والإبريسم المحلى بسطور من الكتابة على حافة القماش، مطرز عليها أسماء الخلفاء أو بعض الولاة. وبعض عبارات الدعاء، وغالباً ما تكون بخيوط من الذهب. أو لون يخالف لون قماش الثوب أو العلم أو الفراش المطرز[٣] ويُعدّ زياد بن أبيه أول من أدخل صناعة المنسوجات الكتانية في البصرة، ولتنشيط هذه الصناعة أقدم الوالي زياد على ارتداء ملابس تصنع من الكتان، وقلده كثير من السكان مما نشطّ هذا النوع من الصناعة. أما صناعة الخزّ في العراق فإنها قد انتقلت إليهم من النجرانيين الذين استقروا عهد الخليفة عمر بن الخطاب في العراق، وأخذوا ينتجون الحلل النجرانية والطيالسة[٤].

وعرف العرب صناعة العطارة، وكان للعطارين أسواق في المدينة ومكة والشام والبصرة والكوفة، وأكثر كتاب الأغاني من الإشارات إلى العطارة، وأنواع العطر المستخدمة، وأشهر الذين صنعوها. أو تعطروا بها رجالاً ونساءً، عرباً وجوارياً، ويذكر أن عبد الله بن جعفر صنع عطر (الغالية)، ويعد أول من صنعها في الحجاز، وسماها الغالية، وهي نوع من الطيب يركب من المسك والعنبر والعود والدهن[٥] وكانت جدة عمر بن أبي ربيعة عطّارة يأتيها العطر من اليمن[٦].

ومن أنواع الحرف أيضاً الصباغة، وكان لهم سوق في المدينة ومكة والعراق وكذلك صناعة الخشب لصنع الأثاث المنزلي كالمناضد والكراسي والأبواب والأطباق،

---

(١) عبد الله السيف: الحياةا لاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز، ١٥٩.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة ٢٦٣/٢..

(٣) حمدان الكبيسي: حضارة العراق (الصناعة) : ٢٨٨/٥.

(٤) المصدر نفسه: ٢٨٥/٥-٢٨٦.

(٥) ابن رستة: الأعلاق النفيسة: ليدن- ١٨٩١م: ١٩٨. وانظر الأزرقي: أخبار مكة: ٢٥٤/٢- ٢٥٩.

(٦) الأغاني: ٧٤/١.

وكان للنجارين سوق خاص في مكة[١]. ودخلت الأخشاب في صناعة السفن والمراكب والقوارب الخشبية، وتفنن البصريون في صنع أبواب البيوت وسقوفها من جذع النخل[٢] وفي عام ٤٩هـ أمر معاوية بن أبي سفيان بجمع الصناع والنجارين، ورتبهم في السواحل، وكانت الصناعة في الأردن بعكّا... ونقلت أيام هشام إلى صور[٣].

ومن الطبيعي جداً أن تشيع حرفة البناء وما يتبعها من أدوات لإنشاء المنشآت الحضرية والعمرانية في الحجاز والأمصار ونقش الحجارة[٤].

وشاعت أيضاً بعض الحرف اليدوية الخفيفة التي تعتمد على المنتجات الزراعية كالحصر والقفاف والمكاتل والأطباق من الخوص، والأقفاص من جريد النخل، وكذلك الخيام، واستعملوها في سقف المنازل[٥] ونجد في المصادر حرف الخياطين والغسالين والنساخين والخبازين والوراقين وحفاري الآبار وغيرها. وفي أغلب الأحوال كانت الحرف السابقة يقوم بها عمال مأجورون لأرباب العمل مقابل أجرة معينة[٦]. أو رقيق مأذونون بالعمل، أو الموالي الذين يشتغلون في حوانيتهم الخاصة، أو في بيوتهم وأصبح مألوفاً لدى أصحاب المهن انتسابهم إلى المهنة كالزّيات والسمان[٧].

وعلى ذلك لم يكن للصناعة شأن يذكر، إنما بدأت الحرف والصناعات الخفيفة تتوسع كما كانت في سابق عهدها، خاصة أن الدولة أصبحت بحاجة إلى منشآت حضارية تتناسب وحجم الدولة.

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة: ٢٤٣/١.

(٢) حمدان الكبيسي: ٢٨٩/٥.

(٣) السمهودي: وفاء الوفاء، ٢٠٤/٢.

(٤) فتوح البلدان: ١٢٤، ١٢٥.

(٥) الأزرقي: أخبار مكة، ٢٦٣.

(٦) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية: ٢٠٠، وانظر: عبد الله السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز، ١٦٨.

(٧) عبد الله السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز، ١٦٩، ١٧١.

ونوجز ما قدمناه آنفاً من أن أنظمة اقتصادية عدّة سادت في بيئات الشام والعراق ونجد والحجاز، ومارستها الفئات الاجتماعية كلها. مباشرة، أو بالوكالة ولكن النظام الزراعي كان أكثر النظم الاقتصادية سيطرة وتأثيراً في المجتمع والشعر. وهذا أمر طبيعي جداً بعد أن تحولت المنطقة العربية من بادية يعتمد أهلها على الرعي والانتقال حيث مساقط الغيث، ومناطق الكلأ إلى زُرَّاع بفعل الفتوحات الإسلامية، وكره التبدي بعد الهجرة. وظهرت الملكيات الزراعية الكبيرة وما يتصل بها من الملاكين الرأسماليين الكبار، والفلاحين الصغار، فنشأت الملكيات الزراعية، وبرز الصراع على الملكية بين كبار الرأسماليين والعمال الفلاحين، مرّة وبين الملاكين الكبار والسلطة مرّة ثانية.

وإلى جانب النظام الزراعي، والإتجاه نحو المدن والاستقرار كان النظام التجاري الذي لا يقل أهمية عن سابقه، ونجده يسيطر على الممرات المائية، وطرق القوافل التجارية العالمية في كلّ من الحجاز والبحر الأحمر والخليج العربي. مما كان للتجارة دور كبير في استقرار المنطقة ورفدها بالمال، لتقف على منصة الحضارة العالمية لتشيد أروع صروح الحضارات العالمية فيما بعد. ويستمر نظام الكلأ في البوادي البعيدة عن طرق التجارة العالمية، وكذلك عن المدن الكبرى كاللد والرملة والرصافة والبصرة والكوفة وواسط ودمشق والمدينة ومكة والطائف وغيرها، ويستمر صراع البدوي مع البيئة، ويتصعد صراعه مع السلطة نتيجة محاولات سيطرة المدن على اقتصاد البادية ووجد نظام الصناعة والحرف في المدن الكبرى، ولم يشكل أحد النظم الاقتصادية الخطيرة، إنما كان نظاماً اقتصادياً لا يستهان به، مارسه الرقيق والموالي، وبعض فقراء العرب، وكانت صناعات بسيطة وحرفاً يدوية ضرورية لحاجات الحياة، ولم يصل الأمر إلى حد السيطرة على الأسواق العالمية بصناعاتهم، وظل العرب بعيدين عن الصناعات والحرف مستهينين بها، ومارسها الأعاجم واليهود والنصارى.

وكان للنظم الاقتصادية المسيطرة في كل بيئة أثر بيّن في الشعر الذي يعبر عن هموم العيش، عيش البداة، وهموم أبناء المدن، وحياة المترفين ويغرقون في المال والنعيم.

الفصل الثاني

البنية الاجتماعية

أولاً: فئات المجتمع الرئيسية وأثرها في التطور الاقتصادي

تشكلت البنية الاجتماعية في العصر الأموي من فئات المجتمع الرئيسية الثلاث:

أ- العرب

ب- والموالي

جـ- والرقيق

وانقسمت فئة العرب إلى فئتين وهما: الفئة الارستقراطية بنوعيها الدينية والدنيوية. والفئة الثانية ضمت عامة العرب الذين لم تتوفر فيهم شروط الارستقراطية النبيلة وكانوا حضراً وبدواً. وكذلك كانت فئة الموالي:

الفئة الارستقراطية التي هي من أصل أعجمي، كالدهاقنة وكبار الأعيان والمسؤولين.

والفئة الثانية: ضمّت باقي الموالي ومنهم، موالي العتاقة.

أما الرقيق فكانوا في فئة واحدة، وملكها العرب والموالي على السواء.

سنرى في هذا الفصل ما الدور الاقتصادي الذي قامت به الفئات الرئيسية الثلاث.

١- العرب

شكلت القبيلة العربية الركيزة الأولى للمجتمع في نجد والحجاز والشام والعراق. وكلّ قبيلة كانت تضم عدداً من القبائل تقل الروابط بين أفرادها كلما توسعت القبيلة من الفخذ إلى العشيرة إلى الفصيلة إلى الحي، ويشترك كل أفراد العشيرة في دفع دية القتل. وكان لكل قبيلة ديوان خاص لدى الدولة فيه أسماء أفرادها ومواليهم، وكان عطاء القبائل يدفع إلى العرفاء بموجب الأسماء المدونة في ديوان القبائل.

كانت هذه الروابط في البوادي أمتن منها في المدن. فاستقرار القبائل في المدن وإسهامهم في الحياة الاقتصادية، وانتماؤهم إلى المدن، ونظام إنزالهم فيها مع عشائر ليست عشائرهم، أدى إلى تخفيف العصبية القبلية، وليس إلى إلغائها، فضلاً عن الدين الإسلامي الذي يدعو إلى المساواة بين جميع المسلمين.

وساعدت الهجرات المستمرة نتيجة الفتح أو ظروف أخرى إلى التقليل من شأن الروابط القبلية، وصارت القبيلة أقل الروابط شأناً لديهم في مواطنهم الجديدة ليس ذلك فحسب إنما تفرقت القبيلة الواحدة في مواطن متفرقة من الجزيرة العربية كقريش، بعضهم أنجد، وبعضهم استقر في الطائف، وكثير منهم استقر في الأمصار المفتوحة؛ الشام والعراق ومصر. وجلهم استقر في الحجاز؛ مكته ومدينته وطائفه.

ويدلنا التوزيع السكاني للعرب في بلاد الشام والعراق قبل الفتح على أن العرب كانوا قد استقروا في المنطقتين، وكانت لهم إمارة الغساسنة في الشام، وإمارة المناذرة في العراق. وللإمارتين علاقات اقتصادية وسياسية مع باقي العرب في الجزيرة العربية.

والغساسنة قومٌ من حمير، وكان معظم العرب في بلاد الشام يمانية بينما المناذرة هم قوم من لخم، وشهدت مملكة المناذرة علاقات واسعة النطاق مع عرب الشمال، وشملتها غارات البدو من نجد، شمال الجزيرة وكانت في صراع طويل مع مملكة كندة. ونجد موجات من المهاجرين العرب من الجزيرة العربية يستقرون في

شرق العراق. ويتركون الغزو والنهب ويتوطنون، ويمارسون النظام الزراعي بدلاً من نظام النهب والغزو وتتبع مساقط الغيث.

دخول الفاتحين إلى الشام، ورغبة عمر بن الخطاب في عدم تبدّيهم جعلاهم يقيمون في الحواضر والمدن، ويتركون التبدّي، مما كان لوجودهم أثر في تطور الحياة الاقتصادية، والاتجاه إلى بناء المدن، وإنشاء المنشآت الحضارية للاستقرار فيها.

تنبه عثمان بن عفان ومعاوية من بعده إلى ظاهرة مهمة جداً وهي الإقطاع وإحياء الموات، وما لها من دور في استمرار التوطين، وتطليق حياة التنقل واللاإستقرار، ومن ثم الاتجاه إلى تنمية الموارد المالية للفرد والدولة معاً، والسعي إلى تطوير اقتصاد الدولة، والالتفاف حول العاصمة الجديدة دمشق، فنزلها أشراف العرب خاصة القرشيون الذين كانوا يحملون في داخلهم الحسّ التجاري، وحسّ التميز القبلي، وكان فتحاً جديداً قد فتح أمامهم.

وأدرك عمر بن الخطاب رغبة القرشيين في التوجه إلى المناطق المفتوحة، والسعي إلى التجارة، وحيازة الأملاك الواسعة، وكان قد منعهم إلا ما كان من الولاة الذين أقرّهم على المناطق المفتوحة كزيد بن ثابت، وسعد بن أبي وقاص، والزبير ابن العوام. وضيق على قريش أنفاسها. ولم ينل أحد معه من الدنيا شيئاً إعظاماً له، وإجلالاً، وتأسياً به واقتداء[١] ومن بين احدى عشرة ولاية، لم يكن لأمية سوى ولاية واحدة ولم يكن لعدي -فرع عمر- ولاية واحدة من هذه الولايات، ولم يكن لقريش سوى ثلاث ولايات. ولذا منع كبار الصحابة البدريين من الجهاد[٢] ولذا وجدناه لم يتورع عن مصادرة أموال القرشيين الذين يستغلون مناصبهم للإثراء، فصادر ثلاثين ألفاً لعتبة بن أبي سفيان عامله على الطائف[٣]. وسجن أبا سفيان لتلاعبه بأموال أرسلها معاوية معه من الشام، ولم يطلق سراحه حتى أداها، وعنفه على ذلك[٤].

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: تحقيق طه محمد الزبيري: القاهرة ١٩٦٧، ٢٧/١.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١٤٦/٢.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٥٠/١.

(٤) الأزرقي: أخبار مكة، ١٦٥/٢-٢٣٦ وابن عبد ربه: العقد الفريد، ٤٩/١.

ولم يتساهل مع نساء كبار قريش، حين أقرض هنداً أربعة آلاف من بيت المال للتجارة، فخرجت إلى بلاد كَلْب متاجرة، واشترت وباعت، ثم عادت إلى المدينة وشكت إلى عمر سوء الحال فقال لها: (لو كان مالي لتركته لك، ولكنه مال المسلمين، وهذه مشورة لم يغب عنها ابو سفيان، فبعث إليه فحبسه حتى أدّته[١].

وكانت القبائل الوافدة إلى بلاد الشام تتفرق في الحواضر والبوادي، وتنزل المنازل التي جلا عنها أهلها، وقسمت المنازل خططاً، بحسب القبائل التي تنزلها. فكانت قبائل حمص كلها يمنية، لأن القبائل اليمانية كانت تؤثر المضي إلى موطن أسلافها، وبذا غلب العنصر اليماني على قبائل الشام[٢].

واحتلت قبيلة كلب القضاعية بادية السماوة كلها، لا يخالطهم فيها سواهم وهي تمتد من أطراف بلاد العرب الشمالية حتى الفرات وتشمل بادية الشام[٣] وجند فلسطين كانوا أخلاطاً من العرب، من لخم وجذام وعاملة وكندة وقيس وكنانة[٤] أما جند الأردن فنجد فيه بطوناً من غسّان ومذحج وقضاعة وهمدان وكلب وعك[٥] بينما حوران نزلها خليط من لخم وجهينة وذبيان وغسان[٦] في حين نزلت دمشق اليمانية من قضاعة وغسان وحمير إلى جانب قلة من قيس وقريش ونزلت القيسية قنسرين وما حولها والجزيرة الفراتية نزلتها القبائل الربعية والمضرية، واستقرت تغلب ما بين الخابور والفرات ودجلة[٧]. ونلحظ من توزيع القبائل في الشام أن قريشاً لم تستقر إلا في دمشق، وهذا ما جعلها تشكل فئة ارستقراطية.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٢١/٤.

(٢) احسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي: دار الفكر ط٢- ١٩٧٢: ص٢٣٦.

(٣) المصدر السابق: ٢٣٩.

(٤) اليعقوبي: البلدان: ٣٢٩.

(٥) المصدر السابق: ٣٢٧ انظر: احسان النُص: العصية القبلية، ٢٣٨.

(٦) احسان النص: العصبية القبلية، ٢٣٨.

(٧) المصدر السابق: ٢٣٨-٢٣٩. انظر ابن رسته: الأعلاق النفيسة/ ٣٢٤-٣٢٥. وانظر احسان النص: ٢٣٨.

واتبع في الشام نظام الأجناد في توزيع القبائل؛ توزعت الجيوش العربية أجناداً تعسكر قرب مدن الشام الرئيسية، وكل جند ينتسب إلى المكان الذي فيه لا إلى القبائل التي يتألف منها[١] وهذا من شأنه أن يقلل الانتماء إلى القبيلة مع الزمان، بعد أن بدأت المصالح الشخصية تغلب على المصالح العامة، خاصة بعد أن حلّ التنظيم والجيوش محل القبيلة غير المنظمة، ولذا نجد تميم الكوفة تقاتل تميم الشام.. وهكذا[٢].

وإذا جنحنا إلى العراق نجد أن أكثر عرب العراق كانوا من العدنانية على نقيض ما هو في الشام، وخططت البصرة والكوفة على نظام الأخماس والأسباع، فأخماس البصرة ضمت القبائل التالية:

١- خُمْس تميم وضبّة والرّباب.

٢- خمس عبد القيس

٣- خمس بكر بن وائل

٤- خمس الأزد

٥- خمس أهل العالية وتضم (قريشاً وكنانة وقيس عيلان، والأنصار)[٣] ونلاحظ أن قبائل البصرة كانت قليلة. أما الكوفة فكانت مقسمة إلى خطط مختلفة بين القحطانيين والعدنانيين، فبلغ عدد القحطانيين اثني عشر ألفاً، وعدد العدنانيين ثمانية آلاف.

ويرى إحسان النّص أن الكوفة كانت تضم صفوة الارستقراطية العربية، وبيوت الشرف المعروفة منذ الجاهلية، وأعلام رؤسائها. ومن البيوت العريقة الشرف التي استوطنت الكوفة آل زرارة من تميم، وآل ذي الجدين من ذهل بن شيبان، وآل حذيفة بن بدر الفزاريون من قيس عيلان، وآل الأشعث بن قيس من كندة، وهذه البيوت الأربعة يجمع أهل النسب أنها كانت موئل الشرف[٤].

---

(١) المصدر السابق- ٢٣٧.

(٢) أنساب الاشراف: ٤/ق١/١١٤.

(٣) احسان النص: العصبية القبلية، ٢٢٨.

(٤) احسان النص: العصبية القبلية، ٢٢٠.

وعلى كل فالارستقراطية في العراق والشام كانت في شكلين:

أ) الأرستقراطية الدينية: وتضم طبقة الصحابة فالتابعين.

ب) والأرستقراطية الدنيوية: وتضم أشراف القبائل اليمانية الذين اعتمدهم معاوية بن أبي سفيان، وجلهم في الشام، وأشراف القبائل المضرية في العراق.

وكان العراق أكثر استقبالاً لصحابة رسول الله من غيره من الأمصار الإسلامية، وذكر ابن سعد: «أنه هبط الكوفة سبعون بدرياً»[١]، وفي موطن آخر (..وثلاثمائة من اصحاب الشجرة)[٢]. وترجم ابن سعد في طبقاته لمئة وخمسين صحابياً نزلوا الكوفة[٣]. وترجم لمئة وثلاثة عشر صحابياً، نزلوا الشام وكان معظمهم قراء وفقهاء ومحدّثين منهم، أبو الدرداء وزوجته أم الدرداء[٤] ومعاذ بن جبل وأبو أمامة الباهلي، وعبادة بن الصامت. وأسندت المناصب القيادية في حركة الفتوح... إليهم[٥] أي الصحابة، وكان لهم دور بيّن في الحياة الثقافية لا سيما البصرة والكوفة.

وإذا تحولنا إلى الحجاز بمدنه الثلاث: مكة والمدينة والطائف، فقد شكل الأنصار والمهاجرون الطبقة العليا فيها، وكانوا قد حازوا غنائم خيبر وبني النضير وبني قينقاع، وكذلك إقطاعات الصوافي، وغنائم الفتوح، فضلاً عن العقلية التجارية للمكيين خاصة، واهتمام الأنصار وأهل الطائف بالزراعة واتجاههم نحو اقتناء الأرضين في الحجاز وخارجه.

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٦/٤-٦٥.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٦/٦-٦٥-، البلدان: اليعقوبي: ٣١٠-٣٠٠- يوسف خليف (حياة الشعر في الكوفة حتى نهاية القرن الثاني الهجري دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨: ص ١٥٩.

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ٧/٣٨٤-٤٣٩، وانظر نجدة خماش (الشام في صدر الإسلام (من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية - دراسة للأوضاع الاجتماعية: دار طلاس: ٩٧.

(٤) نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام، ص١٠٩.

(٥) أحمد أمين: فجر الإسلام: ط٩-١٩٦٤: ١٧٩.

وكثرت الأموال في جيوب الفاتحين الأوائل من الصحابة والتابعين إلى جانب أسبقيتهم للإسلام ليكون الرجل أو المرأة من هذه الفئة الارستقراطية التي سيكون لها دور ضخم في مسيرة الحياة الاقتصادية، ومن ثمَّ في تشكيل الهوية الثقافية. ولذا اهتم الأشراف في العراق والشام والحجاز معاً في امتلاك الضياع والدور وحفر الأنهار والآبار في الحجاز، وكلٌّ سعى إلى أن يكون له نصيب في أراضي العاصمة الروحية. فاتخذ عبد الله بن عامر حياضاً في مكة، ونخلاً بعرفات، وأقام النباج، واتخذ قريتين أخريين، وغرس فيهما نخلاً، وأنبط عيوناً[1].

وأجرى معاوية فيها عشر عيون، واتخذ فيها بساتين، وبنى لنفسه دوراً يقال لها الرّقط[2] وسرد صالح العلي ثبتا طويلاً لبعض الأسر الملاكة في الحجاز، كآل علي بن أبي طالب، وآل أبي بكر، وعمر بن الخطاب، وسعيد بن العاص، وآل الزبير بن العوام، وبني أمية[3].

نشأت الارستقراطية الدينية في الدولة الإسلامية بعد ظهور الإسلام، ولم تعتمد على النسب والمولد، أو الثروة وارتفاع المكانة الاجتماعية، انما اعتمدت على الصحبة والسبق إلى الإسلام، وقد يكون نظام العطاء الذي سنّه عمر بن الخطاب، وسار عليه خلفاؤه من بعده له الدور الأكبر في بروز هذه الفئة الارستقراطية.

أما الفئة الارستقراطية الدنيوية التي اعتمدت النسب والمولد، فقد تمثلت بأهل البيوتات العظيمة من العرب المهاجرين الذين شكلوا الفئة العربية في الكوفة والبصرة[4]، وأشراف القبائل اليمانية في الشام والقيسية المهاجرة إليها[5] وكانت هجرات النجديين وغيرهم من أهل الجزيرة إلى العراق قد كثرت، وتنبه عثمان بن عفان إلى هذا الأمر مبكراً، فاقترح اقتراحاً مهماً جداً، عرض فيه على المقاتلين أن يرجعوا إلى الجزيرة، ويشتري رأسماليو أهل الحجاز ما غنموا،

(١) ابن حبيب، المحبّر ص١٥.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة ٢/ ٢٣٧.

(٣) صالح العلي: الحجاز في صدر الإسلام: ٤٤٦-٤٧.

(٤) ابن الفقيه: مختصر البلدان: ٦٧، ١٧٣.

(٥) نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام: ١٠١.

فاندفعت جماعات من أبناء قريش الارستقراطيين، في شراء أرض العراق، فاشترى طلحة ومروان بن الحكم والاشعث وشاركهم في ذلك رجال من العراق أيضاً[1].

وتتابعت هجرات أصحاب الثروات الضخمة من أشراف العرب إلى المناطق المفتوحة مشكلة الفئة الارستقراطية.

ونلمح في شرف العطاء ملمحاً اجتماعياً إلى جانب ملامحه الاقتصادية، فكان لا يفرض في البدء إلا لمن كان من أهل البلاء، وأصحاب السبق إلى الإسلام. وهذا تميّز سياسي وديني معاً. وبعد أن مات معظم الصحابة شغر (شرف العطاء) وأصبح من حقوق السلطان الجديد الخاصة فكانوا يعطونه لمن يرون أنه يستحقه، ولمن كان من أهل القتال وحسن البلاء. مما يجعل للأهواء مدرجاً إلى حق منح شرف العطاء لمن يبلى بلاءً حسناً في الدفاع عن البيت الأموي. ومن هنا فالعلاقة وطيدة بين الفئة الاجتماعية، وشرف العطاء، والاتجاه السياسي.

وثمة جانب اقتصادي آخر لا يقل عن شرف العطاء، أترعت فيه الفئة الارستقراطية وهو الجوائز والهبات التي أغدقها بعض الخلفاء الأمويين على بعض الأسر المؤيدة للدولة، وبعض الشخصيات التي تسعى إلى مساعدة الأمويين في إرساء قواعد دولتهم، وكذلك عملت على استمالة بعض الشعراء من الأسر المعارضة كالحارث بن خالد المخزومي فكان أموياً على قرشيته.

ومن لم يك من أفراد الفئة الارستقراطية العربية بنوعيها كان من عامة العرب الذين شكلوا الفئة العربية، وانقسموا إلى قسمين؛ قسم استقر في البادية، وأبى الانخراط في صفوف المقاتلين العرب، أو المهاجرين إلى الأمصار المفتوحة، فشكلوا البداة. والقسم الآخر هاجر إلى الأمصار مع الفتوح، أو بعدها بقليل، فكوّنوا نواة العرب المسلمين في الأمصار المفتوحة. وبدخولهم الأمصار لا بدّ أنهم تأثروا بحضارتهم، وبطرق معيشتهم، وبنظام عملهم، ونظرتهم إلى العمل وحملوا معهم غير قليل من قيمهم العربية أو شيئاً من قبس الدين الجديد، فشاركوا إخوانهم المسلمين في العراق والشام ومصر في صنع الهوية العربية، وتكوين

(١) الطبري: ٤/ ٢٨٠-٢٨١.

ثقافتهم العربية الجديدة، فمنهم الجنود والقواد، ومنهم القضاة والرواة، والمحدّثون والفقهاء، والمعلمون والمؤدبون، والوزراء والعلماء والشعراء، وكذلك الصنّاع والتجار والزرّاع.

وإذا لم ينسَ العربي يوماً أنه الفاتح الجديد للبلاد، وحامل مشعل الحضارة الإسلامية الجديدة، والمنقذ للأعاجم والموالي وغيرهم من الضلال، والظلم الاجتماعي فإنه أحسّ الرفعة في داخله عليهم والتميز عليهم، وسعى إليهما بكل ما يملك ويقدر فزاد إلى إحساسه بالتفوق إحساساً آخر بالتفوق على أفراد المجتمع المسلم. وتمثّلت في معظم أفعاله وصنائعه وقيمه وعاداته الاجتماعية. فاعتمد العربي على مولاه في كثير من أعماله. ورفض العربي أن يتساوى بالمولى، وإن فاقه علماً وفقهاً وثقافةً وديناً، وهذا الأمر نفسه جعل العرب يأبون أن يصهروا إلى الأعاجم لأنهم أقلّ رتبة اجتماعية منهم. ومن قام بذلك لم يقابل بترحيب من الشعراء، وتعرّض للسانهم الذرب. وعرف عقيل بن علفة بعجرفيته وبذخه بنسبه، وكان لا يرى له كفؤاً، وكانت قريش ترغب في مصاهرته. تزوج إليه خلفاؤها وأشرافها منهم يزيد ابن عبد الملك تزوج ابنته الجرباء، وكانت قبله عند ابن عم لعقيل يقال له مطيع بن قطعة بن الحارث بن معاوية، وولدت ليزيد بنيًا درج فمات. وتزوج بنته عمرة سَلَمةُ بن عبد الله بن المغيرة، فولدت له يعقوب بن سلمة، وكان من أشراف قريش وأجوادها وتزوج أم عمرو بنته ثلاثةُ نفرٍ من بني الحكم بن أبي العاص: يحيى والحارث وخالد[1] ولما خطب إلى عقيل رجل من بني مرّة كثير المال يغمز في نسبه قال:

لعمري لئن زوّجتُ من أجل ماله ... هجيناً لقد حُبّتْ إليّ الدراهمُ

أأُنكحُ عبداً بعد يحيى وخالد ... أولئك أكفائي الرجال الأكارمُ

أبى لي أن أرضى الدنيّة أنني ... أمدّ عناناً لم تخنه الشكائمُ[2]

ورفض العُجير السلولي الأصهار إلى الموالي إذ كانت ابنته قد زوّجها خالها إلى أحد أغنياء الموالي في هجرة والدها، ولما رجع العجير وعلم بذلك رفض هذا

---

(١) الأغاني: ١٢/٢٩٦-٢٩٧.

(٢) الأغاني: ١٢/ ٣٠٨. عاذت بحقوي: لجأت إليّ.

الإصهار وقال:

ألا هل لبعجانَ الهلاليّ زاجرٌ وبعجانُ مأدومُ الطعامِ سمينُ

أليس أميرُ المؤمنين ابنَ عمِّها وبالحنو آسادٌ لها وعرينُ

وعاذت بحقوي عامرٍ وابنِ عامرٍ ولله قد بتّت عليّ يمينُ

تنالونها أو يخضبَ الأرضَ منكُمُ دمٌ خرَّ عنه حاجبٌ وجبينُ(١)

ومن اللافت للنظر أن معظم العرب المهاجرين كانوا جنوداً مقاتلين، اعتمدوا في حياتهم ونظام معيشتهم على نظام العطاء والرزق والغنائم، ويبدو أن العربي المهاجر كان لا يرى تميزه إلا في مواطن السيادة والتفوّق، ولذا برعوا في فنون القتال، وكادوا لا يحسنون غيره، ومن لم يك جندياً، كان ربَّ عمل وتجارة ومالك ضياع، وملك الموالي والرقيق، يساعدونه في عمله، وربما مارس الإشراف على عمله بنفسه مرّة، وبتعيين وكلاء له مرّة أخرى. وقال أحمد أمين عن علاقة الصحابة بالموالي «فإذا كان الصحابي تاجراً فمواليه أعوانه في التجارة، وإذا كان عالماً كانت مواليه تلاميذه وأعوانه في العلم ومن كان عندهم حسن استعداد نبغوا فيه بحكم مخالطتهم لسادتهم في السرّ والعلن، وملازمتهم لهم في الإقامة والسفر، ودليلنا على ذلك نافع مولى عبد الله بن عمر فقد أخذ عنه أكثر علمه، ويسمى المحدثون رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب ... الخ»(٢) ولا نعدم الفقراء المدقعين في الدولة الأموية، الذين يقفون على أبواب البلاط يشكون الفقر، وضيق الحال، وسوء المآل، وقد حرموا العطاء والرزق، ورضخوا للطبيعة القاسية بمحلها، وجدبها، وجفافها.

وإذا يممنا شطر البادية والبداة، وجدنا الأعراب الذين سكنوا المدينة وعبّروا عن حزنهم لفراقهم البادية بديمومة الحنين إلى الغضا والسدر وشوك القتاد، والناقة وألبانها، وكل ما له علاقة بحياة البادية ومن أشهر الذين عبّروا عن ذلك ميسون بنت بحدل الكلبية زوج معاوية بن أبي سفيان إذ قالت:

---

(١) الأغاني: ٧١/١٣ انظر ١٥٦/٢٤-١٥٧.

(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت، ١٥٥.

لبيتٌ تخفقُ الأرواحُ فيهِ   أحبُّ إليّ من قصرٍ منيفِ

ولبسُ عباءةٍ وتقرُّ عيني   أحبُّ إليّ من لُبْس الشفوف

وخَرْقٌ من بني عمي نجيبٌ   أحبُّ إلي من علجٍ عنيف(١)

تعلّق البداة بكل ما في البادية من مظاهر: صياح الديك وصوت الريح في سعف النخيل، وتفضيل الخيمة على القصور، وكانوا يستأذنون ولاة الأمر في التبدي لكراهية التعرب بعد الهجرة، واستأذن النابغة الجعدي عثمان في سكنى البادية وقد رفضت نفسه المدينة فقال له: «أنكرت نفسي، فأردت أن أخرج إلى إبلي فأشرب من ألبانها، وأشمّ من ريحها»(٢).

وتعلّق البداة المهاجرين ببواديتهم أمر طبيعي جداً ذو علاقة وطيدة بالتحول الاجتماعي الجذري من حياة الرعي واللاإستقرار إلى حياة الزراعة والاستقرار، وهذا لم يألفه الأعرابي من قبل. وإذا أضفنا إلى هذا أمراً آخر على درجة من الأهمية هو تفرق القبيلة في سكناها في المناطق المفتوحة، وانتساب المهاجر إلى المدينة أولاً لا إلى القبيلة وأحياناً يسكن الأب في المدينة وابنه في البادية كحال معن بن أوس وأولاده، أو تكون له أسرة في المدينة وأسرة في البادية(٣) فينفطر قلبه ويشكو الهجرة ويحن إلى بلاده، ولذا يظل على اتصال مستمر بالبادية، ومن غير الممكن أن يستقر تمام الاستقرار فهذا البعيث خداشُ بن بشر كان يسكن البصرة وكان له عقب بالبادية(٤) وإذا رحل البدويّ مع قبيلته كان الأمر أقلّ حدّة.

طلبت أنيسةُ زوجة جبيهاء الأشجعي من زوجها أن يهاجر إلى المدينة ويفترض في العطاء فأخذ برأيها حتى إذا كان بحرة واقم من شرقي المدينة فشرّع إبله بحوض واقم ليسقيها، فحنّت ناقةٌ منها ثم نزعت وتبعتها الإبل وطلبها ففاتته فرجع:

قالت أنيسةُ دعْ بلادك والتمسْ   داراً بطَيْبة ربَّةِ الآطام

---

(١) البصري:الحماسة المصرية- عالم الكتب، بيروت، د. ت: ج٢/ ٧٢.

(٢) الأغاني: ٥/ ٥

(٣) الأغاني: ١٢/ ٦٩-٨٩.

(٤) ابن قتيبة: الشعر والشعراء/ تحقيق أحمد شاكر، دار التراث العربي- القاهرة، ط٣، ١٨٧٧: ١/ ٥٠٤.

تكتب عيالك في العطاء وتفترض   وكذاك يفعلُ حازمُ الأقوامِ
فهممتُ ثم ذكرتُ ليل لقاحنا   بلوى عُنيزةَ أو بقُفّةِ بشامِ
إذْ هُنّ عن حسبي مذاود كلّما   نزل الظلامُ بِعُصبةٍ اغتامِ
إنّ المدينةَ لا مدينة فالزمي   حِقْفَ السِّنادِ وقُبّةَ الأرجامِ
يُجلب لكِ اللبنُ الغريض ويُنْتَزع   بالعيسِ من يمنٍ إليك وشامِ
وتجاوري النفر الذين بنبلهم   أرمي العدوّ. إذا نهضت أُرامي
الباذلينَ إذا طلبت تلادَهم   والمانعي ظهري من الغُرّامِ[1]

وبعض البداة المهاجرين لم يهاجروا بفعل الفتوح وكراهية التبدّي، إنما هاجروا لهدف اقتصادي بحت، إذ كان الفقر أحياناً يدفع ببعض القبائل إلى الجلاء كما هو حال طيء لما داهمهم الجدب والقحط قدموا المدينة[2] وربما هاجروا من مواطنهم لنزاعات العشائر بالبادية كما هو حال بني عوف لمّا هاجرت من العالية إثر صراعاتهم مع بني خفاجة لما تجمّعت للأخذ بثأر توبة بن الحميّر[3] وكذلك الحروب التي دارت بين قيس وكلب في بادية الشام فألجأت بعض القبائل إلى عكا كما هو مستشف من نص لزفر بن الحارث الكلابي:

يا كلبُ قد كَلِبَ الزمانُ عليكمُ   وأصابكم منّي عذابٌ مرسلُ
إن السماوة لا سماوة فالحقي   بالغورِ فالأفحاص بئسَ الموئلُ
فجنوبِ عكّا فالسواحلِ إنها   أرضٌ تذوب بها اللّقاح وتُهْزَلُ[4]

وعدّ التبديّ منقصة في سلم القيم الإسلامية الجديدة؛ منقصة دينية ارتبطت بالاقتصاد، فغمز الأشتر قبيصة بن جابر الأسدي وقومه فقال له: «ما أسلم قومك إلا كرهاً، ولا هاجروا إلا فقرا»[5].

---

(١) الأغاني، ١٨/١٠٢.

(٢) الأغاني: ٥/ ١٠٢.

(٣) الأغاني: ١١/ ٢١٧.

(٤) الأغاني: ٢٤/٣٥/٣٦. وانظر ٣٧.

(٥) ابن أعثم: الفتوح- دار الندوة الجديدة- بيروت ٢/١٩٢. نبيل خانجي، أثر الحياة الاقتصادية في شعر البداة في العصر الأموي، رسالة ماجستير- اليرموك- ١٩٨٧، ص ٥٢/

هذا حال البداة المهاجرين أو الذين هاجروا إلى المدينة وظلوا على اتصال بها. أما البداة المستقرون في البادية فظلوا على أعرابيتهم وخشونة عيشهم، وقسوة حياتهم، فاعتمد الخوارج عليهم وبعض بني أمية، في حين رفضهم ابن الزبير وعرّض بأعرابيتهم لمّا عرضوا عليه الانضمام إلى صفوف الزبيريين لما كان يعرفه ابن الزبير من عرج في استقامة أمورهم، وقلة إيمانهم بما يقاتلون عليه[١].

وظلّ البدوي مهتماً بالعصبية القبلية، يوليها جلّ اهتمامه، فهي إطار حياته يندغم بها ليعيش، وإذا دخلت القبيلة في نزاع مع قبيلة أخرى كان لا يتوانى عن هذا الواجب الاجتماعي للدفاع عن حمى القبيلة، أو للأخذ بثأرها فنشبت صراعات كثيرة منها غارات قيس وكلب، وقيس وتغلب في الجزيرة وكان يوم البشر مشهوراً فقال الأخطل:

ألا سائل الجحّافَ هلْ هو ثائرٌ   بقتلى أُصيبت من سُليمٍ وعامرِ

أجحّافُ إنْ نهبطْ عليك فتلتقي   عليك بحورٌ طامياتُ الزواخرِ

تكن مثلَ أبداء الحباب الذي جرى   البحرُ تَزهاهُ رياحُ الصراصرِ[٢]

ومثلها غارات بني عامر وبني الحارث بن كعب، وبنى حنيفة وبني عقيل، وفي هذه الحالات كان يتم استياق الإبل والغنائم والسبي. وتتدخل السلطة حينئذ لإخماد هذه الفتن. وغالباً ما تتحمل الديات، وتكون العصبية حينئذ بين بطون القبيلة الواحدة أحياناً، أو بين القبائل الكبرى كالقيسية واليمانية أحياناً أخرى. وهذه الأخيرة قد شجعت عليها السلطة الأموية بدءاً من الخليفة وانتهاءً بالوالي، فكان معاوية يمنع العطاء مرة عن اليمانية، ومرّة عن القيسية حسب أهوائه الشخصية ومصالحه، حتى قيل: إن معاوية لم يفرض للقيسية حتى نقل إليه أن أحد اليمانية قال: لهممت ألا أدع بالشام أحداً من مضر، وكان بعد ذلك يغزي اليمن في البحر، ويغزي قيساً في البر، ثم سوّى بينهما[٣].

---

(١) أنساب الأشراف: ٥/ ٣٧٠، الطبري: ٤/ ٤٥٠-٤٥٤. الأغاني ٢٣/ ٢٣٨.

(٢) الأغاني: ١٢/ ٢٣٥، تزهاه: حركته.

(٣) الأغاني: ٢٠/٢٠٨، ٥/ ١٠-١١. إحسان النّص: العصبية القبلية، ٢٧٤.

ما تقدم آنفاً لا يعني أن البدويّ لم يكن دائماً إلا منازعاً أو مخاصماً، ولم تعرف حياته إلا النزاع والقتال على العكس من ذلك نجد لدى البداة احتراماً لعلاقات القربى والجوار، ورغبة في التعايش السلمي، وكانوا يجيرون من فرّ إليهم من عدو، أو من لجأ إليهم من جدب وفقر، وقد تصطدم أعرافهم القبليّة بإجراءات السلطة فلا يقيمون لها وزناً، فيضيع حق الوالي أو السلطان أو تتدخل السلطة فتقاتل أحد الفريقين وتطحنهم حتى يذعنوا لأمرها[١].

وظلت البادية موطن أسرار الهوية العربية، فسعى إليها علماء اللغة العربية، ينهلون من معينها سلامة اللغة واللسان، وتدفق الشعراء البداة على المدينة خاصة البصرة والكوفة، ووردوا سوق المربد، وأثّروا في علماء العراق، وشاركوا في توسيع قاعدة التعريب، فكانوا مقياساً للنقاء والأصالة.

وشارك العرب بفئاته الارستقراطية الدينية والدنيوية، وعامة العرب حضراً وبداة في صنع التاريخ العربي، فكانوا فقهاء وعلماء لا سيما فئة الصحابة. وانكبّ عامة العرب على مجالس العلم والتعليم، فكانوا قياديين فاتحين صنعوا مجد الأمة، ورفعوا راية التوحيد للدولة العربية الإسلامية، وكانوا في الوقت نفسه تجاراً وزراعاً وصناعاً، ومقاتلين وشعراء، فشارك الأعراب الآتون إلى المدن والحواضر بفعل الجفاف، في صنع هوية الأمة العربية إذ اختلطت هذه الجماعات بغير العرب مما ساعد في توسيع عملية التعريب[٢].

٢- الموالي

والفئة الثانية من فئات المجتمع في العصر الأموي هي فئة الموالي وكانت تتألف من الأجانب الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً، وانضموا إلى المسلمين، فأصبحوا موالي للعرب، ومن هذه الفئة النبط والفرس والسيابجة والروم والجراجمة، وعبيد العتاقة، وقصد المؤرخون بالمولى:

---

(١) نقائض جرير والفرزدق: لأبي عبيدة معمر بن المثنى- تحقيق أ. أ. بيفان- دار الكتاب العربي- بيروت ١٩٠٥: ١/٧٨-٨٠.

(٢) عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية والوعي): مركز دراسات الوحدة العربية-ط١-١٩٨٤، ص٦١.

«كلّ من أسلم من غير العرب، فالموالي إما أن يكونوا في أصلهم أسرى حرب، فاسترقوا ثم اعتقوا، وإما أن يكونوا من أهل البلدان المفتوحة، انضموا حين إسلامهم إلى العرب، فصاروا موالي بالحلف»[١]

ورأى المسعودي: «أن النبط هم السريان»[٢] وهذا بعيد عن الصحة، وربما سموا نبطاً لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين، وفي حديث عمر -رضي الله عنه- «تمعددوا ولا تتنبطوا» أي تشبهوا بمعد، ولا تشبهوا بالنبط»[٣] وقال جواد علي: «إنهم بقايا الشعوب القديمة التي سكنت بلاد الشام والعراق ومترسبات الآراميين في هاتين المنطقتين، وذلك قبل الإسلام وفي الإسلام»[٤].

وكان لهم سوق في المدينة اشترى منه الرسول -صلى الله عليه وسلم- الريّا والشقرا[٥] ومن فئات الأعاجم الزط والبخارية، انضمتا إلى العرب عهد أبي موسى الأشعري على العراق لعمر بن الخطاب وأودعت إليهم حراسة دار الإمارة والمسجد الجامع مع السيابجة، وكان لهم رئيس يدعى أبا سالمة، وقد زاد عدد الزّط بعدما فتح العرب السند، وأسروا عدداً منهم فيها، فنقلوهم إلى البصرة[٦]. وكذا السيابجة قوة فارسية كانت عند البحرين والخط والطفوف ثم استسلموا للعرب، فأسكنوهم البصرة، وأوكل إليهم بيت مال البصرة، وجلب الحجاجُ منهم عدداً، وأسكنهم البصرة، ونقل معاوية منهم إلى سواحل الشام، وأنطاكية، وكذلك الوليد ابن عبد الملك، وخطّت لهم خطط، وفرض لهم في شرف العطاء[٧] وحالفت الأساورة

---

(١) جميل المصري، الموالي وموقف الدولة الأموية منهم، دار أم القرى، عمان ودار عمار للنشر، ط١، ١٩٨٨، ص٢٣، ٢٤.

(٢) المسعودي: التنبيه والاشراف، دار التراث العربي، بيروت، ١٩٦٨: ٦٨.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، نبط.

(٤) جواد علي. المفصّل: ٣/ ١١ ومقالة: نجدة خماش (عناصر السكان: توزعهم وتكوينهم الاجتماعي في الشام في صدر الإسلام (دراسات مجلد ١٤، عدد ١٠، ١٩٨٧) الجامعة الأردنية، ص ٨٦.

(٥) تاريخ الطبري: ٣/ ١٧٦.

(٦) فتوح البلدان: ٣٧٠-٢٧٥. وصالح العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية: ٨٥.

(٧) فتوح البلدان: ٣٦٧، ٢٧٥.

بني سعد، وقيل حالفت بني تميم[١] وانضمت إليها الأصفهانية[٢] وبرزت البخارية قوة مهمة عهد عبيد الله بن زياد على العراق، وقيل فيهم إنهم أسرى الأتراك جاء بهم عبيد الله، وأسكنهم البصرة، وجعلهم في العطاء، ومنحهم الأرزاق، واستعملهم في إخضاع المتمردين على السلطة الأموية[٣].

ومن القوات العسكرية نجد منهم البخارية والقيقانية وشاكرية ثابت قطنة، وفرقة الذكوانية، وموالي دار الإمارة، وكانت تشكل فرقاً منفصلة ولها قائد. تقاتل إلى جانب القوات العربية الأخرى[٤]. وشارك الأعاجم في الأحداث السياسية للدولة، واستغلوا الفرص المناسبة لإثبات وجودهم قوة لا يستهان بها، فانضموا حيناً إلى ابن الزبير في موقعة الربذة وحيناً إلى ابن الأشعث، وأعانوه في ثورته، وحيناً آخر إلى المختار الثقفي مما جعل الحجاج يهدم بيوتهم، وينقص من عطائهم، ويقصي بعضهم واشتركوا في الفتوح الإسلامية، أهمها فتوح تستر، واشترطوا على العرب أن يعطوا نفس حقوق العرب، وأن يحتفظوا بكيانهم وتنظيماتهم في الفتوح، ورحّبت العرب بهذه الاتفاقية، وبلغ عدد أفرادهم ألفين وخمسمائة، خمسة منهم يأخذ كل منهم ألفين وخمسمائة درهم من العطاء، ومائة يأخذ كل منهم ألفي درهم[٥].

وإلى جانب الأنباط في الشام هناك فئات أخرى من الموالي رومية وفارسية، هذه الفئات هي الجراجمة، صالحهم أبو عبيدة عامر بن الجراح على أن يكونوا أعواناً للمسلمين، ومسالح في جبل اللكام، وكانوا يتصلون بالروم وينقضون عهدهم مع المسلمين في أحايين كثيرة، حتى وجه إليهم الوليد مسلمة بن عبد الملك، فأناخ عليهم في خلق من الخلق فافتتحها على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام، ويجري

---

(١) فتوح البلدان: ٣٦٨، ٣٦٦.

(٢) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية: ٨٧.

(٣) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية: ٨٧.

(٤) جمال جودة: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي في العصر الأموي: دار البشير، عمان، ١٩٨٩، ص١٣٩.

(٥) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية/ ٨٣-٨٤.

على كلّ أمرىء منهم ثمانية دنانير، وعلى عائلاتهم القوت من القمح والزيت[١] وساهم عبد الملك بن مروان في إسكان الفرس الساحل فأقطعهم طرابلس[٢].

والصنف الثاني من الموالي هم موالي العتاقة، الذين حصلوا على حريتهم بالعتق المباشر، أو المكاتبة، أو التدبير نظير مبلغ من المال يدفعه المولى إلى سيده فينتقل العبد بها إلى فئة الموالي بدلاً من أن يكون في فئة الرقيق.

إحساس الموالي بالرفعة والكرامة يختلف من فئة إلى أخرى، ففئة الأعاجم من الموالي كانوا أحراراً بالأصل، وجنوداً في القوات الفارسية أو الرومية. انضموا إلى الموالي لوضع استراتيجي فرض عليهم فاستغلوه أحسن استغلال وفئة الدهاقنة مثلاً كانت تتمتع بشرف عظيم بين الموالي وتتيه عليهم. وكان لها ميزة خاصة بين العرب. وظلت هذه الفئة تحتفظ ببقايا نفوذها القديم، فكانت بهذا ممثلة للارستقراطية الفارسية بين أفراد الموالي[٣]. وكانت مسؤولة عن جباية الأموال من الفلاحين، وأعطاهم المسلمون بعض الامتيازات الخاصة، وفرض لهم في شرف العطاء، ولمّا تساءل المسلمون عن ذلك، أجابهم عمر بفراسة الشريف: (قوم أشراف أحببت أن أتألف إليهم»[٤].

وبهذه الامتيازات الخاصة أسلم بعضهم ومنهم جميل بن بصبهري دهقان الفلاليج والنهرين، وبسطام بن نرسي دهقان بابل وخطرنية، والرُّفَيل دهقان العال، وفيروز دهقان نهر الملك، وكوثي وغيرهم من الدهاقين[٥] وكان بعضهم غاية في الغنى ومنهم فيروز بن الحصين. وزاد الموالي حتى كاد عددهم يعادل عدد العرب، وأدّى ذلك إلى ظهور مشاركتهم العرب في الحياة العامة، فزاحموا العرب على مصادر الرزق ومناصب الحكومة العالية في الجباية وقيادة الفتوح والكتابة

---

(١) فتوح البلدان: ١٢٣، ١٢٤، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٧، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦.

(٢) نجدة خماش، (عناصر السكان توزعهم وتكوينهم الاجتماعي في الشام) ص ٨٩.

(٣) تاريخ اليعقوبي: دار صادر بيروت، ١٩٦٠، ٢/ ١٥٣، وفتوح البلدان: ٢٦٤.

(٤) فتوح البلدان: ٢٦٥.

(٥) الطبري: ٦/ ٤٤.

والدواوين والشرطة. واستغلهم المختار في ثورته وشاركهم في الفيء[1]. وفي بداية الأمر شاركوا في الفتوح قوات مستقلة دون عطاء، حتى اشتكى أبو الصيداء إلى عمر بن عبد العزيز من أن عشرين ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق، وقال أبو حرّة مولى أسلم:

إن المواليَ أمست وهي عاتبةٌ — على الخليفة تشكو الجوع والحَرَبا

ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا — أيُّ الملوك على ما حولنا غلبا[2]

فانصفهم عمر، ودعا إلى إنصافهم.

واستخدمت الدولة الأموية النابهين منهم في الأعمال الإدارية، وعملوا حجّاباً للخلفاء، أو قادة للجيوش، أو جباة للخراج، وكتاباً للخلفاء وفي ديوان الخاتم والرسائل، ومنهم من راقب الأسعار محتسباً، أو كان على الشرطة أميراً، أو امتهن الغناء والموسيقى فأتقن غاية الإتقان، فكان معبد وابن سريج وجميلة وعزّة الميلاء، ومالك بن أبي السمح وسلاّمة وحبّابة وغيرهم كثير[3].

وعمل نفر من الموالي مؤدبين للأمويين، ولا بد أنهم كانوا يتقاضون راتباً عالياً مقابل ذلك، فكان عبد الصمد بن عبد الأعلى أشهر مؤدبي الوليد بن يزيد ويظن أنه مولى[4]وكان مالك بن دينار ورّاقاً ينسخ المصحف بالأجرة، وكان لعلقمة مولى عائشة مكتب يعلم فيه العربية والنحو والعروض[5].

واتجه نفر كثير من الموالي إلى الفقه وبرعوا فيه فكانوا أشهر موالي الأمصار ومنهم الحسن بن أبي الحسن، ومحمد بن سيرين فقيها البصرة، وعطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبير وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار فقهاء مكة، ويزيد بن

---

(١) فتوح البلدان: ٢٦٥، وانظر الطبري: ٦/ ٤٤ و المسعودي: مروج الذهب: ٣/ ٧٥.

(٢) أنساب الأشراف: ٤/ق٢/ ٥٨.

(٣) المسعودي: التنبيه والاشراف: المسعودي: ٢٦٥-٢٧٩. والطبري: ٦/ ٣١٢/ ٣٥١/ ٤٤٤/ ٥٣٢. /٧/ ١١٧، ١٢٠. الأغاني ١/ ٤٣. ٢٤٣/ ٨/ ٣٣٣. ١٧/ ١٦٤/ ٨/ ١٩٧ والدينوري: ٢٩٩، المعارف: ٤٤٨-٤٤٩. ابن كثير: ٩/ ١٦٧. ٢٠٣. ٢٤٧.

(٤) تاريخ الطبري. ٣/ ٣٧٥. وحسين عطوان الوليد بن يزيد: دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧، ص٩٧.

(٥) جمال جودة. الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي: ١٢٦، المعارف: ٥٤٩، ٤٧٠.

أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبي نخيع فقهاء المدينة، وكان ربيعة الرأي وابن أبي الزناد فقيهي قباء، وعطاء بن عبد الملك الخراساني فقيه خراسان، وكان مكحول فقيه الشام، وميمون بن مهران فقيه الجزيرة وكلهم موال[1]. ومع كل مؤهلاتهم السابقة، ومشاركاتهم في كلّ الأمور العامة والخاصة السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية إلا أنهم لم يتولوا منصب القضاء ولذا عيّن الحجاج سعيد بن جبير مساعداً للقضاء، لأن القضاء لا يتولاه إلا عربي[2] وبرع الموالي في الأمور الاقتصادية والتجارية، فعمل بعضهم وكيلاً لسيده في الأمور التجارية كمأذون، فكان الأشرس مولى بني أسد تاجراً ليوسف بن عمر ورافق نفر منهم أسيادهم في الفتوح تاجراً[3]، وأحياناً كانت تعقد صفقة تجارية بين المولى وسيده.

وأفاد الموالي كثيراً من رابطة الولاء مع أسيادهم في إنعاش وضعهم الاقتصادي، حتى شكلوا فئة اقتصادية لا يستهان بها. وورث الموالي الصنعة والتجارة من أسلافهم، فاشتغلوا في كل الحرف: (وكان عيسى بن أبي عيسى يقول: أنا خيّاط وحنّاط وخبّاط، كلاً قد عالجت، وقدم على الكوفة في تجارة»[4]. فكانوا نجّارين وزياتين وصانعي أحذية، وحائكي ثياب، وخارزي خفاف وكاسحي طريق[5]. اتقان الموالي لجميع الحرف والصناعات، وتعالي العرب عن ممارستها جعلهم المسيطرين على السوق، وهذا ترك أثراً في تنشيط الحركة الاقتصادية، وتحسنت أحوال الموالي الاقتصادية، فامتلكوا الضياع والأموال، وكان لبعضهم موال كعبيد الله ابن أبي بكرة.

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٣/ ٤١٥-٤١٦.

(٢) ابن قتيبة: المعارف: ٤٤٦. تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة، ط٤، ١٩٦٩.

(٣) الطبري ٦/ ٢٣٣. ٧/ ١٤٩. المبرد: الكامل ١/ ٣٥٥-٣٥٦. وجمال جودة: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي/ ص١١٧.

(٤) ابن قتيبة: المعارف: ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٤٩، ٥٢٩، ابن عبد ربه: العقد ربه، ٣/ ٤١٤، ٣١٧.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٣/ ٤١٤.

وسعى الموالي إلى تحسين وضعهم الاقتصادي ليتمكنوا من إحراز موقف اجتماعي أفضل يتمثل في نظرة الدولة إليهم من جهة، وفي نظرة المجتمع من جهة أخرى، وعبّر نصيب الشاعر عن رغبته في تجاوز فئة الموالي فاتصل بعبد العزيز ابن مروان وسليمان بن عبد الملك، وجعل أمواله في شراء العبيد وتحريرهم فابتاع ابن خالة له يسمى سُحيم وأعتقه فمرّ به يوماً وهو يزفر ويزمر مع السودان فانكر ذلك عليه وزجره، وقال فيه:

إني أراني لسُحيمٍ قائلا	إنَّ سحيماً لم يثبني طائلا
نسيت إعمالي لكَ الرواّحلا	وضربيَ الأبوابَ فيك سائلا
عند الملوكِ استثيبُ النائلا	حتى إذا أنستَ عتقاً عاجلا
وليتّني منك القفا والكاهلا	أخلقاً شكساً ولوناً حائلا[1]

وكان رافضاً واقعه الاجتماعي، وتمنى في قرارة نفسه تزويج بناته من الأحرار، ولا يستطيع فعل ذلك، ورغب أحد أولاده في الزواج من ابنة سيده فأبى نصيب ذلك[2] ومن هنا بدأ يتطلع إلى أعمال لتنقله إلى الفئة الارستقراطية من الموالي. ورغبة الموالي في إحراز موقف إجتماعي أفضل جعلهم يتطلعون إلى أن يكونوا قوة لا يستهان بها، ولذا طالبوا بشرف العطاء، وبالعطاء من قبل، وبمرور الزمن زاد تذمرهم من عدم مساواتهم بالعرب، وبدأوا بالانضمام إلى الثورات حسداً للعرب الذين يستأثرون بغنائم الحروب والعطاء، وطمعاً في تحسين وضعهم الاجتماعي والاقتصادي[3].

وعلى شدّة تعصب العربي لجنسه على الموالي، بدأ نفْر منهم يتسامح في ذلك أخيراً، ويقبل على الزواج بالجواري. ورأى بعضهم أن لا غضاضة في تزويج الموالي من بناتهم حتى استحلّه بعض البداة والأعراب. وقد يكون في تنازل بعض البداة عن عصبيتهم هو العامل الاقتصادي. ومع هذا ظل الذي يصهر إلى الأعاجم لا يقابل

---

(١) الأغاني: ١/ ٣٢٥.

(٢) الأغاني: ١/ ٣٣٢.

(٣) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين: تحقيق أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت: ١٤٥، ١٥٤.

بترحيب الشعراء بل يتعرض لهجائهم ويورد الأصمعي خبراً طريفاً: يقول: سمعت أعرابياً يقول لآخر: أترى هذه العجم تنكحُ نساءَنا في الجنة؟ قال: أرى ذلك والله بالأعمال الصالحة، قال توطؤ والله رقابنا قبل ذلك »[١].

وخطب رجل من الموالي إلى أحد أعراب بني سليم فزوجه فاستعدى عليه محمد بن بشير الخارجي، إلى المدينة وواليها يومئذ ابراهيم بن هشام ففرق بين المولى وزوجته وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه فقال:

شهدتُ غداة خصم بني سُليم	وجوهاً من قضائك غير سودِ
قضيت بسنةٍ وحكمت عدلاً	ولم ترثْ الحكومة من بعيدِ
إذا غمز القنا وُجدت لعمري	قناتك حين تغمز خير عودِ
إذا عضّ الثّقافُ بها اشمأزت	أبيّ النفس بائنة الصعودِ
حمى حدبا لحوم بنات قوم	وهم تحت التراب أبو الوليدِ
وفي المئتين للمولى نكال	وفي سلب الحواجب والخدودِ
إذا كافأتهم ببنات كسرى	فهل يجد الموالي من مزيدِ
فأي الحق أنصفُ للموالي	من اصهار العبيد إلى العبيدِ[٢]

ولعبت الجواري دوراً بارعاً في إثراء الحياة الاقتصادية وتنشيطها فجرت بين أيديهن الأموال، وبعضهن كان يشكل عملة نادرة في أيدي سيدها لفرط مواهبها بما أجادته من فنون الموسيقى والغناء والضرب على الدف وقول الشعر فبيعت بأثمان عالية جداً، حتى تنقلت الجارية بين الأمصار وبين الشرفاء كما هو حال سلامة القسّ وحبابة وقد بلغتا منزلة أثيرة في نفس يزيد بن عبد الملك[٣].

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٦/ ١٣١، وابن قتيبة: عيون الأخبار: ٤/ ٣١٦، المبرد: الكامل، ٢/ ٧٣-٧٤.

(٢) الأغاني: ١٦/١١٦.

(٣) الأغاني: ٨/ ٣٤٧-٣٦٥، انظر ١٥/ ١٢٤-١٤٢.

٣- الرقيق

شكل الرقيق الفئة الثالثة من فئات المجتمع الأموي، ومصادر الرقيق متنوعة، أهمها رقيق السبي، وتدفقت سيول منه إلى المشرق الإسلامي بفعل الفتوح. وظاهرة السبي كانت أكثر وضوحاً في أفريقيا وكابل وخراسان فصالح الربيع بن زياد مرزبان زرنج على ألف وصيف، مع كلّ وصيف جام من ذهب وكانت ولاية الربيع سنتين ونصف السنة، فسبى في ولايته أربعين ألف رأس ثم بعث بهم إلى المدينة، وألبسهم جباب الصوف وألزمهم السقي والسواني والعمل[١] وأصاب عبد الرحمن بن سمرة الذي ولاه ابن أبي عامر البصرة غلماناً من سبي كابل، فقدم بهم البصرة، وعملوا مسجداً في قصره على بناء كابل. ووقعت ابنة مراذوية مرزبان سرخس في سهم ابن خازم، فاتخذها وسمّاها ميثاء[٢].

وامتلكت الدولة رقيقاً، وأطلق عليهم رقيق الخُمسْ، أو رقيق الإمارة وهم من الرقيق الذين لم يوزعوا على المقاتلة. وتتمتع الدولة قانونياً بكافة الحقوق التي يتمتع بها الأفراد على عبيدهم، فبمقدورها أن تبيعهم أو تستخدمهم فيما تراه من أعمال، أو تعتقهم، كما أنها كانت مسؤولة عن سلوكهم وجرائمهم[٣] وزاد عددهم حتى عين سليمان بن عبد الملك عبد الله بن عمرو بن الحارث مولى بني عامر على بيوت الأموال والخزائن والرقيق[٤].

وكون العبيد جنوداً مقاتلين في ساحة الحرب وأسروا فيها، ولديهم إلمام حربي، استفادت الدولة منهم في إعداد الحملات أو كأدلاء ومراسلين، واستخدم المسلمون بعضهم ليقاتلوا إلى جانبهم ضد مناوئيهم[٥] كما جعل عبد الملك بن مروان من

---

(١) شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري (نشأتها ومقوماتها وتطورها اللغوي والأدبي) دار العلم للملايين- بيروت، ط٣، ١٩٧٣، ص٢٠٠.

(٢) شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية: ٢٠٠.

(٣) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية: ٧١.

(٤) تاريخ خليفة بن خياط: تحقيق أكرم العمري: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٧٧، ٣١٩.

(٥) صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية: ٧٢.

خمس الأسرى خدماً لقبة الصخرة[١]. واستخدم خالد بن يزيد، عندما كان والياً على حمص اربعمائة عبد في بناء مسجدها[٢].

وبالغ المسلمون في الحصول على رقيق النوبة، وكان لا يرون به بأساً، بل جدّ الحجاج في طلبهم، وألزمهم استصلاح الأراضي في العراق كما مر معنا وبعثت الحكومة الأموية سيولاً منه إلى الحجاز والشام والعراق لاستصلاح الأراضي ورعي الإبل حتى رغب أصحاب الإبل من البداة في اتخاذ النوبة والبربر والروم للإبل[٣] ونبغ السنديون في الصرافة والبربهار والمعرفة بالعقاقير والطبخ والغناء.[٤]

والعلاقة بين السيد وعبده علاقة شخصية ليس للعشيرة أو الدولة أن تتدخل فيها، والدولة غير مسؤولة عن العبيد الهاربين، وكذا لا تستطيع أن تحمي السيد من اعتداء العبد، وقد يعد السيد عبده بالحرية بعد موته إن قام له ببعض الأعمال المهمة فيكون العبد حينئذ مدبراً أو يؤدي إليه مبلغاً من المال فيكون العبد حينئذ مكاتباً. ومن منافذ إعتاق العبيد ما يملكه من مواهب، وقد يلحق بنسب سيده إن كان من الفرسان المقاتلين المعدودين[٥].

وكان بعض المقاتلين يتنازل عن السبي أحياناً لأنه يشكل عبئاً اقتصادياً عليهم لما يحتاجه من إنفاق وتدريب وطعام وشراب وغير ذلك، وربما يبيعونه في سوق النخاسة بأثمان زهيدة.

ونفذت طبقة الرقيق جواري وغلماناً إلى صميم الحياة العربية بدءاً من القيام على أمور البيت ونظافته وإعداد الطعام فيه، وإدارته وانتهاءً بأن تكون زوجة

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ٧١.

(٢) أنساب الأشراف: ٤/ ق٢/ ٦٩. الأزرقي: ١٤١، ١٧٦.

(٣) الجاحظ: الحيوان: تحقيق وشرح عبد السلام هارون: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٦٩: ٣/ ٤٣٤.

(٤) المصدر السابق: ٣/ ٤٣٥.

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين: تحقيق وشرح: عبد السلام هارون المجمع العربي الإسلامي، ط٤، مزيدة ومنقحة:: ٣/ ٦.
انظر ابن قتيبة، عيون الأخبار: ٢/ ٢١٣، والمعارف: ١٢٦، المبرد: الكامل: ٢/ ٦١.

وسريّة أم ولد، تفضل الحرة وتزاحمها في مكانتها ومربية لأولاده ومرفهة لرب الأسرة، وسادة القبيلة، وناظمة شعر، ومؤثرة في اللغة والتعريب كسلاّمة القّس.

لا بد أن هذه العناصر قد حملت شيئاً من ثقافتها، وحياتها الاجتماعية في بلادها إلى الحياة العربية بعد السبي، واستطاعت أن تحدث تغييراً في مظاهر الترف من طعام ولباس وغناء.

وعلت قيمة الجواري في نظر العرب بعد أن تزوج الحسين بن أبي طالب وعبد الله بن عمر، ومحمد بن أبي بكر منهن، وأنجبن رجالاً، كان لهم دور في مسيرة التاريخ الإسلامي كعلي بن الحسين بن علي، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، ففاقوا أهل المدينة علماً وتقىً وعبادةً وورعاً، فرغب الناس حينئذ في السراري وكان أبناء العرب من الإماء يطلق عليهم الهجناء، والعبيد الذين يولدون من تزاوج العبيد فيما بينهم يعرفون بالأقنان[١].

وارتفعت القيمة الشرائية للجواري، وبولغ في أثمانهن، وتنافس الخلفاء والسادة والناس في الحصول على الجارية، لما لها من رغبة في نفس شاريها، ومن قيمة اقتصادية في نفس بائعها، خاصة الشاعرات والمغنيات، فاشترى يزيد بن عبد الملك سلامة المغنية بعشرين ألف دينار[٢].

وباع علي بن عبد الله بن عباس مولاه عكرمة بأربعة آلاف دينار لخالد بن يزيد فأتى عكرمة مولاه علياً، فقال له: ما خير لك، بعت علم أبيك بأربعة آلاف، فاستقاله فأقاله، فأعتقه[٣].

وشارك الرقيق في الحياة العامة، فزاولت النساء صناعة النسيج وكانت منسوجاتهن من الريط تعرض في الأسواق للبيع.

---

(١) شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية، ٢٥٤.

(٢) الأغاني: ٨/ ٣٥٦، ١٥/ ١٢١.

(٣) أحمد أمين: فجر الإسلام، ١٥٥.

ثانياً: مستوى المعيشة

مظاهر الحياة الاجتماعية من مطعم وملبس ومسكن وبعض مظاهر الترف الأخرى خيرما يبرز لنا مستوى معيشة الناس في العصر الأموي. وبوسعنا من خلالها أن نقدّر الوضع الاقتصادي لفئة من الناس، وهل تساوى البداة مع الحضر من أهل المدن في شكل الحياة التي يحيون؟ هل انتفت الفروق بين الارستقراطيين الدنيويين وعامة العرب من جهة، وهل انتفت الفروق بين العرب والموالي والرقيق من جهة أخرى؟ ثم ما أثر البيئة في مستوى المعيشة، وكيف تجلت الحياة الاجتماعية من خلال مستوى المعيشة؟ هذا ما سنحاول تلمسه في بعض مظاهر الحياة الاجتماعية لنرى أثره في الشعر والإبداع فيما بعد.

١- الطعام والشراب

فالعرب الذين كانوا لا يعرفون من الطعام إلا أخشنه، ولا يتلذذون إلا بما أنتجته إبلهم ومواشيهم، مما جعلهم لا يتفننون في الأطعمة والأشربة ولا يرغبون بمعرفة ألوانها، وكيفية تقديمها لتساوي العرب جميعاً في ظروف معيشتهم تخبرنا بعض روايات الفتوح أن خبز الحواري (الخبز المصنوع من لباب الدقيق» لم يكن معروفاً لدى الفاتحين، لذا ظنوه ورقاً في فتوح خراسان وكان معاوية بن أبي سفيان أوّل من قلّد الأعاجم بأسباب الترف[١]، فتنعم بمأكله ومشربه، واقتدى به الخلفاء، وسائر الناس، وخاصة بعد أن كثرت الأموال بين أيديهم. فأكلوا السكباج (وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والخل ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدراج ونحوه، وكانوا يسمونه سيد المرق، وعرفوا الفالوذج (وهو نوع من الحلوى) واللوزينج يحشى باللوز والسكر، والجوزاب والخشاف والجلاب وغيرها وعرفوا طبخ اللحم باللبن والخضار والتوابل[٢].

---

(١) فتوح البلدان: ٣٤٢.

(٢) الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء: ٢/ ٦٠٩-٦٢٦، جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ٥/ ٨١.

وكان لاتصال العرب بالأمم الأخرى الدور الأكبر في تعرف العرب إلى ألوان من الأطعمة لم تكن مألوفة لديهم، لنجدهم فيما بعد يتفننون في ألوان الأطعمة فذبح عبد الله بن زمعة في ليلة واحدة سبعين رأساً من الغنم[١]. ويذكر ابن الفقيه في هذا المقام أن اليمامة في نجد امتازت بجودة لحومها، وطيب الأطعمة المصنوعة من حنطتها[٢] مما يدل على امتداد التأثير الذي لحق جزيرة العرب. وطعم العرب وشربوا في أواني الذهب والفضة وأكلوا على السكرجة واجتمعوا على الخوان. لذا قال البخاري في كتاب الأطعمة لائماً ترف الناس: «ما علمت النبي صلى الله عليه وسلم، أكل على سكرجة قط، ولا خبز له مرقق قط ولا أكل على خوان قط»[٣]. وعرفوا من أواني الطعام البارجين، وقطعوا بالسكين[٤]. وكثرت الإشارات في كتب الجاحظ إلى أنواع الأطعمة السائدة في العصر العباسي ولا بد أنها كانت سائدة من قبل كالدرمك والفالوذج فقال أحد الشعراء:

تظلّ في درمك وفاكهة وفي شواء ما شئت أو مرقة[٥]

وقال جرير يشير إلى الرقاق الذي لم يستطع توفيره لجاريته:

تكلّفني معيشةَ آل زيد ومن لي بالمرقّق والصّناب[٦]

والصناب (إدام يتخذ من الخردل والزبيب).

ودخل طعام الأعاجم إلى العرب كالشبارقات والأخبصة والفالوذجات والهريسة والحيسة والسميذة والكشكيّة والشواء والجشيشة والمضيرة[٧] وكانوا يتناولون الحلويات والفواكه والخضروات مع وجباتهم الغذائية أو قبلها، ومن الأخبار يبدو

(١) الزبير بن بكار، جمهرة نسب قريش وأخبارها: شرحه وحققه محمود محمد شاكر، دار العروبة، القاهرة، ج١/ ٤٨٦، انظر ٢٩، ص٣٠٢.

(٢) ابن الفقيه، البلدان: ٢٩.

(٣) البخاري: صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، ٩/٩٧ انظر ٩/٩٩.

(٤) الجاحظ: البخلاء: تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، مصر. ٦٩ ، ١٣١، ٢٠٣، ٤٠٠.

(٥) المصدر السابق: ١٩٢.

(٦) ديوان جرير: ٣/ ٨١٢. والصناب: إدام يتخذ من الخردل والزبيب.

(٧) البخلاء: ١٩٢، ١٣١، ٢٠٣، ١٠٨، ٦٩، ٧٦، ١٢٤.

أنها كانت تقدم قبل وجبات الطعام ومن ألوان الفاكهة التفاح والعنب والرمان والموز والخضروات والبطيخ، وجل الفواكه والخضروات تجلب من الشام، فعرف التفاح اللبناني ووصفه الثعالبي بأنه «موصوف بحسن اللون وطيب الرائحة، ولذاذة الطعم، يحمل منه في القرابات إلى الآفاق»[١] واشتهرت غوطة دمشق بزراعة الكرمة واللوزيات وأنواع الخضرة والفواكه، واشتهرت السلط بالرمان، وعرف التوت الشامي، وبعض ألوان العنب والخمرة، وكان الخلّ والزيت والعسل يدفع ضريبة عينية في بلاد الشام مما يدل على أن الكرمة والزيتون كانت محاصيل أساسية لدى فلاحي الشام[٢].

ومن ألوان الحلويات شاعت الطفشليّة والهريسة والفجليّة والكرنبة والفالوذج والخبيص والكعك[٣].

وبالغ الرواة في وصف طعام الخليفة سليمان بن عبد الملك وكأن لا هم له في الدنيا إلا الطعام، فعلى الدّس البيّن في الرواية نرويها لأهميتها والتي تشعرنا بمدى الترف الذي وصلت إليه الأسرة الحاكمة وبعض الأسر الارستقراطية فقال المسعودي (وكان شبعه في كل يوم من الطعام مائة رطل بالعراقي، وكان ربما أتاه الطباخون بالسفافيد التي فيها الدجاج المشوية وعليه جبة الوشي، فلنهمه وحرصه على الأكل يدخل يده في كمه حتى تقبض على الدجاجة وهي حارة فيفصلها»[٤] وأكثروا من استعمال البهارات والتوابل التي كانوا يجلبونها من الهند.

ولاهتمامهم بالطعام والأطعمة جعلوا لكل مناسبة اسماً خاصاً بها، فأطلقوا لفظ الوليمة على طعام العرس، والإعذار على طعام الختان، والخرس على طعام الولادة والنقيعة على طعام القادم من السفر، والوكيرة على طعام الاحتفاء ببناء الدور،

---

(١) أبو الفداء: تقويم البلدان: ٢٤٥-٢٦٣.

(٢) فالح حسين: الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي/ ١٢٦-١٢٩.

(٣) الجاحظ: البخلاء: ٨٠، الطبري: ٦/١٧٥.

(٤) المسعودي: مروج الذهب: دار الأندلس، بيروت، ٣/ ١٧٥، ٣/ ١٧٥.

والمأدبة على طعام الضيف[١]، وقد يرافق هذه الأطعمة بعض الاحتفالات من غناء وموسيقى ولعب.

ما تقدم من اهتمام الأمويين بالطعام والأطعمة لا يعني أنه شاع لدى كل العرب، وإنما نجده لدى المترفين والأغنياء من عرب وموال، في الشام والعراق والحجاز .وبعض قرى نجد. وفي المقابل اعتمد البداة في طعامهم على ما ينتجه الحيوان من حليب ولبن وزبد وسمن وإقط مخلوط بالتمر والسمن، وغاية الكرم عندهم تتمثل في ذبح الشاة والإبل، حتى لو كان البدوي لا يملك غيرها كما صنعت الأعرابية مع عبد الله بن جعفر والحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب في طريقهم إلى الحجاز، فذبحت شاتها ولم تكن تملك غيرها، وأكرمها عبد الله بن جعفر فيما بعد[٢]

وهذا النوع من الأطعمة والأشربة سهل الإعداد سريع التحضير، ولا يحتاج إلى آلات ومواعين خاصة لتظهره بمظهر أجمل وأحلى في العيون ليلذّ في الذوق. واقتصرت أطعمة الزهّاد والفقراء على صنف أو صنفين من الأطعمة كالخبز والزيت، والحنطة والعدس والقرع مع الشحم، فكان طعام سالم بن عبد الله بن عمر الخبز والزيت[٣].

أما الأشربة فكانت قليلة، فشاع في البادية والحجاز شرب الحليب واللبن والمخيض، فكان ذو الرمة يقول: إذا نزل بهم ضيف: «الحليب أحبّ إليك أم المخيض؟ »[٤]و كذلك شراب الزبيب بعد أن ينقع يدق في المهراس، ويصب عليه الماء، ثم يصفى فيشرب، وكذلك شراب العسل ويبدو أنه كان شائعاً في بلاد الشام كونه من الضرائب العينية التي فرضت على الفلاحين لإرزاق الجنود، وكان العسل

---

(١) ابن سيده: المخصص: تحقيق لجنة إحياء التراث العربي- دار الآفاق الجديدة- بيروت: ٤/ ١٢٠-١٢١.

(٢) السمهودي: وفاء الوفاء، ٣/ ١٠٦٢.

(٣) أنساب الأشراف: ٤/ ق٢/ ٦٠، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٥/ ١٤٨. عبد الله السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في جد والحجاز ٢٩٠-٢٩١.

(٤) الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ٢/ ٦١٦، ابن عبد ربه:العقد الفريد، ٦/ ٢٣ ابن قتيبة الشعر والشعراء: ١/ ٤٤٠.

شراب الإمام مالك في الشتاء بينما السكر شرابه في الصيف[1]. وشاع السويق «وهو شراب يتخذ من الحنطة والشعير» وقدمه الخليفة هشام بن عبد الملك للحجيج، وكذلك دار رملة بنت عبد الملك في مكة، فيها دهليز مليء بأسوقة محلاّة ومحمّضة تسقى في الموسم[2].

وشاع شرب الخمرة في مجالس الوليد بن يزيد، ومجالس الغناء والترف وضجّ كتاب الأغاني من الإشارة إلى أنواع الخمرة والنبيذ، وكذلك ابن قتيبة في كتابه الأشربة، فذكر أنواع الخمرة والنبيذ والسويق وبعض من اشتهر بشربها وتفننوا في وصفها كالوليد بن يزيد وأبي الهندي وعمار ذي كبار والأقيشر الأسدي، وحارثة بن بدر الغُذانيّ[3].

٢- الألبسة والزينة

والمظهر الثاني من مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر الأموي الذي نستدل به على مستوى معيشة الناس هو (اللباس ووسائل الزينة) فلباس العرب قبل العصر الأموي كان بسيطاً يتناسب مع أوضاع الصحراء والبداة، وورد في المصادر أن لباس العرب كان يقسم إلى قسمين: «ما يقطع وما لا يقطع». وخير مثال للباس العرب لباس النبي صلى الله عليه وسلم فذكروا أنّ أحبّ اللباس إليه البرود والبياض والحبرة: «وهي ضرب من البرود فيه حمرة، وحين توفي سجيّ ببرد وحبرة[4] وكان كمه قصيراً إلى الرسغ، وكان يلبس أحياناً حلة حمراء، وإزاراً ورداءً. والإزار (قصير إلى أسفل الركبة، ولبس الخفّ والنعلَ، ونهى عن الثوب الطويل الذي يجر على الأرض خيلاءً، وقال: فضل الإزار في النار»[5].

---

(١) الكندي، كتاب الولاة والقضاة، ١/ ١٦٦.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/٢٤٩، الأغاني ٦/ ٢٧٣.

(٣) الأغاني: ٧/٥، ٢٠/ ٢٤٣، ٢٤/ ١٨١، ١١/ ٢٥٢، ٨/ ٣٨٤.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ٧/ ١٩٠.

(٥) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ٥/ ٨٢.

وأصاب لباس العرب التغيّر والتطور كما أصاب كثيراً من مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر الأموي، بفعل الغنى والفتوح، واتصالهم بالأمم الأخرى، ودخول الرقيق إلى صميم حياتهم، فنلمس في فتوح اليمن أن النبي صلى الله عليه وسلم صالح أهل نجران على ألفي حلّة »[١] مما يدل على أن الحلّة كانت ذات قيمة عالية، واستيرادها يحتاج إلى سيولة نقدية والحلّة تتكون من رداء وقميص وعمامة وإزار أي كساء كامل. واستجدى بعض الشعراء الحلل وخلع عبد الملك على الأخطل حللاً موشاة، وكذلك الوليد بن يزيد خلع على ابن ميادة وأولاده وبناته[٢].

وعرفوا من اللباس الخزّ والطيلسان والسندس والصوف والديباج والثياب الحريرية والكتانية والقبطيّة والرازقية، والإزار والرداء والدراعة والغلل والقمصان والمساتيق، والبرود البيضاء والحمراء[٣].

ووصف عمر بن أبي ربيعة صواحبه بقوله:

يرفُلنَ في مُطرفات السوس آونةً   وفي العتيق من الديباج والقصبِ

ترى عليهنّ حَلْيَ الدُّر متسقاً   مع الزبرجد والياقوت كالشُّهُبِ[٤]

وهناك ألبسة خاصة بالصيف وأخرى بالشتاء، وألبسة داخلية وألبسة خارجية، فمن ألبسة الصيف القمصان، ومن ألبسة الشتاء المساتيق، والمساتيق (فرو طويلة الكم، لبسها الرسول -صلى الله عليه وسلم- هدية من ملك الروم، وشاعت في العراق)[٥]، ومن الألبسة الداخلية الغلالة، ولبسها الرجال والنساء، وشاع القميص لباساً تظهر فيه دلائل الترف والنعمة، وتفنن فيه العرب وفي طريقة لبسه، فلبس مروان بن أبان سبعة قمصان كأنها درج بعضها أقصر من بعض

---

(١) أبو يوسف: الخراج: ٤١.

(٢) الأغاني: ١٣/ ١٤، ٨/ ٢٩، ٧.

(٣) صالح العلي، الألبسة العربية في القرن الأول الهجري: (مستلة من مجلة المجمع العلمي العراقي): المجلد الثالث عشر- بغداد- ١٣٨٥- ١٩٦٦: ص٢٢، ٢٣.

(٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة: ٤٢٨.

(٥) صالح العلي، الألبسة: ٢٣.

واشترى رداءً عدنياً بألفي درهم[١]. وأرخوا الإزار مرّةً، وشمّروه ثانيةً، وكانت العمامة عند بعضهم مظهراً من مظاهر السيادة إذ قال الأحنف:

«لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلّدت السيوف»[٢] وعرف القرشيون بمشية الخيلاء، أشهرهم عمر بن عبد العزيز قبل توليه الخلافة، كانت مشيته فيها بعض مظاهر الخيلاء والجمال حتى قلدته النساء والجواري فكان يجر ثوبه خيلاء، وعرفت مشيته بالمشية العمرية[٣]. ورفل فتيان قريش في القوهي والوشي ولبسوا المضرّجات والمصرّات والملونات[٤]. ومن ألوان لباسهم الأحمر والأخضر والأصفر (المزعفر) وعرفوا المخطّط والمضلّع، والموشّى بالأحمر والأصفر والأخضر[٥].

ولبسوا أيضاً النعال الخفاف الرقاق، وكان زياد بن أبيه أول من لبسها بالبصرة[٦] وساهم الأمويون خلفاءَ وولاةً في تطور اللباس لا سيما الخليفتين سليمان بن عبد الملك وأخيه هشام. ويروى أن سليمان كان يلبس الثياب الرقاق، وثياب الوشي. وفي أيامه عمل الوشي الجيّد باليمن والكوفة والاسكندرية، ولبس الناس جميعاً الوشي جباباً وأردية وسراويل وعمائم وقلانس، وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا في الوشي وكذلك عماله وأصحابه ومن في داره، وكان لباسه في ركوبه وجلوسه على المنبر. وكان لا يدخل عليه أحد من خدّامه إلاّ في الوشي حتى الطبّاخ ...»[٧]واجتمع عند هشام بن عبد الملك إثنا عشر ألف قميص وشيٍ، وعشرة آلاف تكة حرير. وكانت كسوته إذا حجّ تحمل على سبعمائة بعير وتسابق

---

(١) صالح العلي، الألبسة: ٢٢، الأغاني ١٩/ ١٥٧.

(٢) صالح العلي، الألبسة: ١٤.

(٣) ابن عبد الحكم/ «سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق أحمد عبيد، المكتبة العربية، دمشق، ط٥، ١٩٦٧، ص١٦.

(٤) شوقي ضيف/ الشعر والغناء في مكة، دار المعارف، د.ت: ٣١.

(٥) صالح العلي/ الألبسة: ٢٠-٢٣.

(٦) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ٥/ ٨٢.

(٧) المسعودي: مروج الذهب: ٣/ ١٧٥ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: ٢/ ١٠٤، الجاحظ: البيان والتبيين: ٢/ ١٠٢.

الصناع حينئذ إلى إجادة الوشي[1] وبالغ هشام في لباسه وزينته حتى روى الأصفهاني عن حماد الراوية يصف مجلساً لهشام. («فدخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالرّخام، وهو في مجلس مفروش بالرخام، وبين كلّ رخامتين قضيب ذهب، وحيطانه كذلك، وهشام جالس على طنفسة حمراء، وعليه ثياب خز حمر، وقد تضمّخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيده فتفوح روائحه فسلّمت فرد عليّ، واستدناني فدنوت حتى قبلت رجله وإذ جاريتان لم أر قبلهما لمثلهما، في أذن كلّ واحدة منهما حلقتان من ذهب فيهما لؤلؤتان تتوقدان »[2].

وتغيّرت ثياب نساء المدينة ومكة فلبسن الديباج والحرير والقطن والكتان، والثياب المعصفرة، والثياب الرقيقة الشفافة. وأكثر صاحب الأغاني من حديثه عن لباس النساء لا سيما الجواري والمغنيات منهن، وبالغت النساء عصر بني أمية في فنون الزينة وأنواع الحليّ، والتختم بالذهب، والتطوق بالأحجار الكريمة والعقود، حتى قيل إن معاوية بن أبي سفيان بعث إلى عائشة -رضي الله عنها- طوقاً من ذهب فيه جوهرة قوّمت بمئة ألف دينار[3]. وكانت سكينة بنت الحسين تلبس سوارين من ذهب في عضديها، وزن الواحد أربعون مثقالاً، ولبسن الأقراط في آذانهن، وتختّمن في أصابعهن العشر. وضربت الثريا بنت علي بيدها عمر بن أبي ربيعة مازحة وهي تزين كفيها بالخواتم أصابت ثنيتيه فكانتا سوداوين[4].

واتخذت بعض النساء كعائشة بنت طلحة، ماشطة خاصة تعنى بطيبها وعطرها، ولباسها وتزيينها حتى غدت مثالاً تدهش منه زوج أمير المؤمنين وهي تسأل عن الرحال المثقلة بألوان الزينة واللباس، وهي تحط رحالها في الحجاز، ولأهمية الخبر نورده: «استأذنت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عبد الملك في الحج فأذن لها، وقال: ارفعي حوائجك واستظهري، فإن عائشة بنت طلحة تحجّ ففعلت،

(١) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ٥/ ١٠٦. ابن عبد ربه: العقد الفريد: ٤/ ٤٤٦.

(٢) الأغاني: ٦/ ٨٥.

(٣) الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت، ٢/ ٢٨.

(٤) الأغاني: ١/ ١٨٠، ١٧/ ٤٩، الطبري: ٥/ ٤٥٢، ٤٦٣.

فجاءت بهيئة جهدت فيها، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها، فقالت: أرى هذه عائشة بنت طلحة فسألت عنها، فقالوا: هذه خازنتها ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك، فقالوا: عائشة، عائشة فضغطهم فسألت عنه، فقالوا: هذه ماشطتها، ثم جاءت مواكب على هذا إلى سننها، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهوادج، فقالت عاتكة: ما عند الله خير وأبقى»[١]. ودعت يوماً نسوة من قريش فلما جئنها أجلستهن في مجلس قد نضد فيه الريحان والفواكه والطيب والمجمر، وخلعت على كل امرأة منهن خلعة تامةً من الوشي والخز ونحوها[٢].

واعتنت المرأة الأموية بجمالها جداً وكانت سكينة بنت الحسين تصفف جمّتها تصفيفاً لم ير أحسن منه حتى عرف ذلك. وكانت تلك الجمة تسمى (السكينية)، وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلاً يصفف جمته السكينية جلده وحلقه[٣]. وأختضبت المرأة واكتحلت وتطيّبت بأنواع متعددة من الطيب.

والاعتناء بالطيب والتبخر لم يكن مقتصراً على النساء فحسب ولكن تجاوزهن إلى الرجال، فكان عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة شديد التعطر والتبخر، حتى تسابق الناس لغسل ثيابهم إثر ثيابه لشدة عطره. وإن مشى كان يعصف ريحه[٤]. وأكثر عبد الله بن عباس من استعمال المسك فإذا مرّ في الطريق قال الناس: هذا ابن عباس أو رجل معه المسك[٥]. ومرّ معنا أن عبد الله بن جعفر قد صنع الغالية وروي أيضاً أن عثمان بن عروة بن الزبير كان يكثر من وضع الغالية، وكان حين يقوم من مصلاّه يأتي الناس إلى مكانه، ويسلتون الغالية من على الحصباء مما أصابها من لحيته[٦].

---

(١) الأغاني: ١١/ ١٩٤.

(٢) الأغاني: ١١/ ١٨٦.

(٣) الأغاني: ١٦/ ١٥١.

(٤) ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز: ص٢٥.

(٥) ابن قتيبة: عيون الأخبار: ٣/ ٣٠٤.

(٦) الزبير بن بكار: جمهرة نسب قريش: ١/ ٣٠٥.

أما مجالس الغناء فقد شاعت فيها ألوان من الزينة واللباس الخاص بالغناء، ويروى أن جميلة المغنية جلست يوماً ولبست برنساً طويلاً وألبست من كان عندها برانس دون ذلك، وكان في القوم ابن سريج وكان قبيح الصلعة، ثم دعت بثياب مصبغة ووفرة شعر مثل وفرة ابن سريج، فوضعها على رأسها، ودعت للقوم بمثل ذلك فلبسوا »[١].

وفي مجلسٍ آخر جعلت جميلة على رؤوس جواريها شعوراً مسدلة كالعناقيد إلى أعجازهن، وألبستهن أنواع الثياب المصبّغة، ووضعت فوق الشعور التيجان، وزيّنتهن بأنواع الحلي »[٢] ذوق مترف جداً عرفته المرأة الأموية.

أما لباس البداة فتغلب عليه الخشونة والبساطة، وعلى الأغلب أنه يتكون من إزار ورداء، وقد يلبس الجبّة، وهي جبة مشقوقة المقدمة مصنوعة من الصوف، ويلبس المدرعة فوقها، ويتعمم بعمامة. وكان الفرزدق يتزيا برداء وقميص وعمامة وإزار[٣] وكان جميل بثينة كثير الاحتفال بزينته إذا قابل بثينة أو تهيأ للمراجزة[٤] وخرج مجنون ليلى لمقابلة صاحبته وعليه حلتان له فاخرتان وطيلسان وقلنسوة ... »[٥]. واستكسى الأبيرد حارثة بن بدر ثوبين لمقابلة الأمير « عبيد الله بن زياد، ودارت مهاجاة بينهما، فمنع عنه حارثة الكسوة، وكان حارثة يكسوه في كل سنة بردين وقال فيه:

فإن كنت عن بُرديَّ مستغنياً لقد	أراك بأسمالِ الملابسِ كاسيا
وعشتَ زماناً أن أعينك كسوتي	منعت بأخلاق وأمسيت عاريا
وبردين من حَوْك العراق كسوتها	على حاجة منها لأمك باديا[٦]

---

(١) الأغاني: ٨/ ٢٣٤- ٢٣٥.

(٢) الأغاني: ٨/ ٢٣٥.

(٣) الطبري: ٥/ ٢٤٢.

(٤) الأغاني: ٨/ ١٤٣.

(٥) الأغاني: ٢/ ٢٩.

(٦) الأغاني: ١٣/ ١٤١، ١٤٢.

ونجد الأمر عند العجاج لمّا ورد سوق المربد تزين وخرج (متحفلاً عليه جبة خز وعمامة خز على ناقه له قد أجاد رحلها حتى وقف بالمربد والناس مجتمعون ...»[١]. وكانت النساء تتزين في الأعياد كما الرجال ويبدو بعضهم على بعض وكان جميل بثينة قد رأى صاحبته في العيد ..[٢] وكانت جلوة الأعرابية مشهورة وقد روى أن أمّ منظور لما جلت بثينة: (ألبستها قلادة من بلح، ومخنقة من بلح واسطتها تفاحة، وضفّرت شعرها، وجعلت في فرقها شيئاً من الخلوق ..»[٣].

٣- مجالس الترف واللهو والغناء

والمظهر الثالث الذي يعد من أهم المظاهر دلالةً على المستوى المعيشي للناس، ومدى تطوره وتمثيله للحياة الاجتماعية هو مجالس اللهو والغناء والترف. انتشرت مجالس اللهو والترف في الحجاز ثم امتدت إلى باقي الأمصار الإسلامية ولكن الحجاز كان أكثر المدن اهتماماً بالترف ومجالسه لأمور عدة تدخلت لإضفاء هالة من الثراء والترف. وأصبحت مكة والمدينة مدينتين متحضرتين، غرق شبابهما في المتعة والغناء، وقننوا الموسيقى ووضعوا أصولها حتى استوت على سوقها. وهذا الاتجاه نحو اللهو لا يكون إلا في الفئة الارستقراطية التي لم تجد ما يشغلها عن الغناء واللهو، فتتوجه إليه، ويصبح هذا اللون من الحياة نمط حياة المترفين في كل مكان ليس في الحجاز فحسب، لقد ورث أبناءُ الحجاز أموالَ كسرى وهرقل وحووا غنائم اليهود في المدينة، وبعض منهم قد نمّى أمواله بالتجارة، فكثرت الأموال في أيديهم فاتجهوا إلى ممارسة اللهو، خاصة بعد أن مرّ أهل الحجاز بمآسي السياسة التي كان منها موقف الحرة ومقتل الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وخيرة الصحابة وأبنائهم، وسيطر الأمويون على مقدرات الحكم، وبالطبع أصبحت المقدرات الاقتصادية بأيديهم يصرفونها كما يشاؤون، ولذا اتجه أبناءُ الحجاز إلى اللهو، وساعدهم على ذلك كون الحجاز العاصمة الأولى للدولة الإسلامية

---

(١) الأغاني: ١٠/ ١٨٧.

(٢) الأغاني: ٨/ ١٠٣-١٠٤.

(٣) الأغاني: ٨/ ١٢٠. الخلوق: العطر.

وتسربت إليها السبايا جواري وغلماناً، وكان بعضهم يملك خبرات هاتين الدولتين، ومن ضمن ما يملك الترف والحضارة والغناء واللهو. فعرفت مجالس المترفين رجالاً ونساء كمجلس عمر بن أبي ربيعة ومجلس الثريا بنت علي، ومجلس جميلة المغنية، ومجلس سكينة في العراق وبرز من المغنين طويس ومالك بن السمح ومسجح وابن سريج ومعبد وابن عائشة والغريض وحكم الوادي وغيرهم[١].

وامتدّ الترف إلى النساء الشريفات فجالست سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة مشاهير عصرها من الأدباء والمغنين فاجتمعن بالحارث بن خالد، وعمر ابن أبي ربيعة وأشعب وكُثَيِّر عزة. وبرزت عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، والثريا بنت علي وغيرهن كثير[٢]. وسجل الشعر كل مظاهر الترف التي غرق فيها الناس لا سيما شعر الغزل، ولدى زعيم الغزليين (عمر بن أبي ربيعة)، مما كان له أعظم الأثر في امتداد الترف إلى الكلمة والذوق والقيمة والسلوك فكان الشعر الحضري[٣]. وظهرت المرأة في شعر المترفين والحضريين بصورة مغايرة لما هي عند العذريين الذين وجدوا في بوادي الحجاز ونجد وهذا ما سنفصل فيه القول في شعر الغزل.

وبرزت مدارس الغناء في الحجاز ومنها مدرسة مكة ومدرسة المدينة، وتبودلت الزيارات بين المغنين خاصة في المواسم موسم الحج، واستقدم خلفاء بني أمية بعضَ المغنين إلى الشام، وسعى نفر منهم إلى الحصول عليهم مهما كان الثمن، «وقدمت رسل يزيد بن عبد الملك المدينة فاشتروا سلاّمة المغنية من آل رمانة بعشرين ألف دينار» وكانت سلاّمة من أشهر المغنيات في المدينة، وارتبط اسمها بالقسّ عبد الرحمن الجشمي[٤] حتى قيلت فيهما أشعار غنتها سلامة منها قول ابن قيس الرقيات:

---

(١) الأغاني: ١/ ٤٣، ٩/ ٢٥٣، ١/ ٢٤٣، ٢٤٣/٢١١، ٢/ ١٩٥، ٢/ ٣٥٣، ٣/ ٢٨، ٤/ ٢٢٤، ٣/ ٢٧٣، ٩٨/٧، ٧/ ١٠٤، ٨/ ١٩٥، ٨/ ٢٣٣، ٨/ ٣٤٧، ١٥/ ٥٤، ١٥/ ١١٩، ١٧/ ١٦٤.

(٢) الأغاني: ١/ ١٠٠-٢٤١.

(٣) انظر الفصل السادس (شعر الغزل الحضري).

(٤) الأغاني: ٨/ ٣٥٦.

لقد فتنت ريّا وسلاّمة القسّا   فلم تتركا للقسّ عقلاً ولا نفسا
فتاتان أمّا منهما فشبيهة الـ   ـهلال، وأخرى منهما تشبه الشمسا
تكنّان أبشاراً رقاقاً وأوجهاً   عتاقاً، وأطرافاً مخضّبةً ملسا

فغنته سلامة واستحسنتاه[١] وكانت سلامة بمكة من قبل لسهيل وكان يدخل عليها الشعراء فينشدونها وتنشدهم وتغني من أحبّ الغناء ففتن بها عبد الرحمن ابن عبد الله بن أبي عمّار القسّ، فشاع ذلك وظهر فسمّيت سلاّمة القّس بذلك، وغنت القسّ بشعره[٢] وانتقل فتيان مكة للسماع من مغني المدينة، وقدم فتيان المدينة للسماع من مغنيي مكة، ويروى أبو الفرج أنه (قدم علينا فتيان من بني أمية يريدون مكة، فسمعوا معبداً ومالكاً ثم قدموا مكة فسألوا عن ابن سريج ..»[٣]. واستقدم خلفاء بني أمية بعض المغنين إلى الشام، وسعى نفر منهم إلى الحصول على المغنين أو المغنيات؛ فطرب الوليد إلى ابن عائشة[٤]، وكتب إلى عامل مكة أن أشخص إليّ ابن سريج فاشخصه[٥] ويروى أنه لما حج سليمان بن عبد الملك «سبّق بين المغنين بدرةً، فجاء ابن سريج، وقد أغلق الباب، فلم يأذن له الحاجب، فأمسك حتى سكتوا وغنى بشعر عروة بن أذينة:

سرى همّي وهمّ المرء يسري...الخ

فأمر سليمان بدفع البدرة إليه[٦].

لكننا لا نجد الغناء والترف سمة من سمات العراق لانشغال أهله بالفتوح والحروب الأهلية، أو لم تسلط عليها الأضواء لظروف سياسية، فكانت حبيسة القيان في الأديرة ولذا سادها المجون. أما الشام فلم يبرز فيها الغناء إلا متأخراً وإن

---

(١) الأغاني: ٨/ ٣٥١.
(٢) الأغاني: ٨/ ٣٥٢.
(٣) الأغاني: ١/ ٢٧٩
(٤) الأغاني: ٢/ ٢٣٣
(٥) الأغاني: ١/ ٢٨٧.
(٦) الأغاني: ١/ ٣٠٦.

كان فمجالس الأنس لبعض الخلفاء والأمراء، وكان يجتمع المغنون في الدور أو في المنازل، أو في العقيق متنزه أهل المدينة، وفي الطائف مصيف الحجازيين ويروى أنه اجتمع ابن سريج وسعيد بن مسجح ومسلم بن محرز وخرجوا إلى العقيق متنزهين»[١] وعرفت مجالس السّمر كمجلس الأقحوانة يتحدثون فيه بالعشي ويلبسون الثياب المحمّرة والمورّدة والمطيبة، وشاركت فيه النساء أيضا»[٢]. وكان مجلس جميلة المغنية من أشهر المجالس الغنائية اجتمع في بيتها المغنون والموسيقيون وتقوم على تدريبهم، وتخلع عليهم الخلع، وتلبسهم ملابس الغناء الخاصة وترتيبهم ترتيباً خاصاً كما مرّ بنا، وأسند إليها الحكم بين المغنيين كما أسند الحكم في الشعر إلى أم جندب من قبل[٣]. ومن أشهر جلسائها عبد الله بن جعفر وابن أبي عتيق.

وظهرت وسائل التسلية المتعددة من وجود بعض المهرجين والمضحكين أصحاب النوادر كأشعب والغاضري وجالسوا الرجال والنساء على السواء[٤]. وشاع اللعب بالنرد والشطرنج والكرّك، وكان لكل حارة من حارات مكة كرّك يعرف بهم يجمعون له ويلعبون فيه، وشاع الرمي على الجلاهقات وطيران الحمام[٥].

وساعدت الجواري في إبراز مظهر الترف واللهو لشباب الحجاز بعد أن تدفقت سيول منه إثر الفتوحات إليهم، ولا بدّ أنهن وبعض السبي كانوا يتقنون فنون الموسيقى والغناء، فطوّروه حتى نضج واستوى على عوده.

ومن وسائل الترف البديعة (سباق الخيل)، وكان الوليد بن عبد الملك من أسبق الخلفاء إلى تنظيم هذه الرياضة، ويروى المسعودي أن هشام بن عبد الملك

---

(١) الأغاني: ٨/ ١٩٨

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/٢٧٩.

(٣) الأغاني: ٨/ ٢٠٢.

(٤) شوقي ضيف: الشعر والغناء في المدينة ومكة: دار المعارف- مصر، ٢٧٠.

(٥) عبد الله السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز، ٢٢٣-٢٣٥.

أجرى سباقاً اشترك فيه أربعة آلاف فرس[١]، وكذلك الوليد بن يزيد من أشهر الذين عرفوا بسباق الخيل والمصارعة والصيد[٢]. ويذكر عبد الله السيف أن رياضة سباق الخيل زاولها النجديون والحجازيون، وإلى جانب سباق الخيل شاعت الرماية والصيد وطوّروها، فبرز لنا شعر الصيد والطّرد فيما بعد. واتخذ بعض المترفين الصيد متعةً ورياضةً، واستعملوا في ذلك الفهود والكلاب لصيد الغزلان وحمر الوحش، ويروى أن الوليد جعل وسماً (بالوليد) ووسم بها الظباء، وتركها[٣] وبنى نفر من الخلفاء قصوراً لهم في بادية الاشم يتفيأون إليها حين خروجهم للصيد أو الترفيه عن أنفسهم من ثقل المدينة، ومنهم يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد[٤].

ومارس التنزه والترفيه عن النفس معظم مترفي العصر الأموي رجالاً ونساءً ويروى أنه لما تأيمت عائشة بنت طلحة كانت تقيم بمكة سنة، وبالمدينة سنة، وتخرج إلى مال عظيم لها بالطائف، وقصر كان لها هناك، فتتنزه فيه، وتجلس بالعشيات فيتناضل بين يديها الرُّماة[٥].

٤: حركة البناء والعمران

في البناء والعمران تتجلى قمة المدنية والحضارة واتجاه العرب إلى التحضر والارتفاع بشأن دولتهم إلى مصاف الأمم المتحضرة بعد أن استقرت إثر الفتوح في الأمصار الإسلامية، وتنازلت عن الغزو والخيمة والترحل وآثرت السكينة والاستقرار. وتمثل هذا الأمر في مستويين؛ مستوى الدولة في تمصير المدن وإقامة المنشآت الحضارية، ومستوى الناس في بناء منازلهم التي تؤويهم، أو قصورهم التي يتسيّدون بها أمام الناس.

---

(١) انظر المسعودي، مروج الذهب: ٣/ ٢١٨.

(٢) عبد الله السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز،٣٣٦/ ٣٣٨.

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء: ٤/ ١١٦.

(٤) الحائر في العمارة الأموية: ٧٧، ٨١، ١١٥، ١١٨.

(٥) الاغاني: ٦/ ٢١٧-٢١٦.

وعلى مستوى الدولة تم تمصير المدن في كلّ من الشام والعراق وفي الأخيرة كان أكثر بروزاً، فشيدت الكوفة والبصرة وواسط وغيرها من الحواضر ولا بد أن تمصير الأمصار كان «تجسيماً لكل حاجات المجتمع الجديد، كان تجسيماً لحاجاته النفسية التي كانت رغبة عن القبيلة، واستشرافاً للوحدة، ونزوعاً إلى حياةٍ هي أسمى من الحياة التي كانت في الجزيرة»[١] وفي الوقت ذاته كان تجسيماً لحاجاته الحياتية التي تحتم على هذه الجماعة أن تجد المنزل الذي تتأقلم فيه مع أعراف الماضي، وضرورات المستقبل وإيقاع الحاضر. وكانت هدفاً سياسياً وحربياً تهدف إلى إيجاد مواطن ثابتة القدم في الأمصار المفتوحة تتناسب وحاجات الحرب، لا خيمة لا تصمد أمام أول هجمة ريح، أو إعصار حرب أهلية.

وكان بناء المدن استجابة حضارية لما ورثه العرب من ممتلكات فارس وروما في العراق والشام، وقد تمثل بحركة عمرانية رائعة لا بد للعرب أن يتجاوزوه ويكملوا مسيرته، واعتبر المسلمون التمدّن مرادفاً للإيمان، بينما تساوي الأعرابية في نظرهم الكفر والردّة، فحذروا من التبدّي، لذا حرصوا على المدنية والخروج إلى المدن مخافة الأعرابية[٢].

ومثّل البناء استجابة طبيعية للأموال التي تدفقت إلى جيوب الناس فظهر الأثرياء، وحاولوا بناء مدن حصينة لهم، يبنون فيها تميزهم وسيادتهم. وبدت ظاهرة اتخاذ القصور والدور، وبنائها بالآجر والجص، واتخاذ أبوابها من الساج مبكرة جداً، وأفادوا فيها من خبرة البنائين الفرس والروم في تزيينها وزخرفتها وشيّد سعيد بن العاص قصره في العرصة قرب المدينة، وسوّرها بالحدائق الغنّاء، وبعد صنيع سعيد شاع تسوير القصور بالحدائق والبساتين، كقصر عروة بن الزبير وعاصم بن عمرو، وعنبسة ابن سعيد بن العاص، وقصر عنبسة بن عثمان ابن عفان[٣].

---

(١) شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية: ١٠٥.

(٢) أنساب الأشراف: ٤/ ق١/ ١١٤ ولسان العرب (عرب).
وفتوح البلدان: ٢٢٨، ١٤٩.

(٣) السمهودي: وفاء الوفاء، ٣/ ١٠٥٥، ١٠٤٨، ١٠٥٠-١٠٥١.

واتخذ الأمويون القصور والدور في كلّ من الشام والحجاز، وبنى معاوية بن أبي سفيان لنفسه بمكة دوراً يقال لها الرقط لاختلاف ألوانها، وجلب لها البنائين من فرس العراق، فبنوها بالجص الأبيض والآجر الأحمر حتى أصبحت رقطاً[١] وبنى هشام بن عبد الملك داراً في المدينة وجلب لها الأبواب من البلقاء[٢] واشتهرت دور كثيرة منها دور ابن الزبير[٣]، وعني أهلها بفرشها بالبسط والآدم والفرش، وانتقلت عدوى البناء إلى بعض نجد كما هو في النباج، ويروى أن الحجاج انفق على بناء قصره والجامع والخندقين والسور ثلاثة وأربعين ألف ألف درهم[٤].

ما قدّمناه آنفاً لا يعني أبداً أن الغنى والترف قد نفذ إلى كل فئات المجتمع، وأن الفقر قد فني، والكلّ كان مترفاً، وصاحب قصور وذوي تجارة، ورب جوار، ومقتني ضياع، فعلى العكس من ذلك نرى ظاهرة الفقر جلية واضحة أمام ظاهرة الغنى والترف والعمران.

وتنبه يزيد بن الوليد إلى ظاهرة العطاء ومنعه عن الجند أو تأخيره، ولذا خطب فيهم مؤكداً أنه سيؤدي العطاء في وقته، وألاّ يصادر ضياعاً دون موافقتهم، ولا يكتري نهراً إلا بإذنهم وألاّ يضع حجراً على حجر إلا بموافقتهم ..[٥].

---

(١) الأزرقي: ٢/٢٣٧، السمهودي: وفاء الوفاء، ٢/ ٧٥٢.

(٢) السمهودي: وفاء الوفاء: ٢/٧٥٢.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/٢٥٢.

(٤) معجم الأدباء: ٥/ ٣٤٩.

(٥) تاريخ الطبري: ٧/ ٢٦٩.

الفصل الثالث

ظاهرة التكسب في الشعر الأموي

الفصل الثالث

ظاهرة التكسب في الشعر الأموي

كانت العرب لا تتكسب بالشعر، وتأنف منه حتى نشأ النابغة الذبياني ومدح الملوك، وقبل جوائزهم، ونال منهم مالاً عظيماً حتى كان أكلُه وشربه في صحاف الذهب والفضة، وسئل أبو عمرو بن العلاء: لم خضع النابغة للنعمان فقال: رغب في عطائه وعصافيره»[١]. ولعل الأعشى كان أول من تاجر بالشعروجعله حرفة تكسب بها من الملوك والسادة، وممن لا قدر له، وباع الحطيئة شعره في القبائل.[٢]

وفي العصر الأموي نلمح ظاهرة التكسب جلية، غير خفية، قد اكتملت ملامحها، واتخذت تيارات متعددة، سنعرض لها في الصفحات القادمة، ولن يحاول هذا الفصل وصف ظاهرة التكسب ظاهرة تاريخية، وتتبع الشعراء الذين تكسبوا بشعرهم، إنما سيتجاوز الوصف الى البحث عن أسباب ظهور هذه الظاهرة ومحاولة تفسيرها ضمن فكر الدولة الأموية، وسياستها، وعلائقها الاقتصادية، وتكوينها الاجتماعي.

لعبت عوامل عديدة في بروز ظاهرة التكسب، بعضها يعود لسياسة الدولة في التضييق الاقتصادي، وبعضها يعود لطبيعة القبائل، وبقائها في البادية، ومواقفها من الهجرة والجهاد وكذلك لطبيعة البيئة الاقتصادية. وعلى ذلك ظلت هموم العيش ديدن الشعراء الذين تكسبوا بالشعر، واتصلوا بالقصر الأموي في دمشق، وبقصور الولاة في الأمصار الإسلامية الأخرى في كل من العراق (كوفتها

---

(١) ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده: تحقيق مفيد قميحة. دار الكتب العلمية بيروت. ص ١٩٦٣

(٢) نفس المصدر: ٦٥

وبصرتها وواسطها) والحجاز بمدنه، واليمن وخراسان ومصر، بل تعدتها الى الأجواد والأشراف خاصة أشراف الحجاز والعراق، وولاة خراسان والعراق.

أولاً: بيئات التكسب

كان للبيئة الدور الأكبر في رفد القصر الأموي بالشعراء المتكسبين مرة، وظهور التكسب فيهم مرة ثانية، فبيئة الشام على رأي الدراسين قل الشعر فيهم لأسباب بينوها- لا نجد التكسب ظاهرة شائعة فيهم، وإنما كانت تستقبل الشعراء المتكسبين. ولعل رضا الدولة عن اليمانية المؤيدة للأمويين كان له أكبر الأثر في عدم سيرورة هذه الظاهرة. ولم يكن للفقر نصيب كبير في حياتهم. بل على العكس من ذلك، أغدقت الدولة عليهم الأموال وبالغت في استمالتهم، وزادت في عطائهم، فكان معظم الشعراء الشاميين إعلاميين، كشأن الأخطل وعدي بن الرّقاع العاملي. أما من وفد عليهم من بيئات مختلفة فسنتناولهم في بيئاتهم.

وكانت بيئة العراق (مدينتها وباديتها)، الرافد الأكبر للقصر الأموي بالشعراء الإعلاميين والمؤيدين لها، والمتكسبين منها، فظهر فيهم عدد كبير. منهم الفرزدق والكميت بن زيد الأسدي، والأقيشر والحكم بن عبدل الأسدي وغيرهم كثير. وفي نجد والحجاز وبواديها ظهر عدد هائل من الشعراء المتكسبين على رأسهم جرير وليلى الأخيلية والراعي النميري وذو الرمة وعمرو بن أحمر الباهلي، وعمر ابن لجأ وغيرهم كثير فضلاً عن الأعراب. ولم تخل بيئة الحجاز من التكسب والرحلة من أجله أيضاً، وإن كان الأمرفيها أقل انتشاراً من العراق ونجد. فنجدُ عروةَ بن أُذينةَ، وأبا العباس الأعمى، وكثيِّر عزه، والأحوص، والحزين الكناني، فلم يكونوا أغنياء كالحارث بن خالد المخزومي وعمر بن أبي ربيعة أيضا. ولا يهمنا تأريخ الظاهرة أبداً، إنما يهمنا شيوعها في هذه البيئات، ما دلالاته؟؟

مورست سياسة التضييق الاقتصادي على العراقيين لا سيما أبناء الكوفة، لعوامل عديدة رأتها الدولة حينئذ في عدم رضا أهل العراق عن خلافة بني أمية، ولآرائهم فيهم، وتأييدهم لعلي بن أبي طالب وشغبهم على الدولة مرات، وانضمامهم الى ثوارات المنذر بن جارود، وابن الأشعث فنجد الدولة قد ضيقت

على أبي الأسود الدؤلي[1]، وكان فقيراً جداً، ولم يكن مكتتبا في العطاء، فمال الى الزهد، ونسبوه الى البخل ظلماً، ولما رآه عبد الرحمن بن أبي بكرة الثقفي في حالة رثة، بعث إليه بدنانير وثياب، وسأله ان ينبسط إليه في حوائجه ويستميحه إذا ضاقت به الأمور فمدحه الدؤلي شكراً على ما صنع[2].

والتضييق الاقتصادي الذي مورس على الدؤلي كان سبباً من أسباب وروده على عبيد الله بن زياد للرفد، فامتنع عنه، بعد أن وعده ليقلل من شانه فقال:-

دعاني أميري كي أفوهَ بحاجتي	فقلت، فما ردَّ الجوابَ ولا استمع
فقلت ولم احسُسْ بشيء ولم أصِنْ	كلامي، وخير القول ماصين أو نفعْ
وأجمعتُ يأساً لا لُبانةَ بعدهُ	ولليأسُ أدنى للعفاف من الطمع[3]

ولم يستطع الدؤلي الثبات أمام جبروت الفقر دائماً، فكان يلين أحياناً لحاجته الى المال فضلاً عن أنّ الحياة كانت تجذبه ليستمر فتصدّى مرّة أخرى لرفد الحصين ابن أبي الحُرِّ العنبري لما وليَ ميسان لعبيد الله بن زياد، فتهاون العنبري بكتاب الدؤلي، ولم ينظر فيه، فقال:

ألا أبلغا عني حصيناً رسالة	فإنك قد قطّعتَ أخرى خلالكا
فلو كنتَ إذ أصبحتَ للخَرْجِ عاملاً	بميسان تعطي الناسَ منْ غير مالكا
سألتُكَ، أو عرَّضتُ بالودِّ بيننا	لقد كان حقاً واجباً بعضُ ذلكا
وخبّرني مَنْ كنتُ أرسلتُ إنما	أخذتَ كتابي مُعْرِضاً بشمالكا
نظرتَ الى عنوانهِ ونَبَذْتَهُ	كنبذِكَ نعلاً، أخلَقَتْ من نِعالكا
حسبت كتابي إذ أتاكَ تعرُّضاً	لسيبكَ، لم يذهبْ رجائي هنالكا

---

(١) الأغاني: ٢٤٦/١٢ ترجمته (أبو الأسود الدؤلي هو ظالم بن عمرو بني سفيان الدؤلي من وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم، روى عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، واستعمله عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب وكان من وجوه شيعة علي وهو واضع علم النحو.»

(٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي: تحقيق محمد حسن آل ياسين- ط٢- طبعة مزيدة ومنقحة- مكتبة النهضة- بغداد- ١٩٦٤م، ١٠٧-١٠٨

(٣) الأغاني: ٣٦٤/١٢

يصيبُ وما يدري، ويخطي وما درى   وكيف يكون النَوْكُ إلا كذلكا [١]

والفقر جعل بعض الحكماء الصامدين يتعرضون بالطلب الى الولاة والعمال، ولكنهم قد يثبتون في النهاية، ومع تكسب الدؤلي إلا انه لم يرحل إلى معاوية متكسباً أبداً، ولم يكتتب في العطاء، لأنه ثبت على مبادئه. والحوار الذي دار بينه وبين الحارث بنِ خليد- لمَّا عاين فقره- وكان الحارث في شرف العطاء- يكشف عن أسباب تكسب بعض الشعراء فقال له: ما يمنعك من طلب الديوان؟ فإن فيه غنى وخيراً، فقال له أبو الأسود الدؤلي: قد أغناني اللهُ عنه بالقناعة والتجمُّل، فقال: كلا ولكنك تتركه إقامة على محبة ابن أبي طالب وبُغْضِ هؤلاءِ القوم [٢] فلا نعجب أن التكسب أحياناً قد يكون بفعل التضييق الاقتصادي الذي اتبعته الدولة، نتيجة مواقف بعض الشعراء الثابتة منها؛ فلوحوا لبعض الولاة والعمال رغبة في استمرار الحياة، وقد يصرحون وان احتاج الأمر فانهم يجنحون الى الهجاء. فاذا يئس الشاعر من العطاء أعلن الثبات على المباديء وانسحب من التكسب، ورضي باليسير. وتحدثنا المظان ان معاوية لم يكن يفرض عطاءً للمضريين، إنما كان يفرض لليمانية الذين كانوا يحاربون معه، وجاءه مسكين الدارمي طالباً أن يفرض له العطاء، فأبى معاوية، فقال مسكين أبياتاً، يذكره فيها بوشائج النسب بين تميم ومضر، وقال فيها :-

أخاكَ أخاكَ، إنَّ مَنْ لا أخاله   كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح[٣]

ولكننا نجد مسكينا فيما بعد يدخل دائرة الإعلام، وتضيف الرواية إن معاوية لم يستجب لهذا الرجاء إلا حينما بلغته مقولة رجلٍ من أهل اليمن، قال فيها : لا أحلُّ حبوتي حتى أخرجَ كل نزاريٍ بالشام، ففرض من وقته لأربعة الآف رجلٍ من قيس وأرسل إلى مسكين عطاءَه، هو وأربعة الآف من قومه، ومن ثم جعله أحد الذين

---

(١) الأغاني: ٣٧٥/١٢- ٣٧٦

(٢) الأغاني: ٣٧٤/١٢

(٣) الأغاني : ٢٢٣/٢٠، وانظر قول النجاشي في الأغاني : ٢٢٤/٢٠. ومسكين الدارمي التميمي : من أهل العراق، كان يفد بين الفينة والفينة إلي دمشق مادحاً خلفاءها، أملاً قضاء حوائجه،ومن هنا وجدناه أموي الهوى، وأكثر صلاته كانت مع معاوية وابنه يزيد. انظر معجم الأدباء ١٠٤/٤. الأغاني ٢٢٠/٢٠ خزانة الأدب : البغدادي : ٤٦٧/١. تهذيب ابن عساكر: ٣٠٠/٥.

يروجون لبيعة يزيد بن معاوية. وكان معاوية قد عرف حاجة مسكين إلى المال وسبق أن جاءه طالباً متكسباً. واعتماد رجلٍ مثل مسكين الدارمي أمر حسن ليزين صورة يزيد بين الناس، فمسكين رجل فقيه ورع، يسمع الناس اليه، ويرى للمال قيمة، ويحتاج اليه فيطلبه، وكان قد ورد طالباً العطاء، فلديه استعداد للتكسب، فاستغله الخليفة، ومن هنا تبودلت المنفعة بين الشاعر والدولة، وكان للتكسب فيها دور بيِّن في إبراز بعض القضايا السياسية، وخدمة الدولة تماماً كما كان للدولة دورٌ أيضاً في ظهور الظاهرة. والأمر ليس مقصوراً على مسكين الدارمي أو أبي الأسود الدؤلي إنما قد يصح في كثيرين.

ودهش الدكتور يحي الجبوري من غياب شعر المتوكل الليثي عن مدح خلفاء عصره - غير يزيد - وقال فيه: «وكان قد مدح أناساً دون الخلفاء والأمراء شأناً وسلطاناً، ولا شك أن ذلك معزو إلى ضياع شعره، و ما بقي منه لا يكشف عن حياته وصلاته بأهل عصره إلاّ بقدرٍ يسير»[1]

وتبطل دهشة الدكتور يحي الجبوري اذا عرفنا أن المتوكل الليثى شاعر كوفي وجد في عصر معاوية وابنه يزيد، وفي عصرهما لم يشمل الرضا الكوفيين، وكان المتوكل قد خاطب يزيدَ بن معاوية برفع عطائه :-

أبا خالدٍ حنَّت إليكَ مطيتي	على بعدِ منتابٍ وهوْل جنانِ
أبا خالدٍ في الأرض نأيٌ ومفْسَحٌ	لذي مِّرةٍ يرمي به الرَّجوانِ
فكيف ينامُ الليلَ حرٌّ عطاؤه	ثلاثٌ لرأسِ الحول أو مئتانِ
تناهتْ قلوصي بعد إسآدي السرى	إلى ملكٍ جَزْلِ العطاء هجانِ
ترى الناس أفواجاً ينوبون بابه	لبِكرْ من الحاجات أو لعوانِ[2]

شكا المتوكل الليثي قلة عطائه،ويبدو أنه كان يمر في حالة من الفقر المدقع، وأن الخليفة لم يستجب إليه، مما يدل على أن عطاء الكوفيين كان لا يكفى أهله وبالتالي، كان التكسب هو الطريق لسد الحاجة،ويبدو أن يزيد لم يكافئه ومن هنا

---

(١) شعر المتوكل الليثي : تحقيق يحي الجبوري: دار الاندلس - بغداد - ص ١٠.

(٢) شعر المتوكل الليثي: ٢٠٤-٢٠٧ أنظر النص ١٨٨-٢٠٨.

أقبل على أجواد عصره، يتكسب منهم، فاتصل بحَوْشب وعِكْرمةَ بن ربَعْي وكلاهما جوادٌ، ولما لم يثبه الأخيرُ هجاه هجاءً خفياً، يخلو من الألفاظ البذيئة ضمنَ قصيدةٍ يمدح فيها حوشباً :-

رأينا حَوْشباً يسمو ويبني ... مكارمَ للعشيرةِ لن تُنالا

ربيعاً في السنينِ لمُعتفيهِ ... إذا هبَّتْ بصُرَّادٍ شَمالا

حمولاً للعظائمِ أريحياً ... إذا الأعباءُ أثقلتِ الرِّجالا

أعكرمَ كنتَ كالمُبتاعِ بيعاً ... أتى بيعَ الندامةِ فاستقالا

أقلني يا ابن ربعيٍّ ثنائي ... وهَبْها مدْحَةً ذهبت ضلالا

تفاوتَني عمايَ بها وكانت ... كنظرةِ من تفرَّسَ ثمَّ مالا

حبوتكَ بالثناءِ فلم تثبني ... ولم أتركْ لممتدحٍ مقالا

فلستُ بواصلٍ أبداً خليلاً ... إذا لم تغن خُلَّتُهُ قبالا[1]

لا بدَّ أن حاجة كانت وراء اتصاله بالكريمين،وكان قد وصل ابن ربعي ومدحه ولكن لماذا لم يثبه الرجل الكريم على كرمه؟

كان للمتوكل الليثي رأيٌ في التكسب، فالتكسب ليس شيئاً منكراً أو مرفوضاً، ويرفض أيضاً أن يكون شاعراً لرجل ليست له مكانة عظيمة أو مبادىء سامية، كما يرفض أن ينقطع لرجل سفساف او جانٍ إذ قال :

فلستُ بشاعر السفسافِ منهم ... ولا الجاني إذا أشرَ الظلاما[2]

وهذا جعل طبيعة العلاقة بين الأمويين وأهل العراق خاضعة للأوضاع الاقتصادية التي كانت في معظمأحوالها ليست على ما يرام، ولذا لا بد من البحث عن وسائل التكسب حتى كان معظمهم قد استمالتهم الدولة ليكونوا إعلاميين فقط

---

(١) شعر المتوكل الليثي : ١٥٩ - ١٦٠. حوشب: هو حوشب بن زيد بن الحارث ممدوح الشاعر، كان على شرطة الحجاج،الربيع: الفضل: المعتفون: طلاب المعروف، الصُّراد الغيم الرقيق لا ماء فيه.
تفرّس: أدام النظر، حتبك بالثناء: آثرك به. الخلة: الصداقة، القبال: قبال النعل وهو الزمام الذي يكون بين الإصبع الوسطى والتي تليها كناية عن حقارته.

(٢) شعر المتوكل الليثي : ١٢٤

كالنابغة الشيباني الذي قال شعراً في كل القضايا السياسية الخطيرة كقضية ولاية العهد. (١)

وبالتالي يمكن القول : إن العراق رفدت الشام وخراسان بشعراء كثر، وأصبحوا اللسان الناطق للخليفة أو الأمير أو الوالي نتيجة سياسة الدولة وعلاقتها بالراعي، وممارسة التضييق الاقتصادي، وقطع العطاء عنهم أحياناً، مما جعلهم يرحلون طلباً للعطاء، أو للاكتتاب فيه، ولم يسلم منهم واحدٌ حتى أشهر الذين عرفوا بالإباء كالفرزدق. وتكسب المضريون منهم واليمانيون، سنيهم وشيعيهم وزبيريهم، واستطاعت الدولة أن تسحب هؤلاء الشعراء من إيمانهم بأحزابهم ومبادئهم، ويفدون على الدولة متكسبين، فكانوا بين راضٍ جداً بوضعه كالنابغة الشيباني، وبين متكسب لا يتنازل عن قبليته كالفرزدق، وشيعي لا يتنازل عن مبادئه على كثرة تكسبه كالكميت بن زيد الأسدي، فكان متكسباً إلى جانب زيديته التي جعلته يؤمن بالتقيّة ويبدو أنه استحل ذلك في ضوء هذا المبدأ. وابن همام السلولي الذي ترك زبيريته وانضم الى الأمويين لكثرة احتجاجاته على الوضع الاقتصادي، ولم تستطع الحكومة الزبيرية ان تنهيها فتركها الى غير رجعة.

ومما نلمحه في شعر التكسب في بيئة العراق مثلاً، سواء كان عند الذين يسكنون في العراق، ولا يفدون على الخلفاء والأمراء، أو ممن وفد على الخلفاء والأمراء والعمال في أقاصي الأرضِ ودانيها ظهور اقتصاد العراق المدني المتحضر. الذي حوى ثقافات الشعوب السابقة التي وفدت الى العراق، و كذا مستوى المعيشة الرفيع الذي يطمح اليه العراقيون، واتجاههم نحو اقتصاد المدينة وإيمانهم به اكثر من اتجاههم نحو اقتصاد الرعي والأمم البدائية. فظهرت صورة خالد القسريّ والإصلاح الزراعي الذي اشتهر فيه. وسجل عدد من الشعراء صورة هذا الوالي الاقتصادي الذي لم يأل جهداً في دفع عجلة التقدم الاقتصادي، فيظهر نهر المبارك في مدائح الشعراء وأهاجيهم، مدائحهم التي سجلوها نظير ما يقدمه الوالي وما

---

(١) النابغة الشيباني : شاعر بدوي من شعراء العراق، كان يفد بشعره على خلفاء بني أمية وأمرائهم في دمشق، يمدحهم، وينقطع إلى بعضهم مثل عبدالملك بن مروان، وولديه الوليد ابن عبد الملك. وكان واحداً من شعراء السياسة الأموية، دافع عن نظريتهم في الخلافة «أي الملك» وناضل عنهم،وأشركوه في مسألة ولاية العهد، مما كان له اثار سلبية على علاقاته ببعض الخلفاء الامويين.
انظر الأغاني : ١٢١/٧. وانظر مقدمة المحقق على الديوان : ص ١٥.

ينتظره الشاعر من تقدير له، وأهاجيهم كفاءِ ما قصَّرتْ أيدي الوالي عن الإحسان إلى بعض الشعراء ومنهم جرير والكميت بن زيد والفرزدق. وهجا الفرزدق نهر المبارك مرةً. فسجنه القسريّ إثرها ثم بدأ يكتب اعتذارياته، وتكسَّبَ حياته منه، ثم حاجاته المادية، حتى صارت اعتذارياته شكلاً من أشكال التكسب فقال :-

ألم ترَ كفيّ خالدٍ قَدْ أدرّتا — على الناسِ رزقاً من كثير الروافد

وكان له النهرُ المبارك فارتمى — بمثل الزَّوابي مزبداتٍ حواشدِ

فما مثلُ كفَّيْ خالدٍ حين يشتري — بكلِّ طريفٍ كلَّ حمدٍ وتالدِ

هو القائد الميمونُ والكاهلُ الذي — يثوب إليه الناسُ من كلِّ وافدِ(١)

فكان خالدٌ «كالمبارك» وفي موضع آخر ركز على نهر المبارك، وأظهر فوائده، وتحدث عن روافده، وربط قوة الخليفة هشام بقوة خالدٍ، وتحدث عن الأثر الاقتصادي الذي أحدثه نهر المبارك من رخص الطعام أو شيوع التجارة حين قال :-

أُعطيْ خليفتُنا بقوةِ خالدٍ — نهراً يفيض له على الأنهارِ

إن المباركَ كاسمهِ يُسقى به — حرثُ الطعام ولا حق الجبَّارِ

أسقاه من سيْح الفرات وغيرهِ — كُدْراً غواربهُ من التيّارِ

لمّا تدارك للمبارك مدُّهُ — رَخُصَ الطعامُ لمايحٍ وتِجارِ

لو أن دجلةَ أنبئَت عن خالدٍ — باتت مخافتهُ على الأقتارِ(٢)

وربط الفرزدق بين خالدٍ القسري ونهر دجلة، فكانا كالفيض والإمطار عطاءً كما في قوله :

يا دجلَ إنكِ لو عصيتِ لخالدٍ — أمراً سُقيتِ بأملح الأمرارِ

إن كان أثخنَ مدَّ دجلةَ خالدٌ — فلطالما غلبتْ بني الأحرارِ

يا دجلَ كنتِ عزيزةً فيما مضى، — فلقد أصابَكِ خالدٌ بصَغارِ

---

(١) ديوان الفرزدق: «همام بن غالب»- شرحه وضبطه وقدَّم له علي فاعور- دار الكتب العلمية بيروت- لبنان- ١٩٨٧- ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٢) ديوان الفرزدق : ٢٣٧ : الجبار : النخلة الطويلة. المايح : من يغترف الماء بكفيه. الأقتار : النواحي، سيح الفرات: جريان مائه.

اللهُ سخرها بكفيِّ خالدٍ ولقد تكونُ عزيزةَ الأضرار(١)

وكان هجاءُ النهر الذي أقامه خالد القسري يعني هجاء الخليفة وعامله،ولذا سجن الفرزدق وعذب بسببه، فاعتذر قائلاً :

فلا تتركوا عذري المضيءَ بيانُهُ ولا تجعلوني في الرَّكيّةِ كالردّي
وكيف أسبُّ النهر لله بعدما ترامى بدفّاعٍ من الماءِ مُزْبدِ
إلى كلِّ أرضٍ قادَ دجلةَ خالدٌ إليها وكانت قبله لم تُقوَّدِ (٢)

واتصل جرير بخالد القسري، وطلب منه فك سجن الفرزدق،ومدح نهر المبارك، وأشار إلى اصلاحات خالد الزراعية وربط العامل بالنهر، وأصبح كلاهما واحداً:

لقد كان في أنهار دجلة نعمةٌ وحظوة جدٍّ للخليفةِ صاعدِ
عطاءَ الذي أعطى الخليفةَ ملكَهُ ويكفيه تزفار النفوس الحواسدِ
جرت لك أنهارٌ بيمنٍ وأسْعُدٍ إلى جنةٍ في صحصحان الأجالدِ
ينبتْنَ أعنابا ونخلاً مباركاً وأنقاء بُرٍّ في جُرون الحصائدِ
إذا ما بعثنا رائداً يبتغي الندى أتانا بحمد الله أحمدُ رائدِ
فهل لك في عانٍ وليس بشاكرٍ فتطلقه من طول عضِّ الحدائدِ (٣)

سبب الوصال كان نهر المبارك، وسبب سجن الفرزدق كان نهر المبارك، وسبب الاعتذار نهر المبارك، وسبب العفو نهر المبارك، وسبب التكسب نهر المبارك. فأبرزه الشاعر أيّما ابراز وذكر ما لهذا النهر من فائدة تعود على الأمة من وجود الطعام، وزيادة التجارة، وأثرها في الإصلاح الزراعي وعلى شدّة دفق هذا النهر فهناك قوة أكبر منه، هي قوة خالدٍ الذي سخر هذا النهر لهذه الأمة. وشكل نهر المبارك حلقة وصل تستحق الوقوف عندها بين الفرزدق وخالد القسري اذ وقف الفرزدق ثلاث مرات مع هذا النهر يمدح هشام بن عبدالملك ويعتذر اليه من

(١) ديوان الفرزدق : ٢٣٧

(٢) ديوان الفرزدق ١٢٩، الركيّة: البئر وهو الحبس.

(٣) ديوان جرير : ٦٠٧/٣، الصحصحان: ما مستوى من الأرض، الجرون: البيادر واحدها جرين.

هجائه النهر، فنهر المبارك له دلالة خاصة عند الشعراء، وهو موقف الشاعر من الإصلاحات الزراعية التي أحدثها عامله في العراق بموافقته. وليس هذا ببعيد، فنجدُ ذلك الأمر عند الكميت بن زيد يشير إلى إصلاحات خالد القسري حين قال :

أخبرتْ عن فعالهِ الأرضُ واستنطق منها اليبابَ والمعمورا[١]

وعلى كثرة الإقطاعات في العراق وشهرتها. لم نجدها في الشعر بارزةً، طلباً وشكوى، ولكننا نجد العطاء وقلته وتحكم العمال به، وارتباط التكسب بالجندية ارتباطاً وثيقاً، وإلا فانه يميل للتكسب رغبة في نوال الولاة، لأنه لم يعد ينال رفدهم. وهذا ما صرّح به أحد الخوارج القادمين على خالد القسري :-

إني امرؤ لك لا لغيرك ما أني منكمْ أشيمُ مصاوبَ الأمطارِ
أرجو وآملُ كلَّ عامٍ نفحةً منكم تدقُّ خطائر الاقتار
حراًَ أموتُ، ولم يشنّيْ مطمعٌ أني نقيّ بطائن الإضمار[٢]

وإذا ظهر نهر النيل في بيئة مصر معادلاً موضوعياً لعبد العزيز بن مروان[٣] فقد ظهر دجلة معادلاً موضوعياً لبشر بن مروان أوالحجَّاج أو القسريّ عند العراقيين، والفرات عند أهل الجزيرة الفراتية. فكثيراً ما ربط الفرزدق بينهما. [٤]

أما عند غيره فمن الندرة بمكان أن يعبروا عن هذا الأمر الملحوظ، ذلك السيل التجاري الذي لا ينضب. وأظن أن ذلك قد يعود إلى أن العراقيين لم يعتادوا على فيض الأمويين، ليتنبهوا إلى هذا الأمر فكانت الإشارة إلى الحاجة والعوز والتقتير أكثر منها الى ما سبق وكان منهم التنبه للزيادة لا ليصورهم على أنهم مكثرون بل على العكس من ذلك نجد صورة مضحكة، مؤلمة تخز للتقتير، تظهر مبكراً جداً،

---

(١) ديوان الكميت بن زيد الأسدي : شرح داوود سلوم – الاندلس والنعمان – بغداد – ١٩٦٩. ٢٠٣/١ اليباب: الخراب.

(٢) ديوان الطرماح بن حكيم الطائي : شرح عزة حسن / وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق ١٩٦٨م : ٢٢٣ – ٢٤٦. انظر ٢٣٣، أشيم: أنظر، مصاوب الأمطار: قصد الأعطيات، نفحةً: العطاء الخطائر: جمع خطير بمعنى الوعيد، الإقتار: الفقر–يشني: يعيبني.

(٣) ديوان كثير عزّة : تحقيق احسان عباس – دار الثقافة – بيروت، ١٩٧١ (٢٧٩ – ٢٨٢) (٢٠١– ٢٠٣)

(٤) ديوان الفرزدق : ٨١

لدى الشعراء العراقيين كما هو حال ابن همام السلولي وهو يخاطب النعمان بن بشير بتنفيذ الزيادة في عطاءِ العراقيين، وكان قد قتر عليهم، ولم ينفذها فيهم كما نفذت في أهل الشام فقال : أنا قفل مفتاحه في الشام فصرخ فيه ابن همام :-

زيادَتنا نعمانَ لا تحبسنّها خفِ الله فينا والكتابَ الذي تتلو

فإنك قدْ حُمّلتَ منا أمانةً بما عَجِزتْ عنه الصلاخمةُ البُزْلُ

فلايكُ بابُ الشرِّ تحسنُ فتحهُ وبابُ الندى والخيرات له قفلُ

وقد نلتَ سلطاناً عظيماً فلا يكن لغيركَ جمَّات النّدى ولك البخلُ[١]

فالشعراء لم يجدوا الخير يأتيهم من الأمويين ليكونوا بحوراً وأنهاراً، ومن هنا كان التوجه الى سؤال العمال والأجواد مباشرة، ومن لم يرض بذلك رحل متكسباً إلى القصر الأموي، أو إلى الولاة في قصور الأقاليم الاسلامية الأخرى. ولما أحسَّ يزيدُ بنُ مفرِّغ الحميري أنه أخطأ فيَ اختيار عبّاد بن زياد دون سعيد بن عثمان تهكم من الوالي عبّاد، وهجم عليه هجوماً سريعاً نستشف منه الحالة الاقتصادية التي كان يعيشها الجند فقال :-

ألا ليت اللحى كانت حشيشاً فنعلفَها خيولَ المُسلمينا[٢]

وأظن ان شيوع التكسب المبتذل الذي سنأتي عليه في هذا الفصل في العراق والحجاز كان من موجبات البيئة الاقتصادية وكان للبيئة الاقتصادية الغنية في كثرة الاقطاعات وشيوع التجارة نظاماً اقتصادياً وغيرها أثر في أسلوب التكسب وغاياته. فكانت لغة التكسب لغة رقيقة رشيقة في كثير من مواطنها. فظهرت الخمرة حالة من حالات التكسب، فالتكسب للخمرة كان من آثار الإحساس الحضاري لبعض الشعراء في بيئة العراق. فإن كان أهل نجد يتكسبون لرفع الجدب فإننا واجدون هنا أناساً يتكسبون لإشاعة الترف والرفاهية، والاتجاه نحو المجون المنتشر كحال الأقيشر والحكم الأسديين، واتجها فيه اتجاهات متعددة من مدح وهجاء وسؤال. وكلما ازداد الترف بين الناس ازدادت الرغبة لدى الكثيرين بممارسته حتى اصبح من اليسير على المؤرخين اتهام الكثيرين من المسؤولين

(١) الاغاني ١٦/٣٨-٣٩

(٢) الاغاني : ١٨/٢٦٦

بالزندقه والكفر لا لشيء إلا لانه مارس الرفاهية بعنف، فانحرف الى المجون، أو إلى العبث.

وإذا يممنا شطر الباديه في نجد والحجاز، نجد الامر يبرز أيضاً بيسر وقد يعود ذلك الى استراتيجية الفتوح. وقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأن الغنائم هي من حق الفاتحين . اما الذين أبوْا التحول من دار التعرب الى دار الهجرة، فلاحظٌ لهم في الغنيمة والفيء، الا ان يجاهدوا مع المسلمين[1].واقتصر حق الأعراب في بيت مال المسلمين على ثلاث حالات : الجائحة أي حَطْمةُ الجَدْب والعنق أي ان يقع بينهم سفك دماء فلهم حمل الدماء وإصلاح ذات البين بالمال، وغلبة عدو من المشركين عليهم، فلهم ان ينصروا ويدفع عنهم الاموال والابدان.[2]

ورفض الاحنفُ بن قيس التعرب بعد الهجرة.[3] وظل هذا الامر ساري المفعول حتى ايام عمر بن عبدالعزيز كما يظهرمن خلال كتابه الى عامله يزيد بن الحصين: «أنْ مُرْ للجند بالفريضة، وعليك بأهل الحاضرة، وإياك والأعراب، فأنهم لا يحضرون محاضر المسلمين، ولا يشهدون مشاهدهم»[4] ومن هنا اقتصرت الثروة على المكتتبين بالجند، ومن لم يكتتب كان يحرم من الغنيمة والفيء. وإذا عرفنا ان اموال الدولة الاسلامية الجديدة كانت مرتبطة بالفتوح وخيراتها وهذه لا تصل الا الى الذين هاجروا الى الشام والعراق وخراسان ومصر والمغرب وغيرها من مناطق الفتوح. فقد ظلت البادية نفسها محدودة الموارد، وظل اقتصادها اقتصاد الرعي، وظلوا بعيدين عن الحضارة التي بدأت تغزو الأمصار الاسلامية في المدن. وجرّبها المسلمون الفاتحون، والمسلمون الجدد. وتغافلت الدولة عن البادية أو غفلت فظهر التفاوت بيناً بين الحاضرة والبادية ومن هنا نجد تساقط عدد كبير من الشعراء الأعراب الى الامصار الاسلامية، يتعرضون بالسؤال الى الولاة والأجواد والأمراء بله الخلفاء احياناً. وارتبط التكسب بالمدح عندهم في أحايين كثيرة.

---

(١) الاموال : ٢٢٥ – ٢٢٧ أنساب الأشراف : ٤/ق٢/١١٤

(٢) الاموال : ٢٢٦

(٣) أنساب الأشراف : ٤/ق١/١١٤

(٤) الاموال ٢٢٥

فوردت ليلى الاخيلية على معاوية يوماً[١] وعلى عبدالملك يوماً آخر[٢] وطرقت باب الحجاج مرات كثيرة، وفي كل مرة كانت تحمل في جعبتها قصيدة تمدح فيها المأموم، فوردت على معاوية وأنشأت تقول :-

معاويَ لم أكدْ آتيكَ تهوي ... برَحْليَ رادةُ الأصلاب نابُ
قريح الظهْر يفرح أن يراها ... إذا وضعت، وليّتها الغرابُ
تجوبُ الأرضَ نحوك ما تأنّى ... إذا ما الآ كمُ قنّعها السَّرابُ
وكنت المرتجى، وبك استغاثت ... لتنعشَها اذا بخل السحاب[٣]

قال : ما حاجتك؟ قالت ليس مثلي يطلب إلى مثلك حاجةً فتخير أنت، فأعطاها خمسين من الإبل. ومدحت الحجاج بمدحة تهلل لها وجه الحجاج، وأرضت غروره، فأمر له بخمسمائه درهم، وفي مرة أخرى بثلاثمائة بعير، وحملها الى قتيبة بن مسلم عامل خراسان[٤] وذا الخبر يدل على أنها كانت دائمة التكسب، كثيرة الحاجة، تشكو الجدب والقحط الذي أصابها وأصاب قومها ومدحت ليلى الحجاجَ مع مضيه في الشدة مع أهل العراق فقالت :-

أحجاجُ إنَّ اللّهَ أعطاكَ غايةً ... يقصّرُ عنها منْ أرادَ مداها
أحجّاجُ لا يفلل سلاحُك إنما الـ ... ـمنايا بكفِّ اللهِ حيث تراها
إذا هبط الحجاجُ أرضاً مريضةً ... تتبَّع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداءِ العُضال الذي بها ... غلامٌ إذا هزَّ القناةَ سقاها
سقاها دماءَ المارقين وعلّها ... إذا جمحت يوما وخيف أذاها
إذا سمع الحجاجُ رزَّ كتيبةٍ ... أعدَّ لها قبل النزول قِراها
أحجّاجُ لا تعطِ العصاةَ مناهُمُ ... ولا الله يعطي للعصاة مناها[٥]

---

(١) ديوان ليلى الأخيلية : تحقيق خليل ابراهيم عطيه وجليل عطيه - دار الجمهورية- بغداد- ١٩٦٧. ص ٥١

(٢) ديوان ليلى الأخيلية : ١١٢ - ١١٣

(٣) ديوان ليلى الأخيلية : ٥١.

(٤) الأغاني: ١١/ ٢٤٥. ٢٤٩، ديوان ليلى الأخيلية: ٦٣.

(٥) ديوان ليلى الأخيلية: ١٢٠-١٢٢.

ليس في النص ما يوحي الى التكسب الصريح، ولكن الحجاج استجاب لرغبتها التي تمثلت بالحديث الدائر بينهما، وبالجائزة التي أعطاها إياها. وتهلُّل الحجاج لها حمل معنىً رائعاً، وهي أنها قد أدركت ما تريد قوله، ووصلت إلى أعماق الحجاج تصوِّبُ له أفعاله في العراق، وبذا تكون قد حققت للحجاج رغبته في من يؤيده. ولولا تكسبهاما كان ليتم ذلك، والأمر نفسه نجده يتكرر مع كثيرين كجرير وقد أدرك نفسية الحجاج وخالد القسري وعبدالملك بن مروان فجاءهم من منطقة ضعفهم. (١)

وقد يحدد الشاعر ما يريده حسب حاجته الحاضرة، وكثيراً ما نجد ذكراً للديون التي أثقلت كاهلهم، وضعفوا عن تسديدها، فلجأوا إلى التكسب صراحة لسدادها فقط.وهذا ملمح من ملامح الفقر الذي كان يثقل البداة في سني الجدب والقحط. وهذه الحالة وجدتها في بيئة البادية في حين لم ألمحها في المدينة فاعترض العجير السلولي(٢) أحد غرمائه فوقف لبعض الأمراء يسألهم :

أتيتك إنّ الباهليَّ يسوقني بدينٍ، ومطلوبُ الديون رقيقُ

ثلاثتنا إن يسَّر الله فائزٌ بأجرٍ ومعطى حقه وعتيق

وأمر بقضاء دينه (٢) وكان البداة يتعرضون لحالات شديدة من الجدب مما جعلهم يقولون شعراً في مواقف مؤلمة، ويحتالون لذلك كما فعل ابن ميادة ببني عينية فقال لهم قد وصفت السِّعلاة بـ :-

قعدتُ على السِّعلاةِ تنفضُ مِسْحها وتُجْذَبُ مثلَ الأيمِ في بُرَة الصُّفْرِ

تيمّمْ خيرَ الناس ماءً وحاضراً وتحمل حاجاتٍ تضمَّنها صدري

فإني على رَغْم الأعادي لقائلٌ وجدتُ خيارَ الناس حيَّ بني بَدْر

لهم حاضرٌ بالهَجْم لم أرَ مثْلهم من الناس حيّاً أهل بَدْوٍ ولا حَضْرِ

---

(١) الأغاني: ١١/ ٢٤٩.

(٢) العجير السلولي: شاعر مقلٌّ اسلامي من شعراء الدولة الأموية وجعله محمد بن سلام في الطبقة الخامسة من طبقات شعراء الإسلام، وفد على عبد الملك بن مروان فاقام ببابه شهراً وأمر له بمائة من الإبل، الأغاني ١٣/٦٥.

(٣) الأغاني: ١٣/ ٧٧. وانظر شعر ابن ميادة: ص١٥٢.

وخيرُ معدٍّ مجلساً مجلسٌ لهمْ يفيءُ عليه الظلُّ من جانب القصر

أخُصُّ بها روقَيْ عيينةَ إنّه كذاك ضحاحُ الماءِ يأوي إلى الغَمْر

فأنتم أحقُّ الناس أن تتخيّروا الـ مياه وأن ترعوا ذُرى البلد القفر

فتبارى القوم في إكرامه وإعطائه الإبل، فقال : يا بني عيينه انني لم آتكم لتتبارى لي شياطينكم في أموالكم، إنما كان عليَّ دين فأردت أن تعطوني أبكراً أبيعها في ديني. [1]

لم يكن الطمع دائما وراء تكسبهم، إنما الفقر والديون، والعوز. ولما تساذج القوم اعترض ابن ميادة على موقفهم منه -وان كان في صالحه - ولم يرد من تكسبه إلاّ سداد حاجة حاضرة وهي قضاءُ ديونه،وقد استحيا من صراحة القول. وهذه طريقة مهذبة للحصول على الأموال أو لسداد الديون دون إراقة ماء الوجه.

وأشار بعضهم في تكسبه إلى العملة المتداولة بينهم،و هي ليست العملة النقدية إنما هي الإبل والمواشي، فتمنى ابن ميادة في حضرة الوليد بن يزيد هجمة من الإبل ليعود بها الى دياره محملاً بالخير والرزق؛ والابل تعتبر من الأموال التي يعتز بها البدوي، في حين لا يحب الاقطاعات الزراعية، ولا عيون الماء، فاستجاب له الممدوح حين قال :-

ألا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلةً بحرَّةِ ليلى حيث ربَّتَني أهلي

بلادٌ بها نيطت علي تمائمي وقُطِّعْنَ عنّي حين أدركني عقلي

وهل أسمعن الدهرَ أصواتَ هجمةٍ تطالعُ من هَجْلٍ خصيبٍ إلى هَجْل

فإنْ كنتَ عن تلك المواطنِ حابسي فأيسرْ عليَّ الرزقَ واجمع إذاً شملي[2]

فقال : كم الهجمة؟ قلت : مائة ناقة .. ثم كساه وكسا ولدانه، النساء أربع حللٍ مختلفات الألوان، والرجال ثلاث حلل مختلفات الألوان، وزادهم عيني ماء وأردف قائلاً (كل عام لك فيه مثل ما أعطيتك العام، مائة لقحة وفحلها، وجارية بكر،

---

(١) الأغاني: ٢/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) الأغاني: ٢/ ٣٠٤-٣٠٥. انظر شعر ابن ميادة: ص١٩٩-٢٠٠ ربت الصبي تربيتاً: أي رباه تربية. الهجمة: القطعة من الإبل، الهجل: المطمئن من الارض.

وفرس عتيق». ورفض ابن ميادة عيون الماء، أي اقتصاد الزراعة شكا ابن ميادة الفقر، وأشار في النص إشارة (أيسر عليّ الرزق) ولكنه كان أكثر حريةً في الحديث، وقد انبسط الوليد اليه.والهجمة من الابل، هي من اقتصاد الرعي، إذ كانت وسيلة التعامل المالي في البادية، والأمر نفسه نجده عند ليلى الأخيلية وجرير.

وتلمح في البادية أيضاً ملامح التكسب للقبيلة ورفع الجوع والفقر عنهم، ودفع الجدب عنهم، كما لمحنا الفردية في التكسب من أجل حاجة طارئة، وتكسبت ليلى الأخيلية لقومها،ورحل الراعي النميري يتكسب لقومه في قصيدته التي يشكو فيها السعاة، وفيها اختلط التكسب بالاحتجاج الاقتصادي ولما سأله عبدالملك: ماذا تريد؟ قال : ترد عليهم صدقاتهم فتنعشهم. فقال عبدالملك : هذا كثير. قال : أنت أكثر منه، قال فسلني حاجةً تخصُّك، قال : قد قضيت حاجتي : قال : سلْ حاجتك لنفسكَ، قال : ما كنت لأفسد هذه المكرمة[١] والموقف نفسه يتكرر أيضاً مع العجير السلولي وسليمان ابن عبدالملك إذ أمر له بثلاثين الفاً، وبصدقات قومه، فردَّها العجير عليهم ووهبها لهم.[٢]

وردت ليلى الأخيلية على عبدالملك بن مروان تطلب عين ماءٍ لقومها[٣] ولما أراد أن يسخر منها هو وزوجته عاتكة بنت زيد، عرّضت بالخليفة وافتخرت بأهلها، على أنهم أصحاب مُلْك دون عبدالملك :

ستحملني ورحليَ ذاتُ وخْدٍ ... عليها بنتُ آباءٍ كرامِ
إذا جعلتْ سوادَ الشام جنباً ... وغلّقَ دونها بابُ اللئامِ
فليس بعائدٍ أبداً إليهم ... ذوو الحاجات في غلس الظلامِ
أعاتكُ لو رأيتِ غداةَ بنّا ... عزاءَ النَّفس عنكم واعتزامي
إذاً لعلمتِ واستيقنتِ أنّي ... مشيَّعةٌ ولم تَرْعي ذمامي
أألجعلُ مثلَ توبة في نداهُ ... أبا الذّبان فوهُ الدهرَ دامي[٤]

(١) الاغاني : ١٦٨/٢٤

(٢) أبو علي القالي : الأمالي : ٤٦/٢ والأغاني ٦٤/١٣

(٣) الأغاني : ٢٤٧/١١

(٤) الأغاني : ٢٤٧/١١ – ٢٤٨– وخدْ: ضرب من السير واسع الخطو– أبو الذبان: كنية عبد الملك بن مروان لشدة بخره.

وذاب الشاعر البدوي المتكسب في هموم الجماعة وتجسد هذا الامر بهبة الشاعر جائزته لقومه، وقد لجأ الراعي النميري الى الصراخ الشديد والاستغاثة بالخليفة لقتل الجوع في قومه، فاختلط التكسب بالاحتجاج الاقتصادي. ولما طلب منه عبدالملك ان يخص نفسه (الفرد) عفَّت نفسه، فرغبات العشيرة أهم من أن تلبى الرغبات الفردية. وظل الراعي النميري متكسباً للجميع، تكسب المال والمواقف السياسية والاجتماعية معاً. وفي نص يمدح فيه بشر بن مروان وقد رحل اليه بحائيته التي بدأها بذكر الظعن التي تقيم في الربيع تبدأ رحلة الشاعر للوصول الى الممدوح، بعد أن توقف ملياً مع ناقته، ثم حاول الراعي النميري جاهداً أن ينفي عن نفسه أي تهمة سياسية، وعدَّ الخروج على بني مروان خروجاً عن الدين،وعندها وضع قضيته بين يدي الخليفة، يتكسب فيها للجميع، للقبيلة المجموع، وكأني به يتكسب لقومه موقفاً يرضي قبيلته كما أعلن، وفي الوقت ذاته لم يخل تكسبه من مغنم مادي. فقال يمدح بشراً :-

رجوتُ بحوراً من أميَّة دونها   عدوٌّ وأركانٌ من الحرب ترمحُ

وما الفقرُ من أرض العشيرةِ ساقنا   إليك، ولكنني بقربكَ أبجحُ

حاول جاهداً أن ينفي كون الفقر هو الذي قاده اليه، ولكن الفقر الذي عناه هو الفقر الذي عاناه هو وأهلهُ ليكمل النص قائلاً :

وأنت امرؤٌ تروي السِّجال وينتمي   لأبعدَ منّا سيبُك المتمنحُ

وأنك وهَّابٌ أغرُّ وتارةً   هِزَبْرٌ عليه نُقبةُ الموتِ أصبحُ [1]

واضحٌ جداً ارتباط الفقر برضا الحكومة عن قبيلة نمير التي كانت أهواؤها كشأن قبائل قيس مع ابن الزبير، وما فتىء الراعي يحاول كسب مواقف سياسية لقبيلته،وما فتىء يذكر الدولة بتجويعها لقبائل قيس، ومنها نمير التي تشكو الجدب والفقر والمحل وتعنت الجباة. وحاول التنصل من زبيريته إلا أن الدولة لم ترض جداً عن الراعي وإن أعطته ما أراد لقومه، والراعي أيضاً لم يحاول الدخول في دائرة الاعلام بنفس الرغبة التي دخلها جرير، ولا يستطيع ذلك ما دامت الحكومة غير راضية عن قومه.

---

(١) شعر الراعي النميري : تحقيق نوري حمودي القيسي وهلال ناجي- مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٠، ص ٩٩-١٠٠.

ما سبق يفسر لنا وضوح الفقر في بوادي الحجاز ونجد، مما دعاهم الى التكسب لمجابهة الحياة علاوة على صراع الجدب والفقر في حين تنعم المدن الكبرى في الأقاليم الإسلامية ببعض الرفاهية نتيجة الفتوح، وتبعيتهم لبني أمية.

والفقر الذي اتضح في البادية ليس جميعه راجعاً الى استئثار الدولة بالغنائم وطريقتها في جبي الصدقات دون تفسير، إنما قد يعود لأمر سياسي وازى الاحوال الاقتصادية. فبوادي الحجاز ونجد اقرب المناطق الى الحجاز ومدنه، مما جعل البداة ينضوون في الثورات الحجازية، فشملهم العقاب. ومن هنا كان للسياسة الأموية دور كبير جداً في إبراز ظاهرة التكسب فاتجه الشعراء إلى التكسب على المستويات الفردية والجماعية المادية والمعنوية.

ونلمح في البادية شكلاً آخر من أشكال التكسب وهو الانقطاع، والانقطاع: أنْ ينقطع الشاعر الى الممدوح مقابل أن يقوم الآخر بقوت عيال الشاعر وكسوتهم، ويفضل عليه ويعطيه [١] ولا نستطيع أن نعدّ التكسب تكسباً إلا اذا ارتبط المدح أو بالعطاء والاستجابة. وهذا الانقطاع قد وجدناه في المدن والحواضر على أنه مديح خالص، ولا يشير الشاعر البدوي المتكسب الى الفقر، أو يتكسب صراحة في حال الانقطاع انما عليه أن يفد ويمدح، وما على الممدوح الا أن يكافىء. وكان الشاعر يراهن شاعراً آخر على أن المنقطع اليه سيعطيه، فورد أبو وجزة إلى أحد أبناء الزبير في حين ورد شاعر آخر إلى إبراهيم بن هشام فقال أبياتاً من الشعر ظاهرها يخلو من التكسب، ولما أنهاها كوفيء بكتاب يحمل فيه الإذن بالانصراف بستين وسقاً تمراً فقال :

راحتْ قلوصي رواحاً وهي حامدةٌ	آلَ الزبير ولم تعدِلْ بهمْ أحداً
راحت بستين وسقاً في حقيبتها	ما حمَّلتْ حِمْلَها الأدنى ولا السَّددا
ذاك القِرى لا كأقوامٍ عهدتهمُ	يقْرون ضيفهم الملْوية الجُدُدا [٢]

(١) الأغاني : ٢٨٥/١٢

(٢) الأغاني : ٢٨٥/١٢، ٢٩٢، ٢٩٤ الملوية: السوط، السَّدد: الوفق. أبو وجزة الأسدي: يزيد بن عبيد السعدي مولي بني سعدٍ امتدح آل الزبير وعبد الله بن الحسن بن علي، وانقطع إلى عبد الملك بن يزيد بن عطية انظر الأغاني ٢٨٠/١٣-٢٩٥.

وكأن الانقطاع عهد بين الشاعر والممدوح بالمدح مقابل ضمان الرزق والإفضال عليه، وكأن الفقر كان السبب الذي يجعل الشاعر يزمن بالانقطاع ويعمل به. وبعض الشعراء كان ينقطع لغير شخص، فأبو وجزة السعدي انقطع لأحد أبناء عشيرته عبد الملك بن يزيد السعدي من بني عطية، وأكثر فيهم المديح، كما انقطع خارج نجد إلى آل الزبير بن العوام، وقد يكون انقطاعه لبني عطيّة (قومه) علامة من علامات التكسب اكثر منها في انقطاعها لآل الزبير. وقد يكون دخولاً في ظل دائرة الاعلام، واستغلال الشاعر لذلك في حين يحتفظ بانقطاعه لأحد أقاربه إن دارت عليه الدوائر. وانقطع ابو صخر الهذلي إلى أبي خالد عبد العزيز بن عبدالله بن خالد ابن أسيد [١]وامتد الانقطاع الى المدن فكان اسماعيل بن يسار كالمنقطع الى عروة بن الزبير [٢] وانقطع محمد بن بشير الخارجي الى أبى عبيدة بن عبدالله بن زمعة وروى أبو الفرج في ترجمته .. (.. وكان يكفيه مؤونته ويفضل عليه ويعطيه في كل سنة ما يكفيه ويغنيه، ويغني قومه وعياله من البر والتمر والكسوة في الشتاء والصيف، ويقطعه القطعة بعد القطعة من إبله وغنمه، وكان منقطعاً إليه وإلى زيد بن الحسن وابنه الحسن بن زيد وكلهم به برّ واليه محسن.[٣]

ونلمح التكسب بيناً في الحجاز بين شعرائه شأنه في باقي الأمصار الإسلامية ولكن للتكسب في هذه البيئة معانٍ وتفسيرات تختلف عنها في البادية او في العراق وقد حفظت لنا الروايات الأدبية عدداً لا بأس به من شعراء الحجاز، يتكسبون بشعرهم، فقدم بعضهم على القصر الدمشقي، وكذلك على مجلس عبدالعزيز بن مروان في مصر . ومنهم من اتصل بمصعب بن الزبير في العراق، ونلمح أيضاً تحوّل الشعراء بفعل التكسب والحياة الاقتصادية من كونهم معارضين للحكومة الأموية الى منضوين تحتها لتشدد الدولة في تنفيذ العطاء، وممارسة التضييق الاقتصادي عليهم بمنع العطاء عنهم او تأخيره موازنة بمن رضيت عنهم.

لماذا لم يكن عمر بن أبي ربيعة شاعر الحجاز متكسباً ؟

---

(١) الاغاني ١٠٢/٢٤

(٢) الاغاني : ٤٠٠/٤

(٣) الاغاني ١٣٠/١٦

هذا سؤال أجاب عنه عمر نفسه حينما سأله سليمان بن عبدالملك مستهجناً له على عدم تكسبه، مستميلاً له، لم لا تمدح الرجال، فقال : (أنا لا أمدح إلا النساء) إجابته تتضمن عدة تفسيرات، قد يكون أحدها أن عمر ليست لديه مشكلة مادية للاتصال بالسلطان، وقد عاش في جو من الثراء والرخاء الذي ورثه عن أبويه، وليست لديه رغبة في السلطة السياسية، ومن حاز مثل هذا الارث من المال فلا حاجة به لان يقدم الى الخلفاء، أو إلى الأجواد ليمدحهم، وينال رفدهم، فقد كان سيداً جواداً غنياً. ولكننا نجد الكثيرين من أبناء الحجاز ممن لم ينلهم رضا الحكومة الأموية، قد قطعت عنهم العطاء أو خففته مقابل ما يحوزه بعض الأشراف فوجد بعضهم أن الطريق للتكسب مشروع فسلكوه، وعلى رأس هؤلاء نرى اثنين ينتصبان في الحجاز، هما ابن هرمة القرشي، وعبيدالله بن قيس الرقيات، وكلاهما قرشي، ومن غير القرشيين نجد كثير عزة، والأحوص واسماعيل بن يسار وغيرهم.

ومورس التضييق الاقتصادي على ابن هرمة لرأيه الخاص بالهاشميين فهو من أشياع علي، وبسببهم مر بضائقة مالية، فقال :

ومهما ألامُ على حُبّهم فإني احبُّ بني فاطمةْ
بني بنتِ من جاء بالمحكما ت، والدينِ والسُّنةِ القائمةْ
فلستُ أبالي بحبيِّ لهم سواهم من النعم السائمةْ [١]

ويبدو أن الشيعة أيضاً لم يستطيعوا تلبية حاجات من يشايعونهم لأنهم كانوا يعانون من التضييق الاقتصادي إلا بعضهم من آل هاشم كعبدالله بن جعفر وعبيدالله بن عباس ولم يرحل ابن هرمة الى دمشق ولا الى غيرها ليقينه بانها ستسد الابواب في وجهه ولذا قصد عبدالله بن حسن بن أبي طالب [٢]. واختص بعبد الواحد بن سليمان بن عبدالملك، والي المدينة ببعض قصائده حتى بعد التحاقه بالعباسيين فيما بعد رجع معتذراً إليه لوطأة الفقر فقال :-

---

(١) شعر ابن هرمة : تحقيق محمد نفاع - وحسين عطوان : مجمع اللغة العربية - دمشق ١٩٦٩: ص ٢١٤.

(٢) شعر ابن هرمة : ٩٠-٩٤ - والأغاني ٣٦٦/٤

وأقعدني الزمان فبتُّ صفراً / من المالِ المعذّبِ والمَراحِ
إذا فخمّتُ غيرَكَ في ثنائي / ونصحي في المغيبة وامتداحي
حميْتُ حماكَ في مَنَعاتِ قلبي / فليس حماكَ عندي بالمُباح
كأن قصائدي لك فاصطنِعْني / كرائم قد عُضلنَ عن النكاح
فإنْ أك قد هفوتُ إلى أميرٍ / فعن غير التطوُّع والسماحِ
ولكنْ سقطةٌ عيبتْ علينا / وبعضُ القولِ يذهب بالرياح [(١)]

وأبرز الشاعر صورة الكرم في الممدوح، ولم يبرزها قضية سياسية ولكأن الأمر في علاقتهما هو المنفعة المتبادلة اكثر منه الخوف، ويبدو انها مواقف تنطلق من استغلال المادة في القضية السياسية، وليس العكس هو استغلال السياسة في التكسب ولذا لا نجد الاعتذار واضحاً في مثل هذه العلاقات، إذ تراه يتحول الى غيره ليتكسب منهم، ثم يقدم اعتذارياته لتعود الامور الى مجاريها، فعلاقته بعبد الواحد لم تقم على أساس الأموية والإيمان بها، والموافقة عنها ضد العباسيين، إنما على اساس المدح للتكسب والمنفعة الشخصية لرفع الفقر وضنك المعيشة، وأشار غيرمرة إلى أن فقره قد يعود إلى محبته لآل البيت وكان قد قال في عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر الذي عمل على تكوين حزب مضاد للدولة الأموية سراً:

ولكن لعبدالله فانطق بمدحةٍ / تجيركَ من عسْرِ الزمان المطبقِ [(٢)]

كان المدح الوسيلة للخلاص من الفقر

ومما يلحظ في بيئة الحجاز قانون (استمالة الخصوم) وهم الشعراء المخالفون للدولة في الانتماء كابن قيس الرقيات، وهذا الامر وجدناه في العراق مع عبدالله ابن الزَّبير الأسدي، وعبدالله بن همام السلولي وكانا شاعرين للزبيرية. وأظن أن اتجاه ابن قيس الى بني امية لا يعود في أكثره إلى سياسة الدولة، إنما قد يعود لموت مصعب بن الزبير الذي كان ابن قيس قد انقطع إليه، وتكسب منه ولما انتهت الزبيرية وأُهدر دم ابن قيس اتجه الى عبدالعزيز بن مروان يطلب الحياة والرفد، ورحل في سبيل المال يبحث عنه بكل وسائله، أما خلال حياة مصعب فلم نجد بن

---

(١) شعر ابن هَرْمَة : ٩٠-٩٢.

(٢) شعر ابن هرمة : ١٥٦-١٥٧ وانظر ٢٢٦-٢٢٩

قيس يتكسب من أحد، ولكن بعد موته وانتهاء الزبيرية والضائقة المالية التي مرَّ بها مال الى التكسب،ولكنه تكسب من الأجواد كعبدالله بن جعفر في الحجاز، وكان ابن جعفر قد آمنه، وأخذ له الأمان، واذا جاءت صلات من الشام وهو غائب احتفظ له بحصته حتى يعود فقال ابن قيس يمدحه :

إذا زرتُ عبدالله نفسي فداؤهُ	رجعتُ بفضلٍ من نداهُ ونائلِ
وإن غبتُ عنه كان للودِّ حافظاً	ولمْ يكُ عنيّ في المغيب بغافلِ
تداركني عبدُ الإلهِ وقد بدت	لذي الحقد والشنآن مني مقاتلي
فأنقذني من غمرة الموت بعدما	رأيتُ حياضَ الموت جمَّ المناهلِ
حباني لما جئته بعطيّة	وجاريةٍ حسناءَ ذات خلاخلِ [١]

وأشار الى قيمة العطاء الذي قدمه ابن جعفر،وفداه بنفسه،وكان قد أعطاه مالاً وجاريةً، وقدم له الحياة والأمن الغذائي فصلتهما يبدو أنها تدخل في باب الشكر والثناء على الصنيع حتى كاد ابن قيس ان ينقطع اليه بل انقطع، وكان قد أخذ على نفسه عهداً بأن يقدم له المدائح مقابل الصلات، ومن هنا كان يخاف انقطاع الخير والرزق لما علم بمرضه [٢] فالتكسب في الحجاز اخذ صورة الشكر والثناء اكثر منه الإلحاح في الطلب، وهي صورة حضارية بعيدة عن السؤال الصريح وشكوى الفقر، كما هو في شعر الشعراء الوافدين الى الشام من عراقيين ونجديين.

واندفع عددٌ من الشعراء الحجازيين الى العراق واليمن ومصر والشام وخراسان للتكسب، والاتصال بالخلفاء أو الأمراء والعمال والأجواد. ولكن اتجاههم كان الى الشام ومصر اكثر من الأقاليم الأخرى. وارتبطت اسماؤهم بعبد الملك وعبدالعزيز وبشر أبناء مروان. ومنهم من زاوج في الارتباط، فقصد كثير عزة عبدالملك وعبدالعزيز وله فيهما مدائح كثيرة.[٣]

ومن الامور التي برزت في مدائح كُثيِّر لعبدالعزيز (نهر النيل)، فكثيراً ما كان يعقد موازنة بين الممدوح ونهر النيل بفيضه،والممدوح بكرمه من خلال التشبيه الدائري إذ قال:-

---

(١) ديوان ابن قيس الرقيات : تحقيق محمد يوسف نجم - دار صادر بيروت- ١٩٧٨. ص ١٨٩

(٢) ديوان ابن قيس الرقيات : ١٤٧-١٤٨ - وانظر ٨٢-٨٣

(٣) ديوان كثيرة عزّة : ٢٧٩-٢٨٢.

إليك فليس النيلُ أصبح غادياً   بذي حُبُكٍ يعلو القُرى مُتَسَنِّمِ
بطامٍ يكبُّ الفلك حول جنابِهِ   لأذقانه مُعْلولبَ المدِّ يرتمي
بأفضلَ سيباً منك، بل ليس كلُّه   كبعض أيادي سيبك المتقسِّمِ
متى ما أقل في آخر الدهر مدحةً   فماهي إلاّ لابن ليلى المكرَّمِ [١]

وكان يفضلُ عليه عبدالعزيز كثيرا، وأمر له بعشرين ألف درهم [٢] وكان قد أعطاه جاريةً فرفضها فاعتذر اليه، وإشار الى طلب العطاء صراحة في مطلع قصيدة يقول فيها :-

فلولا اللهُ ثم ندى ابن ليلى   وأني في نوالك ذو ارتغابِ
وباقي الودِّ ما قطعت قلوصي   مهامهَ بيْن مصرَ إلى غُرابِ [٣]

وتكسب بعض الشعراء رغبة بالإقطاع وكان كثير عزة قد طلب من عبدالملك (غرب أو غُرب) منه إذ قال له : يا أمير المؤمنين: إن أرضاً لك يقال لها عرب ربما أتيتها، وخرجت اليها بولدي وعيالي، فأصبنا من رطبها وتمرها بشراءٍ مرة، وطعمة مرة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يعمرنيها، فقال له عبدالملك : ذلك لك، فندمه الناس، وقالوا له : أنت شاعر الخليفة، ولك عنده منزلة فهل سألت الأرض قطيعة، فأتى الوليد فقال : إنَّ لي إلى أمير المؤمنين حاجة، فأجلسني قريباً من البرذون، فلما استولى عليه عبدالملك قال له -إيه- وعلم أن له إليه حاجة وقال يمدحهم :-

جزتك الجوازي عن صديقك نضرةً   وأدناكَ ربي في الرَّفيقِ المُقرَّبِ
فإنك لا يُعطي عليك ظلامَةً   عدوٌّ، ولا تنأى عن المتقرِّبِ
وإنك ما تمنعْ فإنك مانعٌ   بحقٍ،وما أعطيتَ لم تتعقَّبِ

فقال اتريد غُرّبا، قال : نعم يا أمير المؤمنين، قال اكتبوها له. [٤]

---

(١) ديوان كثيرة عزّة : ٣٠١-٣٠٢ ذو حبُك: متجعد، متسنم: مرتفع، الفلك: السفن، اعلولب: أخذ في الإشتداد، ابن ليلى: عبد العزبز بن مروان ويمدحه الشعراء بذكر أمه ليلى.

(٢) ديوان كثيرة عزّة : ٢٧٩

(٣) الأغاني ١٤/٩، ومعجم البلدان (عرب أو غرب)

(٤) ديوان كثيرة عزّة : ٢٦٤، الاغاني ١٤/٩.

ورغب الحجازيون خاصة الأنصار في الأموال التي حصّلها الأمويون واستأثروا بالملك، ورحلوا يمدحونهم كالأحوص :

إني وجدِّك يدعوني لأرضيهم قُرْبُ الأواصر والرفدُ الذي رفدوا

قومٌ ولادتهم مجدٌ، ينال بها من معشرٍ ذكروا في مجد من ولدوا(١)

فارتبط التكسب في بيئة الحجاز بالتضييق الاقتصادي الذي مارسته الدولة على الذين تمردوا على الحكومة، وانضموا إلى الزبيرية أو إلى الحسين بن علي أو إلى ثورات الشيعة أو إلى الذين اعتزوا بانصاريتهم نتيجة ما رأوا من تدفق الأموال على المؤيدين دون الأنصار فبحثوا عن المال نتيجة التفاوت البين بين أغنياء الحجاز وأناسه العاديين فرغبوا في عطايا الدولة حيناً، وفي عطايا أجوادها، عبدالله بن جعفر وسعيد بن العاص، وعبيد الله بن عباس. حيناً آخر. (٢)

ثانياً: السياسة والتكسب

تمنّى عبد الملك يوماً ورود جرير إليه كما ورد إلى عامله الحجاج لما يملكه من قوة شعر، وسحر تأثير، قبل اتصاله بالبلاط، وكذلك لإضعاف القيسية إذ كان جرير الناطق الإعلامي باسمهم رغم تميميته، وقد اتصل بالخليفة دون أن يرى في ذلك غضاضة حين قال مخاطباً شاعرهم الأخطل عدو القيسية:-

هذا ابنُ عمي في دمشقَ خليفة لو شئتُ ساقكم إليَّ قطينا

ولما بلغ عبد الملك قولُ جرير. قال: ما زاد ابن المراغة على أن جعلني شرطياً أما إنه لو قال: لو شاء ساقكم اليَّ قطينا لسقتهم إليه كما قال (٣) وألمح جرير إلى دور التميميين في التاريخ الإسلامي، ولكنه لم يجرؤ على المكاشفة كثيراً لقيسيته ومواقف قيس تتعارض في أغلبها- خصوصاً في بداياتها- مع الحكومة الأموية

---

(١) ديوان الأحوص : تحقيق ابراهيم السامرائي : النعمان : النجف ١٩٦٩، ص ٥٠-٥٦ ، انظر ١٩٣، ١٣، ١٢٠- ١٩٣.

(٢) ابن عبدربه / العقد الفريد : ٢٩٣/١

(٣) الأغاني: ٦٥/٨

وكانت قد انضمت الى ابن الزبير، ولكن بعد هزيمة الزبيرية والقيسية معاً[١] اضطر جريرإلى التنازل عن مذهبه السياسي نتيجة اختلال المعادلة السياسية والمنفعة الاقتصادية، ولذا رأيناه في أول قصيدة يلتقي فيها بعبد الملك يطلب العطاء صراحة وبجرأة واضحة، ولا ستدرار ذلك أشار إلى دور الخليفة في القضاءعلى خصمه الزبيريين.

وكأن الخليفة قد وجد ضالته في هذا القيسي الهوى التميمي النسب، وهو يتحول عن زبيريته، ويخضع أمامهم، ويتفرغ إليهم بالعطاء في حانيته المشهورة، ويدير فيها حواراً بينه وبين زوجته (أم حزرة) التي تعاني الجوع فقال:-

ثقي بالله ليس له شريكٌ ومن عند الخليفةِ بالنجاحِ

أغثني يافداك أبي وأمي بسيبٍ منك إنكَ ذو ارتياحِ

وإني قد رأيتُ عليَّ حقاً زيارتي الخليفةَ وامتداحي

سأشكرُ إن رددت عليّ ريشي و أثبتَّ القوادمَ في جناحي

ألستم خيرَ من ركبَ المطايا وأندى العالمينَ بطونَ راح [٢]

وأحسن الشاعر استغلال لحظة ضعف الممدوح أمام نشوة المديح، فأشار إلى فتنة ابن الزبير، وكيف قضى عليها عبد الملك فقال:-

أبحتَ حمى تهامةَ بعد نجد وماشيءُ حميتَ بمستباحِ

لكم شمُّ الجبال من الرواسي وأعظمُ سيل معتلجِ البطاحِ

دعوتَ الملحدينَ أبا خبيب جماحاً، هل شفيت من الجماحِ

تعزّت أم حزرة ثم قالت رأيت الموردين ذوي لقاح

تعلّل وهي ساغبةٌ بنيها بأنفاسٍ من الشّبم القَراح

فقال له عبد الملك: هل ترويها مائة لقحة؟ فقال إن لم يروها ذلك فلا أرواها الله:

---

(١) الأغاني: ٨/٧١

(٢) الأغاني: ٨/٨٠- ٩٠ ديوان جرير: تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف- مصر، ١٩٧١: ١/ ٨٨- ٩٠

فهل إليها- جعلني الله فداك- يا أمير المؤمنين- من سبيل فأمر له بمائة لقحة وثمانية من الرعاء[١] استجاب له عبد الملك استجابة سريعة وألحف في الطلب وهو يعرض صورة زوجته (أم حزرة).

ولما رحل إلى يزيد بن عبد الملك يمدحه، وينالُ عطاياه، هجا آل المهلب، وأشار بلطف خفي إلى نصرة أهل الشام للخليفة، وأفصح حواره مع ابنته جعادة عن هموم الفقر، وشقاء السفر، وألمح إلى العطايا التي أحرزها سابقاً مستعجلاً للعطايا التي في علم الغيب إذ قال:

لما ارتحلنا ونحو الشام نيّتُنا	قالت جعادة هذي نيّةٌ قَذَفُ
إني لزائركمُ وداً وتكرمةً	حتى يقارِب قَيْدَ المُكبر الرَّسفُ
أرجو الفواضلَ إن الله فضّلكم	ياقبلَ نفسِك، لاقى نفسيَ التَّلَفُ
ما مَنْ جفانا إذا حاجاتنا نزلتْ	كمَنْ لنا عنده التكريمُ واللَّطَفُ
كم قد نزلت بكم ضيفاً فتلحفني	فضلَ اللِّحافِ، ونعم الفضلُ يُلتحفُ
أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية	ما في عطائهمُ منٌّ ولا سَرَف... الخ[٢]

بالغ جرير جداً في طلب العطاء، ورأى أن ثمة فرقاً بين من يكرمه ومن يجفوه، وقد جربوه فوجدوه مخلصاً، ولذا لن يتحول عنهم فاحترف التكسب، واحترف المديح من أجل التكسب، واستغل قضية المهالبة للوصول الى قلب يزيد ثانية، ورأى أن الخلافة لا تصلح إلا فيهم، وحينها يكون قد وصل مرحلة الاستجداء الصريح فقال:-

لقد تركْتَ فلا نَعدمْك إذ كفروا	لابن المهلب عظماً غيرَ مجبورِ
يا ابنَ المهلّب أن الناس قد علموا	أن الخلافة للشُّمِّ المغاويرِ
خليفةَ اللهِ، إني قد جعلْت لكم	غراً سوابق من نسجي وتحبيري[٣]

(١) ديوان جرير: ٨٠/١- ٩٠ الاغاني ٧٣/٨

(٢) ديوان جرير: ١٧٢/١- ١٧٧ الرسف: مشي المقيد قذف: بعيدة هنيدة: مئة من الإبل-يحدوها ثمانية: يسوقها ثمانية أعبد.

(٣) ديوان جرير: ١٤٨/١- -١٤٩.

ولكنه لم يخرج هكذا صفر اليدين، خفاف العياب، فالمال أولاً واخيراً هو الأهم بالنسبة الى جرير، وليس الإعلام هو الأهم، ولكن تكسبه جعله يبرر بعض المواقف السياسية للأمويين كانتصارهم على الزبيرية والمهالبة، حتى بدا وكأن الموقف السياسي هو الأهم لا التكسب.

وأبرز جرير وغيره من الشعراء المتكسبين مفهوم الخلافة الديني موازنة بالشيعة فقال: «أما يزيدُ فإن الله فهمَّه حكماً»[1] و «أعطاه ملكاً واضحاً» و(خليفة الله) و(إن الله فضله). وأبرز أن السلطان يستمد حقه في السلطة من السماء بقدر، لا من إجماع الرعية، وقال الأخطل مثل قوله أيضاً:-

وقد جعل الله الخليفةَ فيهمُ لأبيضَ لاعاري الخوانِ ولا جدب[2]

وأبرز كثير عزة الدور المسند اليه فقال فيهم:-

هم أهل الواحِ السرير ويمنةٌ قرابينُ أردافاً لها وشمالها

أحاطت يداهُ بالخلافة بعدما أراد رجالٌ آخرون اغتيالها

تبلَّج لما جئت، واخضر عودهُ وبل وسيلاتي إليها بلالها[3]

وكان عديُّ بن الرقاع العاملي أكثرهم توكيداً على ربط الملك بقضاء الله وقدره فقال:

إنَّ الوليدَ أمير المؤمنين له ملكٌ عليه أعان اللهُ فارتفعا[4]

ويدل تكسب جرير بالذات من السلطان وأعوانه على رغبة لديه في تطليق حياة الفقروالركض نحو الدعة. ولما صار التنافس بينه وبين الأخطل شاعر البلاط أحسن جرير استغلال بعض القضايا السياسية كالفتن، والتمردات الداخلية واستغل مضريته في التكسب، ورأى الخليفة ابن عم له في ضوء مضريته كما

---

(١) ديوان جرير: ١/١٤٥.

(٢) ديوان الأخطل: ١/٢٦٠.

(٣) ديوان كثير عزه: ٧٩- ٨٨ وسيلاتي: كناية عن الصلة

(٤) ديوان عدي بن الرقاع: جمع وتحقيق ودراسة الدكتور الشريف عبد الله الحسيني البركاتي- مطبعة الفيصلية- مكة المكرمة- ١٩٨٥: ص ١٠٧

مضى، وتغلب على عقده القيسية غير الموالية للأمويين، ونفذ منها الى توضيح صورة الخليفة كما تمناها عبد الملك من المادحين، ويبدو أن خلفاء بني أمية أدركوا أهمية مدح جرير لهم، فأغدقوا عليه المال، وحاولوا استرضاءه، وكونه ليس من الجند انما من البداه ولم يكن مكتتباً بالعطاءوشرفه، ظل في حاجة الى المال. ودائم الشكوى من الفقر. ولم نجده يتكسب للقبيلة كالراعي النميري أو الفرزدق. ولكن الفرزدق الذي كان هواهُ مع علي بن أبي طالب اضافة إلى أنه بن غالب بن صعصعة لم يتنازل عن كبريائه حتى وهو يتكسب على المستويين الفردي والجماعي.

وطلب العطاء والمنفعة المادية لم تطامنا من شخصيته القبلية، بل على العكس من ذلك جعلتا منه شخصية صلبة، تطلب العدالة من خليفة عادل، حتى يجنح الى الاحتجاج كما سنرى في الفصل الآخر فقال:-

فإن تنصفونا يالَ مروانَ نقترب إليكمْ وإلا فأذنوا ببعاد

فإن لنا عنكم مراحاً ومذهباً بعيسٍ إلى ريح الفلاةِ صوادي

وفي الأرضِ عن ذي الجور منأىً ومذهبٌ وكلُّ بلاد أوطنتكَ بلادي

وماذا عسى الحجاجُ يبلغ جُهْدَهُ إذا نحن خلَّفنا حفيرَ زياد [١]

كشف الفرزدق عن العلاقة التي يجب أن تكون بين الراعي والرعية، وعن الظلم الذي شملهم، وما دام الأمر كذلك فلا قربى بينهم، ولذا لا بد من رفع الظلم الذي مارسه الحجاج على الفرزدق كفرد، وعلى تميم كجماعة، فان كان الشاعر يتكسب لذاته في كثير من الاحايين فإنه لا يرضى أن ينسلخ عن قبيلته أبداً، وسيتنازل عن المنفعة المادية الفردية ما دامت تتعارض مع مصلحة القبيلة، ولكن تهديده للمروانيين تهديد طريف ليس فيه الجلافة الأعرابيةالمعهودة في الفرزدق. ولكنها تحمل في ثناياها تهديداً خطيراً، وان حاول تشذيبه وتهذيبه، فهو يتكسب موقفاً سياسياً لقبيلته لتمنع عنها المضايقة الاقتصادية. وفي ضوء التكسب تحصل القبيلة على كامل حقوقها الاقتصادية والسياسية، ولم يتوان لحظة في إعلان ولاء تميم للأمويين في ظل تلك الفكرة. ولذا رحل الى هشام بعد أن جاهد عشرين يوماً

---

(١) ديوان الفرزدق: ١٤٥، العيس: الإبل البيض يخالط بياضها سوادٌ خفي. الصوادي: العطشى.

قائلاً:

أبت لهشام عادةٌ يستعيدها ... وكفٌّ جوادٍ لا يُسَدُّ انثلامُها

وإن تميماً منكَ حيث توجّهت ... على السِّلم أو سلِّ السيوفِ خصامُها

هم الأخوة الأدنون والكاهلُ الذي ... به مُضرُ عن الكِظاظِ ازدحامها

اليك انتهى الحاجاتُ وانقطع المنى ... ومعروفُها في راحتيك تمامُها[1]

فجعل تميماً حيث يريد هشام أن تكون، وأعلن الفرزدق باسمها الولاء المطلق، وهو هنا يتكسب لنفسه منفعة شخصية باسم قبيلته من يزيد بن عبد الملك، ويستجدي لأهله ايضاً:

يا خير من خبَطتْ إليه مطيةٌ ... ما عنك لي ولصاحبي من مَزحلِ

أكل السنونُ بلادَنا فتركْنَها ... جُرْداً، وكل بهيمة في الهُزَّلِ

ولقد تركتُ بواحِفَيْن بقيّةً ... يرجون سيبَ نداك غير المُمْحِلِ[2]

جاء يطلب للقبيلة مالاً لرفع الجدب عنهم، والخليفة مسؤول عن أحوال رعيته.

ووزع الأخطل نفسه بين الفردية والمجموع، وتكسب لنفسه ولقبيلته بمواقف التغالبة من الدولة، فلما قال قصيدته المشهورة (خفَّ القطينُ...) أمر له عبد الملك بجفنةٍ كانت بين يديه فملئت دراهم، وألقى عليه خلعاً[3] وظل الأخطل يمنُّ على الخليفة موقف تغلب منه فقال:-

أهلي فداؤكَ يومَ المجرمون بها ... مقاسَمُ المالِ أو مغضٍ على ألمِ

يومَ المقامات والأموالُ مُحْضَرَةٌ ... حول امرىءٍ غير ضجّاجَ، ولا برِمِ

إن ابنَ مروانَ اسقاني على ظمأ ... بسَجْلٍ لا عاتمٍ رياً، ولا خَذِمِ

لا يُحرَمُ السائلُ الدنيا إذا عرضَتْ ... ولا يُعَوِّذُ منه، المالُ بالقسم

---

(١) ديوان الفرزدق: ٥٥٥

(٢) ديوان الفرزدق:٤٦٥- مزْحل- مدفع-الواحفين: الأرض التي فيها حجارة سود، السنون: الجدب.

(٣) الأغاني: ٢٥٨/٨

فإذْ اتتكمْ فأعطتكم بدِرتها   فاحتلبوها، هنيئاً، يابني الحكم
بني أميةَ قَدْ أجدتْ فواضلُكُمْ   منكمْ جيادي، ومنكم قبلها نعمي[1]

يسامح المروانيين بالغنائم والخيرات القادمة مع أنها أتت بسيوف التغالبة الموالية للدولة، ويدعوهم الى اهتبال الفرص واحتلابها معاً، فطالما قد شربت جياد الخليفة وماشيته من خيراتهم، فيذكّرهم بالمنة السياسية التي جلبت لهم خيرات اقتصادية.

استطاع القصر الأموي تحديد الشاعر من بين المتكسبين الذي يمكن جذبه واستمالته إلى القصر الأموي للدخول في ظل دائرة الإعلام، ولولا المال المفقود المنشود المأمول الذي كان يحتاجه بعض الشعراء كما أفصحوا لما كان لبعض القضايا السياسية أن تظهر، ويكتب لها الترويج والنجاح. وجعل الأمويون مراكز الأمصار الامتحان الأول لبعض الشعراء لجذبهم الى دمشق، بعد اتصالهم بالعمال والولاة، كما حصل مع جرير وكثير عزة. وقد يمارس عليهم قطع العطاء وعدم إنفاذه كما شكا عبد الله بن همام السلولي كما مضى وهو يخاطب النعمان بن بشير في قوله:

زيادتنا نعمانُ لا تحبسنّها   خف الله فينا والكتاب الذي تتلو[2]

ليمكنهم فيما بعد استمالة الفقراء أو معاقبة البداة الذين انضموا الى الخوارج أوالزبيرية أضافة إلى أن البادية بعيدة عن مركز التجارة والغنى والحضارة والفتوح، وبالتالي كانت فقيرة تشكو الجدب وانقطاع الغيث، وصراع الطبيعة أوالحجازيين الذين كان عليهم أن يرضوا بحكم بني أميّة، وكانوا قد وقفوا إلى جانب قرشيي الحجاز بني هاشم أو بني الزبير، ومن هنا من لم يكن معهم أصلاً، وقد حوى المال التليد فارقهم، ومن لم يحو المال التليد لا بد من الأنضواء تحت حكمهم، والتكسب منهم كما مر معنا لحاجتهم إليه.

---

(١) ديوان الأخطل: ١/٢٢٣- ٢٢٥، السجل: الدلو العظيمة المملوءة بالماء، العاتم: المبطيء، الخذم: المنقطع الأوذان: وهي السيور بين آذان الدلو والعراقي تشد بها.

(٢) الأغاني: ١٦/٣٨- ٣٩

وفي ظل انتشار الثقافة الدينية خصوصاً في البصرة ومجالس الحسن البصري، وشيوع فكرة القدر والجبر، أشاع الأمويون أن الخلافة فيهم قدر وكأنهم كانوا يوحون للشاعر المتكسب أن يشيع في الناس هذه الفكرة، فقال الأحوص:

إمام أتاه الملكُ عفواً ولم يُثِبْ على ملكه مالاً حراماً ولادما

تخيَّره ربُّ العباد لخلقهِ وليّاً وكان الله بالناس أعلما

ينالُ الغنى والعزَّ من نال ودَّهُ ويرهبُ موتاً عاجلاً من تشاء ما[1]

فالخلافة أتته على قدر واختاره الله لخلقه، والله أعلم حيث يجعل رسالته هذا ما كان ينقص الأمويين «التأييد الديني». وقال بعض القدريين بصحة خلافة بني أمية، فالعز والغنى بتأييدهم، والفقر والموت والذل بمفارقتهم، وهذا لا يعنى أن النص لم يأت من عمق التكسب، والشاعر نفسه كان قد قال يخاطبه مرة:-

وإنا عدانا عن بلادٍ نحبها إمام دعانا نفعُهُ المتتابعُ [2]

وودَّ الخليفة يوماً أن يضفي عليه المادحون والمتكسبون هالة دينية من القداسة كما رآها في خصومه، ولذا انتقد عبد الملكُ ابن قيس الرقيات حينما وفد اليه مادحاً بقوله:

إن الأغرَّ الذي أبوه أبو العا صي عليه الوقارُ والحجُبُ

يعتدل التَّاجُ فوق مفرقِهِ على جبينٍ كأنهُ الذهبُ

فقال له عبد الملك: (تمدحني بالتاج كأني من العجم، وتقول في مصعب:

إنما مُصعبٌ شِهاب من الله تجلَّت عن وجهه الظَّلماءُ

ملكُهُ ملكُ قوةٍ ليس فيه جبروتٌ ولا به كبرياءُ

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاءً أبداً[3]، قد

---

(١) شعر الأحوص الانصاري: جمع وتحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي: النعمان النجف الاشرف:١٩٦٩: ص ١٩٣

(٢) شعر الأحوص: ١٢٠.

(٣) الأغاني: ٥/٨٧، انظر ديوان ابن قيس الرقيات: ص٥، ٩١.

ارتبط العطاء بشكل المدح، وكان الخليفة أراده في منطقة الإعلام، ولم يرده متكسباً أما ابن قيس فكان متكسباً وخائفاً معاً، ولذا لم يحز على الرضا، وفقد العطاء، ومدحه لعبد الملك لم يجيء إلا بعد موت مصعب وانتهاء الزبيرية، فكان مرغماً على ذلك.

وهذا الأمر أيضاً كان العمال والولاة بحاجة اليه كالخلفاء، خاصة الحجاج فكان يحتاج إلى من يسوغ له سفك دماء المسلمين، وهونت ليلى الأخيلية الأمر عليه كما مر معنا: وكان الأخطل أكثر إدراكاً من ليلى في مديحه للحجاج، وكان قد مدحه من خلال مخاطبةالخليفة، وأشار على الخليفة باعتماده في كل أمر. وأظهر الصورة الاقتصادية للحجاج، فهو مغنم اقتصادي للدولة، وكان مسيرا الفتوحات، وجالباً للغنائم:

فعليك بالحجّاج لا تعدل بهِ ... أحداً، إذا نزلت عليكَ أمورُ
ولقد علمتَ، وأنت أعلمُنا به ... أن ابن يوسف حازمٌ منصورُ
وأخو الصفاءِ فما تزال غنيمةٌ ... منه، يجيءُ، بها اليك، بشيرُ(١)

ثالثاً: البناء الاقتصادي – والتكسب

البناء الاقتصادي: من إقطاع، ومدن تركزت فيها الخدمات لذوي المكانة الرفيعة والتجارة، وعطاء جند يُسجِّلون للفتح، كل ذلك خلق أنواعاً من بلاط السادة، بدءاً بالخليفة وانتهاءً بالولاة وقادة الجند، وكان ذلك إلى جانب الاغنياء، الأجواد منهم وغير الأجواد. فأدى هذا البناء الاقتصادي إلى أن يؤم المادحون والهجاؤون والمستجدون مراكز علية القوم، وبلاطاتهم، ومراكز العطاء أحياناً. فظهرت مجالس المهالبة ونصر بن سيار في خراسان، ومجالس الحجاج وخالد القسري ويوسف بن عمر، وعمر بن هبيرة في العراق وهي مجالس سياسية في حين ظهر في الحجاز أبناء الزبير، وأبناء علي بن أبي طالب، وعبد الله بن جعفر ونافس ابناء الزبير وأبناء علي بلاط الأمويين وأمهم الشعراء من كل حدب وصوب ودعوا إليهم.

---

(١) ديوان الأخطل: ٤٠٣/٢- ٤٠٩.

وكان مجلس المهالبة من أهم المجالس الأدبية في العصر الأموي، واستقبل عدداً كبيراً من الشعراء حتى خاصم القصر الأموي في ذلك ويروى في أمالي المرتضى: أن الكميت أتى باب مجلس يزيد بن المهلب يمتدحه، فصادف على بابه أربعين شاعراً، فقال للآذن: استأذن لي على الأمير، واستأذن له عليه، فأذن له، فقال له: كم رأيت بالباب من شاعرٍ قال: أربعين شاعراً، قلت فأنت جالب التمر الى هجر، فقال: إنهم جلبوا دقلاً، وجلبت زاداً، فقال: هات زادك:

هلا سألت منازلاً بالأبرق ... درسَتْ وكيف سؤالُ منْ لم ينطق

لعبت بها ريحانُ: ريحُ عجاجةٍ ... بالسافيات من التّراب المعتّقِ

من قال: بت أخا الهموم ومن يبت ... عرض الهموم، ونصبهنّ يؤرّقِ

بشّرت نفسي إذ رأيتك بالغنى ... ووثقتُ حين سمعت قولك لي ثقِ

وإعطاه مئه ألف درهم سوى العروض والحملان.(١)

من اللافت للنظر في النص السابق أنه اجتمع على باب مخلد أو يزيد بن المهلب أربعون شاعراً، وكان الكميت بن زيد الأسدي (المضري - الشيعي) منهم، ولايتفق عقدياً وعصبياً مع المهالبة اليمانية، والمهالبة في بدء أمرهم موالون للدولة الأموية، والكميت بن زيد لا يتفق أيضاً مع الأمويين، فالمهالبة أزديون سنيون، والكميت مضري شعيي فهو على غير وفاق البتة مع المهالبة، رغم ذلك استقبله المهالبة أحسن استقبال، وأحسن المدح فيهم، ولكن شعره ضاع جلهُ، ولم يبق منه إلا ابيات متفرقة تدل على أنها بقايا قصائد. ويبدو أنه مدحهم في ظل زيديته التي تؤمن بالتقية.

كما شجع الأمويون الأخطل وجرير والفرزدق على المضي في النقائض من أجل خدمة أهدافهم السياسية، نرى المهالبة أيضاً يشجعون الصراع الأدبي في مجالسهم، ليستفيدوا منه في خدمة أهدافهم السياسية فاشتد الصراع بين كعب الأشقري شاعر البلاط المهلبي، وزياد الأعجم جليس المهالبه وكان المهلب وأبناؤه

(١) أبو القاسم الشريف المرتضي: الأمالي: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: دار الكتاب العربي بيروت: ط٢- ١٩٦٧: ٥٩/١ وانظر الديوان ٢٥٦/١- ٢٥٨، ٢٠٩-٢١٠ الدقل: أردأ أنواع التمر، العروض: الطعام، والحملان، كل ما تحمل الإبل من الهدايا.

يقفون مرة الى جانب زياد وثانيةً الى جانب كعب حتى تستقيم الأمور [1]، وكذا بين حاجب فيل وثابت قطنة الفارس الشاعر شاعر المهالبة [2]

وأبرز شعراء المهالبة في تكسبهم منهم قضية الفتوح الى الوجود، وتناولوها بطريقة جديدة، كما أوحى لهم بها المهالبة، وذكروا ما كان لهم من دور في توطيد الإسلام في ما وراء النهر. وكأن المهالبة أرادوا من الشعراء إبراز هذه الصورة لتصبح للمهلبي خاصة يزيد، شخصية لها حضورها في الدولة الأموية، وجلب الغنائم الى الشرق العربي، وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية. وبهذا يكون يزيد الرجل الثاني في الدولة الأموية بعد الخليفة، ويتناسى الناس المسير الأول للفتوح الحجاج أو تاليه. ومما يؤيد ما أذهب اليه أن المهالبة بدورهم حاولوا الاستقلال بحكمهم عن الدولة المركزية، حتى قضى يزيد فيها نحبه. ويبدو أن الشعراء قد وعوا ما يريد منهم الممدوحون، وعلى قدر ما يمدحونه يكون الرفدوالعطاء، والمهالبة كرماء جداً وحووا أموال الفتوح، ومن لم يشارك من الشعراء في الفتح كان يحظى بالأعطيات، كالطرماح بن حكيم والفرزدق وحمزة بن بِيضْ [3]

ويبدو أن الشعراء كانوا يخلصون في مدح الولاة أحياناً أكثر من مدائحهم للخلفاء، خاصة الشعراء الذين لم يتصلوا بالخلفاء. فكان الوالي يمثل لهم العطاء أكثر منه الخوف عدا الحجاج، ولعل هذا السببَ كان وراء قلة المدائح التي تكسب بها الشعراءُ، من الحجاج عامل عبد الملك والوليد من بعده على العراق مقايسة بيزيد بن المهلب أو أحد المهالبة.

خراسان كانت مركزاً برز فيه المهالبة، جذبت الشعراء إليها، واستقطبت شعراء العراق، وكذا البداة من الحجاز ونجد وبعض الأعراب، والصعاليك في أحايين كثيرة. وروى الأصفهاني خبراً مؤداه أنه لما كافأ مخلد بن يزيد بن المهلب الكميت بن زيد على قصيدته (هلا سألت منازلاً بالأبرق) قال حمزة بن بيض. والله

---

(١) الاغاني: ٢٧٩/١٤

(٢) الاغاني: ٢٥٧/١٤- ٢٦٠.

(٣) الاغاني: ٢٢٥/١٦ ديوان الطرماح ٣٤٧- ، والأغاني ٤٣/٢

لأنا أولى من الكميت بما ناله من مخلد بن يزيد وإني لحليفه وناصره في العصبية على الكميت، وعلى مضر جميعاً، فهيأت لمخلد مديحاً على روي قصيدتي الكميت، وقافيتهما ثم شخصت اليه فقال:

أتيناك في حاجةٍ فاقضها ... وقلْ: مرحباً يجبُ المرحبُ
ولا تكلنَّا إلى معشرٍ ... متى يعدوا عدةً يكذبوا
فإنكَ في الفرع من أسرهٍ ... لهم خَضَع الشرقُ والمغرب
وفي أدبٍ منهم ما نشأت ... ونعمَ لعمرك ما أدَّبوا
بلغت لعشر مضتْ من سنيك (م) ما يبلغ السَّيدُ الأشيبُ
فهمُّك فيها جسامُ الأمور ... وهم لداتِك أن يلعبوا[1]

هذا ما أراده المهالبة على التحديد- من مديح الشعراء أنهم من أسرة (لهم خضع الشرق والمغرب، خضعوا خوفاً واحتراماً وطاعة، بعثهُ الشرقيون مؤمنين بقدرته، وذلَّ أهلُ خراسان له لشجاعته. يريد المهالبة الاستقلال عن الدولة المركزية، كما يريدون في الوقت ذاته الاستقلال عن التبعية للعراق، وبالذات أن لا يدوروا في حلقة الحجاج.

ما سبق ليس غريباً، فقد وفد على يزيد بن المهلب الطرماح بن حكيم الخارجي يمدحه، وقد رأى فيه (خازن الرزق ومسيرهُ، وجعله ملكاً فوق ملوك الأرض، وبذلك نسي الخليفة في دمشق فقال:-

اني اعتمدتكَ يا يزيـ ... دُ، ونعمَ مُعْتَمَدُ الوسائلْ
أرجو نوافلَ من يديـ ... ـكَ، وأنت مبسوطُ النوافلْ
أيزيدُ عمَّ المجدُ منك الـ ... محتفين، وكلَّ ناعلْ
ملك تُدين لهُ الملو ... كُ، أشمُّ عصَّاءُ العواذلْ
ترَّاكُ أندية السَّفاه ... وقائلٌ للخيرِ فاعلْ[2]

---

(١) الأغاني: ١٦/٢٢٥- ٢٢٦.

(٢) ديوان الطرماح بن حكيم الطائي: ص ٣٧٤- ٣٨٠، المحتفي: حافي القدمين، أشمّ: السيد ذو الأنفة.

وكان ثابت قطنه وكعب الأشقري[1] من الشعراء الفرسان الشجعان وأصحاب المهلب وابنه يزيد واخوته جميعاً، وكانا شاعري بلاط المهالبة، وتحملا في ذلك ما تحملا، وكانا من أكثر الناس إخلاصاً للبلاط المهلبي ومن أجمل ما قيل قول الأشقري الى المهلّب بحضرة رسول الحجاج لما تأخر بمناجزة الأزارقة ولامه الحجاج فقال:

إنّ ابن يوسفَ غرّه من غزوكم ... خَفْضُ المقام بجانبِ الأمصارِ

لو شاهد الصَّفين حين تلاقيا ... ضاقت عليه رحيبةُ الأقطارِ

من أرضِ سابورِ الجنودِ وخيلُنا ... مثلُ القداح بَرَيْتَها بشفار

من كل خنذيذٍ يُرى بلبانه ... وقعُ الظُّباة مع القنا الخطَّار

ورأى معاودة الرِّباع غنيمةً ... أزمانَ كان محالفَ الإقتار

فدع الحروب لشيبها وشبابها ... وعليك كلَّ خريدةٍ معطارِ[2]

وظل ثابت قطنة الى جانب المفضل بن المهلب حتى قتله أصحاب مسلمة بن عبد الملك فبكاه. [3]وحرض يزيد بن المهلب على الحجاج في نص آخر [4]. وممن وفد الى بلاط يزيد حاجب الفيل حين قال:-

إليكَ امتطيتُ العيسَ تسعين ليلةً ... أُرَجّي ندى كفيك يا بن المهلّبِ

وأنت أمروٌ جادت سماءُ يمينه ... على كلِّ حي بين شرق ومغربِ

فجدُ لي بطرفٍ أعوجيٍّ مُشهَّر ... سليمِ الشَّظا عَبْلِ القوائم سلهبِ

....[5]

---

(١) كعب الأشقري: هو كعب بن معدان الأشقري من الأزد، شاعرٌ فارسٌ خطيبٌ معدود في الشجعان، من أصحاب المهلب والمذكورين في حروبه للأزارقة، و أوفده المهلب إلى الحجّاج، وأوفده الحجاجُ إلى عبد الملك تهاجى وزياد الأعجم، الأغاني ٢٧٤/١٤ وانظر ٢٧٤.

(٢) الأغاني: ٢٨٣/١٤

(٣) الأغاني: ٢٦٦/١٤

(٤) الأغاني: ٢٦٨/١٤

(٥) الأغاني: ٢٥٧/١٤ صورة الفرس الذي طلبه من يزيد.

ومن الولاة الأثرياء أصحاب الإقطاعات الكبيرة الذين قصدهم الشعراء للتكسب خالد القسري والي العراق وكانت نعم هذا الوالي الخاصة والعامة من أسباب وفود عدد من الشعراء إليه، منهم الطرماح بن حكيم الطائي الخارجي المذهب، والكميت ابن زيد الأسدي الشيعي المذهب، والفرزدق، وجرير. مما يدل على مدى قدرة المال والثروة على جلب أصحاب المبادىء الشيعية والخارجية الذين لا يرون أحداً أهلاً للمدح، والشيعة الذي لا يرضون ببني هاشم بدلاً. وكان الطرماحُ أكثرهم صدوراً إلى خالد القسري لالتقائهما في العصبية، واعتاد كل عام على الحصول على جائزته فقال:-

من خالدٍ أهلِ السماحة والندى ... ملكِ العراق إلى رمال وَبارِ

أُنُفُ الحفائظِ يبسطون اكفَّهم ... بنوال لا نزرٍ، ولا إصفارِ

والجار وسطهُمُ يزيدُ عطاؤه ... بتتابع الهلَكات والأحجارِ

ملك يذعذعُ بالمحامد ماله ... والحمد حينَ يغبُّ ذو أنصارِ

إني امرؤٌ لك، لا لغيرك ما أني ... منكم أشيمُ مصاوبَ الأمطارِ

أرجو وأملُ كلَّ عامٍ نفحة ... منكم تدق خطائر الإقتارِ

حراً أموت ولم يشني مطمع ... أني نقيٌّ بطائن الإضمارِ[1]

لم ينتظر الطرماح منا أن نجزم بانه كان متكسباً أم لم يكن، فقد أعلنها صراحة: إني امرؤ لك و(أرجو وأمل كل عام نفحةً).. وكاد الطرماح ينقطع الى خالد القسري[2]

لم يقتصر التكسب على البلاط الأموي في دمشق، وقصور الولاة في الأقاليم الإسلامية الأخرى وكذلك قصور الأمراء الأمويين كعبد العزيز بن مروان وبشر بن مروان، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، ومسلمة بن عبد الملك. والدعوة اليهم، والرفع من شأنهم، ومخاطبتهم على أنهم ملوك، لا سيما المهالبة كما مر معنا، إنما تجاوزتها إلى الأجواد والأثرياء وكبار التجار، وأصحاب الإقطاعات

---

(١) ديوان الطرماح: ٢٢٧- ٢٤٦، الهلكات: سنو الجدب، يذعذع: يبدد، يغبّ: أي يأتي.

(٢) ديوان الطرماح: ٢٤٨، ٢٨٣، ٢٨٤- ٣٣٣. وانظر ديوان الكميت بن زيد" ١/ ٦٠- ٦١، ١/ ٢٣

الكبيرة، وطفا على السطح عدد لا بأس به من الأثرياء، ويبقى على رأس القائمة عبد الله بن جعفر بن ابي طالب وعبيد الله بن عباس وسعيد بن العاص في الحجاز أما في العراق فظهر عدد كبير ارتبطوا بأسماء الشعراء، وذكر صاحب العقد أن: (أجواد أهل الاسلام أحد عشر رجلاً في عصر واحد، لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم فأجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد، عبيد الله بن العباس، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن العاص، وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد. عبد الله بن عامر بن كريز، وعبيد الله بن أبي بكرة مولى رسول الله- وسلم بن زيادة، وعبيد الله بن معمر القرشي ثم التيمي، وطلحة الطلحات وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي، وأجواد أهل الكوفه ثلاثة في عصر واحد، وهم؛ عتاب بن ورقاء الرياحي، وأسماء بن خارجة الفزاري، وعكرمة بن ربعي الفيَّاض »[١]

وبرزت هذه الأسماء كثيراً في الشعر، وترددت على ألسنة الشعراء، حتى ارتبط كل اسم بشاعر مدحاً، واعتذاراً، وهجاء. وبلغ من جودابن عباس: (أنه أول من فطر جيرانه، وأول من وضع الموائد على الطرق وأول من حيّا على طعامه، وأول من أنهب ماله، وفيه يقول أحد الشعراء:-

وفي السنة الشهباء أطعمت حامضاً ... وحلواً ولحماً تامكاً وممزَّعا

وأنت ربيع لليتامى وعصمةٌ ... إذا المحل من جوِّ السماء تطلَّعا

أبوك أبو الفضل الذي كان رحمة ... وغوثاً ونوراً للخلائق أجمعا[٢]

واتصل به معن بن أوس المزنيّ، وكان قد أكرمه في حين لم يكرمه ابن الزبير وكان قد أنزله دار الضيفان، وكان ينزلها الغرباءُ وأبناء السبيل والضيفانُ، ولم يخص معن بن أوس، لأنه جفا الشعراء جميعاً، فقال يمدح عبيد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر ويهجو عبد الله بن الزبير:

ظللنا بمستنّ الرياحِ غُدَيَّةً ... إلى أن تعالى اليوم في شَرِّ محضرِ

لدى ابنِ الزُّبيرِ حابسينَ بمنزلٍ ... من الخير والمعروف والرفد مقفرِ

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢٩٣/١

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢٩٤/١، تمك السّنام: طال وارتفع وامتلأ وسمن.

رمانا أبو بكرٍ وقد طال يومُنا بتيسٍ من الشاء الحجازي أعفرِ
وقال: اطعَمُوا منه، ونحن ثلاثةٌ وسبعونَ انساناً، فيا لؤم مخبرِ!
فقلتُ لهُ: لا تقْرِنا فأمامنا جفانُ ابنِ عباس العلا وابنِ جعفرِ
وكنْ آمنا وانعقْ بتيسكَ إنه له أعنزٌ ينزو عليها وأبشرِ[1]

فظاهرة التكسب تنكر لها الحزب الزبيري - عدا مصعب بن الزبير - تنكر لها وأدار ظهره للشعراء، وكأنه يلغي احتياجات الشعراء البداة- غير المسجلين بالفتوح، أو العطاء، وتزايد إقبال الناس على الحاجات الضرورية لوجود دولة تمثلهم، وتمصر الامصار، وانتهاء الغزو، فالشاعر لا بد له من مصدر رزق يعينه، وقد قعد الفن به عند عبد الله بن الزبير. وظاهرة التكسب أصبحت ظاهرة ثقافية حضارية وبحاجة الى حل حضاري، وليس حلها في التنكر لها وللشعراء، كما هو عند ابن الزبير الذي قاده هذا التنكر إلى فشل الحزب، وتنكر عمر بن عبد العزيز لها تنكراً قوياً. تنكر لعويف القوافي، والفرزدق، وجرير، وكثير عزة وقال عويف القوافي[2] يرثي سليمان بن عبد الملك، ويمدح عمر بن عبد العزيز:-

لاحِ سحابٌ فرأينا برقهُ ثم تدانَى فسمعْنا صَعْقَهُ
وراحتِ الرِّيح تُزُجِّي بُلَقَهَ ودُهْمَه ثم تُرَجِّي وُرْقهُ
ذاك سقى قَبْراً فروَّى ودَقُهُ قبْرَ امرىءٍ عظَّم ربي حقَّهُ
قبرَ سليمانَ الذي من عقَّهُ وجَحَد الخيرَ الذي قد بقَّهُ
في المسلمينَ جلَّه ودقَّهُ فارقَ فيَ الجُحود منه صِدْقَهُ
قد ابتلى اللَّهُ بخيرٍ خَلْقَهُ ألقى إلى خيرِ قريشٍ وَسْقَهُ
يا عمَر الخيرِ الملقَّى وَفْقَهُ سُمِّيت بالفاروق فافْرُقْ فَرْقَهُ
وارزقْ عيالَ المسلمينَ رزقَهُ واقصدْ إلى الجودِ ولا تَوقَّهُ
بحركَ عذبُ الماءِ ما أعقَّهُ ربُّك، فالمحرومُ مَنْ لم يُسْقَهُ

(١) الأغاني: ٧٤/١٢ وانظر ٧٢

(٢) عويف القوافي: هو عويف بن معاوية بن عقبة بن حصن، شاعر مقلّ من شعراء الدولة الأموية من ساكني الكوفة، وبيتُه أحدُ البيوت المقدَّمة الفاخرة في العرب الأغاني ١٩٦/١٩.

فقال له عمر: لسنا من الشعر في شي، ومالك في بيت المال حق، فألح عويف يسأله فقال: يا مزاحم، انظر فيما بقي من أرزاقنا فشاطره إياه، ولنصبر على الضيق الى وقت العطاء، فقال له عبد الرحمن بن سليمان بن عبد الملك: بل توفر يا أمير المؤمنين وعليٌّ رضا الرجل، فقال: ما أولاك بذلك، فأخذ بيده، وانصرف به إلى منزله، وأعطاه حتى رضي [١] ولكن جريراً كان أكثر إفصاحاً من عويف القوافي في التذكير بالشعراء، وحاجتهم الى الشعر، وشكا الفقر، وحاجة الناس إلى غيثه يسأل عمر بن عبد العزيز:

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطرِ
نال الخلافة إذ كانتْ له قَدَراً ... كما أتى ربَّه موسَى على قدرِ
أأذكر الجَهْدَ والبلوى التي نزلت ... أم تكتفي بالذي بُلِّغْتَ منْ خبري
ما زلتُ بعدكَ في دار تعرِّقني ... قد طال بعدك إصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضرُ المجهودُ باديَنا ... ولا يجودُ لنا بادٍ على حضرِ
كمْ بالمواسمِ من شعثاءَ أرملةٍ ... ومن يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والبصرِ
يدعوك دعوةَ ملهوفٍ كأنَّ بهِ ... خبَلاً من الجنِّ أو مَسّاً من النُّشرِ
ممن يَعُدُّكَ تكفي فقد والدهِ ... كالفرخ في العشِّ لم ينهضْ ولم يطرِ [٢]

ويدل الحوار الذي دار بين عمر وجرير على أن عمر قد أغلق باب التكسب في وجوه الشعراء، وأنه لا يجوز التفريط في حقوق الناس وتضييع أموالهم، ولم يدر بالاً للإعلام الاقتصادي، ولم يستغل الشعر في الإعلام، ولم يكافىء المبدعين، إنما صنف الشعراء ضمن فقراء المسلمين أو ابناء المهاجرين أو أبناء الأنصار ومن لم يكن من هذه الفئات فليس له في بيت المال حق، إنماله حق في الأموال الخاصة، ولكن جريراً يرى رأياً آخر: «أسالك ما عود تنيه الخلفاء: أربعة الأف درهم، وما يتبعها من كُسوة وحملان». وهذا ما أدركه مصعب بن الزبير، وأغفله عبد الله، فاستغلته الأموية وسحبت شعراءه. [٣]

---

(١) الأغاني: ١٩/٢٢٤. النشر: الرقى وانظر: الأغاني ١٩/٢٠٦.

(٢) الأغاني: ٨/ ٥١، ٥٢.

(٣) الأغاني: ٨/٥٢

ظاهرة التكسب حالة من حالات الفقر في الغالب ويجب الاعتراف بها ومعالجتها وهي من منتجات الحياة الاقتصادية والاجتماعية التي أبرزت ظاهرة التكسب بهذا الشيوع، فشاعت، وسمع إليها الخلفاء الراشدون، ومن المفترض أن يستمع إليها ابن الزبير، وعمر بن عبد العزيز.

ولما انقسمت الأمة أحزاباً توجه بعض الشعراء الى الحزب الزبيري بدافع اقتصادي، إذ قدم عبد الله بن الزَّبير أو عبد الله بن فُضالة على ابن الزُّبير متكسباً فمنعهُ فقال:-

أرى الحاجات عندَ أبي خبيبٍ نكدْنَ ولا أميةَ في البلادِ

منَ الأعياصِ أو منْ آلِ حربٍ أغرُّ كغرَّةِ الفرس الجوادِ

ومالي حين أقطعُ ذاتَ عِرْقٍ إلى ابنِ الكاهليَّة من مَعادِ

وقلت لصحبتي: أدنوا ركابي أفارقُ بطنَ مكةَ في سوادِ [١]

وروى الأصفهاني أن ابن فضالة كان قد قال له: «إن ناقتي قد نقبت ودبرت فقال له: ارقعها بجلد، واخصفها بهُلْب، وسر بها البرْدين فقال له: إني قد جئتك مستحملاً لا مستشيرا، فلعن الله ناقة حملتني إليك»[٢] وراح يهجوه ولم يقف الأمر عند هذا الحد إنما حرَّض أعشى بني ربيعة عبد الملك على الزبيريين، واستبعد الشاعرُ صلاحيتهم للخلافة فقال:-

آلُ الزُّبيرِ من الخلافة كالتي عجلَ النتاجُ بحملها فأحالَهَا

أوكالضعاف من الحمولة حُمِّلتْ ما لا تطيق فضيَّعت أحمالَها

قوموا إليها لا تناموا عنهمُ كم للغواةِ أطلتموا إمهالَها

إن الخلافةَ فيكمُ لافيهمُ ما زلتمُ أركانَها وثمالَها

أمسَوا على الخيراتِ قُفْلا مغلقاً فانهض بيمنْكَ فافتتح أقفالَها

---

(١) شعر عبد الله بن الزُبير الأسدي: جمع وتحقيق يحيى الجبوري- وزارة الإعلام- بغداد- ١٩٧٤: ١٤٧

(٢) الأغاني: ١٢/٨٩. وانظر أخبار ابي صخر الهذلي في الأغاني ٢٤/٩٨- ١٠٠، البردين: الغداة والعشي.

فأحسن اليه عبد الملك، وأمر له بصلة سنية.[1] ولاقت القصيدة قبولاً حسناً لدى عبد الملك واستغلهم الأمويون إعلامياً ضد الزبيريين لينفض الشعراء من حولهم وكان له ما أراد

وحاول مصعب بن الزبير سد الخلل في استقطاب الشعراء والإفاضة عليهم فكثر شعراؤه ومنهم ابن قيس الرقيات، ولمّا مات مصعب انفضوا من الحزب الزبيري ومنهم ابن قيس الرقيات. ولذا مال معظم الشعراء الحجازيين للتكسب من عبد الله بن جعفرأو سعيد بن العاص مراكز الثراء في الحجاز وظهرت صورة عبد الله بن جعفر واضحة جلية في شعر التكسب، ووقف على بابه الشعراء الكبار من دمشق والكوفة والبصرة والمدينة ومكة، وقصده الأعراب البداة من نجد وبوادي الحجاز. حتى التجار منهم. وكان لا يرد أحداً عن بابه، ومن أجمل ما قيل فيه قول زياد الأعجم:-

سألناه الجزيل فما تأبىً ... فأعطى فوق مُنيتنا وزادا

وأحسنَ ثم أحسنَ ثم عدنا ... فأحسنَ ثم عدتُ له فعادا

مراراً ما دنوتُ إليه الإ ... تبسَّم ضاحكاً وثنى الوسادا[2]

وكان قد سأله في خمس ديَّات، فأعطاه، ثم عاد فسأله في عشر ديات فأعطاه.[3]

وجلّى معن بن أوس المزني صورة سعيد بن العاص الجواد الكريم الذي يفتح بابه للضيفان، وتغنّى بقدور سعيد فقال:-

أخو شتوات لا تزال قدورهُ ... يُحَلُّ على أرجائها ثم يُرْحَلُ

إذا ما انتحاها المرملونَ رأيتها ... لو شْكِ قراها وَهْي بالجزل تُشْعَلُ

سمعتَ لها لغطاً إذا ما تغطمطت ... كهدر الجمال رزَّماً حين تجفلُ

ترى كل دهماءِ السَّراةِ نبيلةِ ... شُماخيَّة في يافع لا تُزمَّلُ

ترى البازل الكوماءَ فيها بأسرها ... مقبَّضةً في قعرْها لا تحلحلُ

---

(١) الاغاني: ٣٨/١٨

(٢) الأغاني: ٣٦٩/١٥ في الفوات: تلكأ بدلاً من تأنّي، وما أعود بدلاً من ما دنوتُ.

(٣) محمد بن شاكر الكتبي فوات الوفيات: تحقيق إحسان عباس: دار صادر بيروت:٢/ ٣٠

كأن الكهول الشمطَ في حجراتها   تغاطس في تيارها حين تحفلُ

إذا التطمت أمواجُها فكأنّها   عوائدُ دهمٌ في المحلّة قُيّلُ

إذا احتفلت أوشازُها فكأنما   يزعزعها من شدة الغلْي أفْكلُ

فتلك قدورٌ لا تزال مقيمةً   لمن نابَها فيها معاشٌ ومأكلُ (١)

وأحسن عبد الله بن الزّبير مدح أسماءَ بن حصن في كرمه على الجند والأعراب وجسّد فيه الخصب والفرح والجود:

فتىً لا يزال الدهرَ ما عاش مخصباً   ولو كان بالموماةِ تخدي رواحلُهْ

فأصبح ما في الأرض خلقٌ علمتُهُ   من الناس إلا باعُ أسماءَ طائلُه

تراه إذا ما جئته متهلِّلا   كأنك تعطيه الذي أنت سائلُه

ولو لم يكن في كفِّه غيرُ روحه   لجادَ بها فليتق اللهَ سائلُه

ترى الجندَ والأعرابَ يغشون بابه   كما وردت ماءَ الكلابِ نواهلُه

إذا ما أتوا أبوابه قال: مرحباً   لجوا الباب حتى يقتلَ الجوعَ قاتلُه(٢)

واتصل ذو الرمة بمالك بن المنذر بن الجارود وكان على شرطة الحجاج، وأظهر فيه صرامة الشرطي، وقضاءه على اللصوصية:

تقول التي أمست خُلوفاً رجالُها   يُغيرون فوق الملجماتِ العوالكِ

لجارتها: أفنى اللصوصَ ابنُ منذرٍ   فلا ضير ألا تغلقي بابَ داركِ

وأمنَ ليلَ المسلمينَ فنوّموا   وما كان يمسي آمنا قبل ذلكَ

تركت لصوص المصر من بين يائسٍ   ومن بين مكنوع الكراسيع باركِ(٣)

---

(١) ديوان معن بن اوس: تحقيق نوري القيسي وحاتم الضامن- دار الجاحظ- بغداد- ١٩٧٧، ٤٧-٥١ تغطمطت القدر: صوّتت عند الغليان، أرزمت الناقة: صوتت حنيناً الى ولدها. الدهماء: قصد القدر. شماخية: ضخمة. العائذ: الناقة الحديثة العهد بالنتاج، الوشز: المتحصن يعنى أطراف القدر. الأفكل الرِّعدة.

انظر ديوان الفرزدق:٤٢٢- ٤٢٨

(٢) شعر عبد الله بن الزبير: جمع وتحقيق يحيى الجبوري، دار الحرية، بغداد-١٩٧٤، ١٢٠- ١٢٣.

(٣) ديوان ذي الرمة: شرح أبي نصر الباهلي- تحقيق عبد القدوس أبو صالح- مطبعة الرسالة- بيروت- ط٣- ١٩٩٣، ٢/٦٦١- ٦٦٢. الكنع: القطع

واتصل الفرزدق به أيضاً ومدحه في عدة قصائد [١] وقصد الشعراء مراكز القضاء ومدحوا القضاة وأخذوا جوائزهم منهم، ويبرز في هذا المضمار بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قاضي البصرة، وممدوح ذي الرمة.[٢] ووصله الفرزدق بعدد من القصائد.[٣] وظهر من الأشراف والأجواد في شعر الشعراءطلحة الطلحات وحَوْشب وعِكْرِمةُ وعبيدُ الله بن أبي بكرة وأبانُ بن الوليد، ومدح ابنُ قيس الرُّقيات طلحة الطلحات:

نضَّر الله أعظماً دفنوها ... بسجستانَ طلحَةِ الطلَحَاتِ

كان لا يحرمُ الخليلَ ولا يعـ ... تلُّ بالبخل، طيِّبَ العذِرات

سَبِطَ الكفِّ بالنوال إذا ما ... كانَ جودُ البخيلِ حُسْنَ العِدات

يهب البُختَ والنجائب والقيـ ... نةَ تمشي في الرَّيْط والحبِرات

ويفكُّ الأسيرَ في جيده الغـ ... لُّ قد أودت به أكفُّ العُداةِ

فسيبكيك بالعراقين أهلي ... وبثّني الأجزاع من عرفاتِ[٤]

لقد جذبت مراكز الثراء، ومراكزُ الدولة من ولاةٍ، وأصحاب خراج، وقادة جيوش الفتح، وأصحاب القضاء، ومراكز العطاء، الشعراء ورغبتهم في ما عندهم من أموال فكانوا يحوزون غنائم الفتوح، أو تجلب إليهم، أو مسؤولين عن بيوت الأموال. أو ملكوا الإقطاعات الكبيرة، فاتجه الشعراءُ اليهم رغبةً فيما عندهم. ولعل مما يحسنُ أن نشير اليه أن مراكز الثراء ساعدت في إدخال عدد من الشعراء حيز الإعلام والدعوة لتلك المراكز كما مضى في مجلس المهالبة، وأحفاد ابن الزبير وأبناء علي بن أبي طالب وبشر بن مروان بن عبد الملك.

---

(١) الفرزدق: ٦٦، ٤٢٢، ٥٩٧

(٢) ديوان ذي الرمة: ٩٤١، ٩٥٩، ٩٦٥، ٩٦٧، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧٢، ٩٧٧، ٩٧٩، ١٠٣٩، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٩، ١٥٠٦، ١٥٢٤، ١٥٣٥، ١٥٤٠، ١٥٥٥، ١٥٥٩.

(٣) الفرزدق: ٦١، ٦٤، ٤٥١.

(٤) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: ٢٠-٢٢. وانظر ص١٧-١٩

رابعاً- التكسب المبتذل - والقيم

ومن القضايا التي أفرزتها الحياة الإقتصادية التكسب المتبذل وركوب الشرّ في سبيله، وإراقة ماء الوجه رغبة في كأس خمرة، أو قوت يوم أو درهم يكتري فيه شيئاً، تكسب لا يحفظ للإنسان كرامة ولا يجعل للفن قيمة، يهين الشاعر فنه على عتبات الطرق.

وشاع هذا النوع من التكسب في العراق كثيراً، وكذا في الحجاز وله مؤشرات اقتصادية وسياسية واجتماعية، وبرز من الشعراء الحكم بن عبدل الأسدي، والأقيشر الأسدي وعمارُ ذو كبار في العراق، أما في الحجاز فقد ظهر الحزين الكناني وإسماعيل بن يسار، والأخضر اللّهبي (الفضل بن العباس بن أبي لهب» فتكسبوا ممن يصادفونه، ولو سلة عنب كما حال اللهبي [١] أو درهما كما هو حال الأقيشر الأسدي [٢]

وترجم الأصفاني للحزين بقوله: (إنه من شعراء الدولة الأموية حجازي مطبوع ليس من فحول طبقته، وكان هجاءً، خبيث اللسان، يرضيه اليسير، ويتكسب بالشر، وهجاء الناس، وليس ممن خدم الخلفاء، ولا انتجعهم بمدح، ولا كان يريم الحجاز حتى مات [٣]

مال بعض المتكسبين الى الهجاء تخويفاً للناس، وللحفاظ على أعراضهم، كان الناس يشترون أعراضهم منهم، كما حدث مع كثير وابن أبي عتيق من الحزين وكان الحزين قد فرض على كل قرشي درهمين، فصادف أن كان كثيرُ عزةَ مع ابن أبي عتيق فرأى الحزينُ أن يهجوه، فاشترى منه ابن أبي عتيق عرض كثير أيضاً بدرهمين فأصرّ الحزينُ على هجائه ثم اشتراه بدرهمين آخرين، فأصر على الهجاء إلى أن سمح له كثير بهجائه، فهجاه ببيت واحدٍ من الشعر فاحشٍ جداً. فغضب

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار/ ٢٥٦/١. الاغاني: ١٩٠/١٦ الأخضر اللهبي هو الفضل بن العباس ابن عتبة بن أبي لهب، وكان أحد شعراء بني هاشم المذكورين وفصحائهم، وكان شديد الأدمة فعرف بالأخضر وكان منقطعاً إلى الوليد بن عبد الملك وعرف بالبخل، وحبه للمال.

(٢) الأغاني ٢٥٤/١١، ٢٦٢ وديوان الاقيشر الأسدي: تحقيق خليل الدويهي- دار الكتاب العربي- بيروت- ط١، ١٩٩١، ص ٦٤- ٦٥

(٣) الأغاني: ٢١٣/١٥

كثيرٌ فلكمه[١]! هذه الحادثة تدل على استغلال بعض الشعراء خوف الناس على أعراضهم، فمالوا إلى الهجاء إن لم يعطوهم، وكانت هذه الطريقة كطريقة الحطيئة واذا عرفنا أن الشاعر ممن لم ينتجع الخلفاء ولا مدحهم فقد خسر جوائزهم وبالتالي كان من المحتاجين للأموال، فكلما احتاج شيئاً طلبه، ورتب على القرشيين درهمين درهمين في كل عطاء ليتمكن من العيش

ويفارق التكسب معناه للعيش، حتى أصبح هدفاً لبعضهم يستحلونه فلما رفض عمرو بنَ عمرو بن الزبير بن العوّام أن يكافيء الحزين على مدحته، ويلبي حاجته، لأنه كان يخوض في أعراض الناس، هجاه بعدة قصائد متفرقة ،ركز فيها على إبرازَ قضيتين اثنتين: اللؤم والبخل حتى رأى اللؤم يتمارى في وجهه فقال:

وشرٌّ ابنِ عمرو حاضرٌ لصديقهِ ... وخيرُ ابنِ عمروٍ بالثّريا معلقُ
ووجهُ ابنِ عمروٍ باسرٌ إن طلبتَهُ ... نوالاً إذا جادَ الكريمُ الموفَّقُ
فبئس الفتى عمرو بن عمرو ... إذا غدت كتائبُ هيجاءِ المنيَّة تبرقُ
يهرُّ هريرَ الكلب عمروٌ إذا رأى ... طعاماً فما ينفكُ يبكي ويشهق[٢]

لقد بالغ الحزين الكنانيُّ في الهجاء والشتيمة حتى جعل عمرو بن عمرو كلباً لا يصبر أمام الطعام، وتناسى الشاعر صورة نفسه وهو يطلب منه حاجاتٍ صغاراً وكباراً. وسلك مسلكاً مرفوضاً. ويبدو أن طعنة ابن الزبير في رفضه لأسلوب التكسب كانت مؤثرة مما جعله يصرُّ على هجائه، حتى كان بين الفينة والأخرى يقرر الهجاء، لا لشيء يستحقه إنما لأنه لم يلب حاجته، ولما وقف ابن الزبير في وجه الحزين قال قصيدة أخرى كانت مثار نقد النقاد والشعراء يقول فيها:

لعمرك ما عمرو بنُ عمرو بماجدٍ ... ولكنه كزُّ اليدين بخيلُ
ينام عن التقوى، ويوقظهُ الخنا ... فيخبطُ أثناءَ الظلام يجولُ
مواعيدُ عمرو تُرهّاتٌ، ووجههُ ... على كل ما قدْ قلتُ فيه دليلُ
جبانٌ وفحّاشٌ لئيمٌ مُذمّمٌ ... وأكذبُ خلقِ الله حين يقولُ
كلام ابنِ عمروٍ صوفةٌ وسطَ بلقعٍ ... وكفُّ ابنِ عمروٍ في الرَّخاءِ تطولُ[٣]

---

(١) الأغاني: ٣٢٢/١٥

(٢) الأغاني: ٣٢٦/١٥، باسر: أظهر العبوس.

(٣) الأغاني: ٣٢٧/١٥

فبلغ شعره عمراً فقال: ماله لعنه الله ولعن من ولده لقد هجاني بنية صادقة، ولسان صنعَ ذلق، وما عداني الى غيري، وانتقده عروة بن أُذينة الليثي فقال به: (ويحَك، بعضُها كان يكفيك، فقد بنيتها، ولم تقم أودَها وداخلَتها، وجعلت معانيَها في أكمّتها قال الحزين: ذلك والله أرغبُ للناس فيها)[١]

ورأى الحزين أن الشعر المطبوع غير المتكلّف، وغير المثقَّف يجعل القصيدة أكثر سيرورة، وهكذا أصبحت موازين النقد مختلفة عما كانت عليه، وكان للتكسب دور فاعل في تطور هذه المقاييس النقدية، وكذلك في تطور قصيدة الهجاء والنزول بها إلى اللغة البسيطة، وكان جرير يقول: (إذا هجوت فاضحك)[٢] وكلُّ ذلك يعود إلى عوامل نفسية دفينة تختبىء في نفس الشاعر للحصول على المال، فلجأ الى التكسب المبتذل عن طريق الهجاء، ولإشباع حاجة سريعة كان يتمناها في لحظة ما.

وكان الأقيشر أكثرهم تسآلاً، ويروي أبو الفرج أنه كان: (لا يسأل أحداً أكثر من خمسة دراهم، يجعل درهمين في كراء بغل إلى الحيرة، ودرهمين للشراب، ودرهماً للطعام. وكان له جارٌ يكنى أبا المضاءله بغلٌ يكريه، وكان يعطيه درهمين، ويأخذ بغله فيركبه الى الحيرة، حتى يأتي بيت الخمّار فينزل عنده ويربط بلجامه وسرجه[٣]

يبدو من النص أن الحضارة الجديدة في العراق قد سحبت الشباب الفارغ في العراق الى خماراتها، ويظهر أنهم لم يكونوا فرساناً أو منضوين في العطاء، ولذا كان عملهم التكسب لكل يوم. ولم يكن الأقيشر طمّاعاً جداً أبداً، إنما لحاجاته الضرورية؛ المواصلات، والطعام والخمرة، وهذه الاخيرة حياة الأقيشر كان يتكسب لها.

وورد يوماً على قيس بن محمد بن الأشعث فسأله، فأمر قهرمانه فأعطاه ثلاثمائه درهم، فقال: لا أريدها جملةً، ولكن مر القهرمان أن يعطيَني في كل يوم

---

(١) الأغاني: ٣٢٧/١٥

(٢) ابن رشيق/ العمدة: ٣٨١

(٣) الأغاني: ٢٦٢/١١: ديوان الأقيشر الاسدي: ص٤٢

ثلاثة دراهم حتى تنفد، فكان يأخذها منه، فيجعل درهما لطعامه، ودرهماً لشرابه ودرهما لدابة تحمله إلى بيوت الخمارين [١] فلما نفدت الدراهم أتاه ثانية فأعطاه وثالثة فأعطاه، ورابعة فأعطاه، حتى نفد صبر قيس فقال: (لا أبالك: كأنك قد جعلت هذا خراجاً علي، فانصرف يهجوه:

ألم تر قيس الأكمهَ ابن محمّدٍ	يقول ولا تلقاهُ للخيرِ يفعلُ
رأيتُكَ أعمى العَيْنِ والقلبِ ممسكاً	وما خيرُ أعمى العينِ والقلب يبخلُ
فلو صم تمّت لعنةُ الله كلّهُا	عليه، وما فيه من الشرِّ أفضلُ[٢]

ومما اتفق عليه أصحاب هذا الإتجاه انهم إذا مدحوا رجلاً ولم يجبهم الى ما طلبوه، سلقوه بألسنتهم الحداد، حتى وإن كان قد أحسن اليهم، كما هو حال الحزين مع عمرو والأقيشر مع ابن الاشعب، وعكرمة بن ربعي التميمي، وقد عرف الأخير بكرمه، فوفد إليه فلم يعطه فقال فيه:-

سألتُ ربيعة منْ شرُّها	أباً ثم أمّاً فقالوا:لِمَه
فقلتُ: لأعلَمَ من شرُكمْ	وأجعلَ بالسبِّ فيه سِمة
فقالوا: لعكرمةَ المخزياتُ	وماذا يرى الناسُ في عِكْرِمَهْ
فإن يك عبداً زكا مالُهُ	فما غيرُ ذا فيه من مَكْرُمَهْ[٣]

تكسبهم المتبذل أفقدهم منظومة القيم التي كان يعتز بها العربي لا سيما البدوي؛ والأقيشر لم يحفظ لعكرمة خيراً، ولم يحترم مواقفه تجاهه فسلبه كلَّ فضل فيه، فأي خزاية يريد إلصاقها بعكرمة وهو أحد أجواد الكوفة، وما رفض عكرمة الجواد إجابة الأقيشر في طلباته إلا دليل على إلحاح الشاعر عليه بالتكسب مما جعله يمله، ولم يعطه لكثرة تسآله، وقلة مروءته، ولم يعد يخشى لسانه الذي يهدد به الأجواد وغيرهم. وهذا التكسب المبتذل لم نكن نراه في البادية سابقاً، البداة الذين كانوا يصارعون قساوة الطبيعة بجدبها ومَحْلها معاً، ضمن التكافل

(١) الأغاني: ٢٦٦/١١

(٢) الأغاني:٢٦٦/١١

(٣) الاغاني: ٢٦٨/١١ - ديوان الأقيشر: ٧٤

الاجتماعي الذي يضمن للأفراد حقوقهم في الحياة، ومنهم الشعراء. ولكن المدينة في العصر الأموي بدأت تظهر نفسها ويجلوها الشعراء، بعد أن أحسوا بفرديتهم المطلقة فيها. ولذا لم نجد الأقيشر الأسدي يدافع عن أسد مثلاً، أو يفتخر بها. إنما يتكسب لنفسه ليضمن لها الحياة في ظل هذه المدينة الجديدة «الكوفة» التي لم ترض عنها الدولة بعد.

وفرق بعض المتكسبين بين السؤال والعطاء، فإن تكسب ليومه «بالسؤال» كان لا يتكسب الا ليوم، وقيل أن الأقيشر لم يتكسب بأكثر من خمسة دراهم، وإن أفاض أحدُ أصحابه عليه بالعطاء كان يرفض القليل منه [1]

ويروي الأصفاني أنه كان لا يتردد إلى رجال عودوه أن يجروا عليه دراهم معدودة في كل شهر، ولرزالته، وسوء مسلكه كان لا يعذرُ رجلاً- كان يجرى عليه في كل شهرعشرة دراهم - أن لا يعطيه في شهر لأنه وجده قد أصيب بابنه، فبدلاً من المواساة وردِّ الجميل إلى أهله، دفع رقعة اليه يتكسب منه:

ألا ابلغ لديكَ أبا هشامٍ فإن الريحَ أبردُها الشَّمالُ
عداتُك في الهِلال عداتُ صدقٍ فهل سَمِنتْ كما سَمِن الهلالُ

فأمر له بالمال، وزادها خمسةَ دراهم [2].

يبدو أن استجابة الناس إليهم كانت على أنهم شحاذون متصعلكون، وليس على أنهم شعراء يطلب بظرف ولباقة، وينوهون باسم الممدوح، ولكنهم ينوهون بحاجتهم فقط. وأرى أيضاً أن بعضهم وجد أن لا طريق مسموحة لهم في الحصول على الأموال الإ في السير بهذه الطريق؛ التكسب المبتذل، واتباع الهجاء، أو التذكير بأمره ومن هنا لم نر الأقيشر مثلاً اتصل بعبد الملك أو حاول ذلك الأمر، ولا بد أنه لم يكن مرضياً لدى الدولة، أو تيقن أن الدولة لا ترغب فيه، أو أن طموحه قعد به.

---

(١) الاغاني: ٢٦٤/١١

(٢) ديوان الاقيشر: ٦٤- ٦٥

واستغل الحكم بن عبدل الأسدي الكوفي عرجه، وتكسب بعصاه، حتى أنه ترك الوقوف بأبواب الملوك، وكان يكتب على عصاه حاجته، ويبعث بها مع رسله فلا يحبس له رسول، ولا تؤخر له حاجة، حتى كانت عصاه مثاراً لبعض الشعراء، ومنهم يحي بن نوفل فقال فيها:-

عصا حَكَمٍ في الدار أولُ داخلٍ ونحنُ على الأبواب نقصى ونحجبُ

وكانت عصا موسى لفرعونَ آيةً وهذي لعمرُ الله أدهى وأعجبُ

تطاعُ فلا تُعصى، ويحذر سخطُها ويرغب في المرضاةِ منها وترهبُ[1]

استغل الحكم عرجه حتى أنه لم يكلف نفسه عناء الوقوف على الأبواب إنما ترسل العصا، وهي حيلة رهيبة في التكسب، وعصا ابن عبدل تذكرنا ببطل مقامات بديع الزمان الهمذاني، حتى أن شوقي ضيف جعله مقدمة لادب الكُدية، وسابقاً على أبي دلامة [2] وما قاله شوقي ضيف ليس بمستبعد أبداً، بل إنه يجعلنا نعيش أجواء المقامات، وشعبية الفقر، ولكن ابن عبدل كان أكثر تركيزاً على الهجاء في التكسب، أما أبو دلامة فمدحه أكثر من هجائه، وبذا كان ابن عبدل يميل الى جعل المقطوعة أكثر سيرورة على اللسان، لتنتشر بسرعة كصاحبه الحزين. وبلغت حيل بعض المتكسبين مبلغاً آثار شجون أحدهم (الحكم) فسجلها شعراً. ويروي الأصفاني: «أنه ولي الشرطة بالكوفة رجل أعرج، ثم ولي الإمارة أخر أعرج، وخرج ابنُ عبْدلٍ وكان أعرج، فلقي سائلاً اعرج، وقد تعرض للأمير يسأله، فقال ابن عبدل:-

ألقِ العصا، ودع التخامعَ والتمسْ عملاً فهذي دولةُ العُرْجانِ

لأميرُنا وأمير شرطتنا معاً يا قومنا لكليهما رِجْلانِ

فإذا يكون أميرنا ووزيرُنا وأنا، فإنَّ الرابعَ الشيطانُ[3]

---

(١) الاغاني: ٢/ ٣٩٦، في البيت الثالث أقواء.

(٢) شوقي ضيف: العصر الاسلامي: دار المعارف: مصر: ط١٢: ٢٣٨

(٣) الاغاني: ٢/٣٩٨

فبلغت أبياته ذلك الأمير، فبعث إليه بمائتي درهم وسأله أن يكف عنه إذن ارتبط التكسب المبتذل بالعطاء المباشر. ولم تكن الظرافة وحدها وراء صنع الأبيات، ولكن كانت رغبة دفينة في نفس الشاعر لأخذ المال، ولذا لجأ إلى التعريض بالأمير. واستغل حاجته وعرجه في هذه القضية. وإذا كان الأقيشر قد رفض الانصياع في الفتوح فإن الحكم لم يشارك فيها لعرجه كما هو من الخبر التالي لما أراد عمر بن هبيرة أن يغزي الحكمَ بن عبدل الغاضري فاعتل بالزمانة، فحمل وألقي بين يديه فجرده فإذا هو أعرج مفلوج، فوضع عنه الغزوَ، وضمه إليه، وشخص به معه الى واسط فقال:-

لعمري لقد جردّتني فوجَدتني — كثيرَ العيوب، سيءَ المتجرَّدِ

فأعفيتني لما رأيتَ زَمانتي — ووفقتَ مني للقضاءِ المسدَّدِ (١)

وكان يلجأ الى الأمراء في أبسط الأشياء، فإذا منعوه لتفاهة الأمر هجاهم والويل والثبور لمن رده، كحاله مع محمد بن حسان التميمي، وكان على خراج الكوفة، فكلمهُ في رجلٍ من العرب، أن يضع عنه ثلاثين درهماً من خراجه، فقال: أماتني الله إن كنت أقدر أن أضع من خراج أمير المؤمنين شيئاً فانصرف وهو يقول هاجياً متندراً:

دع الثلاثين لا تعرضْ لصاحبها — لا باركَ اللهُ في تلك الثلاثينا

لما علا صوتُه في الدار مبتكرا — كاشتفان يرى قوماً يدوسونا

أحسِنْ فانك قد أُعطيتَ مملكة — إمارةً صرتَ فيها اليوم مفتوناً

لا يعطكَ اللهُ خيراً مثلَها أبداً — أقسمتُ باللهِ إلا قلتَ آمينا(٢)

إراد من المهجوِّ التلاعب بالخراج ولما رفض عامل الخراج الامتثال لرأيه ولم يضع له شيئاً عن الرجل، قال قصيدةً طويلة بلغت اسماعَ الناس حتى تمثّل بها المكاري وهو يسوق بغلهُ فيها:-

---

(١) الأغاني: ٤٠٨/٢

(٢) الأغاني: ٤٠٤/٢

رأيت محمداً شرهاً ظلوماً وكنت أراهُ ذا ورعٍ وقصْدِ
يقول: أماتني ربي خِداعاً أماتَ اللّه حسانَ بن سعدِ(١)

يبدو أن ابن عبدل لم يدرك مسؤولية عامل الخراج، وكأنه أراد التلاعب بالخراج وجباية الأموال، ولما لم تمتثل له السلطة ممثلة بمحمدٍ بن حسان راح يهجوها فالعفو لا يأتي من عامل الخراج، إنما يأتي من أمير المؤمنين نفسه.

وكان شرهاً شغوفاً بالمال، حتى تلعَّب به عبدُ الملك بن بشر والي الكوفة، لما جاء يسأله: فقال له: أخمسمائة أحب اليك الآن عاجلةً أم ألف في قابل، قال: ألف في قابل فلما أتاه قال له: ألف أحب اليك أم ألفان في قابل؟ قال: ألفان، فلم يزل ذلك دأبه حتى مات ابن بشر، وما أعطاه شيئاً »(٢)

جعل الحكم نفسه ألعوبة بأيدي الممدوحين، وأضحوكة للناس، خاصة تكسبه بعصاه حتى ترجل عنها، وهجته امرأة يوماً قائلة:-

سيخطئك الذي حاولتَ مني فقطِّع حبلَ وَصْلكَ من حِبالي
كما أخطأكَ معروفُ ابنِ بشرٍ وكنت تَعُدُّ ذلك رأسَ مالِ(٣)

واستجدى عمّار ذو كبار خالداً القسري، وعرض حالة للفقر الذي يمر به حتى أمر بالعطاء، مع أنه ليس ممن يجوز فيهم العطاء، ولم يبعث أحداً مكانه، فقال

أخلقت ريْطَتي وأودى القميصُ وإزاري والبطن طاوٍ خميصُ
وخلا منزلي فلا شيءَ فيهِ لستُ ممن يُخشى عليه اللصوصُ
واستحلَّ الأميرُ حبسَ عطائي خالدُ، إن خالداً لحريصُ
ذو أجتهاد على العبادة والخير ولكن في رزقنا تعويصُ
رخصٌ الله في الكتاب لذي العذرِ وما عند خالدٍ ترخيص
كلَّف البائسَ الفقيرَ بديلاً هل لهُ عنه معدلٌ أو محيصُ

---

(١) الاغاني: ٤٠٤/٢

(٢) الأغاني: ٤٠٦/٢

(٣) الاغاني: ٤٠٦/٢

العليلَ الكبيرَ ذا العرج الظا   لعِ، أعشى بعينه تلحيصُ
يا أبا الهيثم المبارَك جُدْ لي   بعطاءٍ، ما شانه تنغيص
وبرزقي فإننا قد رزقنا   من ضياع، وللعيال بصيصُ
كبصيص الفَرْخين ضمَّهما العشُّ   وغاذيهما أسيرٌ قنيصُ
وترى البيتَ مقشعراً قواءً   من نواحيه دَوْرقٌ وأصيصُ
وبجادٌ ممزَّقٌ وخوانٌ   ندرتْ رجلهُ وأخرى رهيصُ
ولقد كان ذا قوائمٍ مُلْسٍ   تؤكلُ اللحمُ فوقه والخبيصُ [١]

أبرز عمار تفاهة نظام العطاء، وطريقة توزيعه، وكيف استغل الأمراءُ العطاء لصالحهم فإن كان ربُّ العالمين أعطى الترخيص لاصحاب العاهات - وعمار منهم- فإنه أولى بالعطاء من حبسه عنه لصالح الوالي أو لخزينة الدولة. وطلب منه إعادة الرزق والعطاء معاً، وأبرز صورة بيته الخاوي، حتى جعل خالداً يأمر له بإعادة العطاء.

وما دام عمار صاحب خمرة إذاً فله في الجهاد رأي كما نرى، ولم يمنع عنه العطاء فقط لأنه لم يشارك في الفتوح أو ينتظم في الجندية فقط، انما لأنه كان صاحب خمرة كما يفهم من الرواية: «على ماذا تقبض العطاء ولا غناء فيك عن المسلمين، وما يعطاه كان يتلفه في الخمر وسوء المسلك».

رغبة عمار في الحياة جعلته يقف أمام عاصم بن عقيل المخزومي يطلب منه كسوته فقال:

اكسُني أصلحك اللّـ   ـهُ قميصاً وصقاعاً
وأرحني من ثيابٍ   بالياتٍ تتداعى
طال ترقيعي لها حتّـ   ـى لقد صارت رِقاعاً
كلها لا شيءَ فيها   غير قملٍ تتساعى
لم تزل تولي الذي ير   جوك، براً واصطناعا

---

(١) الأغاني: ١٩١/٢٤

فنزع عاصم جبة كانت علية، وأمر غلامة فجعل تحتها قميصاً ودفعها إليه وأمر له بمائتي درهم.[١]

وكان لعمار صاحب الاتجاه المبتذل في التكسب دور كبير في تطور القصيدة الاقتصادية- إن جاز التعبير - فالشاعر المتكسب عنده لا يحتاج إلى مقدمة ينهج فيها نهج القصيدة التقليدية، إنما يطلب العطاء أو حاجته مباشرة، وبإلحاف دون مقدمات. وإن كان يتوقع اعراضاً عن الاستجابة فإنه كان يلحف كثيراً في طلبه، ويميل إلى الإغراب حيناً، وإلى الإضحاك حيناً آخر، وفي الوقت ذاته لا يميل إلى المقطوعة، وإنما يميل إلى القصيدة كحال (عمار ذي كبار)، وهو يصف لبسه وقميصه وبيته الخالي، وخوانه المجدب، ولا يخلو طلبه من جرأة على المتكسب منه، فلم يعتمد اللباقة في حديثه مع الأمير، ولم يختر ألفاظه البلاغية الفخمة،ولغته تكاد تقترب من العامية لبساطتها، ويحاور أميره، وخلال المحاورة يرد على اعتراضات القسري.

ويبدو أنه كانت للمدن والاستقرار فيها، وانتشار بعض من العادات الغريبة التي أصبحت معهوده دور في ظهور التكسب المبتذل للوجود ولذا لا نجد في الغالب هذا النوع من التكسب المبتذل بالهجاء، إلا في الحجاز المتمدن، والعراق المتحضر، وخصوصاً الكوفة، ولا يشيع إلا بين المترفين الذين يبحثون عن المال والترف والمدنية ويسعون إليها بحسهم الشاعري. فهذه الخلخلة الاجتماعية، والتطور الحضاري في المدن، وشيوع الخمرة والمجون في كل من الكوفة والحجاز، وسائر المدن الكبرى في الأمصار الاسلامية، جعلت ابناءها يقبلون على احتسائها. وفي سبيلها تنازلوا عن كراماتهم، وعن سلّم القيم، وقد تعود الناس في مرحلة ما من مراحل الفتح الاسراف. ولما لم يجدوا المال حيناً في حياتهم، كان لا بد من التكسب لوجودها، وكان كثير منهم قد استقر في المدينة، وكان مسجلاً في ديوان الجند، ويأخذ عطاءً مقابل ذلك، وتجري الأموال بين يديه، ولا حاجة به إلى التكسب فإن لم تكف الأموال حاجاته الأساسية لجأ الى التكسب.

---

(١) الأغاني: ٢٤/ ١٩٢، الصقاع: كل ما يقي الرأس من العمامة أو الخمار.

وأخيراً فالتكسب ظاهرة من ظواهر الحياة الاقتصادية في العصر الأموي، ارتبطت بالمجتمع والسياسة، ومن عوامل وجودها الفقر والغنى والحضارة، فهذه الأسباب مجتمعة شكلت ظاهرة التكسب. فبعض البداة اعتبروا متبدين ولم يعتبروا من المهاجرين، فحرموا العطاء والرزق، بل أخذت منهم صدقاتهم ليوزعها الخليفة كما يشاء فإذا قدم البدوي المدينة هاله فرق المستوى المعيشي بين البادية والحاضرة، وقد حرم بعض الكسب بسبب هذا الدين- حيث طريق الغزو والنهب. فلجأ الى التكسب فعرف التكسب، في البادية، وصار بعضاً من سماتها. أما من أترف واستقر في المدن او الحواضر ، وخالط الأعاجم، خاصة فرس العراق، واعتاد اديرتهم و حاناتهم، التي كانت شيئاً مألوفاً في نظام حياتهم فلم يجد غضاضة في التكسب لإشباع رغباته الحسية فظهر الكثيرون من أبناء الكوفة كالأقيشر والحكم وعمار، وأبو جلدة اليشكري وحارثة بن بدر ممن استقر في خراسان، فلجأوا إلى التكسب لإشباع مجونهم ونهمهم لسد شهواتهم. وبالتالي تكون الخمرة وشعرها في بعض حالاتها حالة اقتصادية. ولجأ بعض المتكسبين إلى حيل في التكسب، فإن تكسبَ الحكمُ بعصاه يوماً، فقد تكسب الأخضر اللهبي (الهاشمي) في الحجاز لحماره، حتى كتب أحدهم «قصة حمار اللهبي».[1]

---

(١) الأغاني: ١٦/ ١٩٠.

الفصل الرابع

أثر الحياة الاقتصادية في شعر الفتوح

الفصل الرابع

أثر الحياة الاقتصادية في شعر الفتوح

كان للفتوح دور في إبراز الطابع الاقتصادي فيما قاله الشعراء في اتجاهاته المختلفة، فقد عني بعض الشعراء بهذا الأمر عند الخلفاء، والولاة، وبعض الفاتحين المشهورين، وذلك لتصوير الجهاد والحث عليه، وذكر نتائجه وكان بين الفاتحين شعراء أسهموا في ذلك النوع من الجهاد.

وأبرزت الفتوح عدة ظواهر شعرية ذات ملمح إقتصادي، ومن ذلك ما جاء في العلاقة بين الرعية والراعي، بين الجند والقائد. وصوّر الجند قساوة البيئة التي لا ترحم، وقساوة الحصار والفتح، ومعاناة الجوع والمرض وعلى قمة اهتمام شعراء الفتوح الغنائم والفيء والعطاء. وصوّروا الغربة ومخاطرها، والحنين الى الوطن، والصراع على مصادر الغذاء.

وقد برز الملمح الاقتصادي في شعر الجند في لونين من شعر الفتوح؛ لون كانت فيه الجوانب الدينية الجديدة مع الأمل في الكسب ماثلة، ولون طغت فيه جوانب الكسب على الجوانب الأخرى.

وظهرت في اللون الأول من شعر الفتوح صورة الإنسان العربي المنطلق الذي تجاوز الفيافي والجدب والقحط، وحرارة الجو في الجزيرة العربية الى عوالم جديدة لم يعهدها في بلاده. ويحمل فكراً جديداً فيه حياتهم وبقاؤهم، يطلقون فيه الغزو والنهب واستياق الإبل طمعاً في البقاء، لتصبح غزواتهم منظمة وهادفة، وليست عبثية وظالمة، فيها البقاءُ الأبدي ورضا الله. فألحوا على طلب الشهادة والأجر الديني وانطلقت جيوشهم تدك عروش الروم والفرس أولاً، ثم انطلقت إلى خراسان والهند والاندلس والصين وما وراء النهر لتكون الغلبة لهم، غير آبهةٍ بقوة أخرى

ستعترضه فقال أحد الجند :-

سأغزو التُّركَ في نفرٍ كرامٍ سراعٍ حين نُدْعى للضّرابِ
يرَوْن الموتَ أفضلَ من حياةٍ تصيُّرها الدهورُ إلى تبابِ
وفي الأيامِ لي عظةٌ وناهٍ وما أرضى معاتبةَ الكَعابِ
فيا ليت السيوفَ تعاورتني بأيدي معشرٍ كأسود غاب
فألقى الموتَ مشتهراً فَعَالِي ولم تَدْنَسْ بمخزيةٍ ثيابي
وكُفِّي طَلّتي وتجنبيني وكلُّ العيشِ ويحكِ للذهاب
وقد أغدو أقودُ إلى المنايا فتوّاً زجرُهم بَهلٍ وهابِ
إذا ما عاينوا موتاً زؤاما تمشُّوا مِشيةَ الإبلِ الطِّرابِ
رجاءً أن تصيبَهُمُ المنايا فينجوا من أليمات العقابِ[١]

وأصرَّ جروةُ بن يزيد الطائي على موقفه من الاستمرار في الجهاد وخوض المعارك، وركوب المخاطر في سبيل الله، بينما ظلت زوجته تلومه على استمراره في هذا الطريق الشاق لكبر سنه، فقال :

تلوم حليلتي بالغزو جَهْلاً وغيرُ الغزو أولى بالملام
ولولا الغزو كنت كمن يُغادي بأنواع الشَّبارقِ والمُدامِ
قليلَ الهمِّ يزهد في المعالي ويرضى بالقليل من الطعامِ
فهميَ غيرُ همِّك فاتركيني وغزوي إنه همُّ الكرام[٢]

ونجده أكثر حزماً وإصراراً على الجهاد كلما تقدم به السنُّ، لأنه يعرف هدفه وقد جدَّ في طلبه، وخاف أن يموت دون شهادة في ساحة الوغى فقال :

لعمري وقد جاوزتُ تسعينَ حجَّةً وتسعين أرجو أنْ أُعمَّرَها غدا
فما زادني صبري على ما ينوبني من الدّهر ضعفاً لا، ولا كدَّ لي زِندا

---

(١) أبو حاتم السجستاني : المعمرون والوصايا : تحقيق عبد المنعم عامر – دار احياء الكتب العربية – القاهرة ١٩٦١: ٦٩–٧٠، الطلّة: الزوجة، الكعاب: المرأة.

(٢) ابو حاتم السجستاني : المعمرون والوصايا : ٦٨، الشبارق: الطعام.

وأرجو وأخشى أن أموتَ ولم أُلَمْ   تُخدِّعُني بيضٌ ضربنا بها السُّغدا

أذلت لنا أركانهمُ بعد عزّةٍ   وكانوا أباةً حين تعْلَقُهُمْ صُمُدا

فلا تهزئي منّا ولا تتعجبي   فلستُ أرى ممّا قضى اللهُ لي بُدّاً[1]

فقرار الجهاد قرارٌ حاسمٌ لا رجعة فيه، ينطلقُ من رؤية واضحةٍ أن الجهاد في سبيل الله، والحصول على الأجر الأخروي لا يتعارض مع كسب الغنائم وجلبها أبداً، وهذا ما اعتز به الشاعر وهو يصفُ الجنود الذين حازوا الأمرين :-

يرون عليهم للهِ حقاً   مقارعة الطماطمةِ الطّغام

يريدون المثوبة من إلهٍ   بصيرٍ تحت قسطالِ القتام

وكلهم يرادي الترك قدماً   ويحوي منفساً في كل عام

ويرجو الله لا يرجو سواهُ   وراجي الله يرجعُ بالسلام[2]

ووصف أبو الهندي ما حلَّ بجيش الأعادي على يد القائد أسد القسري في وقعة سانٍ فتركوا عدداً من القتلى ضمن مساحة مكانية كبيرة، تحول بها الجند المسلمون الى سباعٍ وعقبان جارحة، وكانت نهايةُ الأعداء قتلى وفلولاً وأسرى :

فكمْ من قتيلٍ بين سانٍ وجزّةٍ   كثيرِ الأيادي من ملوك قماقمِ

تركت بأرض الجوزجان تزوره   سباعٌ وعقبانٌ لحزّ الغلاصمِ

وذي سوقة فيه من السيف خطةٌ   به رمقٌ حامتْ عليه الحوائم

فمن هاربٍ منّا ومن دائنٍ لنا   أسيرٍ يقاسي مبهماتِ الأداهمِ[3]

صوّر الشاعرُ عظمة جيش الفتح وهم يدخلون الأدغال، ويتحملون صعوبات الطريق ومشاق القتال، ويصفدون الملوك الأبطال، وتدين الأرض لهم، وتُحوِّم العقبان والسباعُ في أرض مسرح القتال لتنهي اللقاء بين قوتين تتصارعان وهم يتفوقون على أعدائهم في طريق بناء الدولة العربية الاسلامية الجديدة القوية.

(١) ابو حاتم السجستاني : المعمرون والوصايا : ٧٠.

(٢) ابو حاتم السجستاني : المعمرون والوصايا : ٦٩

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ- دار بيروت ودار صادر، ط١، ١٩٨١، ٥/٢٠٦ - ٢٠٧، الطبري : ١٢٧/٧

ليملكوا الدنيا من قرنيها ولتكون الحياةُ لهم، لا لغيرهم. وكان ثابت قطنة أجمل وصفاً للمعركة التي دارت بين الجيش الاسلامي بقيادة أسد القسري في ولايته الأولى على خراسان، والجيش المعادي في (الغَوْر والغورين من هراة) والخُتَّل من وراء النهر، فأثنى الشاعرُ على القائد حين هجم على الأعداء، وقد فرّوا مخلفين وراءهم قتلى، وأموالاً تملأ الشعاب فقال :

أرى أسداً تضمَّن مُفظعاتٍ تهيَّبُها الملوكُ ذوو الحجابِ
سما بالخيلِ في أكنافِ مروٍ وتوفُزُ هُنَّ بين هلا وهاب
إلى غورين حيثُ حوى أزبٌ وصَكَّ بالسيوف وبالحرابِ
هدانا اللهُ بالقتلى تراها مُصلَّبةً بأفواهِ الشِّعابِ
ملاحمُ لم تدعْ لسَراة كَلْبٍ مهاً ترةً ولا لبني كلابِ
فأوردها النِّهابَ وآب منها بأفضل ما يُصابُ من النّهابِ
وكان إذا أناخَ بدار قوم أراها المخزيات من العذابِ
ألم يُزرِ الجبالَ جبالَ ملْعٍ ترى من دونها قطعَ السَّحابِ
بأرعنَ لم يدعْ لهمُ شريداً وعاقبها الممضَّ من العقابِ(١)

وتحدث الشعراء الجند عن ساعات اللقاء بين الجيشين الاسلامي والمعادي، وكان يوم (أبي حزوان) ويوم (أسراب) من أشدِّ أيام اللقاء ضراوةً بين الجيشين، وقد استشهد فيه الجرَّاح الحكمي، وأسندت الرايةُ إلى سعيدٍ الحرشيِّ، فوصف أحدُ الشعراءِ جيشَ الخزر، وهو يرتب الطراخينَ، ويستعد بكامل عتاده وقوته لملاقاة المسلمين، وكأنه الزحف الأكبر :

وأنت يومَ أبي حزوان إذ رجعتْ فيه الطراخين ذو نقضٍ وإمرارِ
لقيتهم بليوثٍ في اللقاءِ وقدْ وافوْا بأرعنَ بادي الزمِّ جرَّارِ
فجستهم جوْس قرْمٍ ما يقيلُهمُ بالخيل تنقضُ أوتاراً بأوتارِ
فهم يولُّون والفرسانُ تضربهم بكلِّ عضْبٍ شديدِ المتنِ بتّارِ(٢)

---

(١) الطبري : ٧/ ٤١ المفظعات : الشدائد من الأمور. التوفز: الوثوب. الأزب : الداهية. ملْع : من جبال خوط ، الأرعن : الجيش الكثيف : الممض : المؤلم، الغور: من جبال هراة.

(٢) ابن عساكر : ص ١٦٦/٦

استطاع القائدُ أن يسحقهم بالخيول المقاتلة والفرسان المحلقة فوقها، تصول بسيوفٍ ماضية شديدة القطع، تترك أثراً في أجسامهم، ولكنهم عادوا في اليوم التالي بعددٍ أكثر، وعاد المسلمون بإيمانٍ أكبر بقضيتهم، وأبرز الشاعرُ شجاعة جيش الفتح وقادته في مواجهة قوة العدو :

ويومَ أسرابَ إذْ جاشت جموعهمُ — وأسعروا نارَ حربٍ أيَّ إسعارِ
وأقبلوا كالتماع البرقِ بيضهمُ — لهم عصارٌ تراه بعد إعصارِ
فسرتَ بالخيل والراياتُ تقدمُها — بخيرةٍ من عباد الله أخيارِ
أمدَّك اللهُ ربُّ العالمين بهم — مسوَّمين أمامَ الناس أنصارِ
فأهلك اللهُ جَمْعَ الشِّركِ إذ رجعوا — على يديك وأخزى كلَّ كفّارِ [1]

أبرز قوة تحمُّل الجند وخشونتهم في الحرب المدمرة التي يخوضونها مع أعدائهم وراحوا يذللون أمامهم كلَّ عقبةٍ كؤود، مدعومين بقوة إلهية، يدمرون الشرك ودولته، ويستولون على مقدراته الاقتصادية من غنيمة وسبي، وكانت المواجهات ضخمة في بداية الفتوح، وكانت التضحيات كبيرة، بل وحزينة، عانوا الجوع والحرمان والقتل. ولكن ليس مهماً، ما داموا يبنون دولتهم الجديدة. وصوَّر الشرعبي الطائي اللقاء بين جيش الفتح، وجيش خاقان الذي بلغت عدته سبعين الف مقاتل نشروا الموت في كل مكان؛ سبوا المسلمات وقتلوا رجالهن الأشاوس. وظهرت في النص صورةُ امرأةٍ يجرُّها صُغْدي قاسي الملامح، جهمُ الوجه، وهي تستغيث، فزعة، مُروَّعة، وليس من مغيث، وغاب صوتها في الآفاق البعيدة وقد ملأ الرعبُ قلوب المسلمين حتى اتسعت له :

بلادٌ بها خاقانُ جمٌّ زحوفهُ — ونيلانَ في سبعين ألفاً مقنَّعُ
إذا دبَّ خاقان وسارت جنوده — أتتنا المنايا عند ذلك شُرَّعُ
ألا ربَّ خودٍ خَدْلَةٍ قدرأيتها — يسوقُ بها جهمٌ من السُّغدِ أصمعُ
أحامي عليها حين ولّى خليلها — تنادي إليها المسلمين فَتُسْمعُ
تنادي بأعلى صوتها صفَّ قومها — ألا رجلٌ منكم يغارُ فيرجعُ

(١) ابن عساكر : ١٦٦/٦

ألا رجلٌ منكم كريم يردُّني يرى الموْت في بعض المواطن أنفعُ

فما جاوبوها غير أنّ نصيفها بكفّ الفتى بين البرازق أشنعُ

إلى اللّهِ أشكو نبوةً في قلوبها ورعباً ملا أجوافها يتوسَّع [١]

صورة عظيمة للزحف الاسلامي، يؤكد فيه الشاعر صدق انتماء الجنود الفاتحين، ومدى تضحياتهم في بناء الحضارة العربية الاسلامية، وهم يفتحون البلاد. وتدور المعارك الضخمة بين القوتين، ولما تستتب الأمور بعد لتقوم حياة آمنةً مليئةً بالهدوء، والدَّعة، والتنظيم،وتسود حياة إقتصادية مترفة، فهي تصور العربيَّ المنطلق لحياة أرحب،و وهو يتحمل الخشونة ومشاق الجهاد في سبيل بناء الدولة الإسلامية. فالصورة الاقتصادية في النص خفيَّة غير مباشرة تتمارى في صورة الجهاد والفتوح، والقيم السامية، والتضحيات التي قدموها في سبيل الإسلام والمسلمين، ومنها التضحيات الاقتصادية. وإذا ساور الجنود القلقُ أو الراحةُ أو اليأسُ من الوصول إلى الهدف المنشود، فإنهم يتشوقون إلى بلادهم التي خرجوا منها مدفوعين بدافع ديني، وقد يرافقه دافع اقتصادي، ولذا برز شعور الحنين إلى الوطن في شعر الجنود، وكان مالكُ بن الرَّيْب أكثرهم شوقاً إلى بلاده وخاصةً حين تراءت له قباب الترك، وهدلت الحمامة، تذكرً أهله وهم يبدون ويرحلون فقال :

تذكِّرني قبابُ التركِ أهلي ومبداهم إذا نزلوا سناما

وصوتُ حمامة بحبال كشٍّ دعتْ من مطلع الشمس الحماما

فبتُ لصوتها أرقاً، وباتتْ بمنطقها تراجعُنا الكلاما[٢]

فصورةُ القباب تشاكه صورة الخيام في المبدى، وفي ذا إشارة إلى نظام حياتهم الاقتصادي الأول، وعدم اتفاقه مع النظام الاقتصادي للمدن التي دخلوها في بلاد الترك، وقد أنشأوا المدنية فيها، ومنها القباب.

---

(١) الطبري : ٨٥/٧

(٢) نوري القيسي : شعراء أمويون، ١٥/١

لقد تسلل الحسُّ المأسويِّ إلى شعراء الفتوح، وتمنى بعضهم انتهاء القتال، وبعثَ القعقاعُ بن مسلمة العبسيّ، وكان مع مسلمة بن عبدالملك في حصار القسطنطينية إلى الخليفة سليمان بن عبدالملك رسالة شعرية، يشكو إليه الضرُّ والجوع الذي أصاب المسلمين فأكلوا الدواب لدفع الموت في فتح طُوانة، وتمنى على القائد الفزاري عمر بن هبيره قائد الأسطول البحري أن ينهي الحصار رحمةً بالمسلمين فقال :

فابلغ أمير المؤمنين رسالةً ... سوى ما يقول اللوذعيُّ الصمحمحُ

أكلنا لحوم الخيلِ رطباً ويابساً ... وأكبادنا من أكلنا الخيل تفرحُ

ونحسبها حول الطُّوانةِ طُلّعاً ... وليس لها حول الطُّوانةِ مسرحُ

فليت الفزاريَّ الذي غشَّ نفسه ... وغشَّ أميرَ المؤمنين يبرحُ[1]

رأى الشاعر في حصار طُوانة موت المسلمين لا محالة، وفناء الدولة الإسلامية، وانتقد القائد الفزاري الذي يحاصر طوانة، ويستمر في قهر الناس على القتال غير المجدي وكان حصاره وبالاً على المسلمين،وبدلاً من أن يجلب القائدُ الغنائم للدولة والمقاتلين، أنزل الضرَّ والجوع بالمسلمين صورة مؤذية للجوع الذي حل بالمسلمين، إذا أكلوا لحوم الخيل.

وذهب بعض الشعراء إلى ذكر معاناة الأسر التي عاناها في حبسه، فعدَّ الليالي التي أمضاها في سجن الأعداء أرقاً مهموماً، وقد يئس من العودة إلى بلاده سالماً غانماً، فحنَّ إلى أهله، وتذكر يوم خرجت نساءُ قومه يودعنه وأصحابه في رحلة الفتح، يبكين، وما زلن ينتظرن عودتهم وخلاصهم فقال بقيلةُ الاشجعي:

أرقتُ وبان عنّي منْ يلومُ ... ولكنْ لم أنَمْ، أنا والهمومُ

كأنّي مِنْ تذكُرِ ما ألاقي ... إذا ما أظلم الليلُ البهيمُ

سليمٌ ملَّ منه أقربوه ... وودَّعه المداوي والحميمُ

وكمْ بين العقيق إلى المُصلّى ... الى أُحُدٍ إلى ما حاز ريمُ

---

(١) ياقوت الحموي / معجم البلدان : طُوَانة

إلى الجمّاءِ من وجهٍ أسيلٍ نقيِّ الخدِّ ليس به كلومُ
يضيءُ دجى الظلام إذا يراه كضوءِ البدر منظره وسيمُ
ولمّا أنْ دنا منّا ارتحالٌ وقرِّبَ ناجياتُ السَّير كومُ
أتينْ مودِّعاتٍ والمطايا علا أكوارها خوصٌ هَجوم
فقائلةٌ ومثنيةٌ علينا تقول، وما لها فينا حميمُ
وأخرى لبُّها معنا، ولكن تَستَّرُ وهي واجمةٌ كظومُ
تعدُّ لنا الليالي تحتصيها متى هو حائنٌ منّا قدومُ
متى ترَ غفلة الواشين عنّا تجُدْ بدموعها العينُ السَّجومُ (١)

يعيش الشاعرُ عذاب الأسر وهمومه ويتمنى العودة الى بلاده وارتبط بها ارتباطاً وثيقاً، ظهر ذلك في الحنين الذي أبداه تجاهها،والحزن على حالته وحالة الجيش الذي انطلق من الجزيرة العربية من أجل رحلة البناء والفتح، فودَّعتهم النساء، ولكنَّ الغيبة طالت على الجميع، وكأن الشاعر لم تعجبه هذه البلاد، فحنَّ إلى بلاده ونساءِ أهله اللائي ودَّعنه، وودعن الجيشَ المهاجر للجهاد بدموع سجوم؛ الجيش الذي سيعود بالنصر والغنائم، ولكن الأسى والجدب كان يواجه الشاعر والنسوة، فلا وصال، ولا لقاء ولا رجوع ولا غنائم وكأنه يعبر عن الخسارة العامة، ومنها الخسارة الاقتصادية، والتي تظهر بصورة غير مباشرة.

٢- وظهر لونٌ ثانٍ من شعر الفتوح، طغت فيه جوانب الكسب على الفتوح، والجهاد، قد تشتد عند بعضهم فيرفض التجمير، بل يرفض الاشتراك بالفتوح؛ لأنها لم تقدم له ما كان يطمح اليه من آمال مادية، ولذا قد يطلب العودة إلى بلاده، أو إيقاف الفتوح، وقد يشكو الضيق الاقتصادي، أو يعترض على توزيع الغنائم والفيء ويرى أن الغنائم من حقه، وحق الجيش الذي حضر الوقيعة. وروي الطبري في حرب (كُرْدَرْ) : أنه لما ارتدّ أهل كرْدر، وقاتلهم المسلمون او ظفروا بهم، وقد كان الترك أعانوا أهل كردر على المسلمين، فوجّه أشرسُ إلى من قَرُبَ من كردرْ من

(١) أبو علي القالي / ذيل الأمالي : دار الكتاب العربي - بيروت، ص ١٩ الخوص: ورق النخل، الهجوم: السريع الهجوم؛ السجوم : السيل القليل والكثير الدمع.

المسلمين ألف رجلٍ ردءاً لهم، فصاروا إليهم، وقد هزم المسلمون الترك، وظفروا بأهل كردر. فقال عرفجةُ الدارميُّ مذكراً بالغنائم، وطريقة توزيعها:

نحن كفينا أهلَ مروٍ وغيرهم ونحن نفينا التركَ عن أهل كُرْدَر

فإنْ تجعلوا ما قد غنمنا لغيرنا فقد يظلم المرءُ الكريمُ فيصبر(١)

رأى عرفجةُ : أن الغنيمة حقٌ لهم، وليس من حق الجند الذين لم يقاتلوا الترك وأهل كردر، بل ربما رأى أمراً أخطر من ذلك، هو أن الغنيمة كلّها لا تكون إلا فيهم. وربما رفض أن يُرسلَ جزءً من الغنائم إلى بيت المال المركزي فيوزع على المفترضين بالعطاء، رفض ذلك لأنهم لم يشاركوا بالفتح مباشرة ما زالت النظرة الأعرابية ماثلة في أذهان بعض الجند والشعراء الجند إذ كانو ا يرون الفتح غزواً ونهباً فقط.

وأشار الشعراءُ الجند الى كثرة الغنائم التي أحرزها الفاتحون والجند معاً، من خلال افتخارهم ببعض خلائق الأبطال أو بأنفسهم، وهم يحاصرون القلاع والحصون، ويحوون ما بداخلها، وقال كعب الأشقري يمدح قتيبة بن مسلم :

كلَّ يومٍ يحوي قتيبةُ نهْباً ويزيدُ الأموالَ مالاً جديداً

باهليٌّ قد ألبسَ التاجَ حتى شابَ منه مفارقٌ كنَّ سودا

دوَّخَ السُّغدَ بالكتائبِ حتى ترك السُّغْد بالعَراءِ قعودا (٢)

ارتبط الخير باسم البطل (قتيبة بن مسلم)، يغزو ويغير على السغديين، ويحوي أموالهم، وكأن الغنيمة هي هدف الفتح برأيه، ورأى كعبٌ في الفتح نهباً، ورأى الفتوح مالاً جديداً يضاف إلى أموال الفاتحين، والجند، والدولة، ولم يبرز كعب الفتح فتحاً دينياً خالصاً، أو على أنه صراع بين الإيمان والكفر فقط، انما هو صراع على المقدرات الاقتصادية إلى الجانب الديني. فافتخر بقتيبة الذي جعل السغدَ قعوداً فقراءَ لا يملكون المال. واستنكر نهار بن توسعة أن يكون هناك خير وغنى بعد موت المهلب بن أبي صفرة، وكان ابن توسعة أكثر الشعراء دهشة واعجاباً بقتيبة بن مسلم أيضاً الذي افتتح خوارزم وسمرقند وحوى أموالهم فقال:

(١) الطبري: ٦٦/٧

(٢) الطبري: ٤٧٩/٦، وانظر ٥٦/٧

ولا كان مذكُنًّا، ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مُسْلمِ
أعمّ لأهلِ التُّرْكِ قتلاً بسيفهُ وأكثر فينا مقسماً بعد مقسمِ (١)

فالغنائم وفيرة، هذا ما كان يعجب الشاعر نهار بن توسعة. وإذا كان نهار قد استنكر يوماً ان يعيش الجود بعد المهلب، فإن الشاعر خلف الأقطع كان له بالمرصاد، مدح القائد الجديد نصر بن سيَّار، وأبرز أنه لا يقل كرماً وجوداً على الشعراء، والجند من المهلب :

نهارُ أماتَ الجود حيناً ولم يكنْ لصاحبنا علم بما في المغيَّبِ
لقد رجع الغازون واستؤنف الغنى بنصرٍ، وعاش الجودُ بَعْدَ المهلَّبِ(٢)

وارتبطت شخصية الفاتح بالغنيمة حيناً، والجود حيناً آخر عند نفرٍ من الشعراء وهذا ما جعل الفتوح تبرز مجالس التكسب لا وصف البطل والبطولة من أحد الشعراء الجند، وقال الكميت بن زيد الأسدي يصوِّر غنائم يوم بيكند :

ويوم بيكندَ لا تحصى عجائبهُ وما بخاراءُ مما أخطأُ العددُ (٣)

عرف المهالبة بالجود والعطاء، واستقطبوا الشعراء من الشام والعراق والجزيرة مضريهِّم وبكريِّهم وأزديِّهم، فوفد عليهم الطرماح بن حكيم الطائي والكميت بن زيد الأسدي والفرزدق، وحمزة بن بيض وغيرهم. وكان لهم شعراء خاصون يمدحونهم ويفيضون عليهم مثل كعب الأشعري، وزياد الأعجم ونهار بن توسعة وغيرهم أيضاً.

أبرز شعراء المهالبة صورة الفاتح الذي يحيي الجود، وينشر الغنى، ويقتل الفقر، فيتقدم الجيوش، ويهجم على حصون الأعداء، فيقتل رجالهم ويسبي نساءهم، ويحوي أموالهم، ويقسمها على صحبه والجنود، كما أبرزه الشاعر بقوله :

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان: تحقيق احسان عباس، دار الثقافة- بيروت- ١٩٦٩، ٨٧/٤ انظر الطبري ٤٧٩/٦، نهار بن توسعة هو أشعر بكر بخراسان، ويظن أنه بصري المولد والمنشأ، رثى المهلب بن أبي صفرة، وشهد مع الجنيد بن عبد الرحمن المرّي موقعة الشِّعب بسمرقند، وأعجب بشخصية قتيبة بن مسلم فيما بعد.

(٢) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات : تحقيق سامي مكي العاني، مطبعة العاني بغداد- ١٩٧٢: ٣٨٦-٣٨٧، وانظر الطبري ٤٧٨/٦.

(٣) الكميت بن زيد : ١٥٤/١، انظر ١٥٣/١ الطبري ٤٣٢/٦

يهبُ الحصونَ بأهلها لصديقه   وجيادَ كلِّ مُقلّصٍ سبّاحِ [١]

وأظهر كعب الأشقري صورة الفتح، وأثره في تمجيد الشخصية الاسلامية الممدوحة وأبرزت الفتوح بعض الشخصيات؛ ولاةً وقادةً، وقد تجمع حولهم عدد من الشعراء، حتى نافسوا الخليفة في ذلك، أو الحجاج المسؤول الأول عن تسيير الفتوح إلى جهة خراسان وما وراء النهر فقال :

ترى ذا الغنى والفقرمن كلِّ معشرِ   عصائبَ شتىً ينتوون المفضلا

فمن زائرٍ يرجو فواضلَ سيبهِ   وآخرَ يقضي حاجةً قد ترحّلا

إذا ما انتوينا غير أرضك لم نجدْ   بها منتوى خيراً، ولا متعللا [٢]

فأصبح مأمَّ الأغنياء والفقراء وذوي الحاجات لكثرة عطائه، ويبدو من النصوص التي قيلت في المهالبة أنهم قد جعلوا للشعراء وذوي الحاجات نصيباً من الغنائم يتالفهم بها، فطمع الشعراءُ في عطاياهم، فقصدوه شعراء متكسبين، أو مدحوه شعراء بلاط إعلاميون، أو اعتز به شعراء جند، نالوا منه ما نالوا فافتداهم كعب الأشقري، وفضلهم على الولاة الآخرين الذين رضوا بالإشراف على الزراعة، والقيام بالإصلاحات الزراعية في العراق، بينما المهلب يغزو ويغير على الاعداء، ويوطدُ أركان الدولة الإسلامية الفتية،ويجمع الأموال :-

فدىً لكم آلَ المهلّب أسرتي   وما كنت أحوي من سوامٍ وأجمعُ

فليس امرؤٌ يبني العلابسنانهِ   كآخر يبني بالسَّوادِ ويزرعُ [٣]

وكأن كعب الأشقري هنا يعرّض بالحجاج بن يوسف الذي تصله أموال الفتوح من خُراسان وما وراءها، يمصرُ بها المدن، ويقيم الجسور والقناطر، ويسد البثوق، ويعنى بالإصلاحات الزراعية. ونسي كعبُ أن دور الحجاج لا يقل أهميةً عن دور المهالبة في بناء اقتصاد الدولة الفتية، والإشراف على تسيير الجيوش، جيوش الفتح والأمن معاً، والعناية بالأمور الداخلية للدولة من أمن داخلي، وتقدم

(١) ابن أعثم/ الفتوح : دار الندوة الجديدة - بيروت - لبنان - ط١ : ٢٩٦/٧

(٢) نوري القيسي: شعراء أمويون، ٤١٤/٢ الطبري ٣٩٨/٦

(٣) نوري القيسي : شعراء أمويون، ٤١٠/٢

اقتصادي. ولكن رغبة كعب في عطايا المهلب، وغنائم الفتح رأت أن مسؤولية المهلب أكبرُ من مسؤولية الحجاج أو غيره، وقيمه السامية التي يتمتع بها أعلى من قيم الولاة الآخرين، ولذا نجده في موقف آخر يبرز دور المفضّل بن المهلب في القضاء علىْ السغديين وسبي نسائهم واقتسام أموالهم :-

لو كنتِ طاوعت أهل العجز ما اقتسموا   سبعين ألفاً، وعزُّ السُّغد مؤتنَفُ

وفي سمرقند أُخرى أنت قاسمُها   لئن تأخرٌ عن حوبائك التَّلَفُ (١)

وظلت صورة إباحة الحمى ومصادر الماء والكلأ في ذهن الشعراء حاضرة يرون فيها نصراً عزيزاً يضاف إلى فتوحاتهم :-

لعمري لقد صال المفضّلُ صولةً   أباحتْ بشومان المناهلَ والكلا (٢)

وكان غذاء الجند، وعطايا الناس، مرتبطة بصولات القائد.

وأصبحت الفتوح مركزاً للثراء، ومجالاً خصباً للتكسب، فاقيمت مجالسه، وتجمع الشعراء حول الفاتحين مما ساعد في إدخال الشعراء إلى منطقة الأعلام للانضمام إلى القادة والمدافعة عنهم حتى وهم يثورون على الدولة الموحدة، الدولة الأم، فدافع ثابت قطنة وكعب الأشقري عن يزيد بن المهلب، لما تمرّد على الحجاج، ورثياه، ووقف أعشى همدان إلى جانب ابن الأشعث، حتى مات دونه، ورأى كثيرون في المهالبة، وخاصة يزيد مصدراً طيباً للغنى والرفد والعطاء وكان قد توسع في الفتوح أيما توسع. وبالتالي فالغنائم التي جلبها تساوي التوسع الذي أحدثه،ولما عزل يزيد عن خراسان كان له أثرٌ سلبي على الناس جميعاً، وله أثر في توجيه المال،و لذا قال نهار بن توسعة في قتيبة ويزيد معاً :

كانت خراسانُ أرضاً إذ يزيدُ بها   فكلُّ بابٍ من الخيرات مفتوحُ

فاستبدلتْ قتباً جعْداً أناملهُ   كأنما وجهُهُ بالخلِّ منضوح (٣)

---

(١) المصدر السابق: ٢/٤١٠ انظر الطبري ٦/٤٧١.

(٢) المصدر السابق: ٢/٤١٥

(٣) فتوح البلدان : ٤٠٢

وكان نهارُ بن توسعة معجباً جداً بالمهلب وفتوحاته، وشاركه الفتح والغنيمة فلما مات قال فيه :

لقد ذهبَ الغزوُ المقرِّبُ للغنى   ومات الندى والجود بعد المهلب [١]

ارتبطت شخصية المهلب وأبنائه لدى الشعراء الجند بالغنى والندى، وأدار الشعراء الجند الحديث عنها في شكلين: شكل القائد الفاتح السيد العظيم، وشخصية الغني الذي يفيض على الناس أموالاً لا تحصى، ويبدو أن التحاق الجند بالمهلب كان معظمه سعياً وراء المال والرزق الذي كان يحصله لكثرة فتوحه، وإما لأنه كان يكثر من توزيع المال على الجند فأثروا، فأصبح المهلب رمزاً للغنى، وتابع أبناءُ المهلب سيرة الوالد العظيم، فلما حصلت نكبة المهالبة، نفذ اليأس إلى الجند فقال أحدهم -:

أصبحتُ لا المالُ في الدنيا يطاوعني   لكنه كيفما قلّبْتُ يعصيني

وكمْ طمعتُ فما حصَّلتُ من طمعي   غيرَ العناءِ، وقولي ليس يرضيني

وما اشتريت بمالي قطُّ محمدةً   وبُلْغةً من قوام العيش تكفيني [٢]

ولم تقتصر النظرة الاقتصادية للفتوح على الشعراء الجند، إنما تجاوزتها الى الشعراء الوافدين كالفرزدق، يرى في نصر بن سيار جامعاً للأموال، ومغيثاً لهم من الفقر:

وكيف نخافُ الفقر يا طيبَ بعدما   أتتنا بنصرٍ من هراةَ مقادرُهْ

وإنْ يأتنا نصرٌ من التُّركِ سالماً   فما بعد نصرٍ غائبٌ أنا ناظرُهْ

تنظرتُ نصراً، والسماكين أيْهُما   عليَّ من الغيثِ استهلت مواطرُهْ

رجوتُ ندى نصرٍ، ودون يمينه   فراتان، والطافي ببلخٍ قراقرُهْ

فأصبحت أعطى الناس للخير والقرى   عليه لأضيافٍ، وجارٍ يجاوره [٣]

---

(١) الزبير بن بكار (الاخبار الموفقيات) : ٢٨٦

(٢) البصري- الحماسة البصرية: ٢٠/١.

(٣) الفرزدق : ٢٤٦ : انظر الطبري ٥٠٤/٦

وأثنى الكميت بن زيد على قتيبة بن مسلم لنفله الجند طيِّب الغنائم وخيارها :-

وبعدُ في غزوة كانت مباركةً ... تروي زراعة أقوامٍ وتحتصدُ

نالت غمامتُها فيلاً بوابلها ... والسُّغدُ حين دنا شؤبوبها البَرِدُ

إذ لا يزالُ له نَهْبٌ يُنَفِّلُهُ ... من المقاسم لا وخسٌ ولا نَكِدُ[1]

ورأى نفرٌ من الشعراء في الفتوح منفذاً إلى المال والشرف معاً وتحسسه السلطان فيهم، فمالك بن الرّيب حينما التحق بجيش سعيد بن عثمان، سأله سعيد: مالك ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق، وما يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العبث والفساد، وفيك هذا الفضل، قال : يدعوني إليه العجز عن المعالي ومساواة ذوي المروءات، ومكافأة الإخوان، قال : فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أتكفُّ عما كنت تفعل؟ قال: إيْ والله أيها الأمير، أكفُّ كفّاً لم يكفّه أحد أحسنَ منه، فاستصحبهُ، وأجرى له خمسمائة درهم في كلّ شهر.[2]

يبدو أن رغبة مالك في العطاء والغنيمة كانت وراء رفضه أن يقوم بالإبل لسعيد مقابل ترك الغزو الجالب للغنائم والرافع للمكانة[3] وان كانت تحمل في طياتها ملامح الأعرابية، والبحث عن السيادة والاستقرار، ولذا بدا حزيناً جداً لما فارق بلاده، فخاطب ابنته :-

تسائلُ شهلةُ قفّالها ... وتسألُ عن مالكٍ ما فعلْ

لذلك شهلةُ جهّزْتِني ... وقد حان دون الإيابِ الأجل

ثوى مالكٌ ببلاد العدوِّ ... وتسفى عليه رياح الشّملْ[4]

لذلك يأسى مالك لموته الذي لم يحن بعد، وكان قد حدسه في سفره، وكانت الفتوح أحياناً ملجأً لبعض الصعاليك، الذين فقدوا المال والغنى في مواطنهم

---

(١) الكميت بن زيد : ١٥٣/١ وخس: الرذل. النكد : الذي يجلب الشؤم إلى أهله.

(٢) الأغاني : ٢٨٨/٢٢

(٣) الاغاني : ٢٩٦/٢٢

(٤) الأغاني : ٢٩٦/٢٢

الأصلية. ومن هنا ارتضى مالك الغربة والفتوح لأنها تجلب المال وعلى فروسيته والحوافز الاقتصادية التي يملكها، رفض ان يحارب في جو قارص، لم يعتده في صحراء اليمامة فخاطب قائده :-

هبت شمالٌ خريفٍ أسقطتْ ورقاً ... واصفرُّ بالقاع بعد الخضرةِ الشيحُ

فارحلْ هُديتَ، ولا تجعل غنيمتنا ... ثلجاً يصفّقهُ بالتِّرمذِ الريحُ

إن الشتاءَ عدوٌّ ما نقاتلهُ ... فاقفلْ هُديتَ، وثوب الدِّقِ مطروحُ[1]

واضحٌ جداً من النص أنه كان ينتظر الغنيمة إلى جانب النصر وإلاّ يرفض عذاب الحرب. وأظهر الشعراءُ الجند علاقتهم بالولاة والخلفاء إن خالفت الفتوح آمالاً من آمالهم، فخاطب أحدُهم معاوية بن أبي سفيان في شأن الجند وأهداف الفتوح العسكرية، ورفض التجمير، وفراق الأهلين :-

معاويَّ إما أن تجهِّز أهلَنا ... إلينا، وإما أن نؤوبَ معاويا !

وجمَّرْتَنا تجميرَ كسرى جنوده ... ومنَّيْتنا حتى مللنا الأمانيا [2]

وقد أمضَّ حصارُ القسطنطينية أبا العيال الهذليّ، ورأى أن لابارقة أمل لهم في النصر، ولا فائدة ترجى من الحصار، فبعث إلى معاوية بن أبي سفيان شعراً يشكو له شوكة الروم، ويصف ما تعرَّض له المسلمون من قتلٍ وفناء، ويطلب عودة الجند:

من أبي العيال أبي هذيل فاعرفوا ... قولي ولا تتجمجموا ما أرُسلُ

أبلغْ معاويةَ بنَ صخر آيةً ... يهوى إليك بها البريدُ المُعجِلُ

إنا لقينا بعدكم في غزونا ... من جانب الأمراج يوماً ينسلُ

أمراً تضيق به الصدور ودونه ... مهج النفوس وليس عنه معدل

في كل معتركٍ يُرى منّا فتىً ... يهوي كعزلاءِ المزادةِ يزغَلُ

أو سيِّدٌ كهْلٌ تمورُ دماؤهُ ... أو جانحٌ في صدر رمحٍ يسعلُ

(١) فتوح البلدان : ٤٠٢.

(٢) الجاحظ- الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام هارون- المجمع العلمي العربي الإسلامي- بيروت- لبنان : ١٢٦/٥

حتى إذا رجبٌ تخلى وانقضى وجماديان،وجاء شهر مقبلُ
شعبانُ قدَّرنا لوفق رحيلهم سبعاً يُعَدّلها الوفاءُ فتكملُ
وتجرَّدت حربٌ يكون حلابُها عَلَقاً، ويمريها الغويُّ المبطلُ (١)

لكننا لا نجد أبا العيال الهذليّ يرفض الجهاد، والقيام به، إنما طالت الغيبة وطال الحصار وتعذر النصر، وعلى الخليفة أن يواجه المسؤولية بشجاعة وحزم وأن يمنع الموت عن المسلمين. واشتد الأمر عند بعضهم، ورأى الحرب ضلالاً، وتمنى الأجر والمثوبة لغيره، أما هو فقد تنازل عن الأجر الأخروي، وتنازل عن العطاء أيضاً، الذي كان من الدوافع المهمة لمشاركته في الفتوح، وكان هذا الأعرابي قد قدم على الأسود بن بلال المحاربي، ففرض له، وأغزاه البحر فلما أصابت البدوي أهوال البحر قال :

أقولُ وقد لاحَ السَّفينُ ملجأً وقد بَعدتْ بعد التقرُّب صورُ
ألا ليتَ أجري، والعطاءُ صفالهم وحظي حَطوطٌ في الزمان كورُ
فللهِ رأيٌ قادني لسفينةٍ وأخضرَ موَّارِ السِّرار يمورُ
ترى متنه سهلاً إذا الريح أقلعتْ وإن عصفَتْ فالسهلُ منه وعورُ
فيابن بلالٍ للضّلال دعوتَني وما كان مثلي في الضّلال يسيرُ
لئن وقعت رجلاي في الأرض مرَّةً وحان لأصحابِ السفينة وكورُ
وسلَّمتُ من موجٍ كأن متونَه حراءُ بدتْ أركانهُ وثبيرُ
ليعترِضَنَّ اسمي لدى العرض خلفةً وذلك إن كان الإيابُ يسير (٢)

لصعوبة الموقف والقتال تمنى الأعرابي المقاتل لو أن الأجر والعطاء والغنيمة قد جيرت للدولة مقابل قفوله بالسفينة إلى نجد، وبالغ جداً في وصف الطرق والبحر. ورأى أن وجوده جندياً في جيش الفتح شكل من أشكال الضلال وما عرف الضلال يوماً. ودهش بعض الشعراء من اتجاههم نحو الغنائم والعطاء ونصرة الدولة الأموية (أهل الشام) كما كانوا يرون الحرب فرغبوا عن استمرارهم في الفتوح، لأنها تتعارض مع انتمائهم إلى بلادهم، قعدت أحدهم خروجه في جيش

(١) ديوان الهذليين: دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٤٥: ٢/٢٥٢-٢٥٥

(٢) معجم البلدان : الشَّرَبَّة، وكور: رجوع

الفتح تنكراً لنجد، ورأى خراب نجد ماثلاً في بناء الدولة الجديدة في البلاد المفتوحة فقال:

أأنصرُ أهلَ الشامِ ممّن يكيدهُمْ   وأهلي بنجدٍ ساءَ ذلك من نَصرِ

براغيثُ تؤذيني إذا الناسُ نوّموا   وبعدُ أقاسيه على ساحل البحرِ

فإنْ يك فرضٌ بعدها، لا أعُدْ له   وإن بذلوا حُمْرُ الدنانير كالجمرِ(1)

شكا قسوة البيئة وما فيها من براغيث مؤذية، وقد ترك أهل نجد وهم بحاجة إلى نصرته ومعونته، ولذا قرر عدم الاشتراك بالحرب ثانية، وإن كانت الغنائم مغرية، ونجد هذا الامر عند أسامة بن الحارث الهذلي :

فمو شكةٌ أرضنا أنْ تعود   خلاف الأنيسِ وحوشاً يبابا

ولم يدَعوا بين عَرْض الوتـ   ـيرِ حتى المناقب إلا الذئابا(2)

وانتقد أعشى همدان(3) عبيدالله بن أبي بكرة الذي أنفذهُ الحجاجُ إلى غزو سجستان، وغفل عن الجيش، والاهتمام براحته، وراح يتاجرُ بالعنب وغيره ويهتم بزيادة تجاراته، فهلك الجيش :-

وأسأل عبيدَالله كيف رأيتَهُمْ   عشرينَ ألفَ مجفَّفٍ ومدجّجِ

بعثاً تخيَّرهُ الأميرُ جلادةً   بعثاً من المصرين غير مزلّجِ

وُلّيْتَ شأنَهم،وكنتَ أميرَهم   فأضعتَهم، والحربُ ذات توهُّجِ

ما زلتَ نازلهم كما زعموا أبا   وتقُلُهمْ، وتسير سير الأهوج

وتبيعهم فيها القُفيزَ بدرهمٍ   فيظلُّ جيشك بالملامة ينتجي

ومنعتَهمُ ألبانَهم وشعيرَهم   وتجرْتَ بالعنبِ الذي لم ينضج

ونهكتَ ضرْباً بالسياط جلودهم   ظُلماً وعدواناً، ولم تتحرَّجِ

---

(1) الحيوان : ٤٠٥/٥

(2) ديوان الهذليين، ١٩٩/٢، يبابا: خرابا.

(3) أعشى همدان: عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث من همدان، شاعر فصيح، كوفي من شعراء الدولة الأموية، وكان زوج أخت الشعبي الفقيه والشعبي زوج أخته، وكان أحد الفقهاء القراء، ثم ترك ذلك وقال الشعر، وكان إذا قال شعراً غنىٰ فيه أحمد النصبي، وخرج مع ابن الأشعث فأتي الحجاج أسيراً في الأسرى فقتله صبراً. الأغاني ٤١/٦.

والأرض كافرةٌ تضرَّمُ حولكم حرباؤها بُعجَتْ ولمَّا تُنْتجِ

فتساقطوا جوعاً وأنت خفندرٌ شبعان تصبح كالأبدِ الأفجج

حتى إذا هلكوا وباد كراعُهم رُمْتَ الخروج، وأيَّ ساعة مخرجِ[١]

احتج الشاعر على عدم اهتمام القائد بالجند وعدم العمل على رفاهيتهم، وانتقد اتجاهه الى تثمير الأموال، وزيادة تجاراته، والتخلي عن مسؤولياته. ويبدو أن الفتوح صارت منفذاً حياً من منافذ التجارة، مما يدل على ارتباط الفتوح بتطور الحياة الاقتصادية، ودفع عجلة الحضارة لمدنية عربية تقوم. ولا أحسب الشاعر مبالغاً كثيراً في احتجاجه، فابن أبي بكرة كان مشهوراً بالتجارة والجود معاً، ومن الذين قصدهم الشعراء بالمدح للتكسب، ولا بد انه أثرى في الفتوح حتى كان مثار تساؤل الشعراء واحتجاجهم، ويبدو أن الجيش كان قد ثار ضدّ ابن أبي بكرة فكالهم بالسياط. وختم مقطوعته بمقارنة عقدها بين حالة الجيش والقائد. فالجيش تساقط جوعاً، بينما القائد كالخفندر بات شبعان. وهذا النص أفصح عن رغبات بعض الولاة وقادة الجيش بالفتوح لزيادة مدّخراتهم على حساب الجند وراحتهم. وليس ما سبق فحسب إنما أظهر أن الفتوح قد دخلت باب التوسع والأطماع لدى بعض القادة والخلفاء، وتنازلت في بعضها عن هدفها الأسمى وهو الجهاد حيناً.

وعلى شغف أعشى همدان بالمال، ورغبته فيه إلاّ أنه رجلٌ شجاع فارسٌ، التزم القتال مرّاتٍ عديدة، وانضم إلى عبدالرحمن بن الأشعث[٢] في تمرده على الحجاج،

---

(١) ابراهيم محمد غماري المغربي – شعر الفتوح الإسلامية في العصر الأموي: رسالة ماجستير – جامعة اليرموك إربد – ١٩٨٦: ص ١٧٢ نقلا عن ديوان أعشى همدان ص ٩٣، المجفف الذي يحمل التجفاف وهو آلة الحرب. المزلج: الناقص الضعيف، كافرة: نائية، بعجت: حرثت، الأبد: من وجد عصوبة في المشي لإمتلاء فخذيه، الخفندر: الضخم، الأفجج: تباعد ما بين الرجلين، الكراع: السلاح.

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، أمير من القادة الشجعان الدهاة، وهو صاحب الوقائع مع الحجاج الثقفي، سيّره الحجاج بجيش لغزو بلاد رتبيل (ملك الترك) فيما وراء سجستان، فغزا بعض أطرافها وأخذ منها حصوناً وغنائم، وكتب إلى الحجاج يخبره بذلك وأنه يرى ترك التوغل في بلاد رتبيل إلى أن يختبر مداخلها ومخارجها فاتهمه الحجاج بالضعف والعجز الأعلام خير الدين الزركلي، ٣/٣٢٣.

ولموقفه الثابت قتله الحجاج صبراً. ولما صار ابن الأشعث الى سجستان جبى مالاً كثيراً، فسأله أعشى همدان أن يعطيه منه زيادة على عطائه فمنعه، فقال يذكر بلاءه، ويمُنُّ عليه انضمامه إليه في الفتوح العديده فقال يعاتبه :-

كمْ قدْ أُسدِّي لك من مدحةٍ ... تُروى مع الصادر والواردِ
وكم أجبنا لكَ من دعوةٍ ... فاعرف فما العارف كالجاحدِ
فاذكر أيادينا وآلاءَنا ... بعودة من حلمك الراشدِ
ويوم الأهواز فلا تنسه ... ليس النثا والقول بالبائدِ
إنا لنرجوك كما نرتجي ... صوبَ الغمام المبرقِ الراعدِ
فانفخ بكفَّيْك، وما ضمَّتا ... وافعل فَعال السَّيِّد الماجد
تجبي سجستانَ وما حولها ... متكئاً في عيشك الراغد
لا ترهب الدهرَ وأيامه ... وتجرُد الأرضَ مع الجارد
إن يك مكروهٌ تهجنا له ... وأنت في المعروف كالرّاقد
ثم ترى أن سنرضى بذا ... كلاً وربِّ الراكع الساجدِ
تلك لكم امنيّةٌ باطلٌ ... وغفوةٌ من حُلُمِ الرّاقدِ
ما أنا إن هاجك من بعدها ... هَيْجٌ بآتيك ولا كابد
ولا إذا ناطوك في حَلْقةٍ ... بجاملٍ عنك ولا فاقد
فأعط ما أعطيته طيباً ... لا خير في المنكود والناكد
نحن ولدناك فلا تجفُنا ... واللهُ قد وصّاك بالوالد (١)

يبدو من النص أن وقوف أعشى همدان إلى جانب ابن الأشعث في تمرده ليس مبنياً على إيمانه بأهداف ثورة ابن الأشعث فحسب بل كانت هناك أهداف اقتصادية وراء تلك الوقفة، كان قد استغلها ابن الأشعث في الشعراء الإعلاميين. فاستغرب الأعشى من عدم عطاء الممدوح وهو رجل غني حوى الغنى الموروث، والغنى القادم من الفتوح، ففي جعبته يُصبُّ خراجُ سجستانَ وهو متكيء لا يحرك

---

(١) الأغاني : ٦/٥٥-٥٨

ساكناً، يغرق في العيش الرّغيد، بينما الجنودهم الذين يغزون ويتعبون، وأظهر الشاعر صورة مدهشة لابن الأشعث الذي ادّعى العدالة الاجتماعية في تمرده، وقد انضم اليه الموالي والقراء رغبةً منهم في توزيع العدالة الاجتماعية والاقتصادية على الجميع لتشملهم، وظنا منهم أنّ ابن الأشعت القائد الثائر محقٌ في تمرده. وعرض أعشى همدان صورة مؤلمة لبعض القادة والولاة من خلالها ننفذ إلى صورة الولاة في الفتوح، وهي أنه لا يخافُ الدهر ويجرد الأرض مع الجارد، لم يترك قائماً ولا حصيداً. ونتيجة موقفه مع الشاعر هدّده بأنه لن ينحاز إلى جانبه إن استغاث به ثانية.

وكشف النص عن طريقة جبي الخراج وتوزيعه، وكأن الخراج مالٌ خاص للوالي يصرِّفه كما يشاء على الشعراء أو المؤيدين. فعلى الرغم من أن الأعشى كان لعابه يسيل للحصول على الأموال، إلاّ أنه لا يبرّيء الولاة من حيازة الأموال أو عدم الإحسان إلى الجند الذين أحسنوا القتال.

ولأعشى همدان غير موقف مع قادة الفتوح، أو ولاة المناطق المفتوحة فخرج للتكسب ولاية خالد بن عتاب بن ورقاءَ أصبهانَ (فأعطى خالدٌ الناس عطايا، فجعله في أقلِّها، وفضل عليه آلَ عطاردٍ، فبلغه عنه أنه ذمه فحبسهُ مدةً ثم أطلقه فقال يهجوه :-

وما كنتُ ممّن ألجأتْهُ خصاصةٌ ... إليك، ولا ممَّن تغرُّ المواعد
ولكنها الأطماعُ وهي مذلّةٌ ... دنتْ بي، وأنت النازحُ المتباعدُ
أتحبسني في غير شيءٍ وتارةً ... تُلاحظني شزْراً وأنفك عاقدُ
فإنك لا كا بنيْ فزارة فاعلمَنْ ... خُلقْتَ ولم يشْبهُهما لكَ والدُ [1]

لم يتوقف الأمر عند أعشى همدان فحسب إنما نجده أيضاً عند كثيرين؛ ومنهم عبدالله بن الحجاج. كان قد شكا من كَثير بن شهاب[2] لما أغار على الديلم،

---

(١) الأغاني: ٦/٥٣-٥٤

(٢) كثير بن شهابن الحُصين، كان علي ثغر الري، ولاه إياه المغيرة بن شعبه إذ كان خليفة معاوية على الكوفة، الأغاني ١٣/١٨٤.

وأصاب ابنُ الحجاج رجلاً منهم، وأخذ سلبه، فأخذه كثيرُ منه، وأمر به فسجن وجلد وراح الشاعر يذكر ابنته،وشرقه إليها،وشكا اليها عذاب السجن، فقال :

تسائل هندٌ عن أبيها صحابهُ   وقد علقته من كَثيرٍ حبائلُ

فلا تسألي عنيّ الرِّفاق فإنهُ   بأبهرَ لا غازٍ، ولا هو قافلُ

ألستُ ضربتُ الدَّيلميَّ أمامهم   فجدُ لَتُهُ فيه سنانٌ وعاملُ(١)

احتج على سياسة الوالي أو القائد الذي منعه تنفيل سلبه الذي هو من حق القاتل، وليس من حق القائد او الدولة. وهذا الصنيع أحبط بعض الجند الفاتحين، وقد سلبه الحوافز للمشاركة في الفتوح. فالفتوح في بعض الأحايينِ لم تعُدْ تشكل مصدر إغراء للجند فقط إنما مصدر لصوصيه لبعض القادة أحياناً.

وأشار نفرٌ منهم إلى تهاون المسؤولين بالمسؤوليات التي أُنيطت إليهم في الفتوح، وكان يزيد بن المهلب قد جعل (شهراً) أميناً على خزائنه في فتوح جرجان، ووصلت إلى مسامعه أخبار مؤداها : أن شهراً خان الأمانة، وأخذ لنفسه خريطة من الغنائم، ولا نجد يزيد يعاقب شهراً هذا إنما أمعن في التهاون، وأدب الرجل الذي نقل إليه خبر شهر، ودفع الخريطة إليه، فقال أحد الشعراء يهجو شهراً :

لقد باعَ شَهْرٌ دينَهُ بخريطةٍ   فَمنْ يأمنُ القرَّاءَ بعدكَ يا شهرُ

أخذتَ به شيئاً طفيفاً وبعتَهُ   من (ابن جونبوذ) إن هذا هو الغَدْرُ(٢)

وكانت قصة شهر هذا مثيرة جداً فضحت الولاة والقائمين على الأموال حتى وجدنا. ومن فضائح الولاة والقائمين على الأموال حتى وجدنا مرَّة النخعي يحمِّلُ يزيدَ مسؤولية فساد شهر :-

يا ابن المهلب ما أردتَ إلى امرىءٍ   لولاكَ كان كصالح القُرَّاءِ (٣)

---

(١) الاغاني : ١٣/١٨٤-١٨٥ جدُلتهُ : صرعتهُ ، أبهر :بلده بأصبهان، الحبائل: المصيدة.

(٢) الطبري : ٦ / ٥٣٩ جونبوذ : اسم أحد الدهاقنة.

(٣) الطبري: ٥٣٩/٦

وتفصحُ النصوص في هذه القضية عنْ أمرين : كثرة الغنائم والأموال التي كانت ترد إلى بيت المال، مما أغرى أحد القرّاء وهو شهر المسؤول عن الخزائن، يمد يده إلى الأموال، ويأخذ شيئاً منها؛ والأمر الثاني إن تهاون يزيد لم يكن تهاوناً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وإلاّ لما تمادى في هذا الأمر. وقد يكون أراد إثابة هؤلاء المسؤولين عن أعمالهم التي قدموها أو أراد مسامحتهم على فعلتهم، ولم يدرك الآخرون صنيع يزيد.

وأفرز الشعر مواقف بعض الولاة الذين كابدوا للوصول إلى بعض الكور لولايتها على أنها مغنم، وكانوا قد وعدوا بعض الشعراء وأملوهم بالاحسان إن حصلوا على مرادهم للترويج لهم إعلامياً، ولما استتبت الأمور، وملكوا الولاية، وتحكموا بأموالها، نكثوا ما عاهدوا الشعراء عليه، وهذا الموقف نجده عند أعشى همدان وخالد الرياحي، لما ولي أصبهان فقال:-

تمنّيني إمارَتَها تميمُ ... وما أمّي بأم بني تميم
وكان أبو سليمان أخاً لي ... ولكن الشراكَ من الاديمِ
أتينا أصبهان فهزَّلتنا ... وكنا قبلَ ذلك في نعيم
أتذكرنا ومرَّةَ إذ غزونا ... وأنت على بُغيلكَ ذي الوشوم
ويركبُ رأسَه في كل وحلٍ ... ويعثرُ في الطريق المستقيم
وليس عليك إلا طَيْلسانٌ ... نصيبيٌ والاّ سحقُ نيمِ
فقد أصبحتَ في خزٍّ وقزٍّ ... تبخترُ ما ترى لك من حميم
وكانت أصبهانُ كخيرِ أرضٍ ... لمغتربٍ وصُعلوك عديمِ[1]

فضح النص حالة الوالي قبل الولاية وبعدها، ومالها من أثر في علاقة الشاعر بالوالي، خاصة أنهما صديقان. عرض صورة مزرية للوالي قبل الولاية، فكان لا يملك من اللباس الا ثوباً طيلسانياً نصيبياً، ويركب بغلته الموشحة، ولكنه بعد الولاية يحيا حياة مترفة، يلبس أحلى الملابس، وأغلاها، يتبختر بالخز والقز. تحولت أصبهان برؤيا الشاعر وصنيع الوالي إلى مكان مدهش يجلب الفاتحين،

(١) الاغاني : ٥٢/٦، مرّة: اسم للبغل، ونيم: الفرو.

يُؤي المغتربين والصعاليك الجوَّع، والفقراء المدقعين لغناها، وقصد بذلك الوالي. ويزداد النص دهشة عندما يذكر أنهما غزوا أصبهان معاً في الحلم، وليس في الواقع. ولكن الوالي يحول أصبهان الغنيّة مأوى الفقراء أرضاً جرداء قاحلة، وأصاب الفقر والهزال كل من يدخل أصبهان. ويبدو أن الفتوح أحياناً كانت تخيب آمال الشعراء الجند خاصة أعشى همدان.

انتقاد الشعراء لمواقف بعض الولاة التي لا يظهر فيها الاحساس بالعدالة عدالة توزيع الغنائم، ورد الحقوق إلى أصحابها. والوالي الذي يثري على حساب الفتوح كان من المحاور التي برزت في شعر الفتوح. ومن هنا رأى بعض الشعراء أن القتال لا يحقق للجندي ما يريد، فيقتل الجنود بينما يجبي القادة الغنائم دونهم، وهذا الملمح لم نجده في شعر الشعراء الذين هجوا المهالبة المعروفين بالجود، وأغنوا الشعراء والجند معاً، وأدركوا قيمة الكلمة واستغلوها، فجعلوا في بلاطهم مجلساً للتكسب، وفد اليه الشعراء من الأقاليم الإسلامية الأخرى، حتى كان ينافس مجلس الخليفة في دمشق.

ومما يلمح في شعر الجند أن العصبية القبلية تسلك مسلكاً اقتصادياً في أحايين كثيرة، تلمحُ من خلال توزيع الغنائم على بعض العشائر وحرمان بعض العشائر من هذا الحق. وكان لأبي جلدة اليشكري(١) الشاعر موقف من مِسْمَع بن مالك، وقد فرق في عشيرته بني قيس بن ثعلبة عطايا كثيرة، وقرَّبهم، وجفا سائر بطون بكر بن وائل، فقال:-

إذا نلتَ مالاً قلتَ قيسٌ عشيرتي	تجور علينا عامداً في قضائكا
وإن كانت الأخرى فبكرُ بن وائلٍ	بزعمك يخشى داؤها بدوائكا
هنالك لا نمشي الضَّراء اليكمُ	بني مسْمَعٍ انا هناك أولئكا
عسى دولةُ الذُّهلين يوماً ويشكرٍ	تكرُّ علينا سبغةٌ من عطائكا (٢)

---

(١) الأغاني: ٣١١/١١ أبو جلدة بن . عبيد بن منقذ من يشكر بن بكر بن وائل، شاعر اسلامي من شعراء الدولة الأموية ومن ساكني الكوفة وكان ممن خرج مع بن الأشعث فقتله الحجاج.

(٢) الأغاني: ٣١٧/١١، سبغة: سعة. الضّراء: المكر والخديعة.

لقد ميز مسمع في العطايا بين القبائل، وجميعها قد أبلت بلاء حسناً، وفي هذا دليل أكيد على أن الفتوح قد اتخذت اتجاهاً اقتصادياً لدى القادة أو الولاة أو القبائل، وشكا الشعراء من هذا الظلم الاقتصادي الذي حل بهم نتيجة العصبية القبلية، فنرى أبا جلدة يهدد القعقاع قائلاً:

فعمَّالُنا أوفى وخير بقيةً　　وعمالُكُمْ أهل الخيانة واللَّبسِ (١)

تهديد يحمل الافتخار بعمال أهله وعشيرته الذين اتسموا بالأمانة والوفاء وكانوا أكثر وفاءً من قوم القعقاع الذين اتسموا بالخيانة والتدليس وإثارة النزاع العصبي، وعدم توزيع الغنائم بالعدل، كما أقرتها الفتوح.

وأظهرت الفتوح حالة الجوع التي نزلت بالجند، وأضرت بالناس فضاق الجند ذرعاً بهذا الأمر، وراحوا يشكون ما حل بهم خصوصاً في فتوح مكران. وكشفت النصوص عن دور الدولة الإجباري في إرسال البعوث الى المناطق التي لا يرغب الجند بالوصول إليها، أو دون استشارتهم ما داموا يأخذون العطاء فقال أحدهم يعبر عن هذا الأمر:

وأنت تسير إلى مُكْرانٍ　　فقد شَحط الوردُ والمصدرُ
ولم تكُ من حاجتي مُكْرانُ　　ولا الغزوُ فيها ولا المتجرُ
وخبِّرْتُ عنها ولم آتها　　فما زلتُ من ذكرها أذعرُ
بأن الكثيرَ بها جائعٌ　　وأن القليلَ فيها مُقترُ
وأن لحى الناس من حرِّها　　تطول فتجلَمُ أو تُضْفَرُ
ويزعمُ مَنْ جاءها قبلنا　　بأناسَنَسْهمُ أو ننحرُ
وحدِّثتُ أنْ ما لنا رجعةٌ　　سنينَ، ومن بعدها أشهرُ
إلى ذاك ما شاب أبناؤنا　　وباد الاخلاَّء والمعشرُ
وما كان بي من نشاطٍ لها　　وإني لذو عُدَّةٍ موسرُ
ولكنْ بعثتُ لها كارها　　وقيل: انطلقْ كالذي يؤمر (٢)

---

(١) الأغاني: ٣١٩/١١

(٢) الأغاني: ٥٠/٦.

ويلمح النص الى ملمح خفي جداً، وهو الخوف الذي يحياه المقاتلون في دولة ليست لها حدود نهائية، أو حدود معروفة يتحرك ضمنها الرجل المسلم والفاتحون، ويؤمنون بها حدودهم من الأعداء مما جعلهم يتعرضون كثيراً لغارات الأعداء أو يجلون عن بعض الحصون، ويكثر القتل فيهم، وانتقد أيضاً عدم تحديد العلاقة بين الفاتحين وأهل الأراضي المفتوحة كما هو في الشام والعراق، فهمُّ القادة أن يغزوا، ويرجعوا مثقلين بالغنائم، ويصيبوا منها شيئاً كثيراً ليرضوا الحكومة في دمشق، وفي الوقت ذاته، لم يأبهوا بالجند الذين ملوا الحرب، ولم يعمهم خير الفتح لينعموا بما غنموه، ولينتشر الإسلام بهدوء وطمأنينه، ومن هنا أصابت الهواجسُ والمخاوف أحد الجنود الشرسين كأعشى همدان لما علم أنه سيرسل الى مكران، وقد علم ما أصاب أخوانه الذين سبقوه من جوع، ونقصان في الغذاء.

وسجل الشعراء الجند الحروب الخاسرة التي خاضها بعض القادة وليس من تكافؤ بين الجانبين أو أمل في الانتصار، بل فاستمروا في مواصلة القتال وجلب الأموال والغنائم، حتى لوكلف الأمر موت الآلاف من المسلمين، وفي هذا انتقاد للدولة التي طمعت فتوسعت، وفارقت الهدف الأسمى الذي وجهت له. فقال ابن عرس العبدي ينتقد الجنيد الذي أدخلهم في موقفه الشِّعْب الخاسرة، يشكوه الى خالد القسري:

أينَ حماةُ الحَرْب من معشرٍ	كانوا جمالَ المِنْسرِ الحاردِ
بادوا بآجالٍ توافَوْا لَها	والعاثر المُهْمَلُ كالبائدِ
كنا قديماً يُتَّقى بأسنا	وندراً الصادرَ بالواردِ
حتى مُنينا بالذَّي شامَنا	من بعد عزٍّ ناصرٍ أبدِ
فتَقْتَ ما لم يلتئمْ صَدْعُه	بالجحفل المحتشد الزائدِ
خمسونَ ألفاً قُتلوا ضيعةً	وأنتَ منهم دعوةُ الناشدِ
قصيدةٌ حبَّرها شاعرٌ	تسعى بها البُرْدُ إلى خالدِ[١]

---

(١) الطبري: ٨٦/٧

فالحروب الخاسرة كانت نقطة مهمة من نقاط الفتوح، فاضت فيها أرواح الجند الذين ملوا القتل والحرب، والفر والكر، وصورة الموت تتكرر أمامهم، فما قيمة الفتح إذا مات فيه خمسون ألفاً من المسلمين، وكانوا في غنى عنه؟ ما قيمة الفتح وتسبى المسلمات، وتنتظر من يخلصها من الأسر؟ [١]

هذا النص ونص الشرعبي السابق، كادا يمثلان انتقاداً للدولة التي استمرت بالفتوح، ولم تهتم بتحديد حدودها وتأمينها، لمنع نشوب مثل هذه الحروب وإقامة علاقات جوار آمنة، وعلاقات اقتصادية نافعة تمنع الحرب.

ومما يتصل بالأمر السابق (التجمير)، فقد طال التجمير على الجند وأهاليهم، حتى خالف نظام الحروب انسانية الإنسان، وهدفه السامي، وحقه في العيش مما جعل «أم خنيس» تطالب بعودة ابنها من السند وقد جمِّرَ فأبوا ذلك عليها، مما جعلها تلجأ الى الفرزدق، فكتب الى عامل الناحية التي ابنها فيها فقال:

كتبتُ وعجّلتُ البرادةَ إنني ... إذا حاجةٌ طالبت عجّت ركابُها

ولي ببلاد الهند عند أميرها ... حوائج جمّاتٌ، وعندي ثوابها

فمن تلكَ: أن العامريّة ضمَّها ... وبيتّي نوارَ، طابَ فيها اقترابها

أتتني تهادى بعد ما مالت الطُّلى ... وعندي رداحُ الجَوفْ فيها شرابها

فقلت لها: إيه، اطلبي كلَّ حاجة ... لديَّ، وخفّتْ حاجةٌ وطلابها

فقالت: سوى ابني، لا أطالبُ غيرَه ... وقد بك عاذت كُلثُمُ وغلابُها

تميمَ بن زيدٍ لا تهونَنَّ حاجتي ... لديك، ولا يعيا عليَّ جوابها

ولا تقلبنْ ظهراً لبطنٍ صحيفتي ... فشاهد هاجيها عليك كتابُها

وهبْ لي خنيساً واتخذ فيه منّةً ... لحوبةِ أمٍّ ما يسوغُ شرابها [٢]

---

(١) الطبري: ٧/٨٥

(٢) الفرزدق: ٧٩. وانظر ١٤٦، البرادة: أي البريد عجّت: اشتدت فاثارت العبار الطّلى: الاعناق، الرداح: الواسعة، كلثم: اسم المرأة التي جاءت تطلب ولدها: غلاب: اسم ابنتها، الحوبة: العيال، ما يسوغ شرابها: لا يلذ لها العيش.

التجمير حالة صعبة وقاسية من حالات الحرب، تقترن بوحشية الإنسان من جهة، وإجباره على القتال من جهة أخرى. وأهل الجندي بحاجة اليه والى معونته، ورأفته بهم مما جعلهم يطالبون بعودة أبنائهم، وكان للتجمير آثار سلبية جداً على المجتمع العربي خاصة المرأة. وكان رجل قد كتب يوماً الى زوجته شعراً عيَّرها فيه بفرسه وجاريته، مشيراً إلى أن فيهما غناءً له عنهما، وأنه غير آبه لما ستفعله هي، ما دام يملك فرساً وجارية فقال يخاطبها:-

ألا لا أبالي اليومَ ما فعلت هندُ إذا بقيتْ عندي الجمانَةُ والوَرْدُ

شديدُ مناط القُصْرَيين إذا جرى وبيضاءُ مثلُ الرئم زيَّنها العقدُ

فهذا لأيام الهِياج وهذه لحاجةِ نفسي حين ينصرفُ الجُنْدُ

فكتبت إليه تدافع عن نفسها والعربيات جميعاً، وتنتقد سياسة التجمير ومخاطرها على الجندي المهاجر، والمجتمع الذي تركه الجندي فاستغنى الجنود بالسبي عن نسائهم فقالت:-

ألا أقرهِ مني السَّلامَ وقل لهُ غُنِينا بفتيانٍ غطارفةٍ مُرْدِ

فهذا أميرُ المؤمنين أميرُهم سبانا، وأغناكُم أراذلةُ الجند

إذا شاء منهم ناشئٌ مدَّ كفَّهُ إلى كَبِدٍ ملساءَ أو كفلٍ نهدِ(١)

رغبة الجنود بالأموال والغنائم الى جانب المحرض الديني وهو الجهاد جعلتاهم يرضون بالتجمير. وتقدم لهم الدولة المال والطعام، والفخر، والجارية ليتمكن من مقاومة الحنين الى الوطن وأهله.

وعلى ما مضى ظل عدد من الشعراء الجند يتلذذون بالحروب، ويتسارعون الى دخول ساحة الجهاد، من أجل الحصول على الأجر الأخروي، وإن كان في سن عالية يرفع به الواجب الملقى على عاتقه، فلامته زوجته على استمراره في طريق الجهاد، وهو في هذه السن العالية فقال:

وقالتْ قد كبرتَ فقلتُ كلاّ وربِّ البيتِ والشهرِ الحرامِ

---

(١) الجاحظ: المحاسن والأضداد: تحقيق فوزي العطوي الشركة اللبنانية للكتاب بيروت ١٩٦٩، ص ١٣٥

لقد أبطلت ما كبَري بمدنٍ إلي حليلتي قَدْر الحمام
سأغزو أو أموتُ كذا خفاتا ولا آتي بداهيةٍ عظامِ[١]

وظل للعطاء والرزق قيمة كبرى وفاعلية قصوى في اتجاه الشعراء إلى الفتوح وإن خاب أمل الشاعر، أو الشاعر الجندي في العطاء ورفد القائد، فإنه لا يتأنى في أن يشير إلى ذلك، وهذا مالك بن الرَّيْب لما خاب أمله في سعيد بن عثمان، ولم يزد في عطائه ورزقه قال:-

يا قلّ خيرِ أميرٍ زلتُ أتبعهُ ألست ترهبني أم زلت ترجوني
منَّيتموني أمانيا قنعتُ بها حتى إذا ما جعلتم مقنعاً دوني
كانت أمانيكم ريحاً شآمية ظلّت بمختلف الأرواح تؤذيني[٢]

وكانت لمالك مطامع مادية ومطامح شخصية في انضمامه إلى الفتوح، وهذا ما جعله يبدي حنينه إلى بلاده كثيراً، لما رأى فشله في جمع المال، وقفوله بسرعة إلى بلاده، فكان كثير الحنين الى ماضيه وبلاده.

فالسيف غيّر طريقة استعماله وأحسن توجيهه، ولكنه لم يعد يأتي بخير سريع، كما تعود في مغازية وغاراته اللصوصية، وكأن الشاعر وقف يرثي نفسه قبل دخوله ساحة الجهاد، وفي هذه اللوحة الفنية، التي سجل فيها حوارا مؤثراً مع ابنته، وهي تحاول جاهدة أن تمنعه من المضي في الطريق الذي اختاره متأخراً:-

ولقد قلتُ لا بنتي وهي تبكي بدخيل الهموم قلباً كئيباً
وهي تَذْري من الدّموع على الخدّ ين من لَوْعة الفراقِ غروباً
عَبَراتٍ يكدْنَ يجرحن ما جز ن به، أو يَدَعْن فيه نُدوبا
حذرَ الحتفِ أن يصيب أباها ويلاقي في غير أهلِ شعوبا
اسكتي قد حززتِ بالدَّمع قلبي طالما حزّ دمعكن القلوبا
فعسى الله أن يدفع عني ريبَ ما تحذرين حتى أؤوبا [٣]

---

(١) السجستاني: المعمرون والوصايا، ٦٩- ٧٠.

(٢) ابن أعثم: الفتوح: ٤/ ١٩٤

(٣) نوري القيسي: شعراء أمويون: ١/١٥.

وظل حس الحنين يلاحق مالك بن الريب في مرثيته لنفسه كما نراها عند عدد من الشعراء الذين عانوا الحنين الى بلادهم النائية، وأهلهم البعيدين عنهم، فالصُمة القشيري كان من أكثر الشعراء إثارة في وصف الحنين الى أهله وبلاده إذ كان عاشقاً لابنة عمه، ولم يوفق في هذا العشق، فانضم إلى جيش الفتوح الإسلامية، وحنَّ إلى أهله الذين سكنوا الشام، وحبيبته التي تسكن اليمن فقال:-

أصبحت ماليَ من عزِّ ألوذُ به ... الا التعززُ بعدَ السيفِ والبدنِ

بعرْضةٍ جانَب الأدْنونَ جانبَها ... والأهلُ بالشامِ والإخوانُ باليمن[١]

وكان من خبره أنه خطب ابنة عمه، فاشتط عمه في المهر عليه، وبخل عليه أبوه بالجمال. فزوِّجت من غيره، فغضب من عمه وأبيه ، وخرج الى طبرستان، وهي مقر الديلم، فأم به مدةَ حياته الى أن مات فيها لهذا تراه يحن الى نجد، وتارة يذمه » [٢]

كان للفقر دور غير مباشر في هجرة الصمة القشيري الى مناطق الفتوح، والاكتتاب في الجيش، إذ كان فقره بعد منع والده الجمال عنه ليقدمها مهراً لعروسه سبباً قوياً في رفض عمه تزويجه من ابنته، ونلمح ذا في قوله:

ذَرانيَ من نَجْدٍ فإن سنينه ... لعبنَ بنا شيباً وشيبننا مُرْدا

لحا الله نجداً، كيف يتركُ ذا الندى ... بخيلاً وحُرَّ الناس تحسبه عبْدا

على أن نجداً، قد كساني حُلّةً ... إذا ما رآني جاهلٌ ظنُّني عبدا

سواداً وأخلاقاً من الصوف بعدما ... أراني بنجدٍ ناعماً لابساً بُرْدا

على أنه قَد كان للعين قرّةً ... وللبيض والفتيان منزلةً حمدا

سقى الله نجداً من ربيع وصيِّف ... وجودٍ وتسكابٍ سقى مزنهُ نجدا [٣]

---

(١) الأغاني: ٦/٥-١٥، والبغدادي- خزانة الأدب- ٨/٦٢-٦٣.

(٢) البغدادي، خزانة الأدب: ٨/٦٣

(٣) البغدادي: خزانة الأدب، ٨/٦٢، أخلاقاً: أي الخلق من الثياب.

وظلّت ريا محبوبته، ونجد دياره مهويا قلب الشاعر الغازي فراح يذكر حنينه إليهما، ولجمال الأبيات غنيت صوتاً:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً بسُعْدٍ، ولمّا تخل من أهلها سُعْدُ
وهل أقبلنَّ النَّجدَ أعناق أيْنُق وقد سار مَسْياً ثم صبَّحها النَّجدُ
وهل أخبطنَّ القَوْمَ والريحُ طلّةٌ فروعَ الآءِ، حفهُ عَقدْ جَعْدُ
وكنت أرى نجداً وريّا من الهوى فما من هوايَ اليومَ ريّا ولا نجدُ
فدَعْني من ريَّا ونجدٍ كليهما ولكنّني غادٍ، إذا ما غدا الجندُ[1]

إذا كان مالك بن الريب بحث عن المال للاستقرار فإن الصمة بحث عنه للإحساس بالقوة والوجود.

ورأى عبد الله بن أبي معقل[2] في الفتوح مجالاً مفتوحاً للتشمير والتجارة كما نفهم من الحوار الذي دار بينه وبين مصعب بن الزبير حين ولي المدينة، ووفد إليه ابن أبي معقل ولقيه، فدخل اليه يوماً وهو يندب الناس إلى غزوة زرنج ويقول: من لها؟ فوثب عبدالله وقال: أنا لها، فقال له مصعب: اجلس، وتكرر الأمر ثلاثاً ثم خاطبه عبد الله: قد علمت انه ما يمنعك مني إلا أنك تعرفني ولو انتدب إليها رجل ممن لا تعرفه لبعثته، فلعلك تحسدني أن أصيب خيراً أو استشهد فأستريح من الدنيا، وطلبها فأعجبه قوله وجزالته فولاه فأصاب في وجهه ذلك مالاً كثيراً، وانصرف الى المدينة فقال لزوجته:-

أأمَّ نهيك ارفعي الطرف صاعداً ولا تيأسي أن يثريَ الدهرَ بائسُ
سيغنيكِ سيري في البلادِ ومطلبي وبعلُ التي لم تحظَ في الحي جالسُ
سأكسب مالاً أو تبيتن ليلة بصدرك من وجدٍ عليَّ وساوسُ
ومن يطلب المالَ الممنعَ بالقنا يعش مثريا أو يودِ فيما يمارسُ[3]

(١) ابراهيم الغماري: ١١٣- ١١٤- نقلا عن ديوان الصمة القشري: ٥٤

(٢) عبد الله بن أبي معقل بن نهيك بن الأنصاري، شاعر مقل حجازي من شعراء الدولة الأموية، وكان يقال لأبيه منهب الورق لكثرة ماله فانهبه أهل المدينة، وكان كثير الأسفار في طلب الرزق. انظر ترجمته في الأغاني، ٢٤/ ١٥.

(٣) الأغاني: ٢٤/١٤- ١٩

وشمل البكاءُ الرجال والنساء الذين هاجروا بفعل الفتوح كما صورها ثابتُ قطنة[١] في قصيدة يمدح فيها القائد نصر بن سيار وهو يقاتل الترك، وفيها وقف ثابت على الأطلال، وقد غير المطُر رسمها كالعادة، ثم عرج على حنينه إلى موطنه فقال بحزن شديد:

ما هاج شوقُكَ من نُؤي وأحجار ... ومن رسوم عفاها صوبُ أمطارِ

لم يبق منها ومن أعلامِ عرْصَتِها ... إلا شجيجٌ وإلا موقدُ النارِ

ومائل في ديار الحي بعدهم ... مثلُ الربيئة في أهدامه العارى

ديارُ ليلى قَفارٌ لا أنيسَ بها ... دون الحجون، وأين الحُجْنُ من داري

بُدِّلْت منها، وقد شط المزارُ بها ... وادي المخافة لا يسرى بها ساري

بين السماوةِ في حزْم مشرّقةٍ ... ومعنقٌ دوننا آذيّهُ جار

نقارعُ التركَ ما تنفكُ نائحةٌ ... منا ومنهم على ذي نجدّةٍ شارِ[٢]

ارتبط الحنين عند ثابت قطنه بالقتال، وأظنه لولا القتال وصولته وصعوبته وعدم إحساسه بالأمان، وكثرة النوح على القتلى العرب لما كان يحن الى ديار ليلى في السماوة، والحجون في الجزيرة. وهذه أمكنة عربية سكنها العرب، ولم يكن الساكن فيها وحده، يبدو أن العربي لم يندمج في هذه البيئة كثيراً كما اندمج العرب مع أهل الشام والعراق، أو حتى مصر والمغرب، ولذا ظهر الحنين، وصلاهم هجيرهُ بشدة ففي الأمان والاستقرار يشعر الإنسان أنه صنع شيئاً، وجنى ثمار جهوده، واستغل غنائم الفتوح في إسعاد ذاته وأهله، ولكن الفتوح لم تثمر دائماً كما رأينا واستمر التجمير والتهجير إلى مناطق الفتوح، لذا كانت ظاهرة الحنين ترافق الفتوح المتأخرة، وكأنها الوجه الآخر للحالات الاقتصادية التي شجعت

---

(١) هو ثابت بن كعب، ولقب قطنة لأن سهماً أصابه في احدى عينيه فذهب بها في بعض حروب الترك وهو شاعر فارس شجاع من شعراء الدولة الأموية وكان في صحابة يزيد بن المهلب، وكان يوليه أعمالاً من أعمال الثغور فيحمد فيها مكانه لكفايته وشجاعته. الاغاني، ٢٥٥/١٤.

(٢) الطبري: ٥٦/٧ الشجيج: الوتد المشقوق الرأس. المائل: أظنها (ماثل، وهي الرماد. الربيئة طليعة تقوم ينظر لهم العدو كي لا يدهمهم.

الحجون: جبل بأعلى مكة. الحَزْم: ماغلظ من الأرض: المعنق: المرتفع. الآذي: الموج

الجنود على الرحيل بعائلاتهم لإتمام الفتح. وقد يكون إحساس الشعراء بالحنين ندماً على ماظنوه من أن الفتوح تقدم إليهم ما بحثوا عنه كثيراً. ونجد هذا الأمر عند مالك بن الريب، حين أحس بفشله في البحث عن الأمان الاجتماعي والاقتصادي، واقترابه من الموت بعيداً عن أهله ودياره، تمنى لو أنه مازال في الصحراء، يعيش اقتصادها، وكأن الفتوح فتح جديد حينما قال:-

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة — بجنب الغضا أزجي القلاصَ النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركبُ عُرْضَه — وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا — مزارٌ، ولكن الغضا ليس دانيا
ألم ترني بعتُ الضَّلالة بالهدى — وأصبحتُ في جيش ابنِ عفان غازيا
دعاني الهوى من أهل ودي وصُحْبتي — بذي الطَّبَسَيْنِ فالتفتُّ ورائيا
أجبت الهوى لما دعاني بزفرةٍ — تقنعت فيها أن ألام ردائيا
لعمري لئن غالت خراسان هامتي — لقد كنت عن بَابيْ خراسان نائيا.[1]

لكننا نجد نغمة الحنين عند شاعر آخر كأعشى همدان مثلاً ترتبط بالاعتزاز بفتوته وشبابه، ويتذكر محبوبته التي عشقها، وبعد أن أحسن وصفها ذكر أنها تنتمي إلى الكوفة، ويحمل الشاعر بين جوانحه شوقاً مثيراً إلى الكوفة من خلال محبوبته الكوفية:-

وقولا لذي طَربٍ عاشقٍ — أشطَّ المزارُ بمن تذكرُ؟
بكوفيةٍ أصلُها بالفرا — تِ، تبدو هنالك أو تحضرُ[2]

ونجد الأمر أكثر حدة لدى عمرو بن أحمر الباهلي، فيشكو هجرة أهله من نجران الى الجزيرة الفراتية بعامل الفتوح؛ ثم هجا المدينة واقتصادها الزراعي فقال:-

لقد ظعنت قيسٌ فألفت بيوتها — بسِنْجارَ فالأجزاعِ أجزاعِ دوسرا

(١) القرشي: جمهرة أشعار العرب: ٧٥٩

(٢) الاغاني: ٤٩/٦

وقد كان في الأطْهارِ، أو رَمْلِ فارزٍ ... أو الدَّوْمِ لما أنْ دنا فتهصَّرا

غنىً عن مياهٍ بالمديبر مُرَّةٍ ... وعن خَرِبٍ بنيانهُ قد تكسَّرا

أبعد حلولٍ بالرُّكاء وجاملٍ ... غدا سارحاً من حولنا وتنشَّرا

تبدَّلتَ اصطبلاً وتلاً وجرةً ... وديكاً إذا ما آنسَ الفجرَ فرفرا

وبستانَ ذي ثورين لالينَ عنده ... إذا ما طغى ناطوره وتغشمرا

أبا سالمٍ إن كنت وُلِّيتَ ما ترى ... فأسجح فقد لاقيت سكنا بأبهرا

جزى الله قومي بالأبلةِ نصرةً ... وبدواً لهم حول الفِراضِ وحُضَّرا(١)

كره عمرو الباهلي حياة الشام واقتصادها، رفض الحياة الحضرية وحن الى نجد واقتصادها، فقومه قبل الهجرة كانوا يقيمون في نجد، ويمارسون نظام الرعي، وبهجرتهم إلى الجزيرة الفراتية تحولوا الى ممارسة النظام الزراعي.

---

(١) ديوان عمرو بن احمر الباهلي : ٨٢-٨٦، وانظر النص في ٧٩-٧٦.

جزع موقع قرب الرقة. دوسر : قلعة قرب الرقة. الأطهار قرية من نجران المديبر: موقع قرب الرقة : الركاء وادٍ في ديار بني عجلان : الجامل : الجمل ذو ثورين : أراد بها النظام الزراعي ومجتمعه، الأبلة : ميناء بالبصرة، تغشمر: بدا منه العنف اسجح: لان، أبهر: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان.

الفصل الخامس

ظاهرة شكوى الفقر والاحتجاج الاقتصادي في الشعر الأموي

الفصل الخامس

ظاهرة شكوى الفقر والاحتجاج الاقتصادي في الشعر الأموي

شيوع الترف في الأوساط المدنية، وبين الفاتحين لا يعني أبداً، أن الجميع شملهم الترف والغنى، وعاشوا برفاهية. وظهور إمام عادل كعمر بن عبد العزيز لا يعني البتة القضاء على الفقر وجيوبه، وسيادة العدالة حتى كادت تشمل الجميع، ويرضون بها. فدولة امتدت أطرافها إلى خراسان وفارس والأندلس، وتنظر بشغف إلى الهند والسند، ووصلت أيديها إلى المغرب والحبشة ومصر، لا بد أنه كان يغني وجود الفقر والفقراء في أمكنة قد لا تصل إليها أيدي الفاتحين لانشغالهم بالفتوح العظيمة، وتوزيع غنائم الفتح على الفاتحين. وحرمان الأعراب من غير المهاجرين إلى الحواضر، أدى إلى نسيانهم بعض الشيء. أو إلى حدوث خلخلة اقتصادية نتيجة حدوث خلخلة اجتماعية في العصر الأموي. وما رافقها من تغير في أنظمة الإنتاج، واتجاه المدن إلى النظامين الزراعي والتجاري، فانخفضت القيمة الشرائية للعملة وارتفعت الأسعار وازداد الضغط على الكماليات نتيجة تدفق الأموال إثر الفتوح.

اعتياد الناس على المال والغنى ساعات من حياتهم يعني أن يطلبوا وسائل الترف بما يملكون، وفوجئ البداة لدى قدومهم الأمصار وأسواقها، بغنى المدينة وأهلها، وأزعجهم هذا الغنى المفقود، وإن كانوا بداة فاتحين فقد اعتمدوا على العطاء، والعطاء كان يمنع أو ينفذ حسب سياسة الخليفة أو الوالي وأحياناً العامل أو العريف. وهذا العطاء ما كان ليسد النفقات الضرورية للحياة، فكيف به وهو يقف مع المترفين الذين استغلوا أموالهم في الزراعة أو التجارة، وهو مكتوف اليدين لا يمارس عملاً آخر إلى جانب كونه صاحب إبل يكفي قوته في الصحراء المقفرة.

أما الذين عادوا بغنائم الفتح وما اعتادوها قبلئذٍ فأنفقوها، ولم يدركوا كيفية الإفادة من هذا المال، لأنهم لم يعتادوه كتجار مكة، وزراع المدينة والطائف فزاد غنى أولئك، وافتقر البداة، ولم يبق في أيديهم إلا العطاء. وزادت الأنظمة الإنتاجية في تعميق الهوة بين الفريقين. فنظام الرعي الذي يعتمد على الماء والكلأ مرهون بالخصب والمطر، بينما نظام الزراعة، بدأ يعتمد على الأنهار والقنوات وحفر الآبار وإقامة السدود، والتجارة تعتمد على تأمين مسالك الطرق، والعمل على إنهاء الغارات الفردية والقبلية.

أولاً: شكوى الفقر

شاع الفقر في البادية والمدينة على السّواء كما شاع الغنى. وصوّر الشعراء الفقر والجوع والإقلال تصويراً يكاد يكون مطابقاً للواقع في بعض صوره، ومجانباً له في أحايين كثيرة. وعلى كثرة شيوع الفقر قلّ التصريح به في الشعر. ولا جرم أن هناك أسباباً مهمة، وكثيرة وراء قلة تصوير الشعر للفقر خاصة على المستوى الفردي، قد يكون أكثرها اتصالاً بذلك منظومة القيم الخلقية التي اهتم بها العربي. وهي الحياء من إظهار الفقر والجوع، حتى لا يظن بأنه بخيل أو يكره الضيفان وقال القتال الكلابي:

إذا جاعَ لمْ يفرح بأكلةِ ساعةٍ ... ولم يبتئس من فقدها وهْو ساغبُ

يرى أنْ بعد العسر يسراً ولا ... إذا كان يسر أنه الدهرَ لازبُ[1]

وفيما سبق دلالة واضحة على أن الأعرابي كان يأنف من إظهار صورة الفقر حتى في ساعة الجوع وعلم الآخرين بفقرهم[2]. ولا يأبه بحضور الطعام بعد الجوع ولا يبتئس إن افتقده وهو في أشد الحاجة إليه. وتخلق الأعرابي بالحزم وواسى نفسه كثيراً.

---

(١) ديوان القتال الكلابي: تحقيق إحسان عباس: دار الثقافة -بيروت- ت١٩٦١: ص٢٩.

(٢) ديوان هدبة بن الخشرم جمع وتحقيق يحيى الجبوري - وزارة الثقافة والإرشاد القومي- بغداد- ١٩٧٦: ص٦٨. ديوان النابغة الشيباني: تحقيق عبد الكريم ابراهيم يعقوب- وزارة الثقافة السورية- دمشق- ١٩٨٧: ص ١١٨، ديوان الراعي النميري ٢١٧، ديوان مسكين الدارمي: تحقيق عبد الله الجبوري وخليل عطية- دار البصرة - بغداد- ١٩٧٠-ص ٤١-٤٢.

وإذا كثرت الأموال في حجر بعض الأعراب فإنه يميل إلى بذلها للصحب والفقراء، وللناس والضيفان ولغيرهم، بينما في المدينة يكثر المدني من إكتراء العقارات، ويكثر من زوراته إلى الأديرة والحانات والأسواق. وهو نوع من أنواع إسعاد الذات.

ومال الفرد إلى تحسين وضعه الاقتصادي بطريقة مهذبة وحضارية، فكانت عن طريق التكسب حيناً كما رأينا، وحيناً مال إلى الاكتفاء بما عنده ليواجه الظروف الاقتصادية الصعبة حيناً ثانية، وزهد في الحياة الدنيا ومتعها وشهواتها ثالثاً، ورابعة شكا الفقر والجوع وضنك المعيشة، وحمّلها ناقته، وسحابة سمائه، وبيئته.

ويرى نبيل خانجي أن سياسة البذل المضادة للفقر نجمت عن سياسة الأمويين الاقتصادية التي لم تتح للمجتمع البدوي أن يكتفي بموارده، فظلت حاجات الأعراب معتمدة إلى حدّ كبير -على أريحية الأفراد وبذلهم في سبيل العشيرة أكثر من اعتمادها على ما كان يمكن أن تتيحه أحكام الصدقات والأحماء - ولو التزمت التزاماً كاملاً. من نظام مطرِّد في توزيع الثروة وكفاية البادية، ولذا ظهرت صورة البطل الاجتماعي في المجتمع البدوي. بينما في الأمصار رسخ مدح ذوي السيادة من الخلفاء والولاة، فكما البطل مطالب بالبذل، فكذا الممدوح »[1].

ما قاله خانجي يصدق إلى حد كبير ولكنه جعل أهل المدن يتعرضون لقطع العطاء، ولذا مالوا إلى كسب من نوع مختلف، وكأن الكسب في المدن محدود بالتكسب. وهذا يعني أن الفقر انتشر في الحاضرة والبادية وارتبطتا بالسياسة الأموية الاقتصادية. لكن خانجي لم يقف مفسراً لهذه السياسة وما لها من دور في خلق حالة الفقر المدقع، وتناول الفقر ضمن التكافل الاجتماعي ولم يتناوله ضمن السياسة الأموية في استغلال موارد البادية والمدينة.

استغل جانب من السياسيين الأمويين حاجات الناس، فقطعوا العطاء مرة عن أهل الحجاز، وبالتحديد عن المضرية[2] ثم عاد معاوية إلى بذلها ثم زاد الحجاج في

(١) نبيل خانجي: أثر الحياة الاقتصادية في شعر البداة في العصر الأموي: رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٨٧، ص١٨٣-١٨٤.

(٢) ابن عساكر:٥/ ٣٠٠

عطاء أهل الشام المقيمين في العراق وحرم العراقيين من هذا الامتياز، حتى قال عبد الملك بن مروان:

عليك بتقوى الله في الأمر كله وكنْ يا عبيد الله تخشى وتضرع
ووفّر خراج المسلمين وفياهم . وكن لهم حصناً تجير وتمنع(١)

دعاه إلى التوفير في الخراج والفيء، ولكننا لا نلمح رغبة عبد الملك في العدالة.

وشكوى الفقر لا نكاد نلمحها قصيدة متكاملة لها حضور قوي ومباشر، ولكننا نجدها ضمن موضوعات أخرى كالمدح أو الهجاء أو وصف الرحلة أو الناقة أو من حوار بين الشاعر وزوجته أحياناً، وبينه وبين ابنته أحياناً أخر وظلت شكوى الفقر ظاهرة فردية، لم تتجاوز الفرد إلى القبيلة أو المجموع إلا ما ندر، وفيها تصل إلى مرحلة الاحتجاج الاقتصادي.

فالشكوى إذن فردية والاحتجاج جماعي، الشكوى يضمنها الشاعر طلب رفد خاص أو زيادة في العطاء، أو أكلاً أو إقطاعاً ما. فيشكو الجوع والفقر وضنك المعيشة ويرفدها بمدح للعامل أو الوالي أو الخليفة ولذا فهي فردية تخص الشاعر وحده.

أما الاحتجاج الاقتصادي، فالشاعر يتكلم باسمه واسم قبيلته ليرفع عنها الجوع، والتجويع المقصود نتيجة عدم رضا الحكومة عن القبيلة. قد تكون لمواقفها السياسية أو الدينية من الحكومة، أو ليرفع إلى الخليفة احتجاجاً اقتصاياً يشكو فيه ظلم السعاة، وتشدد العرفاء في قبض الصدقات، أو يشكو إليه الصراع على الحمى ومصادر الماء. وهذه الأمور المطلوبة لا تخص فرداً واحداً، إنما تخص قبيلة كاملة، الشاعر أحد أفرادها، فهي احتجاج جماعي.

وثمة فرق بين الشكوى والاحتجاج، فالشكوى قد يخاطب فيها الفرد حكومة أو والياً، أو جواداً أما الاحتجاج فإنه يخاطب الحكومة أو ممثليها دائماً، ويحتج في

---

(١) نبال خماش: شعر الخلفاء في العصر الراشدي والأموي: (د. م)، ١٩٨٤، ١٣٢.

النص على سياسة الحكومة الاقتصادية نتيجة عدم تفهم أوضاع الشعب، وعدم فهم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وعدم القيام بمسؤولياته تجاه الشعب.

تحدث عمرو بن أحمر الباهلي وكثيرون عن سني الجوع، جوع الأطفال والنساء وكان أهل البادية أكثر تصويراً لهذه الحالة من أهل المدن، فعرض عمرو صورة مأسوية لجوع النساء والأطفال دون أن يشكو ذلك مباشرة إلى السلطان فقال:

أتانا طموحَ الرأس عاصبَ رأسِهِ ... فمَنْ لك منْ أمر العماس المُلوَّمِ
يصلِّي على من مات منّا عريفُنا ... ويقرأُ حتى يَعْصبَ الريقُ بالفم
علهْنَ فما نرجو حنيناً لحرَّةٍ ... هجانٍ، ولا نبني خباءً لأيِّم
ليهنكم أنا نزلنا ببلدةٍ ... كلا مَلَويْها مبئسٌ غيرُ منعم
تُمشِّي بأكناف البليخ نساؤنا ... أراملَ يستطعمن بالكفِّ والفم
نقائذَ برسامٍ وحمّى وحَصْبَةٍ ... وجوعٍ وطاعون ونَقْرٍ ومَغْرَمِ[1]

جرأة عالية من عمرو في تصوير حالة الفقر التي عاشها أبناء قبيلته، وما ألمّ بهم من جوع وأمراض، وما حدث فيهم من موت، والدولة لا تسمع إلى شكواهم.

توالت سني القحط والجدب، فشغلت بال الكثيرين خاصة المتأبدين في الصحراء[2] وكذلك غير البداة، فوصف الكميت بن زيد الجماد والبرد لما لها من أثر في إحداث الجوع:

وفي السنة الجمادِ يكون غيثاً ... إذا لم تعط درّتها الغضوبُ
وروّحتِ اللقاحُ مُبْهلاتٍ ... ولم تعطف على الرُّبع السلوب
وكان السّوف للفتيان قوتاً ... تعيش به وهيب الرَّقوب
وصار وقودهم للحي أمّاً ... وهان على المخبّأة الشحوب[3]

---

(١) شعر عمرو بن أحمر الباهلي، ١٥١-١٥٣، طموح الرأس: رافع رأسه من الكبر، الأمر العماس: الشديد المظلم، الملوّم: الذي لا يزال يأتي بما يلام عليه، عصب الريق: جف ويبس، علهن: نازعتهن نفسهن إلى الشي. الهجان: البيضاء، الخباء: البيت، الأيم: التي لا زوج لها، الملوان: الليل والنهار، البليخ: نهر بالرقّة، النقائذ: جمع نقيذ وهو الفرس الذي أنقذته من العدو، ابرسام: العلة، النقر: داء يأخذ المعزة في حوافرها و أفخاذها، المغرم: الدين..

(٢) نفس المصدر: ١١٨-١١٩.

(٣) ديوان الكميت بن زيد الأسدي: ١/ ٨٤-١٩٨٥. وانظر ١٢٦-١٢٧. الرقوب: التي لا ولد لها، السّوف: المماطلة من شدة الجوع.

وضاقت أحوال بعض الأعراب نتيجة الجدب، فورد أعرابيٌّ على عمر بن هبيرة يشكو الفقر والجدب ببساطة الأعرابي وسذاجته:

أصلحك اللهُ، قلَّ ما بيدي فما أطيقُ العيالَ إذا كثروا

ألحّ دهرٌ أنحى بكَلكلهِ فأرسلوني إليكَ وانتظروا

رجَوْك للدهر أن تكون لهمْ غيثَ سحابٍ إن خانهمْ مطرُ

فأخذت عمر الأريحية، فجعل يهتز في مجلسه، ثم قال: «أرسلوك إليّ وانتظروا، إذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم غانماً فأمر له بألف دينار وردَّه على بعيره»[1].

وظلت شكوى الفقر سمة بارزة من سمات الأعراب، يشكون الفقر والإقلال، ويتمنون الغنى، ولكننا نجدها أبياتاً متناثرة في كتب الأدب، ولم تشكل نصوصاً صارخة إلا ما ندر وروى الجاحظ نصوصاً كثيرة على لسان الأعراب يشكون الفقر منها:

ألا فتىً أروعَ ذا جمال من عرب النّاسِ أو الموالي

يعينني اليومَ على عيالي قد كثّروا همّي وقلّ مالي

وساقهم جَدْبٌ وسوءُ حال وقد مَلِلتُ كثرة السُّؤالِ[2]

ومن أغرب صور الشعراء في تصوير الفقر كانت لجرير، عرض فيها ظاهرة غريبة كانت قد شاعت، وأسندها لمهجويه - وعيّرهم بأنهم قد باعوا بناتهم من الفقر:

أبلغ أبا هرمزٍ عني مغلغلةً وابني خُذُنّة صعروراً وفرناس

ما كنتُ أوّل ضاع صكّةٍ حجرٍ ألوَت به منجنيقٌ ذاتُ أمراسِ

أبعت بنتك إذ عضّتك مجحفةٌ من السنين عوان ذات أضراس[3]

---

(١) المبرد: الكامل: ١/ ١٩٠.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين: ٤/ ٧٦.

(٣) ديوان جرير الخطفي، ٣/ ٧٢٠. المجحفة: المذبة، ابو هرمز وصعرور وفرناس: رجال من بني سليط.

وكان جرير قد شكا كثرة العيال من قبل، وقد وفد على عبد الملك بن مروان يطلب النجدة لنفسه، لا لقومه، لكثرة عياله الذين يحتاجون الغذاء، ويتقاتلون عليه فقال:

أشكو إليكَ فأشكني ذريّةً ... لا يشبعونَ وأمُّهم لا تَشْبعُ
كثروا عليّ فما يموتُ كبيرُهم ... حتى الحساب، ولا الصغيرُ المرضعُ
وإذا نظرت يريبني من أمِّهم ... عينٌ مهجَّجةٌ وخدّ أسفعُ
وإذا تقسَّمت العيالُ غبوقها ... كثر الأنينُ، وفاض منها المدْمَعُ
رشني فقد دخلت عليّ خصاصةٌ ... مما جمعتَ وكلّ خيرٍ تجمَع

صورة غريبة ومفجعة تلك التي صوّرها الشاعر لزوجته وأطفاله، لغت العاطفة المتوهجة في عمق جرير الشاعر تجاه زوجته وتحوّلت إلى عطف وإشفاق ووصل الفقر به إلى حد تمنى فيه الموت للكبار والرّضع. وركز جرير على إظهار صورة الأم أي زوجته، فلا تسمح نفسها بغبوقها لشدّة جوعها، وتبكي عيونها دموعاً غزارا إن شرب أبناؤها شرابها أو أكلوا أكلها، وطلب إعانة الخليفة على هذا الوضع المأسوي.

ومبالغة جرير في وصف الفقر، وكثرة من يعولهم تدل على جشعه وبخله ورغبته في التكسب، وعلى ذلك لا يخلو الأمر من وجود الفقر ظاهرة، حتى انحلت بعض القيم في وصف الزوجة، وعدم افتدائها بالغالي والرخيص. فلا نعجب إذن أن يستنحلَ جدّ جرير ماله، وكان الجدّ ذا مال كثير فقال جرير يعاتبه:

وإني لمغرورٌ أُعَلَّلُ بالمنى ... لياليَ أرجو أن مالَكَ ماليا
وقائلةٍ والدّمعُ يحدرُ كُحْلها ... أبعد جريرٍ تكرمون المواليا
بأيّ نجادٍ تحمل السيف بعدما ... قطعتَ القُوى من مِحْمَلٍ كان باقيا
بأيّ سنانٍ تطعنُ القومَ بعدما ... نزعت سناناً من قناتك ماضيا
وإني لعفّ الفقر مُشْتَرَكُ الغنى ... سريعٌ- إذا لم أرض داري- انتقاليا[1]

(١) المصدر نفسه: ١/ ٢٩٩-٣٠٠.

هدّد جريرٌ أهله بالتحوّل إلى دار أخرى لأن جدّه لم يكرمه فيعطيه أمواله ويدهش جرير من حاجة الجد إلى الأموال؟ أيريدها للموالي ما دام يطلبها من الأبناء. واعتز جرير بشاعريته، ودفاعه عن القبيلة. فجرير لم يملك سيفاً مادياً إنما يملك الشعر الذي يدافع به عن قبيلته في السرّاء والضرّاء.

وحمّل جرير غيره ظاهرة الفقر في طلب النوال، فشكاه كثيراً وصوّر الزمان المجدب الخالي من الحياة: نباتاتها، وحيواناتها، وانتشار الجليد، وجوع الفتيان، وتشوه جمال المرأة، فرحل إلى الحجاج، وكان أكثر حدّة في شكواه، وأكثر إيماناً باستجابة الحجاج للشكوى حين قال:

ألا نشكو إليكَ زمانَ مَحْلٍ	وشربَ الماءِ في زمن الجليدِ
ومعتبةَ العيالِ وهم سغابٌ	على دَرِّ المُجالِحة الرُّفودِ
زماناً يترك الفتيات سوداً	وقد كان المحاجرُ غيرَ سودِ[1]

فرأى من الواجب رفع الشكوى إلى الوالي، وبالغ جرير في وصف صورة الفقر التي شملت أبناءه، ولم يتوان لحظة في الاحتجاج لدى الوالي إن منعه عطاءه، ويعجب جرير من وجود الصورتين المتناقضتين: صورة الغنى والفقر، الوالي المتمتع بالغنى والعطاء، الشاعر المحروم منه، ولا أسباب مقنعة لذلك كما رأى الشاعر فقال:

لقد كان ظني يا ابن سعدٍ سعادةً	وما الظنُّ إلا مخطئٌ ومصيبُ
تركت عيالي لا فواكهَ عندهم	وعند ابن سعدٍ سكّرٌ وزبيبُ
تحنّى العظام الراجفات من البلى	وليس لداء الرّكبتين طبيبُ
كأنّ النّساءَ الآسراتِ حنينني	عريشاً فمشيي في الرّجال دبيبُ
منعتَ عطائي يا ابن سعدٍ وإنما	سبقتَ إليّ الموت وهو قريبُ
فإنْ ترجعوا رزقي إليّ فإنهُ	متاع ليالٍ والحياةُ كذوبُ[2]

---

(١) ديوان جرير: ٢/ ٧٢٨. المجالحة: التي تدوم على محلبها.

(٢) ديوان جرير: ٣/ ٧٣٠.

توفر عند العامل (ابن سعد) كلُّ شيء حتى الكماليات، بينما يعيش جرير وأبناؤه في الحرمان. وهذا النص مظهر من مظاهر الصراع على المال والغذاء، ودليل على فساد الحياة الاقتصادية في البادية، فيقطع العامل (ابن سعد عامل اليمامة) العطاء عن جرير، لا لشيء، فشكا جرير هذه العلاقة غير السوية. فقطع العطاء عن جرير حالة خاصة وفردية. ولم يستطع جرير جعل القضية عامة وجماعية ليكسب القضية إعلامياً.

ويرى الدكتور مخيمر صالح أن إنتاج جرير الشعري قد قلّ في هذه الناحية، لأنه كان يدرك أن الفرزدق قد أبعده عن زعامة القبيلة الشعرية، ويبدو أن جريراً قد سلّم للفرزدق بذلك الدور»[١] ما قاله مخيمر يصدق إلى حدٍّ كبير خاصة إذا أضفنا إليه وضع جرير السياسي، وهواه الزبيري القيسي، بينما الفرزدق استطاع أن ينقل مشكلته الاقتصادية إلى مستوى الجماعة، ولم يخف سطوة الحكومة، فخاطب الخليفة وعامليه الحجاج وابن هبيرة، ودافع باسم تميم عن أفرادها، واستغل قضايا قبيلته في حل مشكلته الفردية. وعبّر الفرزدق عن المآسي التي تعانيها قبائل مضر في حين انتشرت قبائل أخرى في ريف غني مروي فخاطب الوليد:

أغث مضراً إنّ السنين تتابعتْ	عليها بحزٍ يكسر العظمَ جازرُهْ
فكلُّ معدٍ غيرُهُمْ حول ساعدٍ	من الرِّيف لم تُحْظر عليهم قناطرُهْ
وهم حيث حلَّ الجوعُ بين تهامةٍ	وخيبرَ والوادي الذي الجوعُ حاضرُهْ
بوادٍ به ماءُ الكُلابِ وبطنُهُ	به العلمُ الباكي من الجوع ساجرهْ
وهمّت بتذبيح الكلاب من الذيّ	بها أسدٌ إذ أمسكَ الغيثَ ماطرُهْ[٢]

وظهرت قضية الفقر على مستوى آخر من مستويات ظهورها وهو مستوى الهجاء والتعيير بالفقر، ولكننا لا نجد الهجائين من أغنياء الأمة إنما هم أحسن حالاً

(١) مخيمر صالح: شعر الاحتجاج الاقتصادي في العصر الأموي: دار الفيحاء، عمان، ط١، ١٩٨٨، ص٤٠.

(٢) ديوان الفرزدق: ص٢٢٠-٢٢٢. الساجر الموضع الذي يأتي عليه السيل فيملؤه، الساعد: الناحية.

من المهجوّين. والفقر عندهم قد يقود إلى اللؤم، ومن جاع خاف، ومن خاف ذل ولذا خاف بعضهم الفقر، وعمد إلى هجاء غيره بالجوع أو الفقر، فقال سلمان العجلي يعير الأبيرد الرياحي[1] بالفقر:

وكم من شاعر لبني تميمٍ قصيرِ الباع من نفرٍ لئامِ
كسونا -إذ تخرَّق ملبساه- دواهيَ يبترينَ من العظامِ
وإنْ يذكر طعامهُمُ بشرٍّ فإنَّ طعامَهُم شرُّ الطعام
إذا ما مرَّ بالقعقاع ركب ....[2]

عيّرهم بقلة الكساء وقلة الطعام، وهذا يقود إلى قلة المروءة فقلة القيم وربط وارتبطت قضية الفقر وشكواه بالتكافل الاجتماعي الذي خلق نموذجاً رائعاً للبذل والعطاء. فالفقر قد يحول بين المرء والأخلاق، أو أن يتخلق بصفات النموذج. فهجا أبو زيد الأسلمي إبراهيم بن هشام وعيّره بأنه قريب عهد بالفقر، وجعل ذلك سبباً في لؤمه فقال:

مدحت عروقاً للندى مصّتِ الثرى حديثاً فلم تهمُمْ بأن تتزعزعا
نقائذَ بؤسٍ ذاقتِ الفقرَ والغنى وحلَّبت الأيامَ والدهرَ أضرُعا
سقاها ذوو الأرحام سَجْلاً على الظما وقد كَرَبَتْ أعناقُها أن تقطّعا
بفضل سجالٍ لو سَقَوْا من مشى بها على الأرض أرواهُمْ جميعاً وأشبعا
فضمّت بأيديها على فضل مائها من الريِّ لما أوشكت أن تضلّعا
وزهّدها أن تفعل الخيرَ في الغنى مُقاساتها من قبله الفقر جُوّعا[3]

وعيّر كعب الأشقري بني بكر بن وائل بأنهم كانوا محدثي النعمة، وفقراءً، وفقرهم في السابق منعهم من السيادة[4].

---

(١) الأبيرد بن المعذّر الرياحي شاعر فصيح بدوي من شعراء الإسلام وأوّل دولة بني أمية، وليس بمكثر، ولا ممن وفد إلى الخلفاء فمدحهم. الأغاني: ١٣/ ١٤٠

(٢) الأغاني: ١٣/ ١٤٥-١٤٦.

(٣) المبرّد: ١/ ١٨٨.

(٤) الأغاني: ١٤/ ٢٨٩.

وعبّر نفر من الشعراء عن صورة من صور الفقر وهي (الدّين) فقال نصيب ابن رباح في دين عليه لرجل من أسلم، وقد أجدبت إبله وحالت:

فلما حملتُ الدَّينَ منها وأصبحت حِيالاً مُسنّات الهوى كدتُ أندمُ
على حين أن رأت الربيع ولم يكن لها بصعيد من تهامة مقضَمُ
ثمانيةٌ للأسلميّ وما دنا لفُحش ولا تدنو إلى الفُحْش أسلمُ[١]

حفظ نصيب ودّ الأسلمي، ورفع من مكانته، إذ لم يستغل فقر نصيب، وجدب الزمان، ولكن هذه القيم الرائعة لدى الشاعر والدائن، لا تتكرر عند آخرين كحال ابن الزّبير مثلاً، إذ كان عليه دين لجماعة فلازموه، ومنعوه التصرّف في حوائجه وألحّ عليه غريم من بني نهشل يقال له: ذئب، فقال عبد الله بن الزّبير يصوّر المدينين وهم يتربّصون به، ويدخلون بيته متثائبين لشدّة جشعهم، فضلاً عن حالته النفسية من هذا الوضع المؤلم فينشد:

أحابسَ كيدِ الفيلِ عن بطن مكةَ وأنت على ما شئتَ جمٌّ الفواضلِ
أرحني من اللائي إذا حلّ دَيْنُهم يمشون في الدارات مشي الأراملِ
إذا دخلوا قالوا: السلام عليكم وغير السّلام بالسلام يحاولِ
ألينُ إذا اشتدّ الغريمُ وألتوي إذا لان حتى يدرك الدَّينَ قابلي
عرضتُ على ذئبٍ ليأخذ بعض ما يحاوله قبل اشتغال الشواغلِ
تثاءب حتّى قلت: واسع نفسه وأخرج أنياباً له كالمعاولِ[٢]

عرض ابن الزُّبير فقرهُ بصورة صارخة وصريحة، ولكثرة الدائنين عبّر عنهم بضمير الجماعة، وهم يهمون بدخول البيت، لا رغبة في السلام عليه إنما رغبة في استرداد أمواله، وكره ابن الزُّبير الدائنين فشبههم بالوحش المفترس، ويبدو أنه كان كثير الاستدانة، والتعرّض لمضايقات الدائنين في طلب أموالهم فقال:

---

(١) ديوان نصيب بن رباح: جمع وتحقيق داود سلوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٧، ص١٢٦.

(٢) شعر عبد الله بن الزبير الأسدي: ص١١٣-١١٤.

وأمطله العصرينَ حتى يمَلّني ويرضى بنصف الدّين والأنفُ راغمُ(١)

وقد تكون الديون ألعوبة من ألاعيب الشعراء فيضطرون إلى الدين، وبعدها لا يسددونه، أو قد يربون، وأفصح أبو النشناش العقيلي عن ذلك، وكان قد داينه سيَّار بن الحكم فغاب عنه مدةً ثم وجده، فطالبه بمحضر جماعة، فقال: صيروا معي إلى شارع بني فلان فإن لي جلباً، ففعلوا، فلما تمكن من الهرب سبقهم محضراً أو فرّ فرجعوا خائبين، وعبّر عن هذا المعنى:

لمّا أبوا سفهاً إلا ملازمتي أزمعت مكراً بهم من غير إنكار

وما أواعدهم إلا مخادعة منّي ليفلتني نقضي وإمراري

حتى إذا استمكنت رجلاي من هربٍ لم آل شداً بتعداء وتحضارِ(٢)

وقد يتكاثر الدين على الشاعر رغبة في الحفاظ على النموذج القيمي ومنهم يزيد بن الطثرية وكان شاعراً شريفاً متلافاً يغشاه الدين، فسجن في دين عليه لمولى يدعى بالبربري فقال:

قضى غرمائي حبُّ أسماءَ بعدما تخوّنني ظلمٌ لهم وفجورُ

فلو قلّ دين البربري قضيته ولكنّ دين البربريِّ كثيرُ

وكنتُ إذا حلّت عليَّ ديونهم أضمُّ جناحي منهمُ فأطيرُ

عليّ لهم في كلّ شهرٍ أديّةٌ ثمانون وافٍ نقدهُا وجزورُ(٣)

واستغل بعضهم حاجات الناس فأقرضهم بالربا فكان الأخضر اللهبي يقف على أبواب المدينين يطالب بأمواله، فقال:

بني عمِّنا ردّوا الدراهمَ إنهُ يفرِّقُ بين الناس حبُّ الدراهمِ(٤)

---

(١) شعر عبد الله بن الزبير: ١٢٥.

(٢) البصري الحماسة البصرية: عالم الكتب، بيروت، ٣٧٩-٣٨٠.

(٣) الأغاني: ٨/ ١٧٧، الأدية: المال القليل.

(٤) شعر الأخضر اللهبي: محمود عبد الله أبو الخير، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣، ص٧٥ وانظر ص٧١.

وشاعت الصكوك في الحجاز، وكانوا يستدينون حتى تأتي صكوك الخليفة فقال جعفر بن الزبير:

متى كنت ديّاناً فقد دنتُ إذ بدتْ ... صكوكُ أميرِ المؤمنين تدورُ

بوصل أولي الأرحام قبل سؤالهم ... وذلك أمر في الكرام كثير(١)

وتعجب زياد الأعجم من فقره، وقد قعد الشعر به، والأولى به أن يكون غنياً فقال يشكو الفقر:

لقد لجَّ هذا الدهرُ في نكباته ... عليّ إلى أنْ ليس في الكيس درهمُ

وأمستْ جواليقي، برغم ظعينتي ... رهاناً على ما في الجواليق يُعكَمُ

وأعظمُ من ذا أنَّ شعري مُعرَبٌ ... فصيحٌ، وأني حين أنطقُ أعجمُ(٢)

ومن العوامل التي كانت وراء الفقر اختلاف الرأي والانتماء إلى بعض الفرق دون الدولة الأموية وتفاوت الشعراء في وصف هذا الفقر وحدّته عليهم، فهذا أبو الأسود الدؤلي شيعي المذهب منعت الدولة عطاءه فكان فقيراً، فوسموه بالبخل، وهذا ليس بصحيح دائماً. وتكيف أبو الأسود مع الفقر، وصمد أمام الدولة، ولم يركع لأهوائها، فاضطر هذا العالم الجليل إلى مساومة التجار في شراء ناقة أو شاة أو كساء، وهذا من توافه الأمور لسيد عظيم كالدؤلي فانتقده الناس كثيراً، وقال يخاطب مهران مولى عبد الله بن عامر، وقد اشترى منه أبو الأسود بغلة فعاسره في النقد:

يدافعني مهران في نقدِ درهمٍ ... كأنكَ في شيءٍ كبيرٍ تدافعُ

فكيف وقد زوّجت خوْداً كأنها ... إذا ما مشت في الدار أدماء طالعُ

تطيف بها كأنما أنت آزمٌ ... بفروة كَبْشٍ قُدَّ منه الأكارعُ(٣)

---

(١) الأغاني: ١٥/ ٥. استدان من أجل صلة الأرحام قبل سؤالهم إياه.

(٢) شعر زياد الأعجم جمع وتحقيق ودراسة، يوسف بكار، دار المسيرة، ط١، ١٩٨٣، ص ٩٥.

(٣) ديوان أبي الأسود الدؤلي: ٥٣، ٥٤، آزم: عاضّ

فالمال تافه بالنسبة لمهران، وكثير بالنسبة للدؤلي لغنى الأول وفقر الثاني وكان أبو الأسود أكثر دهشة في هذه القصيدة التي صور فيها أوس بن عامر وهو مساومة في ناقته الطيفاء، وأراد أوس خداعه، وما الدؤلي بالساذج الذي يخدع فقال:

أتاني في الطيفاءِ أوسُ بنُ عامر ... ليخدعني عنها بجنّ ضِراسِها

فسام قليلاً يائساً غيرُ ناجزٍ ... وأحضرَ نفساً واثقاً بِمِكاسِها

فأقسمتُ لو أعطيتُ ما سمتُ مثله ... -وأنت حريصٌ- وما غدوتَ براسها

أغرّكَ منها عذمُها عن حوارها ... تغدر أم السُّكن يومَ نِفاسِها

فولى ولم يطمع، وفي النفس حاجةٌ ... يردِّدُها مردودة بإياسِها[١]

لم يستح الدؤلي من مساومة التاجر، وكذا لم يستح من توضيح حقيقة المساوم الذي أراد أن يخدعه في شرائها، فتكيف الدؤلي مع حالة الفقر حتى اتهموه بالبخل، وبذلك كشف عن فضائح الحكومة في تعاملها مع العلماء وأصحاب المبادئ من الفرق المناهضة للحكومة -وإن لم يصرح بذلك مباشرة- ولمّا رآه عبد الرحمن ابن أبي بكرة الثقفيّ في حالة رثة بعث إليه بدنانير وثياب وسأله أن ينبسط إليه في حوائجه، ويستمنحه إذا أضاق فمدحه الدؤلي[٢].

وأشار في نص أخر إشارة خفيّة إلى أنّ فقرة كان بفعل عوامل سياسية فقال:

بصرتَ بأننا أصحابُ حقٍ ... ندلُّ به، وإخوانٌ وجيرةْ

وأهل مضيعةٍ فوجدتُ خيراً ... من الخلّان فناءَ العشيرةْ[٣]

وعاش ابن هرمة أيضاً معيشة ضنكة، وشكا الفقر شكوى هادئة، وألمح إليها في مدائحه للخلفاء والعمال والأجواء، وضيّقت عليه لمبادئه الصلبة وشيعيته ورفض الغنى إن ارتبط بترك التشيع فقال:

---

(١) ديوان أبي الأسود الدؤلي: ٣٠.

(٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي: ١٠٧.

(٣) ديوان أبي الأسود الدؤلي: ١٠٧-١٠٨.

ومهما آلام على حبِّهم ... فإني أحبُّ بني فاطمةْ
بني بنت من جاء بالمحكما ... ت، والدِّين والسّنة القائمةْ
فلست أبالي بحبي لهم ... سواهم من النعم السائمةْ[١]

لا يبالي بالفقر ما دام على شيعيته، ومهما عرضت عليه من إغراءات لمفارقة الفقر فلا يأبه بها. فالفقر كانت تحدثه الدولة أحياناً، وليس إلى منعه من سبيل، ومارست الدولة ممثلة بعمالها الألاعيب في بعض الرجال الأشراف كالدؤلي مثلاً، وقد تلعب به عبيد الله بن زياد بن أبيه وكان قد قال له: ارفع حوائجك إلينا فإني أحبّ قضاءها، فإذا جاء الغد، ودخل عليه تغافل عنه، فعاوده فلم يصنع في أمره شيئاً حتى يئس منه، ولم يطمع في قربه[٢].

ونلمح مظاهر الفقر أشدّ مأسوية في ارتباط الشعراء بإبلهم أو شائهم وهم يصفونها، ويهتمون بها أشدّ الاهتمام، كما يرعون ابناءهم وهم يكبرون أمامهم يوماً بيوم، فوصف بعضهم منيحته التي يعتمد عليها هو وأبناؤه وزوجه فأحبّها جبيهاءُ الأشجعيّ أيمّا حبّ وهو يحلم بأن سترجع إليه، فوصف شعرها الطويل، وجيدها المقلّص، وجسمها وضرسها، ووقفتها أمام الحالبين وكم من منقطع في البيد سيشرب منها غبوقه أعجب كثيراً بصوت الحليب في القدح فقال:

كأنّ أجيجَ النّار إرزامُ شُخْبِها ... إذا امتاحها في مِحْلبِ الحيّ مائحُ
ولو أنّها طافت بظنْبٍ مُعَجَّمٍ ... نفى الرِّقَّ عنه جدبهُ فهو كالحُ
لجاءت كأنّ القسْوَرَ الجَوْنَ بجَّها ... عساليجُهُ والثامرُ المتناوحُ
ترى تحتها عُسَّ النُّضار منيّفاً ... سما فوقَهُ من بارد الغُزْر طامحُ
سديساً من الشُّعْر العِراب كأنها ... مؤكَّرةً من دهُمِ حورانَ صافحُ
رعت عشبَ الجولانِ ثم تصيّفت ... وضيعةَ جلْسٍ فهي بدّاءُ راجحُ[٣]

(١) شعر ابن هرمة: ٢١٤. سبقت الإشارة إلى الابيات. ص١٣٤

(٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي: ٦٧.

(٣) المفضل الضبيّ: المفضليات: تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون: بيروت-لبنان ط٦، ص١٦٧-١٦٩. أجيج النار: صوت لهيبها. الإرزام: الصوت: الشخب: ما خرج من الضرع من اللبن. امتاحها: احتلبها. الظنب: أصل الشجرة. المعجم: الذي عجمته الإبل مرّة بعد أخرى أي عضته، الرق: ما رق من الأغصان والورق. القسور: شجر يغزر به لبن الماشية الجون: الأخضر الشديد الخضرة يضرب إلى السواد، بجّها: عظمها ونفخ خواصرها: الثامر: ماله ثمر، العس: القدح العظيم، المنيف: الممتلئ. السديس: التي أتت عليها السنة السادسة، الشعر: كثير الشعر. الصافح: التي فقدت ولدها فذهب لبنها وسمنت، وانظر شعراء أمويون: ٣/ ١٥.

٥

وبلغ الفقر بجبيهاء أن التصق بعنزه التي كان يتمنح منها هو وأهله، فذكر مواصفاتها وسنها ومكان رعيها في الشتاء والصيف. وهذا قمة اندماج الإنسان مع من يحميه مغبة الفقر أو الموت، فلوم اللائمين. فتعلق بها، ووصفها هذا الوصف المطوّل، فمصادر الغذاء قليلة، وعرض للفقر والجوع عرضاً خفياً، وقد تخلت الدولة عن مسؤولياتها تجاهم. ونجده طلب من موسى بن زياد الأشجعي كبشاً فوعده فمطله فتمنى للكبش أن تأكله الذئاب[1].

وكان النابغة الشيباني من أكثر الشعراء قدرة على وصف الجدب الذي حلّ بالناس والطبيعة والحيوان فقال:

وإذا الإبلُ من المَحْلِ غدتْ وهيَ في أعينها مثلُ العمشْ
حُسَّرٌ الأوبار مما لقيتُ من سحابٍ صافَ عنها لم يَرِشْ
خسَفَ الأعين ترعى جُوفةً همدت أوبارُها لم تنتفشْ
وأمات المحلُ من حيّاتِهِ جاحراتٍ كلَّ أفعى وحنشْ
قتلَ الضبَّ فأودى هزلُهُ ليس يبدي ذَنَباً للمحترشْ
فهم فيها مخاصيب إذا لم يكن حشو لمن لا يحتنشْ
ننعشُ العافي ومن لاذَبِنا بسجالٍ جئنَ من أيدي نُعُشْ
ونغذّي الضيفَ من شحم الذرى من سديفٍ مشبعٍ منه نعشْ
وهمُ إنْ يخترشْ أموالَهم سائلٌ يملون كفَّ المخترشْ[2]

ونلمح صورة الطبيعة المجدبة وما فيها من نفاذ الماء وخوف الفناءِ وقلق الرحلة، وتيه التائهين كما أبرزها المرّار الفقعسي:

ودويّةٍ ما بها من أنيس ولا أمرات فلاةٍ قواءِ

---

(١) الأغاني: ١٨/ ١٠٣. جبيهاء الأشجعي: جبيهاء لقب غلب عليه، واسمه يزيد بن عبيد من بني أشجع، شاعر بدوي من مخاليف الحجاز، نشأ وتوفي في أيام بني أمية، وليس ممن انتجع الخلفاء بشعره ومدحهم فاشتهر، وهو مقل وليس من معدودي الفحول.

(٢) ديوان النابغة الشيباني: تحقيق عبد الكريم إبراهيم يعقوب، دار إحياء التراث العربي، دمشق، ١٩٨٧، ص١٩٠-١٩١. الجوفة: النبتة الفارغة الجوف. جاحرات: في جحورهن. المتحرش: صائد الضب يحتنش: يحترش: نعش: يهشون لعقل الكرم. المخترش: المكتسب لعياله.

كأنّ قرون أدلائها معلقةٌ بقرون الظّباءِ
يظلُّ الشجاعُ الشديدُ الجنانِ مخافتَها مُعْصماً بالدُّعاءِ
له نظرتان فمرفوعةٌ وأخرى تأمَّلُ ما في السِّقاءِ
وثالثة بعد طول الصمات إليَّ، وفي صوته كالبكاءِ[١]

وتظهر في الرحلة عبر الصحراء المجدبة ملامح الجدب والفناء ضمن الإشارة إلى هياكل النوق الحسرى.

وداويةٍ قفرٍ يحارُ بها القطا بها منْ رذايا العيس حسرى وزُحَّفُ
عسفتُ بغَيد النوم حتى تقطعت تنائفها، والكورُ بالكورِ مُرْدَفُ
إذا نفنف بادي المياه قطَعْنَهُ نواشط بالموماةِ أعرضَ نفنفُ
بعيدٌ كأن الآلُ فيه إذا جرى على مستوى الحزان ريْطٌ مُفَوَّفُ[٢]

وكان ذو الرُّمة أكثر شعراء البداة في تلمس صورة الجدب في الصحراء المجدبة وسكون الريح في يوم شديد القيظ:-

وغبراءَ يحمي دونَها ما وراءَها ولا يختطيها الدهرُ إلا مُخاطرُ
سخاويُّ ماتت فوقها كلُّ هبوةٍ منَ القيظ واعتمَت بهنّ الخزاورُ
قطعتُ بخلقاءِ الدّفوفِ كأنَّها من الحُقْبِ ملساءُ العجيزةِ ضامرُ[٣]

وجعل الراعي النميري نفسه بطلاً منقذاً للأعراب الجُوَّع البائسين المقرورين فعقر ناقة ليست له، على أن يعطي صاحبها فيما بعد ناقة مثلها ويزيده ناقة ثنيّة فقال:

عجبت من السارين والريحُ قَرَّةٌ إلى ضوء نار بين فردة والرحى

---

(١) نوري القيسي، شعراء أمويون: ٢/٤٣٤-٤٣٥. الدوية: الصحراء-قواء: خالية.

(٢) شعر هدبة بن الخشرم-ص ١١٣، الرذية: الناقة التي اتعبها السفر.

(٣) ديوان ذو الرمة: ٢١/١٠٢٥-١٠٢٦ السخاوي: الأرض البعيدة الرقيقة التراب. الهبوة: الريح مع الغبار. الخزاور: أكام صغار. خلقاء: ملساء، الدفوف: الجنوب، الأحقب: الحمار الذي في حقوه بياض.

يُشبُّ لركبٍ منهم من ورائهم فكلهم أمسى إلى ضوئها سُرى

فلمّا أتينا فاشتكينا إليهم بكوا، وكلا الحيين سما به بكى

بكى معوز من أن يلامَ، وطارقٌ يشد من الجوعِ الإزارَ على الحشا

فألطفت عيني هل أرى من سمينة ووطنت نفسي للغرامة والقِرى[1]

فأبكى الجوع البائسين وهذا قمة الإحساس بالجوع، وشكوى الفقر.

ومن الفئات التي استشعرت الفقر وبخل الدولة على رعاياها، واستئثارها بالمال والفيء والغنائم دون الرعية (فئةُ الصعاليك). فاحتكمت إلى السيف تقارع السلطة مقارعة سانجة حيناً، وتغير على الأغنياء والتجار تسلبهم حيناً آخر. ويظهر الحوار الذي دار بين الحجاج وجحدر بن معاوية العكلي مدى التضييق الاقتصادي الذي كانت تشعره هذه الفئة، فقال له الحجاج ما حملك على ما بلغني عنك، قال: جرأة الجنان، وجفوةُ السلطان، وكَلَبُ الزمان. قال: وما الذي بلغ من أمرك فيجترىء جنانك، ويصلك سلطانك، ويكلب عليك زمانك، قال: لو بلاني الأمير وجدني من صالحي الأعوان، وبهم الفرسان، ومن أوفى أهل الزمان »[2].

والأمر نفسه نجده عند مالك بن الرّيب لما ألحقه سعيد بن عثمان بجيشه في غزو خراسان، وكان قد سأله عن سبب فساده على كثرة فضله فقال: (يدعوني إليه العجز عن المعالي، ومساواة ذوي المروءات ومكافأة ذوي الأخوان، قال: فإن أنا أغنيتك واستصحبتك، أتكف عما كنت تفعل؟ قال: إي والله، أيها الأمير أكفّ كفاً لم يكف أحد أحسن منه، قال فاستصحبه، وأجرى له خمسمائة درهم كلّ شهر »[3] وكان الأحيمر السعدي يرى في إغارته على التجار:

وإني لاستحيي من الله أنني أُجرِّرُ حبلاً ليس فيه بعيرُ

وأنْ أسألَ النِّكْسَ الدنيَّ بعيرَهُ وبعرانُ ربّي في البلاد كثيرُ[4]

---

(١) شعر الراعي النميري: دراسة وتحقيق (نوري حمودي القيسي وهلال ناجي)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص٢٥٦، ٢٥٩.

(٢) عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب: ٧/ ٤٦٣. وردت الإشارة إلى الأبيات في صفحة ١٨٤.

(٣) الأغاني: ٢٢/ ٢٨٨-٢٨٩. والبصري: الحماسة البصرية ٢/ ٢٧٨.

(٤) نوري القيسي: شعراء أمويون، جامعة بغداد، ١٩٧٦: ص١/ ١٥٢.

إغارته على التجار صرخة صارخة في وجه الأغنياء يطلب حقاً له في قوافلهم «فالمال (مال الله) وليس مال الأغنياء فقط. وأحسب أن الإحساس؛ بالفقر كان من الدوافع الكبيرة التي جعلت الصعاليك يحتكمون إلى السيوف للحصول على حقوقهم والعيش بكرامة، وهذا الأمر ليس خاصاً بهم إنما وجدناه عند عقيل بن علّفة أحد أشراف العرب.

خذوا مال التِّجار وماطلوهم   إلى أجلٍ فإنهم لئامُ
بمَطْلٍ لا يكون له وفاءٌ   ووعدٍ لا يكون له تمامُ
فليس عليكم في ذاك إثمٌ   لأنَّ جميعَ ما جمعوا حرامُ[1]

واحترف بعض الصعاليك غزو القبائل، والإغارة على القوافل التجارية فقال الأحيمر السعدي:

تعيِّرني الإعدامَ والبدر معرضٌ   وسيفي بأموال التِّجار زعيمُ[2]

احتج الأحيمر بقوة على التفاوت الطبقي الذي يحياه، ونادى بالتكافل الاجتماعي ورفض أن يسأل البخلاء، ولذا اغتصب حقه-كما يرى- منهم اغتصاباً فقال:

وإني لأستحيي من الله أن أرى   أجرِّر حبلا ليس فيه بعيرُ
وأن أسأل العبد اللئيم بعيره   وبعرانُ ربّي في البلاد كثيرُ[3]

ومما ساعد على بروز ظاهرة الصعلكة ظلم السعاة وتشددهم في استيفاء الضرائب منهم، دون مرعاة لظروفهم، وحالة الجدب والقحط التي كانت تتعرض لها البادية كثيراً، ناهيك عن أن عمر بن الخطاب كان يجعل الصدقات في البادية، ولكن الدولة الأموية صارت تجلب الصدقة إلى بيت المال مما زاد في حدة الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وبين أهل المدن وأهل البادية الذين لا يعتمدون رزقاً إلا إبلهم وشاءهم، وبرحمة الغيث.

---

(١) البصري: الحماسة البصرية: ٢/ ٢٧٨.

(٢) نوري القيسي: شعراء أمويون: ١/١٥٢.

(٣) المصدر السابق: ١/١٥٢.

الخوف من الفقر والسعي إلى الغنى كانا المحرضين الكبيرين لدى زعيم الصعاليك عبد الله بن الحر إذ قال:

لعل القنا تدني بأطرافها الغنى	فنحيا كراماً أونموتُ فنقتلُ
ألم تر أن الفقر يزري بأهله	وأن الغنى فيه العلى والتجمُّلُ
وإنك إن لا تركب الهول لا تنلْ	من المال ما يكفي الصديق ويفضلُ[١]

أحسّ ابن الحر بصراع عنيف بين الفقر والغنى قد تترتب عليه فئة اجتماعية في الدولة الإسلامية، ولذا لا بد من السيف وما تقدمه الدولة من مال لا يكفي هؤلاء الصعاليك، ولذا لا بدّ من ركوب الرعب والخوف لتحصيل الأموال وإلا فالموت أكرم. وكان ابن الحر لا يغير إلا على السلطة ورجالها وبيوت أموالها، ولا ننسى أن الرجل كانت له انتماءات شتى؛ مال إلى الزبيريين مرة، ثم تركهم، ثم مال إلى عبد الملك، وكان من قبل مع علي بن أبي طالب وشيعته، وأظهر حزنه الدائم على عدم نصرته للحسين بن علي ضد الأمويين، كان منظماً في ثوراته، ويدرك هدفه بسهولة مما جعل الطبري يتعاطف معه، ويقول فيه: «والله ما كان في الأرض عربي أغير على حرة ولا أكفّ عن قبيح وعن شراب منه،[٢] يرد بذلك على الذين كانوا يذكرونه بغير هذا ويتهمونه بأنه كان يتناول أموال الناس والتجار».

ما قاله الطبري صحيح فابن الحر كان يميز بين الإغارة على أموال الناس الأمنين والتجار، وبين الإغارة على أموال الشعب الذي حازته الدولة دونه ظلماً فكان يهجم على بيوت الأموال ويحوز الأموال ويجبي الخراج ويعطي براءات للناس من أنه جبي خراجهم، ويفرِّق الأموال في جنوده[٣]، وكأنه يصنع العدالة في عالمه الخاص به، عالم الصعلكة فالصعلكة عنده ليست لصوصية، إنما تحمل أهدافاً سامية لأنها انطلقت من زعيم عظيم، وبطل مشهود له بالشجاعة وصدق اللسان، وجرأة الجنان، وحسن التدين، والمروءة العربية فتهيء له الدولة كمائن لاصطياده، وكذا الأحزاب المضادة التي خرج عليها ابن الحر، حتى يقتل.

---

(١) المصدر السابق: ١/١١١.

(٢) الطبري: ٦/١٢٨.

(٣) الطبري: ٦/١٢٨.

فظاهرة ابن الحر تمثل شكلاً جيداً من أشكال الصراع بين الحكومة والشعب بين الغني والفقير، وبين القيم المحدثة والقيم الموروثة في ظل التغيرات الحديثة، فرفض استئثار أصحاب الحكم بالمال، وكان قد احتج لدى عبد الله بن الزبير على معاملة مصعب بن الزبير له، فقال معاتباً وشاكياً:

أبلغ أمير المؤمنين رسالةً ... فلست على رأيٍ قبيحٍ أواربُهْ

أفي الحق أن أُجفي ويجعل مصعب ... وزيريه من قد كنت فيه أحاربُهْ

فكيف وقد أبليتكم حق بيعتي ... وحقي يلوى عندكم وأطالبُهْ

فلما استنار الملك وانقادت العدا ... وأدرك من مالِ العراق رغائبُهْ

جفا مصعبٌ عني، ولو كان غيره ... لأصبح فيما بيننا لا أعاتبُهْ[1]

وتولى ابن الحر مقاومة المتنفذين في الأمر من قائمين ومتمردين، فقاوم عبد الملك بن مروان مرة، والمختار الثقفي ثانية، ومصعب بن الزبير عامل عبد الله ابن الزبير على العراق ثالثة، ولذا أقام ابن الحر في السواد يغير ويجبي ويتتبع الرهاقنة وقال:

لو أنّ لي مثل جرير أربعةْ ... صبّحتُ بيتَ المال حتى اجمعهْ

ولم يهلْني مصعب ومن معهْ ... نعم الفتي ذلكُمُ ابن مشجعةْ[2]

فكان يغير على المدن ويحوز ما في بيت المال، ويقسم أمواله بين صعاليكه بالعدل والسوية التي افتقدها في تعبيره: «ما أرى قريشاً تنصفُ، أين أبناءُ الحرائر»[3].

فظاهرة الصعلكة تحمل على عدة وجوه، منها دفاع عن حرية الفرد وحقوقه أحياناً، ودفاع عن القبيلة أحياناً لرفع الظلم عنها، وانتزاع حقوقهم المالية من الدولة بأيديهم، وكان مالك بن الريب أحسنهم تعبيراً وهو يخاطب الحكومة الأموية

---

(١) نوري القيسي: شعراء أمويون: ١/٩٤-٩٥.

(٢) المصدر السابق: ١/١١٩.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/١٢٨

على سياستها:

لو كنتم تنكرون الغدر قلتُ لكم	يا آل مروان جاري منكُمُ الحكمُ
وأتقيكم يمين الله ضاحيةً	عند الشهود وقد توفي به الذِّمَمُ
لا كنت أحدث سوءاً في إمارتكم	ولا الذي فات مني قبل ينتقمُ
نحن الذين إذا خفتم مجلِّلة	قلتم لنا إننا منكم لتعتصموا
حتى إذا انفرجت عنكم دُجُنتّها	صرتم كجرمٍ فلا آلٌ ولا رحمُ[1]

ثورة مالكٍ لم تكن ثورة سياسية في معظم أحوالها، ولم يذعن مالك بن الريب لرغبة الحكومة مقهوراً، إنما صارعها على لقمة العيش وساءلها مساءلة تنم عن إحساس دفين بظلم الدولة لهم. وموقفه يعتبر من إفرازات الصراع بين الفرد والحكومة، وبين الفقير والغني، وبين ملكية الفرد. وملكية الدولة، فاحتج على هذه السياسة:

أحقاً على السلطان أما الذي له	فيعطي، وأما ما يراد فيمنعُ
إذا ما جعلت الرمل بيني وبينه	وأعرض سهبٌ بين يبرين بلقعُ
فشأنكم يا آل مروان فاطلبوا	سقاطي فما فيه لباغيه مطمع
وما أنا كالعَيْر المقيم ِ لأهلهِ	على القيد في بحبوحة الضيم يرتعُ
ولولا رسولُ الله أن كان منكمُ	تبيَّن من بالنَّصف يرضى ويقنع[2]

البيت الأول يمثل بيت القصيد، فالسلطان يطلب حقوقه على الرعية في حين يمنع هو حقوق الآخرين ويبخل على الرعايا. وفي الوقت ذاته صراع بين السلطة والفرد على الحقوق الاقتصادية لكل منهما. ومن غريب الأمر أن معظم لصوص هذا العصر كانوا من تميم، فمنهم شظاظ مولى لبني تميم، وأبو حردبة أحد بني أثالة بن مازن، ومسعود بن خرشة أحد بني حرقوص بن مازن[3]. مما يؤكد على أن بدو

---

(١) الأغاني: ٢٢/٢٩٣.

(٢) الأغاني: ٢٢/٢٩٢-٢٩٣.

(٣) الأغاني: ٢٢/٢٨٩. وانظر الأغاني ٢١/٢٥٣.

تميم كانوا محاربين من الدولة، وكانت تقطع عنهم العطاء، مما جعل الفقر السمة العامة لهذه العائلة، فضلاً عن وقوعها على طريق التجارة، وبالتالي تشكلت فئة الصعاليك تغير على التجار.

ومن أروع ما عبر عن الفقر العام الذي كانت تعانيه هذه الفئة قول جحدر العكلي وهو يسرق حلة لأحد العبيد:

إذا حلة أبليتها ابتعتُ حلّةً   كساني لها طوعُ القياد عليفُ

سعى العبد إثري ساعة ثم ردّهُ   تذكر تنورٍ له ورغيفُ(١)

كان جحدر يغير على الرعاة ليسرق ثوباً يلبسه، وإن رآه العبد تبعه، فإن تذكر الأخير طعامه وشرابه رجع، وجعل جحدراً يهرب بالحلة. مما يدل على أن الحصول على الملبس والمطعم أمر صعب في البادية وأظن الأمر يعود إلى كون البداة الذين لم يشاركوا في الفتوح لم يفرض لهم في العطاء فساءت أحوالهم الاقتصادية، ويمنعهم الإسلام والنظام معاً عن اتباع الغزو والنهب سيرتهم الأولى، فكثر عدد اللصوص والصعاليك والفقراء، فكانت الدولة لا تحسن اليهم فانتهى الأمر بهم إلى هذا الحال. ومما يدخل في هذا اللون قول الأحيمر السعدي في بعض سادة العصر كابن بحدل وابن موسى وأديرة الذين حازوا الثروة والسيارة معاً فنقم الشاعر عليهم إذ كان المال سبباً في كونهم سادة ولذا رآهم جعابيب (لا خير فيهم):

كفى حزنا أن الحمار ابن بحدلٍ   عليّ بأكناف الستار أميرُ

وأن ابن موسى بائع البقل والنوى   له بين بابٍ والستار خطيرُ

وإني أرى وجه البُغاة مقاتلاً   أُدَيْرَةَ يسدي أمرنا وينيرُ

هنيئاً لمحفوظٍ على ذاتِ بيننا   ولابن لزّازٍ مغنمٌ وسرورُ

أناعيمُ يحويهنّ بالجرع الغضا   جعابيبُ فيها رثةٌ ودثور(٢)

---

(١) عبد المعين الملوحي: اشعار اللصوص وأخبارهم: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر- دمشق- ط١- ١٩٨٨: ص ٩٥.

(٢) المصدر السابق: ١١١-١١٢.

وأثارت اللصوص تجارات العراق واليمن، بينما هم في حرمان وتشرد فقال يوجه أحدهم:

قل للصوص بني اللخناء يحتسبوا بزّ العراق وينسوا طرفة اليمنِ
ويتركوا الخزّ والديباج يلبسُهُ خرص الغواني ذوي السّراة والعكنِ
أشكو إلى الله صبري عن زواملهم وما ألاقي إذا مرت من الحزنِ
فربَّ ثوبٍ كريم كنت آخذه من القطار بلا نقدٍ ولا ثمنِ(١)

ونلحظ التكافل الاجتماعي بيناً في منطقة التمرد بين الأفراد، فالمغنم كما يقول ابن الحر:

إذاما غنمنا مغنماً كان قسمة ولم نتبع رأي الشحيح المُتاركِ
أقول لهم كيلوا بكمّة بعضكم ولا تجعلوني في الندى كابن مالكِ
ستعمل إن جاريتني يا بن مالك إلى أينّا مأوى رجال الصعالك(٢)

وشاع الفقر في البادية مما جعل الكثيرين من أبنائها يهجرونها إلى المدينة وافدين أو متكسبين أو مهاجرين سعيا وراء الرزق بعد أن بدت ملامح الغنى تظهر جلية في المدن والأرياف، وتدفق الكثيرون منهم إلى العراق وأطراف البصرة والكوفة أقرب المناطق الجغرافية شبهاً ببيئة البادية، وصاروا في عداد الفقراء والمساكين.(٣)

ومن الملاحظ المهمة أن الرفاهية وحركة البناء والعمران والتجارة والزراعة والإكثار من ألوان الأطعمة والألبسة والاندفاع في الترف واللهو والغناء كانت مقصورة على المدن الكبرى والأرياف بينما لا نجدها شائعة في البادية التي اقتصر أهلها في موارد كسبهم على رعي الإبل والغنم، وبيع منتجاتها للحصول على البر والتمر والثياب وغيرها من الوسائل الضرورية للحياة. وكاد الرعي والصيد

---

(١) البصري: الحماسة البصرية: ٢/٢٧٨-٢٧٩.

(٢) نوري القيسي: شعراء أمويون: ١/ ١١٠، عنى بابن مالك: ابراهيم بن الأشتر.

(٣) عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية: ٦١.

أن يشكلا موردي كسب وحيدين لأهل البادية الذين لم يخرجوا في الفتوح ولم يحصلوا على العطاء والرزق، وأقلهم اتجه إلى زراعة النخيل، وإلى جانب ذلك عرفوا بعض مصادر كسب قليلة، فعملوا أدلاء للقوافل التجارية في نقل البضائع بين الأمصار.

ثانياً- الاحتجاج الاقتصادي

أ- الشكوى من عمال الصدقات

لم تكُ الشكوى من عمال الصدقات جديدة في العصر الأموي، ولكنها قديمة تزايدت في العصر الأموي، وقد استقرت الدولة وتوطّدت أركانها، وكانت أول شكوى قيلت في التاريخ الإسلامي شكوى يزيد بن الصّعق[1] ينتقد فيها عمال الأهواز وغيرهم ورفعها إلى عمر بن الخطاب، وكانوا قد أساؤوا استغلال مناصبهم فأثروا ثراءً فاحشاً، وسأله معاقبتهم ومقاصصتهم وتطبيق قانون (أنى لك هذا؟)، ولم يُعرِّض يزيد بهم تعريضاً أو تلويحاً، إنما ذكرهم بالأسماء:

فقاسمهم عمر أموالهم حتى أخذ نعلاً وترك نعلاً[2].

وإن تقدّمنا إلى عهد عثمان نجد الشكوى الاقتصادية تشتد، والصراع بين الدولة والشعب بدأ يتزايد نتيجة لسياسة عثمان في توسيع قاعدة توزيع الثروة على القرشيين عامة والأمويين خاصة، فاحتج الكثيرون من الصحابة وغيرهم على

---

(١) خزانة الأدب: ١/ ٤٣(هو يزيد بن عمر بن خويلد بن نفيل وخويلد يقال له الصعق وقال ابن دريد: الصعق أن يسمع الإنسان الهدة الشديدة فيضعف لذلك ويذهب عقله.

(٢) فتوح البلدان: ٣٧٧. الحجاج هو الحجاج بنُ عتيك الثقفي وكان على الفرات. وجزء بن معاوية عمّ الأحنف كان على سرّق، وبشر بن المحتفز كان على جندنيسابور. والنافعان: نفيع أبو بكرة، ونافع بن الحرث بن كلدة أخوه، وابن غلاّب: خالد بن لحرث من بني دهمان كان على بيت المال بأصبهان، وعاصم قيس بن الصلت السلمي: كان على مناذر، والذي في السوق سمره بن جندب على سوق الأهواز والنعمان بن عدي بن نضلة بن عبد العزّة ابن حرثان كان مع كور دجلة وصهر بني غزوان: مجاشع بن مسعود السلمي وكان على أرض البصرة وصدقاتها. وشبل بن سعيد البجلي ثم الأحمسي كان على قبض المغانم. وابن محرش أبو مريم الحنفي كان على رامر هرمز.

صعنيه حتى صرخ الشاعر عبد الرحمن بن حنبل الجمحي قائلاً[١]:

دعوتَ الطّريدَ فأدنيتهُ خلافاً لما سنّه المصطفى
وولّيتَ قرباك أمرَ العباد خلافاً لسنةِ مَنْ قد مضى
وأعطيتَ مروانَ خُمْسَ الغنيمةِ آثرته، وحميتَ الحمى
ومالاً أتاك به الأشعري من الفيء أعطيته من دنا[٢]

لا مجال للشك في أمر الصراع بين الدولة ممثلة بعثمان بن عفان والشعب من أنها كانت تدور حول: (الغنيمة والحمى والفيء)، وسوء توزيع الثروات، مما أدى إلى مقتل الخليفة عثمان.

فالنص الأول انتقد فيه يزيد ولاة عمر، والنص الثاني انتقد فيه عبد الرحمن سياسة عثمان الاقتصادية، وحدثت الفتنة وتوجتها ثورة أبي ذر الغفاري.

وفي عهد الأمويين دخل الاحتجاج الاقتصادي على الخليفة وعماله الشعر واشتد فزع الشعراء من الفقر، وسياسة الدولة الأموية، وبلغت أوجها عند الراعي النميري بملحمته الشهيرة. وكان الشعراء بين معرّض ومصرّح، ومهدد وصارخ وشاكٍ. ومنهم من خاطب الخليفة مباشرة، ومنهم من خاطب أحد عماله الظالمين، ومنهم من شكا العمال إلى الخليفة ليرفع عنهم الظلم الاقتصادي الذي حاق بهم.

وملاك الأمر كله كان الاحتجاج الاقتصادي على الوضع غير المرضي بل المؤلم – يعبر في داخله عن صراع عنيف على المال بين الشعب والحكومة. استغلت الحكومة فيها مواقف بعض القبائل المعارضة للنظام السائد، أو القبائل غير المؤيدة، فمالت إلى التشديد في قبض الصدقات، أو منع العطاء عنهم، أو إثارة العصبية القبلية بين القبائل لتحقق بغيتها.

---

(١) الأعلام: ٣٠٥/٤، عبد الرحمن بن حنبل الجمحي: شاعر هجاء صحابي أصله من اليمن، ومولده بمكة، شهد فتح دمشق، وبعثه خالد إلى أبي بكر وهجا عثمان بن عفان، شهد علي بن أبي طالب وقعة الجمل وقتل بصفين.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: تحقيق علي محمد البجاوي، النهضة ، مصر القاهرة: ٢/ ٨٢٩.

تعد مقولة عقيبة أو ابن الزّبير مخاطباً معاوية بن أبي سفيان أول احتجاج جماعي على الحكومة لظلمها بعض القبائل:

معاويَ إننا بشرٌ فاسجح | فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ
فهبها أمةً ذهبت ضياعاً | يزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ
أكلتم أرضنا فجرّدْتموها | فهل من قائم أو من حصيد[1]

صرخة مدوية تلك التي أعلنها عقيبة بن هبيرة الأسدي أو عبد الله بن الزبير على معاوية وسياسته ونرى فيها عنجهية البدوي وجرأته في مخاطبة السلطان لما أحسّ بظلمه فخاطبه بمعاويّ، ولم يلصق به لقب خليفة أو أمير المؤمنين، ثم خفتت حدة الصوت ليعلن أنه وأهله من البشر، فما على الخليفة إلا أن يذعن لطلباته وبلغ به التبرم والضيق مبلغاً عظيماً. حتى رأى أن الأمة التي يتزعمها يزيد وأبوه أمة قد ضاعت وأصابها الهلاك، وما أعلم نصاً شعرياً بلغ مبلغ هذه الأبيات في الاحتجاج الاقتصادي على سياسة السلطان كما أنه بيّن أسباب الاحتجاج والتهديد، باستيلاء السلطان على أرض الشاعر وذويه. وطلب من الخليفة عدم خيانة الأمانة، ودعاه إلى رفض تأمير العبيد على الأحرار كأنه يلمح إلى زياد بن أبيه، ويهددهم إن لم يمتثلوا لأمره ويذكرهم بأن الإنسان لا يخلد، والملك لا يخلد كما المال لا يخلد أيضاً، ومن رضي بالخلافة فعليه الحكم بالسويّة:

أتطمع في الخلود إذا هلكنا | وليس لنا ولا لك من خلودِ
ذروا خوْنَ الخلافة واستقيموا | وتأميرَ الأراذل والعبيدِ
وأعطونا السويّة لاتزركم | جنود مردفاتٌ بالجنودِ

ومن الحكمة أن يتجاهل الحاكم هذه الصرخة ويحولها إلى شكوى فردية، ومن مصلحته إرضاء الشاعر الصارخ المحتج فحاوره، وقضى حوائجه.

---

(١) خزانة الأدب: ٢/ ٢٦٠. وانظر شعر عبد الله بن الزّبير: ١٤٨. رواها صاحب الخزانة على أنها لعقيبة بن هبيرة الأسدي، ورويت على أنها لعبد الله بن الزّبير الأسدي، وكان قد أكثر من الاحتجاج الاقتصادي والسياسي.

وإذا رأينا تضييق الدولة الأموية على الدؤلي وابن هرمة. لأنهما علويان وعاشا معيشة ضنكة، كما رأينا[1] فإنها مارسته بشدة على النابغة الجعدي، فصادرت أملاكه وأمواله، وأخذوا أهله رهينة، لا لشيء إلا لعلويته، فهبّ النابغة يدافع عن نفسه وذويه وماله، ويكشف فضائح الدولة الأموية الاقتصادية، وهددهم بتمرده، وذكّرهم بمصير عثمان بن عفان ولكن شكوى النابغة الجعدي هنا ليست من الخليفة نفسه إنما من عامله مروان بن الحكم، بعث بها إلى معاوية مهددا:

فمن راكبٍ يأتي ابنَ هند بحاجتي	ومروانَ والأنباءُ تنمي وتجلبُ
ويخبرُ عني ما أقولُ ابنَ عامر	فنعم الفتى يأوي إليه المعصَّبُ
فإن تأخذوا مالي وأهلي بظنةٍ	فإني لحرَّابُ الرجالِ مجرَّبُ
صبورٌ على ما يكره المرء كلّه	سوى الظلمِ إني إن ظُلِمْتُ سأغضبُ
أصيبَ ابنُ عفانَ الإمامُ فلم يكن	لذي حسب بعد ابن عفّان مَغْضَبُ[2]

فغضب النابغة غضباً عارماً، ولم يسند إلى معاوية لقب (أمير المؤمنين) أو الخليفة، إنما أسماه (ابن هند) وقد علم ما تعني لفظة ابن هند في التاريخ الإسلامي، وما لها من أثر قاتل في عمق معاوية، ولذا أشار معاوية على مروان بردّ ماله، وفك أسر أهله، كي لا يصبح النابغة رمزاً من رموز التضحية والصراع بين الدولة والشعب، وبذا امتصّ معاوية غضب النابغة وبني جعدة أيضاً. ومن أجمل ما قاله النابغة في النص ربطه بين عثمان ومعاوية، وتهديده بالمصير الذي انتهى إليه عثمان من قبل.

ووصف كعب الأشقري عمال عمر بن عبد العزيز بالذئاب، ولم ينس كعب عدالة عمر أوشك لحظة بعدالته، أو سولت له نفسه بذلك. ولكنه بيّن حقيقة العمال الذين لم يمتثلوا لأوامر الخليفة العادل، وإن أمرهم بذلك، وأفصح كعب عن سياسة العمال أولئك بدبلوماسية الرجل السياسي فقال:

إن كنتَ تحفظُ ما يليك فإنما	عمّالُ أرضك بالبلاد ذئابُ

---

(١) انظر ص: ٢١٤، ٢١٥ من هذا الكتاب.

(٢) ديوان النابغة الجعدي: المكتب الإسلامي للنشر، دمشق: ط١، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤، ص٨.

لن يستجيبوا للذي تدعو لهُ حتى تجلّد بالسيوف رقابُ
بأكفِّ منصلتين أهلِ بصائرٍ في وقعهن مزاجرٌ وعقابُ
هلاّ قريشٌ ذكرت بثغورها حزمٌ وأحلامٌ هناك رغابُ
لولا قريشٌ نصرُها ودفاعُها أُلفيتُ منقطعاً بي الأسبابُ(١)

بدت علامات اليأس على كعب من إمكانية الإصلاح أو امتثال العمال لرأي الخليفة، ولذا لا بد من معاقبتهم بالسيف. ولم يسند الشعراء فساد الأمور الاقتصادية إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز إنما أسندوها إلى العمال والولاة. فقال أبو اليقظان سُحيم بن حفص:

إن الذين بعثت في أقطارها نبذوا كتابَكَ واستُحلَّ المحرّمُ
طلسُ الثياب على منابرِ أرضنا كلٌّ يجور وكلهم يتظلّمُ
وأردت أن يليَ الأمانةَ منهمُ عَدْلٌ وهيهاتَ الأمينُ المسلمُ(٢)

الاحتجاج الاقتصادي إلى الخليفة عن ممارسات عماله لم يقتصر على بني أمية فقط إنما نجده أيضاً لدى الزبيريين، فبعث عبد الله ابن همّام السلولي إلى عبد الله بن الزبير رسالة طويلة، ذكر فيها عدداً هائلاً من العمّال الخائنين، وسجّل أسماءهم وبعضاً من أعمالهم الخائنة، ومتاجرتهم بأرزاق المسلمين، واقتسامهم الخراج وأكلهم بيت المال، والثراء الفاحش، وهذه الرسالة تذكرنا برسالة يزيد بن الصعق إلى عمر بن الخطاب، فقال عبد الله بن هشام:

يا ابنَ الزّبيرِ أميرَ المؤمنين ألم يبلغكَ ما فعلَ العمّالُ بالعملِ
باعوا التجارَ طعامَ الأرض واقتسموا صلب الخراج شحاحاً قسْمَةَ النَّفْلِ
وقدموا لك شيخاً كاذباً خذلاً مهما يقل لك شيخ كاذب يقل
وفيك طالبُ حق ذو مرانيةٍ جَلْدُ القوى ليس بالواني ولا الوكِلِ
اشدد يديك بزيد إنْ ظفرتَ به واشفِ الأراملَ من دُحْروجةِ الجُعَلِ

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين: ٣/ ٣٥٨.

(٢) نفس المصدر والصفحة: ٣/ ٣٥٨.

إنا مُنينا بضبٍ من بني خلفٍ   يرى الخيانةَ شربَ الماء بالعسلِ
خذ العصيفير فانتف ريش ناهضه   حتى ينوء بشرٍ بعد مقتبلِ[1]

استغرب الشاعر من عدم وصول الأخبار الشنيعة التي فعلها عماله بالأمة، واستغرابه هذا يقود بلطف إلى جواب غاضب جمع فيه أخبار عدد هائل من العمال يذكرهم بالاسم، ويطلب من أمير المؤمنين معاقبتهم. ونرى غضبه وانفعاله عارمين حين يشير على الخليفة بنوع العقاب (أشدد يديك بزيد ..) (فانتف ريش ناهضه) (وخذ حجيراً فاتبعه محاسبة) الخ أما نوع الخيانة فكانت المتاجرة بأموال المسلمين وطعامهم، وتشددهم في جمع الصدقات، وغناهم الفاحش المفاجيء دون الجند، وترفعهم عن أكل الجند المعتاد مع أنهم قدموا الفتوح معاً فقال:

ما رابني منهمُ إلا ارتفاعُهُمُ   إلى الخبيصِ عن الصحناةِ والبصلِ
وما غلامٌ على أرض مسالمةٍ   كمن غزا دستبيء غير مجتعلِ
يجبى إليه خراج الأرض متكئاً   مستهزئاً بغناء القينة الفُضُلِ
والواليّ الذي مهران أمَّرَهُ   فزال مهرانُ مذموماً ولم يَزُلِ

شك ابن همام بأمانة عمال ابن الزبير لارتفاع مستوى معيشتهم، وتركهم أنواع الطعام المتداولة وهي (الصحناة والبصل) تركوها للجنود والناس، وتناولوا هم طعام الأعاجم الأغنياء في المناطق المفتوحة وهو (الخبيص)، وكان الأولى أن يرتفع مستوى معيشة الفاتح الذي يجبي الغنائم لا الذي يجمع الصدقات فقط. وانتقد طريقتهم في جبي الخراج، وتركهم أعمالهم المنوطة إليهم، وإسنادها إلى أشخاص آخرين ليستمعوا إلى غناء القيان وغيرهن.

وبلغ غضبه قمة انفعاله لمّا رأى خيانة الواحد منهم لكثرتها تحمل على جمل، ورأى المفارقة بين حياتهم الآن بفعل الفتوح، وحياتهم السابقة على الفتوح، ولم يشمل الغنى جميعهم فختم النص قائلاً:

كانوا أتونا رجالاً لا ركابَ لَهُمْ   فأصبحوا اليومَ أهلَ الخيل والإبلِ

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف: مكتبة المثنى، بغداد، الجزء الخامس، ص١٩١-١٩٤.

لن يُعتبوكَ ولمّا يعلُ هامهم ضَرْبُ السياط، وشدٌّ بعدُ في الحجلِ

إنّ السياط إذا غضّت غواربهم أبدوا ذخائرَ من مالٍ ومن حُلَلِ

عجب ابن همام من غنى العمال في حين التحاقهم بالزبيريين ما كانوا يملكون ركاباً. وأصبحوا الآن أهل إبل وخيل ومال ولن يتوقفوا عن أعمالهم هذه حتى تأكل السياط، سياط العقاب من أيديهم وأرؤسهم وأرجلهم، وحينها سيعترفون للإمام بسرقاتهم المتعددة من مال وحلل وغيرها.

فهذه الشكوى التي بعثها ابن همّام أحد زعماء الحزب الزبيري وإعلامية في مرحلة من مراحله لهي احتجاج اقتصادي صارخ من شاعر سياسي إعلامي للحزب له خطورته، وكان لهذه القصيدة صدى قوي، فقد كشفت عن فضائح الحزب وعماله، ونصح الخليفة عبد الله بن الزُّبير بتتبعهم وملاحقتهم، وإلاّ أنذروا بسقوط الحزب وتألقه. وهذا يعني من جهة أخرى أن الفساد الاقتصادي قد دبّ في الأحزاب كما دب في الحكومة الأموية السائدة، وعندها لا فرق بين الحكم الأموي والحكم الزبيري. ولا نجد في النص ألماً فردياً أو شكوى فردية يرفعها الشاعر إلى مؤسس الحزب، إنما هي نص من نصوص الحزب الزبيري -إن جاز التعبير- وتخوف من فشل الحزب، ما دام لا يختلف في واقعه اختلافاً بيناً عن النظام الحاكم. وتخوُّفُ ابن همام كان في محله إذ سرعان ما تحول إلى الدولة الأموية وانتمى إليها، وترك الحزب الزبيري قبل انتهائه وفشله. وقيمة هذه الشكوى أنها نص زبيري، والقراءة فيه قراءة في الحزب الزبيري، وكشف هذا النص عن صراع الأحزاب في فترة مبكرة، وكيف شكل الاقتصاد لبنة مهمة من لبناته.

وأشار الفرزدق إلى ظاهرة الرّشوة التي استشرت في البلاد واستثنى المنطقة التي يحكمها الحجّاج حين قال:

وكنّا بأرضٍ يا ابنَ يوسفَ لم يكن يبالي بها ما يرتشي كلُّ عاملِ

يروْن إذا الخصمانِ جاءا إليهمُ أحقُّهما بالحق أهلُ الجعائلِ

وما تبتغى الحاجاتُ عندك بالرُّشى ولا تُقْتَضى إلا بما في الرسائلِ(١)

---

(١) ديوان الفرزدق: ٤٧٤. الجعائل: الواحدة جعيلة: وهي الرشوة.

ميّز صورة الحجاج عن عمال البلاد الآخرين بأنه لا يقبل الرشوة ولا يسمح بها، وهذا تنبيه خفي إلى الحجاج على أن الوضع الاقتصادي خارج إقليم العراق ليس على ما يرام.

ووردت بعض النساء الشيعيات على معاوية يشكين الوضع الاقتصادي، ويطلبن الرفد، وإيقاف العمال والعرفاء عن تصرفاتهم غير العادلة بردّ الصدقة إلى مواطن جمعها، ويروى صاحب العقد أن عكرشة بنت الأطرش وردت على معاوية يوماً، فقالت: «إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد في فقرائنا، وإنا قد فقدنا ذلك، فما يجبر لنا كسر، ولا ينعش لنا فقير، فإن كان ذلك عن رأيك فمثلك من انتبه عن الغفلة، وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك من استعان بالخونة، ولا استعمل الظلمة ... ثم أمر معاوية برد صدقاتهم فيهم، وإنصافها»[1].

ب- نظام العطاء:

ومن المحاور التي بدا فيها الصراع بين الدولة والشعب واضحاً جلياً هو «نظام العطاء». وكانت الدولة تضيّق على أفرادها، أو بعض القبائل أو المدن، أو الأقاليم، نظراً لمواقفها من الدولة كما مرّ معنا في الفصول الماضية، أو لبعدها عن المدن ونسيانها، ولمّا أمر معاوية بزيادة عطاء الناس رفض النعمان بن بشير الأنصاري تنفيذ الزيادة في أهل العراق وكان عاملاً عليه، فاحتج عبد الله بن همّام السلولي على ذلك التصرف، وطلب منه تنفيذ الزيادة، وداهن السلوليُّ ابنَ بشير، ولم يتعدّ على حسن صحابته، واستعطفه بمروءة عالية، وذكّره بعطف الخلفاء الراشدين، ومال إلى تهديده بطريقة طريفة من أن منعه تنفيذ الزيادة سيفتح باب الشر والصراع على مصراعيهما ولن يغلق بعد ذلك أبداً، ولكنه لا يتمادى في هذا التعريض فيعلن محبته للأنصار:

زيادَتنا نعمانُ لا تحبسنّها	خفِ الله فينا والكتّابَ الذي تتلو
فإنَّكَ قد حُمِّلْتَ منا أمانةً	بما عَجَزَتْ عنه الصلاخمةُ البُزْلُ
فلا يكُ بابُ الشرِّ تحسنُ فتحَهُ	وبابُ الندى والخيراتِ له قُفْلُ

(١) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد (شرح أحمد أمين وأحمد الزين، وإبراهيم الابيار: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥، ط٣، القاهرة: ٢/ ١١١-١١٢، ٢/ ٤٢٠.

وقد نلتَ سلطاناً عظيماً فلا يكنْ ... لغيركَ جمَّاتُ الندى، ولك البخلُ

وأنت امرؤٌ حلوُ اللسان بليغُهُ ... فما بالُه عند الزيادة لا يحلو

وقبلكَ قد كانوا علينا أئمةٌ ... يهمُّهُم تقويمُنا وهُمْ عُصْلُ

فيا معشَر الأنصارِ إني أخوكُمُ ... وإني لمعروفٍ أتى منكُمُ أهلُ

ومنْ أجلِ إيواءِ النَّبيِّ ونصرهِ ... يحبُكُمْ قلبي، وغيرُكُمُ الأصلُ(١)

عمد الشاعر إلى إثارة النعمان في عدّة مواضع من النص إثارات متعددة، فعمد إلى العاطفة الدينية، وخوّفه غضب الله، وذكّره بكتابه الحكيم، وبأنه مسؤول عن الرعية وقد حمل أمانة عظيمة، وذكره بأنه من الذين نصروا الله ورسوله، فلا يكن النعمان من الذين يفسدون هذا المجد العظيم. ولو كانت الخيرة للمسلمين في اختيار الإمام لكان من الأنصار الذين أووا رسول الله. وعمد إلى الإثارة النفسية، وهدّده بمنعه عطاء قومه، فمنعه يقود إلى فتنة لا تنتهي، وكان الأولى أن يفتح باب الندى والخير والعطاء، وأثار فيه الحمية والغرور، غرور النعمان الشاعر بفصاحته، وحلاوة لسانه، فهو قول دون عمل حين قال:

وأنت امرؤ حلو اللسان بليغه ... فما باله عن الزيادة لا يحلو؟

وتنبه أنس بن زنيم إلى دور الدولة ممثلة بالخليفة أو الوالي في سرقة أموال المسلمين، وكأني به ينبه الخلافة إلى هؤلاء العمّال اللصوص أو قد يسخر من بعضهم وهو حارثة بن بدر الغداني، لما وليّ سرّق من أعمال خراسان، يوصيه بأن يكون جرذاً يخون ويسرق، فالسيادة لا تكون إلا في الغنى:

أحارِ بن بدرٍ قد وُليْتَ ولايةً ... فكن جُرُذاً فيها تخونُ وتسرقُ

وباهِ تميماً بالغنى إنَّ للغنى ... لساناً به المرءُ الهيوبةُ ينطقُ

ولا تحقِرَنْ يا حارِ شيئاً ملكتَهُ ... فحظُّكَ من ملك العراقين سُرَّقُ

فإنَّ جميع الناس إمّا مكذّبٌ ... يقول بما يهوى وإمّا مُصَدِّقُ

يقولون أقوالاً ولا يعرفونها ... ولو قيل: هاتوا: حقّقوا، لم يحققوا(٢)

---

(١) الأغاني: ١٦/ ٣٨-٣٩. انظر ص ١٤٢ من هذا البحث.

(٢) الأغاني: ٢/ ٣٥٨، ٨/ ٤١٦ وديوان أبي الأسود الدؤلي: ١١٨-١١٩.

ارتبطت العمالة بالخيانة، فهذا النص كشف حقيقة الوضع الاقتصادي، ونظرة الشعب إلى بعض القائمين على الحكم، فيوصى أحد العمال بأن يكون جُرَذًا يسرقُ أموالَ الناسِ وحقوقهم كالجرذ، صورة مقززة للأكل الحرام. وينصحه بألا يخرج فقيراً من هذه الولاية، وألاّ يحفل بخوف المجتمع والرعية، فستضطرب الأمور، والناس بين مصدّق ومكذّب، ولا دليل يكشف أمرْ، وإن ساءت الأمور فإنهم سيطلبون التحقيق معه، ولا تحقيق سيجري حقيقة.

أرى أن هذا النص كان من أكثر النصوص إثارة وكشفاً لحال الدولة والشعب والعلاقة بينهما. والحالة الاقتصادية العامة، وكيف تحوّلت المناصب إلى استغلال فردي. ولكن حارثة بن بدر كان أكثر ثقة بنفسه منهم، وحاول تهوين شأن الاستهزاء، إذ كان شاعراً، ولم يجعل مرماه خالياً من حارس يحرسه، ويدرك مرامي الشعر، تعريضه وتلويحه، مما جعل نص أنس، يتضاءل أمام عظمة شخصية حارثة وحلاوة أسلوبه، فردّ عليه قائلاً:

جزاك مليكُ النّاسِ خيرَ جزائِهِ	فقد قلتَ معروفاً، وأوصيْتَ كافيا
أمرْتَ بحزمٍ لو أمرت بغيره	لألفيتني فيه لرأيك عاصيا
ستلقى أخاً يصفيك بالودّ حاضراً	ويوليك حفظَ الغيب إن كنت نائيا[١]

لا أظن النص صادراً عن الدؤلي العالم الجليل، فهو أقرب إلى شخصية أنس منه إلى الدؤلي لكثرة المناقشات الشعرية التي كانت دائرة بينهما، وكانا قد تهادا الشعر في مجلس عبيد الله بن زياد زماناً ثم وقع بين أنس وحارثة شر[٢] ويبدو أن شخصية حارثة كانت شخصية قوية ومحسودة، وكان حاضر البديهة سريع الجواب. وتعرض حارثة كثيراً لانتقادات الشعراء وكان مخلصاً لبني أمية، ومن قبل للمهالبة. واتهم كثيراً بالسّرقات، ومما شجعهم على انتهاز هذه الفرصة مجاهرته بشرب الخمرة[٣].

---

(١) الأغاني: ٨/ ٤١٦.

(٢) الأغاني: ٨/ ٤١٢-٤١٥ روي النص مرّة على أنه لأبي الأسود الدؤلي، ومرّة على أنه لأنس بن زنيم.

(٣) الأغاني: ٨/ ٤١٢-٤١٥.

وكان السلولي قد توقف غير مرّة عند بعض الأمور الاقتصادية التي مارستها السلطة الزبيرية عندما كان عضواً من أعضائها وتمعن فيها، ورفع احتجاجاً إلى عبد الله بن الزبير على تصرفات أخيه مصعب بن الزبير وكان قد بذل لعائشة بنت طلحة مهراً غالياً فقال:

أبلغْ أميرَ المؤمنين رسالةً ... من ناصحٍ ما إنْ يريد متاعا

بَضْعَ الفتاة بألفِ ألف كاملٍ ... وتبيت قادات الجيوش جياعا

فلو أنني الفاروق أخبر بالذي ... شاهدته ورأيته لارتاعا[1]

أظنه لم يجد فرقاً بين الزبيريين والأمويين في نظرتهم للحياة الاقتصادية، ولذا كان سريع الانقلاب عنهم إلى الأمويين، فاتصل بهم، ومدحهم، وتكسب منهم، بينما كان في رحلته مع الزبيريين كثير الشكوى من الظلم الاقتصادي وكانه لم يجد ضالته في الحزب الزبيري.

وبرزت قضية قطع العطاء عن الأفراد كما ظهر في نص جرير وهو يخاطب ابن سعد، وكذلك برزت عند الفرزدق وعمر بن لجأ كما سنرى، وكان الفرزدق قد هجا عمر بن هبيرة الفزاري والي العراق:

منعتَ عطاءً من يدٍ لم يكنْ لها ... بثدي فزاريّ، نصيبٌ تواصلُهْ

ولم يحتضنْها مرضعٌ من مُحاربٍ ... ولا من غنيٍّ اللؤمِ كانت أوائلُهْ

ولكن أبوها من لؤيٍّ بن غالبٍ ... منافٌ له منها من المجد كاهلُهْ

ملوك، وأبناء الملوك أتتهُمُ ... من الله بالفرقان منه رسائلُهْ

فأصبحْتَ مما قدْ منعتَ كقابضٍ ... على الماءِ لم تقبض عليه أناملُهْ

من الماء شيئاً غير أنْ قد تعرّضت ... لنابي شُجاعِ المُجْهزِينَ مقاتِلُهْ[2]

---

(١) الأغاني: ٣/ ١٢٢. انظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء: تحقيق محمد أحمد شاكر. دار التراث العربي القاهرة: ط٣، ١٩٧٧، ٢/ ٧١٤.، وأنساب الأشراف: ٥/ ٢٨٣.

(٢) ديوان الفرزدق: ٤٤١.

ولكن عمر بن لجأ لم يعتمد الهجاء كالفرزدق إنما احتال على ذلك بالتهديد:

منعْتَ عطاءنا ولوْيتَ ديني وأعددَت الخصومة للخصيم

فمالَك إنْ لويتَ الدَّين عنّي معاقبةٌ، فيالك من غريمِ(١)

ولمّا جاء عمر بن عبد العزيز أرجع الحالة إلى ما كانت عليه أيام الخلفاء الراشدين فردّ الصدقات إلى القبائل التي جمعت منها لتفرّق في فقرائها وتوزع حسب القوانين الشرعية(٢). وأبرز الشعراء البداة تشدّد العريف في أخذ خيار المال، وليس في هذا عدل ينتعش به أبناءُ الريف والبادية فصرخ المرّار الفقعسي:

يا آلَ زيدٍ وأنتم أهلُ مَعْدَلَةٍ وفيكم فطِنٌ يخشى ويقطين

ما للعريفِ يريد الجَوْدَ في إبلي سنّ غداءٍ إذا جاءَ الدواوين(٣)

ووردت ليلى الأخيلية على الحجاج تشكو العريف وقالت: (أصلح الله الأمير، أضرّ بنا العريف في الصدقة، وقد خربت بلادنا، وانكسرت قلوبنا، فأخذ خيار المال. قال: اكتبوا لها إلى الحكم بن أيوب فليبتع لها خمسة أجمال، وليجعل أحدها نجيباً، واكتبوا إلى صاحب اليمامة بعزل العريف الذي شكته. فقال ابن موهب: أصلح الله الأمير، أأصلها؟ قال: نعم، فوصلها بأربعمائة درهم، ووصلتها هند بثلاثمائة درهم، ووصلها محمد بن الحجاج بوصيفتين »(٤).

من الخبر السابق نستنتج أن العريف كان قد اشتط في جمع الصدقة، وخالف القوانين الشرعية في جمع الصدقة بشطر المال شطرين، وعلى أصحاب المال أن يختاروا الشطر الذي يريدون، وألاّ يأخذوا خيار المال، فيكون له دور كبير في خراب البلاد وتشتت الناس، لقلة الحيلة وذات اليد. وامتثلت السلطة لرغبة الشعب، وعزلت العريف، ووصلت الشاعرة التي تخاطب الخليفة باسم المجموع،

---

(١) شعر عمر بن لجأ: يحيى الجبوري: دار القلم، الكويت، ط٢، ١٩٨١، ص١٤٤.

(٢) الأموال: ٧١٢.

(٣) شعراء أمويون: ٢/ ٤٨٤. المرّار بن سعيد من شعراء الدولة الأموية، وقد أدرك الدولة العباسية وكان يهاجي المساور بن هند، انظر خزانة الأدب ٤/٢٨٨.

(٤) الأغاني: ١١/ ٢٤٩-٢٥٠.

ووردت مرة تشكو عمال الصدقات، وتطلب عين ماء لقومها[1] ومن الملاحظ أن السلطة كثيراً ما كانت تمتثل لرغبة الشعب أو المجموع، وينفذونه دون تحقيق خاصة أيام السفيانيين وعبد الملك والوليد وولاية الحجاج، وأشار جرير الخطفي إلى أكل العمال للصدقات وقال لجوّاس بن جبير من بني سلمة بن عوف من كليب، وكان العرفاء يعطون أرباع الصدقات دون المساكين، ويأكلون -فلا يألون- ما زادوا على الرجل في صدقته:

وما أرضى بنُصْحِ بني كليبٍ وما أنا عن عريفهمْ براضي
وما أنسى صنيعهم بحَجْرٍ وبالقصبات مَحْبِسُهُم محاضي
ولو شاء الاطبّة أخبروني بداءٍ في قلوبهمُ المراضِ
وكم دافعتُ من خطل ظلومٍ وأشوسَ في الخصومةِ ذي اعتراضِ
شديد من ورائهم ضريري بطيء بعد مرّتي انتقاضي[2]

وكانت صرخة الفرزدق مؤثرة جداً، ولها دور إعلامي خطير وهو يشير إلى سرقات أحد العمال، وتلاعبه بالصّدقات، وتشدده في جمعها، واستغاث بالوليد بن عبد الملك ليرفع الظلم عن الفقراء والأرامل، فما تعيين العامل إلا بحث للعدالة، وكان صوت النساء مؤلما:

رجاك المشرقانِ لكلِّ عانٍ وأرملةٍ، وأصحابُ الثغورِ
وكنتَ جعلتَ للعمَّالِ عهداً وفيه العاصماتُ من الفُجورِ
فمن يأخذْ بحبلك يجلُ عنهُ عَشا عينيه منكَ بياضُ نُورِ
أميرَ المؤمنينَ، وأنت تَشْفي بعَدْلِ يديكَ أدواءَ الصُّدورِ
فكيف بعاملٍ يسعى علينا يُكَلِّفُنا الدارهمَ في البُدورِ
وأنّى بالدّراهمِ، وَهْي منّا كرافعِ راحتيه إلى العَبورِ
إذا سُقنا الفرائضَ لمْ يُردْها وصدّ عن الشُّويهة والبعيرِ

(١) ديوان ليلى الأخيلية: ٥١.

(٢) ديوان جرير: ٣/ ٥٧٦. الأشوس: الذين يتكبر وينظر بعين الشنوء: ضريري: مضارّتي مرّتي: قوّتي.

إذا وضع السِّياط لنا نهاراً ... أخذنا بالرِّبا سَرَقَ الحريرِ
فأدْخَلنَا جهنَّمَ ما أخذْنا ... من الإرباء، من دون الظُّهورِ
فلو سمع الخليفةُ صوتَ داعٍ ... ينادي اللهَ: هلْ لي منْ مجيرِ
وأصواتَ النِّساء مُقرَّناتٍ ... وصبيانٍ لهنّ على الحُجُورِ
إذا لأجابهُنَّ لسانُ داعٍ ... لدينِ الله مغضابٍ نصورِ
أمينِ الله يصدعُ حين يقضى ... بدين محمّدٍ، وبه أمُورِ(١)

لقد أبدع الفرزدق في تصوير العامل الظالم، وهو يرفض الشاةَ والبعير، ويطلب الأموالَ من الناس، ومن لم يمتثل لأوامره ورغباته كانت السياط مصيره ولرفع ذلك عنهم اضطر الناس إلى التعامل بالربا، وتعالت أصوات النساء والأطفال تطلب الاستجارة، ويلبي حينئذ أمير المؤمنين نداء النساء والشعب استطاع الفرزدق أن يجعل القضية عامة، يعاني منها المسلمون في شرق البلاد وغربها، ونقلها إلى إطار أوسع من إطار القبيلة إلى إطار الجماعة الإسلامية. وفي هذه الاستغاثة توكيد على إمرة الوليد. والاستجابة لا بدّ أنها مشروطة بهذا الأمر، وهذا ما تمناه الأمويون لا سيما الأوائل منهم، وفي عرضه لواقع أهله احتجاج اقتصاديٌ صريح، ولكنه قرنه بمدح الخليفة.

تعسف السلطة في جمع الصدقات أو الضرائب كان يشتد كثيراً.فتمردت بعض (القبائل) العرفاء أو المصدّقين، وأحياناً قد يؤول بهم الأمر إلى القتل، وافتخرت طيء بقتل المجالد أحد بني أمية، وقد طرحوه في بئر الحصيلية فقال شاعرهم:

سلوا الحصيليةَ عن مجالدِ
نحن طرحناه بلا وسائدِ
بجمةِ البئر ورغم القائدِ(٢)

---

(١) ديوان الفرزدق: ٢٥٠. وانظر، ٢٣٢، ٤٧٤. الفرائض: ما يفرض علينا من صدقات، الإرباء: الربا. الأمور: الآمر.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان: الحصيلية. وانظر نبيل خانجي أثر الحياة الاقتصادية في شعر البداة في العصر الأموي: ١٣٠.

وأدّى امتناع بعضهم عن أداء الصدقة، واعتدائهم على العريف أو العامل حداً قاسياً جداً، مما سمح للعصبية القبلية أن تعود جذعة نتيجة لقتل صاحبهم، وكان حينئذ لا بد من تدخل الدولة كما هو شأن المُقَصِّص أخي بني الصموت من عبدالله ابن كلاب بن عامر بن صعصعه أيام فتنة بن الزبير[١] ويروى أيضاً أنه لما امتنعت «طيء وأسد» المتحالفتان عن أداء الصدقة أمر مروان بن محمد عامله بتسيير جيش من أهل المدينة والشام والبوادي من قيس وأسد، وبعث إلى كل صاحب ذَحْلٍ ودمنه يطلبها في طيء، فقتل من قيس ثلاثمائة[٢].

قال معدان يعتذر إلى عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وأهل المدينة، ويذكر عرضهم على أمية أن يردّ فزارة، ويعطوه صدقاتهم:

ألا هل أتى أهلَ المدينة عرضُنا	خصالاً من المعروف يعرف حالها
على عاملينا والسيوفُ مصونَةٌ	بأغمادها ما زايلتها نصالُها
أتينا إلى فرتاجَ سمعاً وطاعة	نؤدّي الزكاةَ حين حان عِقالُها
ومن قبلِ ما صرنا وجاءتْ وفودُنا	إلى فيدَ حتى ما يُعدُّ رجالها
فقالوا أغرْ بالناس تعطك طيءٌ	إذا وطئتها الخيلُ واجتيحَ مالُها
ودون الذي منّوا أمية هبوةٌ	من الضرْب قدماً لا تجلّى ظلالها
دعوا بنزارٍ فاعتزينا بطيءٍ	هنالك زلّت في نزارٍ نعالُها[٣]

واشتدّ السّعاة في نجد على الناس في جمع الضرائب الباهظة فذكر عمرو بن أحمر الباهلي ظلم السعاة لقومه بنجد، وضربهم لهم ضرباً مبرّحاً دون مراعاة لظروفهم الاقتصادية؛ من فقر وجدب، فشكا ذلك إلى يحيى بن الحكم بن أبي العاص مادحاً له، شاكياً حاله إليه منددا بعماله الظالمين:

يا يحيى يا ابن إمام الناس أهلكنا	ضَرْبُ الجلودِ وعسرُ المال والخُسْرُ

---

(١) التبريزي: شرح الحماسة: (عالم الكتب، بيروت) ٢/ ٨٢-٨٥ وانظر ٢/ ٦٨-٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٨٢-٨٥.

(٣) أنساب الأشراف: ٥/ ١٢٤.

إن تنب يا ابن أبي العاصي بحاجتنا فما لحاجتنا وِردٌ ولا صدرُ
ما ترضى نرضَ وإن كلّفتنا شططا وما كرهْتَ فكرهٌ عندنا قذرْ
إني أعوذُ بما عاذَ النبيُّ به وبالخليفة أن لا تُقْبلُ العذُرُ
من مترَفيكم وأصحابٍ لنا معهم لا يعدلون ولا نأبى فننتصرُ
لسنا بأجسادِ عادٍ في طبائعنا لا نألمُ الشرَّ حتى يألمَ الحجرُ
ولا نصارى علينا جزيةٌ نسكٌ ولا يهودَ طغاماً دينُهم هدرُ
إن نحن إلا أناسٌ أهلُ سائمة ما إن لنا دونها حَرْثٌ ولاغررُ
ملّوا البلادَ وملّتهمْ وأحرقَهمْ ظلمُ السعّاة وبادَ الماء والشجرُ
إن لا تداركهُمُ تصبح منازلُهُمْ قفراً تبيض على أرجائها الحُمُرُ
أدركْ نساءً وشيباً لا قرارَ لهم إن لم يكن لكَ فيما قد لقوا غيَرُ
إنّ العياب التي يُخفونَ مُشْرَجةٌ فيها البيانُ، ويلوى دونكَ الخبرُ
فابعثْ إليهم فحاسبهم محاسبةً لا تُخف عينٌ على عينٍ ولا أثرُ[١]

احتجاجٌ بيِّن من عمرو بن أحمر على سياسة الحكومة، فالأمور الاقتصادية لم تختلف كثيراً عما هي في الجاهلية، فبنو أمية يسرقون أموال الناس تحت مظلة الصدقات. واحتجاج عمرو ليس احتجاجاً على الشريعة، ولكنه احتجاج على المسؤولين عن تنفيذها، فيسيؤون استخدامها، وكان الدين انقاذاً للناس لا ليغرق الأمويون في الترف بينما يموت الناس جوعاً.

رغم كون النص احتجاجاً اقتصادياً إلا أنْ صاحبه لم يصرّح بالعداوة السياسية مع الحكومة، ولكنه يشكو إلى الحكومة شكوى وديّة بعض الشيء إذا ما قورن هذا النص بنصيّ الراعي النميري[٢]. وكان هذان النصّان بحق أوج تشكل النص

---

(١) شعر عمرو بن أحمر الباهلي: ص ١٠٣-١٠٨. ضرب الجلود: إشارة إلي أن عمال الصدقة ساموهم سوء العذاب حين تأخروا عن دفع الصدقات لأن أرضهم أجدبت، نبا بحاجته: أي أهملها، كلفتنا شططا: مالا نطيقه،مترفيكم: السعاة المترفون، سائمة: الإبل الراعية، الحرث: العمل في الأرض، ملّوا: سئموا، باد الماء والشجر: أصيبت بلادهم بالجدب، الحُمر جمع حُمرة: وهي ضربٌ من الطير، لا قرار لهم: مذعورون فزعين: الغير: تغير الحال وانتقالها من الصلاح إلى الفساد، العياب: جمع عيبة وهي الحقيبة.

(٢) شعر الراعي النميري: ص(٤٦-٦٥) و(٨٢-٩١).

الاقتصادي -إن جاز التعبير- وصار له شكل خاص تحسّ به هموم الجماعة، والقبيلة والفرد، ويكشف لك عن الصراع الدائر بين الحكومة والشعب، ولأهمية هذين النصين لدى الراعي النميري، كان يقول: «من لم يرو هذه القصيدة أي اللامية، وقصيدتي: بان الأحبة بالعهد الذي عهدوا من ولدي فقد عقّني»[1] وعى الراعي النميري ما قاله جيداً، وما رآه في نصيه، من معنى سياسي واجتماعي وقدرة فنية.

أما النص الأول (اللامية) فبدأه الشاعر بحوار أجراه مع ابنته التي تراقب قلقه وهو يعاني هموم الجماعة، وأرق الفقر، وخوف السفر، وقلق الصراع مع السلطة، ومع الموت فيقول:

ما بال دفّكَ بالفراش مذيلاً ... أقذىً بعينك أم أردت رحيلا

لمّا رأتْ أرقي وطولَ تقلّبي ... ذات العشاء وليليَ الموصولا

قالت خليدةُ: ما عراك؟ ولم تكن ... قبل الرقاد عن الشؤون سؤولا

أخليدُ إنّ أباكِ ضاف وسادهَ ... همّانِ باتا جنْبةً ودخيلا

طرقا فتلك هما همي أقريهما ... قُلُصاً لواقح كالقسيّ وحولا

بداية مؤثرة في تصوير هموم الجماعة وقلقها، والشاعر هو البطل المنقذ لها من هذا الوضع المأسوي، بدأها بتساؤل من خليدة (ابنة الشاعر) وهي تراقب تحركات البطل القلق، التساؤل قادم من ابنته فهي قلقة مثله، ولم تعتد سؤال أبيها قبل نومهما عن شؤون كثيرة، ولكنه أشار بلطف إلى أن الأرق والقلق قد عمّا الجميع حتى ابنته. بعاطفة الأبوة الحزينة يجيبها عن تساؤلها، لأنه يريد الإفصاح أصلاً عما يعتوره من هموم ومخاوف (أخليد إن أباك ..)، فالشاعر يعاني همّين عظيمين، همّاً بات جنبه، وهماً آخر داخل جوفه يبدو أنه الجوع، أو خوف السلطة. أو القلق النفسي من خوف السفر، ولذلك أعدّ ناقة عظيمة لتوصيل ذلك الصراع أو ذينك الهمّين إلى السلطة:

أبلغْ أميرَ المؤمنين رسالةً ... شكوى إليكَ مُظلّةً وعويلا

من نازحٍ كثُرتْ إليكَ همومُهُ ... لو يستطيعُ إلى اللقاءِ سبيلا

---

(١) المصدر السابق: ٤٦.

طال التقلّبُ والزمانُ ورابَهُ	كَسَلٌ، ويكرهُ أن يكون كَسولا
وعلا المشيبُ لداتِهِ ومضتْ له	حِقَبٌ نقضْنَ مريره المجدولا
فكأنَّ أعظمَهُ محاجنُ نبعةٍ	عوجٌ قدُمْنَ فقد أردْن نحولا
كبقيّة الهندي أمسى جفنُهُ	خَلَقاً، ولم يك في العظام نكولا
تُغلي حديدته وتنكر لونَهُ	عينٌ رأته في الشباب صقيلا
ألف الهمومُ وسادَه وتجنَّبت	ريَّانَ يصبحُ في المنامِ ثقيلا

تكاثرت الهموم على الشاعر، فالهم الذي كان يعانيه هو همّ ولادة القصيدة لتصل إلى الخليفة، ولذا اختار لها الإبلاغ وسيلة توصيل والقصيدة رسالة وليست مدحة، تحمل شكوى وعويلاً من الشاعر وأهله، ولكثرة الهموم التي يعانونها لا يستطيع الاتصال بالسلطان أبداً. وأظهر الراعي النميري صورته الكسول واعتلاء الشيب رأسه،واحديداب ظهره، وفتور عينيه، واكفهرار وجهه، وذلك بفعل الجوع وهموم العيش، ويصل صوته إلى السلطان ويخاطبه بـ(وليّ أمر الله) و(أمير المؤمنين) ليذكر الخليفة بمسؤولياته تجاه الرعية، كما الشاعر مسؤول عن عشيرته. وأبرز الشاعر صورة الفقر والتشتت التي تعيشها نمير، تفرقت إبلُ أهله وعشيرته في البلاد لأنهم طردوا من أراضيهم بالجوع، كما يطرد المجرم بجريمته، قطعوا اليمامة، وهم يسوقون إبلاً مهزولة، يتركونها في أمكنة متفرقة، وأظهر مأسوية صورة الجدب التي يعانيها أهله من عدم قدرة الإبل على إنتاج الألبان حين قال:

أوليَّ أمرِ الله إنَّ عشيرتي	أمسى سوامهُمُ عزينَ فلُولا
قطعوا اليمامةَ يُطردون كأنَّهمْ	قوم أصابوا ظالمينَ قتيلا
يحدون حُدْباً مائلاً أشرافُها	في كلّ منزلةٍ يَدَعْنَ رعيلا
شهريْ ربيعٍ ما تذوقُ لَبُونُهُمْ	إلاّ حموضاً، وَخْمَةً، ودويلا
حتى إذا جُمِعَتْ تُخيِّرُ طِرْقَها	وثنا الرِّعاءُ شكيرَها المنحولا
وأتوا نساءَهم بنيبٍ لم تَدَعْ	سوءُ المحابسِ تحتَّهُنّ فصيلا

ودهش الشاعر لموقف الخليفة من الرعية، فقومه (حنفاء) مسلمون يؤدون صلواتهم في كلّ وقت، ويؤدون زكاة أموالهم، كما شرع الله، وعلى ذلك تعاديهم الدولة، وطلب من الخليفة رفع المظالم التي نزلت به وبأهله، وأن يتدارك ما تبقى منهم:

أوليّ أمرِ اللّهِ إنّا معشرٌ ... حنفاءُ نسجدُ بكرةً وأصيلا

عربٌ نرى للهِ في أموالنا ... حقَّ الزكاة مُنزَّلا تنزيلا

قومٌ على الإسلامِ لمّا يمنعوا ... ماعونَهم، ويُضيِّعوا التهليلا

فادفع مظالم عيَّلت أبناءنا ... عنّا وانقذ شلْوَنَا المأكولا

فنرى عطيَّة ذاك إنْ أعطيتَه ... من ربّنا فضلاً، ومنك جزيلا

أنت الخليفةُ حِلمُهُ وفعالهُ ... وإذا أردت لظالم تنكيلا

وكان الشاعر حاداً جداً في مخاطبة الخليفة إن أدّيت ذلك كان الفضل من الله، وإن زدت كان فضلاً منك إذاً فهو يطلب حقوقه الواجبة على الدولة. ثم انتقل إلى عثمان بن عفان ومروان بن الحكم وعبد الملك، وعلاقتهم بالرعية، وكيف استقرت أمور الملك على أيديهم لينتقل منها إلى موقفه السياسي، وبالتالي إلى موقف قبيلته السياسي من الفتن الزبيرية والخارجية. وحينئذ علينا أن نتذكر أن (نمير) كانت زبيرية الهوى، لذلك خاضت مع بطون قيس عيلان الأخرى معركة مرج راهط ضد الأمويين وأحلافهم من القبائل اليمانية وتغلب، وكان خلفاء بني أمية منحرفين عن نمير، وقيس عيلان عامة بسبب أهوائها الزبيرية، ومواقفها المعادية للأمويين وحلفائهم[1]، وحاول الراعي النميري التنصل من الزبيريين:

إنّي حلفتُ على يمين برّةٍ ... لا أكذبُ اليومَ الخليفةَ قيلا

ما زرتُ آلَ أبي خبيبٍ وافداً ... يوماً أريد لبيعتي تبديلا

ولا أتيتُ نُجيدةَ بن عويمرٍ ... أبغي الهدى فيزيدَني تضليلا

من نعمةِ الرّحمنِ لا من حيلتي ... إني أعدُّ له عليّ فضولا

---

(١) شعر الراعي النميري: المقدمة: ص٢٣.

أزمانَ قومي والجماعةُ كالذي   لزمَ الرَّحالةَ أن تميل مميلا
وتركتُ كلَّ منافقٍ متقلِّبٍ   وجدَ التلاتلَ دينَه؟ مدخولا

فالشاعر صاحب موقف سياسي، ويعجبه موقفه، وكشف عن رأيه بالخوارج وفرقهم، وعبد الله بن الزبير، فالتزم هو وقومه رأي الجماعة، ولم يرفض البيعة أو يبدلونها وكأنه بهذا يستدر عطف الخليفة على رعيته، فلا هو زبيري الهوى ولا خارجيةُ إنما هو أموي الهوى، يفضِّلُ مروان بن الحكم على كل القرشيين، فالأولى أن تؤيدهم الخلافة، ليعود ثانية إلى الكشف عن أسباب الشكوى، فيصرخ بعنف:

إنَّ السُّعاةَ عصَوْكَ حين بعثْتَهُمْ   وأتوا دواعيَ لو علمْتَ وغولا
إنَّ الذين أمَرْتَهُمْ أنْ يعدلوا   لم يفعلوا ممَّا أمرتَ فتيلا
أخذوا المخاضَ من الفصيل غُلُبَّةً   ظلماً، ويُكتبُ للأمير أفيلا
أخذوا العريفَ فقطَّعوا حيزومه   بالأصبحيَّة قائماً مغلولا
حتى إذا لم يتركوا لعظامه   لحماً، ولا لفؤاده معقولا
نسي الأمانة من مخافة لقّحٍ   شُمُسٍ، تركن بضَبْعِه مجزولا
كتب الدُّهيمَ وما تجمَّع حولها   ظلماً فجاء بعِدْلِها معدولا
وغدوا بصكِّهم وأحدب أسأرَت   منه السياطُ يراعةً إجفيلا
من عامل منهُمْ إذا غيَّبْتَهُ   غالا يريد خيانة وغلولا
جَربِ الأمانة لو أحطْتَ بفعلِه   لتركت منه طابقاً مفصولا[١]

كشف الشاعر عن ظلم السعاة، وقد عصوا أمر الخليفة، ومن يعص أمر الخليفة فقد عصى أمر الله، باختيارهم خيار الإبل دون تخيير أربابها، وزوّروا بالسجلات، أخذوا النوق الحوامل، وكتبوا في الصحف أنها (أفيلا) ... الخ. ومارس السعاة

---

(١) السعاة: جامعو الصدقات، الغول: الداهية، المخاض: النوق الحوامل، الفصيل: ابن الناقة، الغُلُبَّة: يغلب سريعاً، الأُفيل، من أولاد الإبل ما أتى عليه سبق أشهر: العريف: سيد القوم وهو دون الرئيس الأصبحية: السياط من القد. المعقول: العقل لقح: أيد ترتفع عليه بالسياط. شبهها بآذنان الإبل اللواقح، شمس: صفة للإبل الحوامل الصبع: بالفتح العضد، المجزول: المقطوع، الدُّهيم: الدواهي.

أعمالاً مأسوية، فضربوا عريف القوم المسؤول عنهم بالسياط حتى كاد يفقد عقله وجسمه، مما كان لضربه من أثر في قومه، فاضطر العريف إلى مسايرتهم، ونسي قبيلته خوف السياط، أصبح خائناً مثلهم، وتشتد الأمور بمجيء أمر يحيى، يبدو أنه (يحيى بن الحكم أمير المدينة) الذي ظهر في قصيدة عمرو بن أحمر الباهلي فشدد الوثاق عليهم بعقد شديد كان له أثر كبير في غنى القوم وفقرهم:

واتاهُمُ يحيى فشدَّ عليهِمُ عقداً يراه المسلمون ثقيلا

كتباً تَرَكْنَ غنيّنا ذاخَلَّةٍ بعد الغنى، وفقيرَنا مهزولا

أخذوا حَمولَتَهُ فأصبح قاعداً ما يستطيع عن الديار حويلا

يدعو أميرَ المؤمنين ودونه خَرْقٌ تجرُّبِهِ الرياحُ ذُيولا[1]

كتبهم الصعبة غيّرت الموازين الاقتصادية، فأصبح الغنيّ فقيراً ذا حاجة والفقير مهزولاً بقايا إنسان، ولذا بدأ الناس يتدبرون أمرهم ليشكوا حالهم إلى الخليفة، ولكنهم لا يجدون ما يمتطونه لأنهم:

أخذوا حمولته فأصبح قاعداً ما يستطيعُ عن الدّيار حويلا

ويصل إنفعاله قمته حين يهدده الخليفة بإيماء فقال:

ولئن سلمتُ لأدعونَّ لطعنةٍ تدع الفرائضَ بالشُّريفِ قليلا

فقال له عبد الملك: وأين من الله والسلطان لا أمّ لك فقال: يا أمير المؤمنين من عامل إلى عامل، ومصدّق إلى مصدّق، فلم يحظ، ولم يحل منه بشيء» هدّده بمنع أداء الصدقات للحكومة، فحذره عقوبة الله، ولذا سيرحل إلى مناطق متعددة فلا يقع تحت طائلة العمال والمصدّقين» ما دامت الصدقة قد خالفت الشرع وأهدافها أيضاً، ولذا لم يستجب السلطان لرغبة الشاعر، ولم يمنع الفقر عنهم، وكذا لم يمنع السعاة من ظلمهم، ولذا يرحل الراعي مرة ثانية إلى السلطان، ولكنه في هذه المرة أكثر خضوعاً من ذي قبل فبدأ النصّ بمقدمة قال فيها:

بان الأحبَّةُ بالعهدِ الذي عهدوا فلا تمالكَ عن أرضٍ لها قصدوا

---

(١) ذاخلة: ذا حاجة- حويلا: التحوّل-خرق: الفلاة الواسعة.

وَرادَ طرفُكَ في صحراء ضاحيةٍ ... فيها لعينيك والأظعانِ مطّرَدُ
واستقبلتْ سَرْبَهُمْ هيفٌ يمانيةٌ ... هاجت نزاعاً، وحادٍ خلفهم غَرِدُ
حتى إذا حالت الأرحاءُ دونهم ... أرحاء يرمل حار الطرف إذ بعدوا
حثّوا الجمال، وقالو: إن مشربكم ... وادي المياه، وأحساءٌ به بُرُدُ[1]

عرض صورة رحيل الأحبة عن أرض كانوا يحبونها، وساروا في صحراء قاحلة مجدبة، ليس فيها سوى الريح الحارة الجافة المدمّرة (الهيف)، وراح الراحلون يحثّون الجمال ليصلوا وادي المياه، رفضاً للفقر والجدب، وبحثاً عن الحياة، ثم صور الناقة، فالمرأة، ودخل في حوار مع ابنته التي تشاركه همومه، وهي أحد همومه أيضاً، وقد قرّر الرحيل:

قامت خليدةُ تنهاني فقلت لها ... إنَّ المنايا لميقاتٍ لهُ عَدَدُ
وقلتُ ما لامرىءٍ مثلي بأرضكمُ ... دونَ الإمام، وخيرُ الناس متّأدُ
إني وإياك، والشكوى التي قَصَرَتْ ... خطوي، ونأيَكَ والوجدَ الذي أجدُ
كالماء والظالعُ الصديانُ يطلبُهُ ... هو الشّفاءُ له والرِّيُّ لو يرد[2]

تقوم خليدة بدور المرأة التي تخاف الهلاك على أبيها، وتقرأ ما في داخله فنهته عن الدخول في هذا المعترك الذي لا يمنع موتاً أو فقراً محققاً، ولكنه يؤمن بأن المنايا قدر الله، ولا بدّ من السفر للوصول إلى الإمام، فهو مسؤول عن رعيته، وتوّج الراعي احتجاجه الاقتصادي بتصوير الشاكي والمشكو إليه، بصورة الماء والصادي، والشوق والنائي. فقصّرت الشكوى خطى الشاعر، والخليفة ناءٍ بعيد، وكأني به يستنزله من عليائه ليفهم حاجة للناس، وبعدها يجنح الراعي إلى مدح الخليفة يطلب منه المعروف بصيغة ضمير الجماعة من خلالها يذكر ظلم السعاة، وفقر العشيرة بإيجاز شديد مقارنة بما قاله في النص السابق، واقتصر الحديث عن الشكوى والاحتجاج الاقتصادي على ثمانية أبيات، طلب فيها المعروف، وكان

---

(١) شعر الراعي النميري: ص٨٢-٨٣ وانظر القصيدة ٨٢-٩١. الهيف: ريح الجنوب إذا هبت بحر.

(٢) متئد: التؤدة: التمهل.

الحقوق أصبحت منّةً، استحق المسؤولُ المدحَ عليها فقال:

نرجو سجالاً من المعروف تنفحها	لسائليك، فلا مَنٌّ ولا حَسَدُ
ضافي العطيّة راجيه وسائله	سيّان أفلح منْ يعطي ومنْ يعدُ
أنت الحيا، وغياث نستغيث بهِ	لو نستطيع فَداك المالُ والولدُ
أزرى بأموالنا قومٌ أمرتهمُ	بالعدل فينا فما أبقوْا وما قصدوا
نعطي الزّكاةَ فما يرضى خطيبهمُ	حتى نُضاعفَ أضعافاً لها عُدَدُ
أمّا الفقيرُ الذي كانت حلوبتُهُ	وَفْقَ العيال فلم يُتْرَكْ له سَبَدُ
واختلّ ذو المال والمثرون قد بقيت	على التلاتل من أموالهمْ عقدُ
فإن رفعتَ بهم رأساً نعشْتَهمُ	وإن لقوْا مثلها في قابلٍ فسدوا

استغاث بإيجاز شديد، وفدّى الخليفة بالمال، لكنه لا يجد المال، وقد حازت السعاةُ أموالهم لمّا أمرهم الخليفة بتنفيذ العدل، ولم يمتثلوا لأمره، وقد تطرفوا في جمعها حتى أنهكوا المال. وإن أخذوا الزكاة أخذوها مضاعفة، وهذه المضاعفة تكون لصالحهم، وليست لبيت المال، وخرجت على القوانين الشرعية، وكانت المحصّلة اختلال الميزان الاقتصادي فالاجتماعي. فالفقير الذي كان يعتمد على ناقته -منيحة أهله- فقد حلوبته، وكذا لم يسلم أصحاب المال والأثرياء من هذا الظلم الكبير، وسلبوهم أموالهم. ولم يفيضوا منها على فقرائهم لأنهم لا يكادون الآن يكفون حاجاتهم، هذه أحوال قومه، فإن رفع الخليفة الجدب والفقر عنهم، وأوقف مسلسل الرعب وظلم السعاة كانت بذلك حياتهم وإن جاء عامٌ آخر وهم على هذه الحالة ساءت أحوالهم، وبالتالي سيفقدهم الخليفة، وهو مسؤول عن رعيته، فقد عمد الراعي النميري إلى الإشارة في توضيح صورة الفقر، وإيمانه بدور الخليفة في رفع الظلم عن الرّعية.

حاول الراعي النميري أن يعبّر عن هموم قومه، بل تجاوز ذلك إلى وضعها في صيغة الاحتجاج حتى استجاب الخليفة مؤخراً لمطلبه فقال له عبد الملك: فتريد ماذا؟ قال: ترد عليهم صدقاتهم فتنعشهم، فقال عبد الملك: هذا كثير. قال: أنت أكثر منه، قال: فسلني حاجة تخصك، قال: قد قضيت حاجتي. قال: سل حاجتك لنفسك. قال: ما كنت لأفسد هذه المكرمة.

ذاب الراعي في المجموع شعراً وخطاباً للخليفة. ما يريد إلا ردّ الصدقات إلى مواقعها لتوزّع كالمعتاد. وكان يريد توصيل تلك الهموم بأمانة إلى السلطة وكشف الجرائم الاقتصادية التي ارتكبت باسم الخليفة، ووقف الخليفة منحازاً إلى السعاة راضياً بظلمهم، ولا يدهش لذلك بل استكثر على الراعي طلبه، ولم يعاقب السعاة على صنيعهم، وكأن الأمر أصبح حقيقة واقعة، لا يستطيع الخليفة حلّها.

جـ- الصراع على مصادر الماء والغذاء:

أما المظهر الثالث من مظاهر الاحتجاج الاقتصادي، فكان الصراع على مصادر الماء والكلأ، وفيه شكلان من أشكال الصراع على الملكية صراع بين القبائل، أو بين بطون القبيلة الواحدة، وصراع بين الدولة والشعب، والشكل الثاني لا يظهر بشكل واضح، إنما يظهر من خلال الشكل الأول والحمى حالة من حالات البادية، ومظهر من مظاهر نظام الكلأ، ويمثل اقتصاد الرعي، ولا يمثل بأية حالة اقتصاد الزراعة أو التجارة أو الحرف كما مرّ معنا في الباب الأول. وتظهر الصحراء المقفرة وما فيها من حالات النزاع على مصادر الماء والغذاء. وفي الحمى نلمح علاقات البداة مع السلطة، وعلاقاتهم فيما بينهم، وهي علاقات نزاع على الأغلب لا علاقات مودة.

اشتدّ الصراع بين القبائل على الماء، ونجد شاعراً كسنان بن الفحل يصوّر الصراع الذي دار بين «أم الكف» من جَرْم طيء و«بني هرِم بن العُشَراء» من فزارة، اختصم الحيّان وهم مختلطون مجاورون، واشتد الصراع حول بئر للطائيين فاحتج سنان يدافع عن مائه، وماء أهله، أمام عبد الرحمن بن الضحاك والي المدينة:

وقالوا: قد جُنِنْتَ فقلت: كلاّ	وربّي ما جننتُ ولا انتشيتُ
ولكنّي ظلمتُ فكدتُ أبكي	من الظُّلمِ المبيَّنِ أو بكيتُ
فإنّ الماءَ ماءُ أبي وجدّي	وبئري ذو حفرتُ وذو طويتُ
وقبلك رُبَّ خصمٍ قد تمالوا	عليّ، فما هلعتُ ولا دعوت
ولكني نصبت لهم جبيني	وآلّةَ فارسٍ حتى قريْتُ[1]

(١) المرزوقي/ شرح ديوان حماسة أبي تمام: تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٦٨، ٢/ ٥٩٠.

احتجّ سنان على أن الماء ماء أبيه وجده بقوله (ذو حفرت وذو طويت) فقد شهد حفره وطويه. ونلمح الاحساس بالظلم بيّناً واضحاً في كلمات الشاعر، إذ وسموه بالجنون، فنفى عن نفسه تهمتي الجنون والانتشاء، وصرخته هي صرخة الظلم والفناء واتجاه نحو الحياة والبقاء. ورفضَ سنانُ الموتَ والفناءَ حتى كاد يبكي، بل بكى. ففقدان مصادر الماء في حياة البداة يعني الموت والفناء للشاعر وللقبيلة، ولذا دافع سنان عن حياته وحياة قبيلته بكل ما يملك، بالسيف والشعر، فشكوى الشاعر كانت مؤلمة تخز في القلب والضمير الإنساني، تكاد تصل إلى احتجاج صارخ لا مثيل له، احتجاج عام على دولة خفية لا تظهر سطوتها في حل هذه المنازعات في الصحراء البعيدة، ولا يرى الشاعر لها صوتاً يعلو على صوت الفناء، واحتجاجه كان احتجاجاً غريباً يختلف عن كل مظاهر الاحتجاج، حتى قالوا فيه (قد جننت). تصرفات الشاعر كانت دفاعاً عن حقوقه وحقوق قبيلته في الحياة، حتى كانت مثاراً لحديث الآخرين. وبالغ جداً في الدفاع عن هذه الحقوق التي أصبحت في خطر، ولا صوت لدولة تتبنى مثل هذه الحقوق، وتحل هذه النزاعات، ويبدو أنّ صراخه واحتجاجه كان مثيراً، حتى استجاز غيره لنفسه -خوف السلطة- أن يتّهمه بالجنون، فنفى عن نفسه حالتي الجنون ونشوة الخمرة، ولكن ظلم فبكى، والعربي لا يبكي إلاّ من شيء يؤلم جداً. ولا ننسى أن الشاعر يدافع عن وجود قبيلته وهويتها، وكذلك عن مصادر رزقها المتمثلة بالماء.

ونلمح في الحمى ملمحاً آخر يتصل باللمز والمعايرة بالذّل، وقلة الدفاع عن مياه المهجو، وكان ابن لجأ قد أشار في حواراته مع جرير بأن هجاءه حصل لأنه لم يقدر على أن يورد أتنه وأعياره بعد هذا الموقف، وكانت هذه المعايرة من الأسس التي قامت عليها النقائض، وكان قد قال:

هم منعوا منك المياه فلم تجدْ   لجحشكَ إلاّ بالمصيقة مَشْرَبا

لنا مرقب عند السماءِ عليكُمُ   فلست بلاقٍ فوق ذلك مرقبا[1]

وجد ابن لجأ منفذاً لهجاء جرير، فقد منعت عنه المياه منعاً فردياً، وبالتالي فقد جرير مصدر عيش حماره إذ كان والده صاحب أتُنٍ. وحينئذ يكون الحمى

---

(١) شعر عمر بن لجأ: ٤٠/ ٤١، انظر معجم البلدان: المضيقة.

مصدراً للشرف والعز، وفقدانها دلالة على الفقر والذل، وهذا الذي كان قد خافه سنان بن الفحل في النص السابق، وهو يحتج على ما حصل.

ولم يسلم حفارو الآبار من هجاء الشعراء إذ اكلّفوا بحفرها، ويبدو أن الدولة كانت تكلفهم بالعمل إياه، فتنافس الدولةُ وعمالُها تلكَ القبائلَ المقيمةَ أصلاً في الحمى على مائها وغذائها واقتصادها، الأمر الذي جعل الفرزدق يقول في دينار وفرقد وقد أرسلا ليحفرا مياهاً بالفلج والملاح فقال:

ويلٌ لفَلْجٍ والملاحِ وأهلِها إذا جابَ دينارٌ صفاها وفرقدُ

مِصكّان قدِ كادت تشيبُ لحاهما وآخر من نوب المدينة أسودُ

ومرٌّ كمردي السفينة مَتْنُهُ يظلّ الصَّفا من ضربِهِ يتوقّد[1]

يوحي النص بأن المدينة المنورة قد أرسلت الموالي (نوب المدينة) لتنفيذ هذا الأمر، مما يجعلنا نشعر بالصراع الدائر بين الدولة والشعب والتحرش برزقه وتناسي احتياجات البدو إلى الماء والحمى لتباعد الأقاليم الإسلامية عن العاصمة، وبالتالي كان هجاء الفرزدق لمنفذي قرارات الحكومة هجاءً للقرار الحكومي واحتجاجاً عليه، ولم يجد الفرزدق وأهله منفذاً للاحتجاج إلاّ بهجاء هذين الرجلين المسؤولين عن تنفيذ هذه المهمة، فهي شكوى مبطنة.

وكثيراً ما كان الصراع على مصادر الماء والكلأ يرفع إلى الدولة لتقضي فيه، وقد لا يعجب هذا الحكم بعضهم، فيضطر إلى هجاء القبيلة التي قضي لها الأمر، غير خائفٍ سطوة السلطان، أو قد يسخر من المقضي عليه كحال بني فقيم. وقد اختصمت وبني العنبر في ماء لهم. فارتفعوا إلى المدينة، فقضي لبني العنبر فمرّت بنو فقيم ببرام (قدر كبيرة) فاشتروها معهم في طريقهم فقال الفرزدق:

وآب الوفدُ وفد بني فقيمٍ بآلام ما تؤوبُ به الوفودُ

أتونا بالقدور معدِّليها وصار الجدُّ للجد السعيدُ

وشاهدتِ الوفودَ بنو فقيم بأحردَ إذْ تقسّمتِ الجُدودُ[2]

---

(١) ديوان الفرزدق: ١٤٦-١٤٧، دينار وفرقد: رجلان قاما بالمهمة.

(٢) ديوان الفرزدق: ١٢٨. الجدّ: الحظ، الأحرد: البخيل اللئيم.

وكأن الحكم لم يعجب الفرزدق، ولم يستطع هجاء الدولة التي حكمت للعنبريين بالماء، وبفقدان فقيم للماء فقدت الشرف والكرامة. واستجار جرير بالله ثم بالمهاجر بن عبد الله الكلابي والي اليمامة، وقد تخاصم قوم جرير وبنو حِمّان وارتفع الخصام إلى المهاجر، وسلكت استجارة جرير بالمهاجر مسلك الأرجوزة بحلتها القشيبة من وضع الناس في جو ديني فقال مرتجزاً:

أعوذ باللّهِ العزيزِ الغفّار	وبالإمام العدْلِ غيرِ الجبّارْ
من ظُلْمِ حِمّان وتحويل الدّار	فاسأل بني صحب ورهط الجزّارْ
والسلميين العظام الأخطار	والقرشيين ذوي السيح الجارْ
هل كان قبلَ حَفْرِنا من محفار	أو كان من وردٍ به أو إصدارْ
يمشي بها كلُّ موشى بربار	موشّم الأكرع فيها جآرْ
يهزُّ روقيه كهزّ الأسوار	تُكَسِّرُ المنقارَ بعد المنقارْ
بعد دم الكفِّ ونزع الأظفار	يصهلن في الجُبِّ صهيل الأصهارْ
في الجبل الأصمِّ غيرِ الخوّار	فسائل الجيران عن جار الدارْ
فالجار قد يعلمُ أخبارَ الجار	واحكم على تبيُّن واستبصارْ(١)

تجاوز النص الشكوى إلى الاحتجاج الاقتصادي، وهذا مستوى حضاري لم نعهد وجوده في صراعات القبائل على الماء التي تكون بالنزاع والقتال والحروب وغيرها، إنما اتصفت بالهدوء السياسي المنظّم. وطلب جرير حجّة القبائل المجاورة لتسلم لهم بما استولى عليه الخصم، وتشهد على أن كليب قد حفرت هذا البئر، وهي ليست مياه (عادية). وقانون الكلأ في الإسلام من حفر بئراً فهو له وما حوله.

وتتجلى صورة حضارية رائعة لهذه المحاورات الاحتجاجية المنظمة المؤمنة بالحقوق، والدولة أيضاً، فيرد عليه أحد بني حمان خصمائه:

أحلفُ بالله العزيز القهّار	ما لكليبٍ من حمىً ولا دار
إلا مُقامَ أُتُنٍ وأعيار	قعسِ الظهور وارمات الأثفار(٢)

(١) ديوان جرير: ٢/٤٤٥-٤٤٦. وانظر شعر الراعي النميري: ١٨٣، وقد منعه بنو حمّان الماء.

(٢) ديوان جرير: ٢/ ٤٤٧.

فأقر في قوله: إلا مقام أتن وأعيار حقوقاً لكليب في البئر، وأدرك جرير هذه العبارة التي تتضمن مطلبه في الماء فردّ عليه «مقام أتني وأعياري اطلب، فداك أبي وأمي». والماء قوام للأتن والأعيار، ويبدو أن هذا مطلب جرير وقومه ليس أكثر.

وقد تحصل ملاحاة فردية على الماء بين اثنين أحياناً، ولكنها من عمق القبلية، كحال مزاحم العقيلي ورجل من بني جعدة في ماء فتشاتما وتضاربا فشجّه مزاحم شجّة أمّته، فاستعدت بنو جعدة على مزاحم، فحبس حبساً طويلاً ثم هرب من السجن، فمكث في قومه مدّة، وعزل ذلك الوالي، وولي غيره فسأله ابن عمٍّ لمزاحم يقال له مغلس أن يكتب أماناً لمزاحم، فكتب له، وجاء مغلّس والأمان معه، فنفر مزاحم منه وظنّها حيلة من السلطان فهرب وقال في ذلك:

أتاني بقرطاس الأمير مغلسٌ	فأفزع قرطاسُ الأمير فؤاديا
فقلت له: لا مرحباً بكَ مرسلاً	إليّ، ولا لي من أميرك داعيا
أليست جبالُ القهر حقاً مكانها	وعروى وأجبالُ الوحاف كما هيا
أخاف ذنوبي أن تعدَّ ببابه	وما قد أزلَّ الكاشحون أماميا
ولا أستريمُ عقبةَ الأمر بعدما	تورّط في بهماء كعبي وساقيا[١]

ولا حق الخوف الشاعر حتى ظن أن السلطان يلاحقه في كل مكان، وهذا ما يوحي بأن اعتقادنا بالمخاصمات التي حصلت بين بني جعدة وعقيل كانت خصومات اقتصادية، معظمها تدور حول مصادر الماء والكلأ.

ولجأت القبائل إلى عقد الأحلاف لمقاومة الفقر والجدب، فهذا الفرزدق يوصي تميماً باستقبال قبائل قضاعة في حالات الجدب، فقال:

أوصي تميماً إن قضاعةَ ساقَها	قوا الغيث من دارٍ بدومةَ أو جَدْبِ
إذا انتجعت كلبٌ عليكُمُ فمكّنوا	لها الدارَ من سهل المباءة والشُّرْبِ
فإنهم الأحلافُ، والغيثُ مرّةً	يكونُ بشرقٍ من بلاد ومن غربِ
أشدُّ حبالٍ بين حيين مِرّةً	حبالُ أُمِرّتْ من تميمٍ ومن كَلْبِ[٢]

(١) الأغاني: ١٩/ ١٠٧-١٠٨.

(٢) ديوان الفرزدق: ٢٠.

مالت القبائل إلى تكوين حلف سياسي من ضمنها الحياة الاقتصادية ولها دور قوي في توطيد هذا الحلف ضد جهة أخرى، ويبدو أن مصالح الفرزدق يوماً كانت مع أخواله (بني ضبّة) -غير الفخر- مما جعله يرفض سيطرة بني كليب على الماء في الصحارى، ولذا دعاهم إلى الاحتكام إلى السيف إن جار الحاكم بالحكم، فكيف وقد حكم لبني كليب على بني ضبة:

ومن عجب الأيام والدهر أنْ تُرى   كليبٌ تبغّى الماءَ بين الصرائم

فيا ضبُّ إنْ جار الإمامُ عليكُمُ   فجوروا عليه بالسُّيوفِ الصوارمِ

أما فيكمُ وفدٌ ولا فاتكٌ به   فماذا الذي ترجون عند العظائم(1)

وأحياناً كانت تظهر الفردية الضيقة في الصراع على الملكية فتتجاوز نطاق القبيلة ويبدو أن الفردية بدأت تغزو اقتصاد الرعي. وقد تسربت إليهم من فردية المدينة، وفردية النظام الزراعي أيضاً، ورغبتهم في زيادة الإنتاج. وقد تتجاوز ذلك إلى موقف سياسي، ورغبة في التّسلط والتحكم بالآخرين، والإحساس بالسيادة فشكا كثيّر عزة من (بنو العم) منعهم الماء عنهم، وقد حموا النضيح دونه فقال:

أبتْ إبلي ماءَ الرّداه وشفّها   بنو العمِّ يحمون النضيح المبرّدا

وما يمنعون الماءَ إلا ضنانةً   بأصلابِ عُسْرى شوكُها قد تخدّدا

فعادت فلم تجهد على فضلِ مائِهِ   زياحاً، ولا سقيا ابن طلْق بن أسعدا

إذا وردت رغباءَ في يومِ وِرْدِها   قلوصى، دعا إعطاشُهُ وتبلّدا

فإني لاستحييكم أن أذمّكم   وأكرم نفسي أن تسيئوا وأحمدا(2)

كان أبناء عمه يضايقونه في ورود الماء، ويبخلون عليه جداً، فاستحيا من مذمتهم ويبدو أن الصراع كان داخل القبيلة الواحدة، بل بين أبناء العمومة، فشكا الشاعر أنانيتهم المفرطة في الاستيلاء على مصادر الماء، ولذا استحى من تردّي قيمهم، وبالتالي كان النص السابق، من إفرازات التطور الحضاري، وتصادم أنظمة الإنتاج.

---

(1) ديوان الفرزدق: ٦٠٥-٦٠٦. الصرائم: الصحارى.

(2) ديوان كثير عزّة: ٢٠٨، رغباء: اسم بئر. الرداة: الصخرة، النضيح: الحوض، الاعطاش: حبس الإبل عن الماء يوم الورود.

وتسرّبت الأنانية والمادية جداً إلى بعض العاملين حتى وجدنا أحد القائمين من بني حنبل على الماء يبيع ماء المسلمين دون إذن الدولة، فشكا الفرزدق ذلك، وقال:

لحا الله ماءً، حنبلٌ قيّمٌ له ... قفا ضبّةٍ تحت الصّفاةِ مكونِ
إذا ما وردْتَ الماءَ فادلفْ لحنبلٍ ... بقَعْبٍ سويقٍ، أو بقَعْبِ طحينِ
أويْتُ لأبناءِ الطريق من امرىءٍ ... شَروبِ الأداوي للركيِّ دَفُونِ
ولو علم الحجّاج علمَكَ لم تبع ... يمينُكَ ماءً مسلماً بثمينِ
لحاولْتَ جَدْعاً أو لألفيتَ مُقْعَداً ... تزحّف تمشي مشية ابن وضينِ[١]

ساوم الناس على ماء المسلمين، ولكن الفرزدق هنا يحذره الحجّاجَ وجبروتَهَ إن علم بشرّه، وكأنه يريد توصيل القضية إلى مجلس الحجاج من خلال التهديد والتحذير ليشرف الحجاج بنفسه على الأمر ويقتصّ من حنبل، ومن جهة أخرى يبدو أن الدولة كانت تعيّن مشرفين على المياه المتنازع عليها، وأحياناً تكون ضمن مسؤوليات عامل الحمى، إن كانت المياه ضمن الحمى.

واستغل نفر منهم مناصبهم في حيازة الحمى لإبله ومواشيه، وتدخلت علاقاتهم الشخصية بهذا الأمر، فانتقد عتيبة بن مرداس موقف عبد الله بن عامر ابن كريز، وكان قد تزوج أخت بشر بن كهف المازني، وكان أثيراً عنده، فاستعمله على الحمى، فسأله عتيبة أن يرعيه فأبى ومنعه، وطرد إبله فراح يقول:

من يك أرعاه الحمى أخواتُهُ ... فمالِيَ من أختٍ عوانٍ ولا بكرِ
وما ضرّها إنْ لم تكن رعتِ الحمى ... ولم تطلبَ الخير الممنَّع من بشْرِ
متى يجيء يوماً إلى المال وارثي ... يجد قبض كفٍ غيرِ ملأى ولا صفرِ
يجد مُهْرةً مثلَ القناةِ طمرّةً ... وعضب إذا ما هُزّ لم يرضَ بالهَبْرِ
فإن تمنعوا منها حماكم فإنه ... مباح لها ما بين إنبطُ فالكدرِ
إذا ما أمرؤ أثنى بفضل ابن عمّهِ ... فلعنة ربِّ العالمين على بِشْرِ[٢]

---

(١) ديوان الفرزدق: ٦٣٩. حنبل: كان بنو حنبل يمنعون الناس من ورود الماء ويقرنه بقفا الضبة التي لا تطال لأنها مختبئة تحت الصخر تكمن فيه كالبيضة في جوف الجرادة.
القعب: الوعاء، أي أنهم كانوا يبيعون الماء بالسويق والطحين،الركي: البئر، جدعا: جدع أنفه.

(٢) الأغاني: ٢٢/ ٢٣٤-٢٣٥. انظر ديوان القطامي: تحقيق إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، دار الثقافة بيروت (١٥٣-١٥٥) إذرويت للقطامي التغلبي عمير بن شُييم. الطمّر: الفرس الجواد.

فاستغل بشرٌ علاقته بابن عامر، وحجز الحمى لنفسه، ومنع الآخرين دخوله، ولكن مثل هذه الشكوى ظلت في حدود الفردية. والسخرية من سلطة بشر. ولم يقدر على لعنة ابن عامر بن كريز فهو أضعف من مقاومة السلطة ممثلة بالعامل.

وشاع بين البداة منع الناس من الرّعي ضمن حدود الحمى، فهذا الراعي النميري منعه بنو عقدة الرعي في الحمى، فقال يخاطبهم بكرم الله عز وجل وأنه لن يتخلى عن عباده. وبأنه سيلحق بحيٍّ أفضل منهم خلقاً، ومع ذلك بقيت الشكوى ضمن الاعتراف بحقوق بني عقدة:

ولاقين من أولادِ عقدةَ عصبةً	على الماء ينثون الذحولَ الموانعا
فقلنا لهم إن تمنعونا بلادَكُمْ	نجدْ مذهباً في سائر الأرض واسعا
ويمنعكم مستَنّ كلِّ سحابةٍ	مُصابُ الرَّبيع يتركُ الماءَ ناقعا
وبرد الندى والجزءَ حتى يغيرَكُمْ	خريفٌ إذا ما النَّسر أصبح واقفاً
وأما مصابُ الغاديات فإننا	على الهول نرعاهُ ولو أن نقارعا
بحيٍّ نميريٍّ عليه مهابةٌ	جميعٌ إذا كان اللئام جنادعا
هممت بهم لولا الجُلالة والتُّقى	ولم تر مثلَ الحِلْمِ للجهل وازعا
وكنّا أناساً تعترينا حفيظةٌ	فنحمي إذا ما أصبح الثَّغْرُ ضائعا(١)

فهي ليست تعديات صريحة، ولكن انتفت العلاقات الاجتماعية بين القبائل والأفراد، ولم تستضفهم بنو عقدة على الرغم من أن نميراً جمرة من جمرات العرب، فالنص احتجاج اقتصادي باسم القبيلة، ولكنها لا تخاطب سلطة قائمة أو تعرض فقر الأمة.

وظهر ذو الرّمّة أكثر الشعراء دقة في تصوير الحمى والصراع عليه، وأثر ذلك على الناس، واحتجاجهم على ذلك بالحجة والبرهان، واحتكم إلى المهاجر بن عبدالله الكلابي عامل اليمامة ليحكم في الأمر. وكان قد بدأ النص بمقدمة غزلية، تظهر الظعن مهاجرة إلى أنهار البصرة وبرز منها «نهر الفيض»، فقال:

(١) ديوان الراعي النميري: ١٣٦-١٣٧. الذحول: الثارات: النث: نشر الحديث وإذاعته مستنها: موضع كل سحابة، النسر: كوكب، الجنادع من الرجال: المتفرقون.

من الأخدريّات اللواتي حياتُها عيونُ العراق، فيضُهُ وجداولُهْ
أقول لنفسي لا أعاتبُ غيرَها وذو اللبِّ، مهما كان للنفس قائلُهْ
لعلّ ابنَ طرثوثٍ عتيبَةَ ذاهبٌ بعاديّتي تكذابُهُ وجعائلُهْ
بقاعٍ منعناهُ ثمانين حجةً وبضعاً، لنا أحراجُهُ ومسايلُهْ
جمعنا به رأس الرِّباب فأصبحت يعض معاً بعد الشتيت بوازلُهْ
وفي قصر حَجْرٍ من ذؤابةِ عامرٍ إمامُ هدىً مستبصرُ الحكم عاملُهْ
يعزّ ابنُ عبدالله مَنْ أنتَ ناصرٌ ولا ينصُرُ الرحمنُ من أنت خاذلُهْ
إذا خاف قلبي جَوْرَ ساعٍ وظلمَهُ ذكرتُكَ أخرى فاطمأنّت بلابلُهْ
لقد خط روميٌّ ولا زعماتِه لعتبة خطأ لم تُطَبِّق مفاصلُهْ
بغير كتابٍ واضحٍ من مهاجرٍ ولا مقعدٍ مني لخَصْمٍ أحاولُهْ
تفادى شهودُ الزُّور دونَ ابنِ وائلٍ ولا ينفعُ الخصمَ الألدَّ مجاهلُهْ[(١)]

كشف ذو الرمة فضائح بعض العمال وهم يتعدّون على آبار المياه الخاصة ببعض القبائل، وقد حصلوا على رشوات كثيرة للحكم لغيرهم، وبعث ذو الرمة بهذ الرسالة إلى عامل الخليفة المهاجر بن عبد الله الكلابي على اليمامة، ويدهش ذو الرمة لهذا الحكم الذي جعله يأتي بشهود زور. وكذلك لم يأت بكتاب من المهاجر. ويصر ذو الرمة على أن الحمى حماه منذ ثمانين حجة، فله ماؤه وأحراجُهُ، وكان الحمى قد جمّع عوائل الرّباب فكيف يكون لغيرهم.

فنص ذي الرمّة احتجاج اقتصادي صارخ إلى الدولة، على أحد الولاة لتلاعبه بحقوق الناس، وكان الأولى به العناية بحقوق الشعب وعدم التعدي عليها.

ما سبق كان حديثاً مباشراً، وتسجيلاً دقيقاً للحمى، ولاقتصاد الرعي، وبدا فيه الصراع بين حياة المدينة، وحياة الرّعي، بين الدولة والشعب أحياناً أخر، وكذلك الصراع بين القبائل، إذ الصراع على مصادر الماء والكلأ يعني الصراع على

(١) ديوان ذي الرمّة: ٢/ ١٢٦٣-١٢٧١.
فيضه: اسم نهر بالبصرة. عادية: البئر القديمة. جعائله: جمع جعل وهو ما جعل للسلطان. رومي: عامل المهاجر الذي استعدى عليه ذو الرمة.

البقاء، والتخوُّف من فقدان الماء يعني الخوف من الفناء. هذا الإحساس الإنساني تسرّب بلطف إلى كلّ فنون الشعر العربي. تمثّل بالناقة مرّة، والحديث عن المطر ومناجاة السحب ثانية، وتجلّى بريق المرأة ضمن تشبيه دائري محكم، وحملت معاني الخصب والحياة ثالثة، فأصبحت هذه الثلاثة معادلات موضوعية للحياة الاقتصادية في عمق تجربة الشاعر.

ومما يلفت النظر أنه لدى حديث الشعراء عن التنازع على مصادر الماء والكلأ ما كان الشعراء يلفتون نظر الدولة إلى الفقر الذي كان يعانيه البداة ويحولونه إلى نص سياسي-اقتصادي. يتبنى الشاعر موقفاً سياسياً، يطلب فيه حقه، وحق قومه من الدولة في توسيع الحمى أو إلغائه، أو خطورته عليهم، إن يفرض أو للفقر الذي يعترض الجميع ويهدد حياتهم وينذر بالفناء. إنما كان تناوبه للحمى تناولاً فردياً ضمن مجموع القبيلة، أو العشيرة لا يتجاوز بطون القبائل أحياناً ولم يجعله نصاً اقتصادياً-سياسياً.

الفصل السادس

التفسير الإقتصادي لشعر الغزل

الفصل السادس

التفسير الاقتصادي لشعر الغزل

درج الدارسون على تصنيف الغزل في ثلاث فئات: الغزل الحضري، والغزل العذري، والغزل التقليدي، وأشار طه حسين إلى الغزل السياسي. وربطوا نوع الغزل بالبيئة التي ولد فيها فالغزل الحضري انتشر في بداية الأمر في الحجاز حتى كان عنوان الحجاز وهويته الحضارية. ثم امتد إلى الشام فالعراق، وهناك اكتسب المجون، خصوصاً في نهايات الدولة الأموية، وبدايات الدولة العباسية على أيدي حماد الرواية وحماد عجرد وبشار بن برد. في حين انتشر الغزل العذري في نجد وبوادي الحجاز.

اما الغزل التقليدي فظهر لدى كل الشعراء المادحين الوافدين على القصر الأموي، خاصة لدى الأخطل وجرير والفرزدق. بينما اقتصر الغزل السياسي على بيئة الحجاز او لدى شعراء معدودين.

أولاً: شعر الغزل الحضري

ولكن ما أثر الحياة الاقتصادية في شعر الغزل وفنون الغناء؟ أشار طه حسين[١] وشوقي ضيف[٢] إلى أثر التطور الاقتصادي في الغزل وشعره والغناء وفنونه، ضمن تناولهما لشعراء الغزل. وأظن أن المدينة والتمدن المرتبطتين بالتطور الاقتصادي قد أبرزتا الغزل الحضري (الصريح) وبذلك يصح لنا القول: بأن الغزل الحضري قد ارتبط بالحياة الاقتصادية في كثير من أحواله وكذلك له أثرهُ في تصنيف المجتمع، إذ تلعب الظروف الاقتصادية دوراً قوياً في تصنيف قطاعات المجتمع.

---

(١) طه حسين: حديث الأربعاء.

(٢) شوقي ضيف: العصر الإسلامي: والشعر والغناء في مكة والمدينة.

كانت لظروف الحجاز السياسية في مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي نصيب كبير في دخول الغزل مرحلة جديدة من الكينونه والتحول، ويدين الغزل للفتوح الإسلامية، وخيراتها في المرحلة الراشدية بكثير من الفضل إذ انطلقت جيوش المسلمين تدك عروش الروم والفرس، وتستولي على الغنائم والسبي، وتخمّسها، وتبعث سيولاً منه إلى العاصمة (المدينة المنورة) عاصمة الدولة الإسلاميةالفتية، وتدفق بعض هذا المال إلى جيوب الجند من حصصهم وعطائهم، وأرزاقهم، وخزن بعضه في بيت المال، أما السبي فكان إما أن يباع بأسواق الرقيق مقابل أثمان زهيدة. وإما أن يشتريه بعض الأغنياء للعمل في مزارعهم أو أعمالهم، وغير ذلك، أو خدماً لبيوتهم إلى جانب زوجاتهم، وتسرّى بعضهم بهن كما مرّ بنا.[1]

فهذا التدفق لخيرات الفتوح الى الحجاز أحدث انتفاضة حضارية في الحجاز، في المدينة المنورة العاصمة ومكة والطائف، فنشطت التجارة والزراعة وعرف الناس أشكالاً من الترف. ومن الطبيعي جداً أنه إذا جرت المادة في أيدي الإنسان فإنه يفيد منها في إسعاد الذات هذه النقطة التي تعني: «الفردية المطلقة» برزت فكراً وعملاً، وانتقلت الى الكلمة الشعرية. وبدلاً من أن يتوقف الشاعر الغزلي عند حدود النسيب الذي يحمله أفكار النص وهمومه، تركه الشاعر الحجازي باحثاً عن نصٍ ذاتي يسعد فيه الشاعر ذاته، وقد ملك المالَ والجارية والمغنية والفرس، والثوب الرائع، فكان الغزل الحضري ظاهرة حضارية وطبيعية. إذاً فالغزل الحضري نتيجة طبيعية للظروف الاقتصادية التي مر بها الحجاز وأهله، إبان الفتوح الأولى. ومالت الفئة الارستقراطية في مكة والمدينة والطائف إلى الانغماس بالترف الذي تدفق إليهم من جرّاء الفتوح والتجارة، بعد أن ساد الاستقرار والأمن إثر نكبة الحسين بن علي وموقعه الحرة، ومقتل عبد الله بن الزبير، وشعر الكثيرون بأن المال يغنيهم عن التكسب حيناً، فبنوا القصور، وطعموا وشربوا في أواني الذهب والفضة، ولبسوا من الثياب أغلاها وأحلاها خزا وديباجاً واستبرق وغير ذلك. واتخذوا الرقيق ليقوموا على خدمة ازواجهم وبنيهم وإعداد حاجاتهم، وأول رقيق دخل المدينة كان في عهد عمر بن الخطاب إذ

(١) انظر الفصل الأول-٢٦ والفصل الثاني- ٨٠-٨٦، ٨٩.

أرسل معاوية بأربعة الآف من سبي قيساريّة فقسمهم عمر على يتامى الأنصار، وجعل بعضهم في الكتاب والأعمال للمسلمين[١] ومن الطبيعي أن ينتخب الرقيق الذي سيبعث الى العاصمة، وكون الرقيق ورثة الحضارتين الفارسية والرومية المتقدمتين، فإنهم جلبوا هذه الحضارة إلى الحجاز بمدنه. فاستفاد منه الشعر والشعراء، والغناء والمغنون واستفاد الأبناءُ والنساء من سلوك الرقيق المتحضر وخبراته، ونعم في هذا النعيم والثراء شباب الحجاز المترفون، الرقيقة قلوبهم، فتهيأ الغزل الحضري الفردي للظهور فكان عنوان بيئة الحجاز.

وبرع في هذا المجال عديدون أشهرهم عمر بن أبي ربيعة، والحارث بن خالد المخزومي والأحوص والعرجي. ولمعت أسماء عديدة من المغنين والمغنيات إلى جانب الشعراء، فلم نجد ابن سريج والغريض الا بصحبة عمر فقمة الرفاهية أن يجتمع المغني والشاعر معاً في جلسات اللهو والغناء، وكان المغني يلجأ إلى طلب النص من الشاعر في مناسبة ما ليلحنه، فكثيراً ما طلب الغريض شعراً من عمر ليغنيه، وأورد الأصفهاني أن عمر بن أبي ربيعة واعد نسوة من قريش الى العقيق ليتحدّثن معه، فخرج إليهنّ، ومعه الغريض، فتحدثوا ملياً، ومطروا، فقام عمر والغريض وجاريتان للنسوة فأظلوا عليهن بمطرفه وبردين له، حتى استترن من المطر الى أن سكن ثم انصرفن، فقال له الغريض : قل في هذا شعراً حتى أغنى فيه وقال عمر:

ألم تسأل المنزلَ المقفرا ... بياناً فيكتمَ أو يخبرا

ذكرتَ به بعض ما قد شجاك ... وحُقّ لذي الشجو أن يذكُرا

مقام المحبين قد ظاهرا ... كساءً وبردين أن يمطرا

وممشى الثلاثِ به مَوْهناً ... خرجْنَ الى زائرٍ زُوَّرا

إلى مجلسٍ من وراءِ القبا ... بِ، سهل الربا طيّبٍ أعفرا

وغنى فيه ابن مكي، وابن سريج والغريض، ودحمان، وابن الهربذ ومَعْبد[٢] ولم يقتصر اجتماع الشعر والغناء، والشاعر والمغني معاً على حالات الفرح فقط

---

(١) فتوح البلدان: ١٤٧

(٢) الأغاني: ١/١٦١ – ١٦٢. انظر ص ١٦٦، انظر رواية النص في الديوان: ١٧٤.

انما تجاوزها الى حالة الحزن، ولما ماتت الثريا بنت علي صاحبة عمر[١] جاء الغريض الى عمر فقال له: قل لي أبيات شعر أنحْ بها على الثريا فقال:

الاياعينُ مالكِ تدمعينا ؟ أمِنْ رَمَدٍ بكيْتِ فتكحُلينا ؟
أم أنتِ حزينةٌ تبكين شجواً ؟ فشجوُك مثله أبكى العيونا[٢]

وتردد الغزلون الى مجالس اللهو والغناء كمجلس جميلة المغنية أو عزّة الميلاء، وكانت جميلة قد منعت العرجي من حضور مجلسها لسفاهته وصغر سنه ثم استمعت اليه وغنت له اصواتاً[٣]. وقد يرا فق جلسات اللهو والغناء الناقد الى جانب الشاعر والمغني وكان ابن أبي عتيق من متذوقي الأدب وناقديه، وكثيراً ما دفع عمرَ إلى التغزل ببعض الشريفات؛ سيدات المجتمع العربي وجميلاته، فانطلق عمر يقول في احداهن، فيلومه ابن أبي عتيق، فيجعل عمر اللائمه عليه في شعر الغزل :-

لا تلمني عتيقُ حسبي الذّي بي إنَّ بي يا عتيقُ ما قدْ كفاني
لا تلمني وأنتَ زيَّنْتَها لي أنتَ مثلُ الشَّيْطانِ للانسانِ
إن بي داخلاً من الحُبِّ قد أبْـ ـلى عظامي، مكنونه وبراني
لو بعينيك يا عتيق نظرنا ليلةَ السَّفح قرَّت العينانِ
اذ بدا الكشْحُ والوشاحُ من الدُّ رِّ، وفصلٌ فيه من المرجانِ[٤]

---

(١) الأغاني ١/٢١٢-٢٤٢ الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبد شمس وأخت محمد بن عبد الله المعروف بأبي جراب العبليُ، وكانت من أجمل نساء عصرها، وكانت تصيف بالطائف، وكان عمر يغدو عليها كل غداة، وقال فيها شعراً كثيراً ومما قال فيها:

من رسولي إلى الثريا فإني ضقت ذرعاً بهجرها والكتابِ

وقال: «حين تزوجت من سهيل بن عبد العزيز بن مروان

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
هي شاميةٌ إذا ما استقلّتْ وسهيلٌ إذا استقلّ يماني

(٢) الاغاني ١/ ٢٤١

(٣) ديوان العرجي: شرحه وحققه خضر الطائي رشيد العبيدي، الشركة الإسلامية للطباعة والنشر- بغداد- ١٩٥٦ مقدمة الديوان: ص ١٣.

(٤) الأغاني ١/١٠٣، انظر أيضاً الديوان، ص ٤٢٨

وكان ابن ابي عتيق قد زيَّن صورة زينب الجمحية له، ووصف عقلها وأدبها وجمالها، ما شغل قلب عمر، فشبب بها، فبلغ ذلك ابن أبي عتيق فلامه، وقال: أتنطقُ الشعر في ابنة عمي؟ فقال ما سبق.[1]

وظلت نصوص عمر والعرجي ايضا تصنع فيها الالحان حتى في عصر متأخر، وأحياناً كان الملحن نفسه يضع النص في عدة ألحان، كما صنع ابن سريج في قصيدة (ليت هنداً)[2] وقول عمر في زينب :-

لقد أرسلتُ جاريتي	وقلت لها: خذي حذرَكْ
وقولي في ملاطفةٍ	لزينبَ نوِّ لي عمرك[3]

غنى ابن سريج في هذه الأبيات، ولحنه خفيف ثقيل، ولابن المكي فيها هزج بالوسطى، وفيها رملٌ، ..[4] ومما شجع عمر على المضي في الغزل متذوقو الأدب كعبد الله بن جعفر بن ابي طالب؛ إذ كان بيته أشبه بنادٍ للأدباء والفنانين يجتمعون لديه، وينفق عليهم ويرعاهم، ومثله ابن ابي عتيق، وكان ابن جعفر لا يتأخرُ عن حضور مجلس عزة وجميلة أبداً. ولمّا قدم عثمانُ بن حيان المُرِّي المدينة والياً طلب اليه وجوه الناس إخراج أهل الغناء من المدينة فأجلَهم ثلاثاً، فضج الناس، وكان ابن أبي عتيقٍ غائباً، فاحتال على عثمانَ بسلاَّمة فأسمعه غناءها، فأقرَّ سلاَّمة، وأقر غيرها،[5] فالشعر الغزلي والغناء به أصبحا حالة ثقافية، وحضارية أيضاً، وكان ابن أبي عتيق يدافع عن هذا الوجه الحضاري، وانتقلت هذه العدوى الطيبة إلى فقهاء الحجاز،وكان ابن عباس قد استنشد عمرَ بنَ أبي ربيعة في المسجد الحرام، وناس من الأزارقة من عنده، فأنشده قصيدته:

أمنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمبكرُ	غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجرُ

---

(١) الأغاني ١/١٢٣-١٤٦

(٢) الأغاني ١/١٩٣

(٣) الأغاني ١/ ١٠٠ شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة- تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الأندلس بيروت: ص ٤٧٢.

(٤) الأغاني ١/ ١٥١، وانظر ١٥٢

(٥) الأغاني ٨/٣٥٥ - ٣٥٦. وانظر ٨/ ٢٠٦

حتى أتى على آخرها[١] وكذلك أُعجب به سعيدُ بن المسيب وفضّله على عددٍ من الشعراء[٢] اجتمع ابن عائشة ويونس ومالك عند حسن بن حسن بن علي عليهم السلام، وطلب منه الغناء فغناه:

مَنْ رسولي إلى الثُّريا فإني ضافني الهمُّ واعترتني الهمومُ
يعلمُ الله أنني مستهامٌ بهواكمْ وأنني مرحومُ

وقوله أيضاً :-

مَنْ رسولي الى الثريا فإنِّي ضقت ذرعاً بهجرِها والكتابِ[٣]

وظهرت الصورة الحضارية المترفة في شعر عمر حين مدح الرّباب فهي تقيم في القصور، وتغرق في الترف، وتحف بها الجواري، اذ قال يصفها :

ما على الرَّسْم بالبُلَيَّيْنِ لو بيَّـ ـنَ رجعَ السلام أوْ لوْ أجابا
فإلى قصرِ ذي العشير فالصا ئفِ أمسى من الأنيس يبابا
وبما قدْ أرى به حيَّ صدقٍ ظاهريْ العيش نعمةً وشبابا
إذ فؤادي يهوى الرَّباب وأنى الـ دَّهرَ حتى المماتِ أنسى الرَّبابا
وحساناً جوارياً خفراتٍ حافظاتٍ عند الهوى الأحسابا
لا يُكثِّرنَ في الحديث ولا يتـ ـبعْنَ ينعقنَ بالبَّهامِ الظرابا [٤]

فعمرُ لا يعشق الأعرابية التي تعيش حياة الكلأ، وتلحق البهائم إلى غير ذلك إنما يهتم بالمرأة التي تقيم في المدن، وتحيا حياتها، المرأةِ التي طلبت الترف وعاشته كما يحياه أهلها وزوجها، وهذا ملمح لمحه الوليد بن عبدالملك من قبل في ذا النص ومن هنا أبرز الغزليون صورة المرأة المترفة المنعمة، التي ترفل بأثواب العزة، فهي عند ابن قيس الرّقيات :-

---

(١) الأغاني ٨١/١

(٢) الأغاني ١٢٢/١

(٣) الأغاني ٢٢٧/١ ، انظر ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ٤١٠-٤١١ .

(٤) الأغاني ٢٣٥/١ ، وانظر ديوان العرجي : (١١٥-١١٦)

ووجدت مِسْكاً خالصاً قد ذرَّ فوق عيونهنهْ
وإذا تضمَّخ بالعبيـ ـرالوردِ زان وجوههنهْ
يَخْفَينَ في المشي القريـ ـب إذا يزُرْنَ صديقَهُنّهْ
وبناتُ كسرى في الحريـ ـر عواملُ يخدِمْنَهُنّهْ
متعطفاتُ بالبرو دعلى البغال وفُرْهُهُنّه (١)

وبدت زينتها بكل الأشكال من وشيٍ وخلخال وهي زينة غالية، باهظة الثمن، تعبق برائحة المسك والورد والعبير ان تبخترت، تتقدمها الجواري الفارسيات ليقمن على خدمتها اذ يقول عمر بن أبي ربيعة:

والزّعفرانُ على ترائبها شَرِقٌ به اللَّبَّاتُ والنَّحْرُ
وزبرجدٌ ومن الجُمانِ بهِ سلْسُ النظامِ كأنه جَمْرُ
وبدائدُ المرجان في قَرَنٍ والدُّرُّ والياقوت والشذر(٢)

وأظهر شعراء الغزل زينة المرأة الأموية المتغزل بها، بكل اشكالها، فأظهروا خضابها ومروطها، وملابسها، وأساورها، ومناطقها، وكيف أنها تجر مطارفها، وتلبس الخز، وتتهادى به بين النساء كأنها القمر فقال عمر بن أبي ربيعة:

رأيتها مَرَّةً ونسوَتَها كأنَّها من شُعاعها القَمَرُ
يمشين في الخزّ والمراحل أن يَعْرف أثارهَنَّ مقتفرُ
يدنين من خَشْيةِ العيون على مثلِ المصابيحِ زانها الخمُرُ(٣)

وبدت المرأة مخدومةً بالرقيق القادم من السبي، وتقيم في القصور، وسط رياضٍ مخضَّرة، فلايهمها العمل فقال :-

---

(١) ابن قيس الرقيات : ٦٧

(٢) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ١٤١، وانظر ديوان الأحوص ٩٣ : الشذر: الخرزة يفصل بها بين الجواهر في نظم العقود.

(٣) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ١٤٣. وانظر ١٢٦، ١٤١: المراحل : نوع من الثياب المنقوشه تشبه رحال الابل.

وأعجبها من عَيْشها ظلُّ غرفةٍ وريَّانُ مُلتفَّ الحدائق أخضرُ

ووالٍ كفاها كلَّ شيءٍ يهمها فليست لشيء آخر الليل تسهرُ(١)

وظهرت المرأة ذات القصور، فتقيم بمكة مرةً، وفي الطائف مرة أخرى، كما هي حال زينب أخت الحجاج، وقد وصفها ابن عمِّها محمد بن نمير الثقفي بقوله :-

تشتو بمكة نعمةً ومصيفها بالطائفِ

أحببْ بتلك مواقفاً وبزينبٍ من واقفِ

وعزيزة لم يغذُها بؤسٌ وجفوةُ حائفِ

غرَّاءُ يحكيها : الغزا لُ، بمقلةٍ وسوالفِ (٢)

ونجد المرأة عند الأحوص أيضاًكما هي عند محمد بن نمير المعروف (بالنميري) تنتقل بين مدن الحجاز ومصايفها :-

ولها مَرْبعٌ ببرقة خاخٍ ومصيفٌ بالقصرِ قصرِ قُباءِ(٣)

نالت المرأة قدراً كبيراً من الحرية، منها حرية التملك، والحصول على الثروات وحرية التصرف بها، فزينب لها مصيف ومشتى، كما ذكر الشاعر، وهذه الحالة كانت تملكها عائشة بنت طلحة. فالمرأة كالرجل تماماً، تطلب الرجل المزين المترف الجميل كما يطلبها مزينة ومترفة وجميلة.:-

ومما يتبع الغزل مجالسُ اللهو ومواسم العرض مسيلُ وادي العقيق، فكان من أشهر المناسبات التي تخرج فيها النساء والرجال الى الوادي للتنزه، والاحساس بنعمة البرودة والمطر في خضم نار الصيف القائظ، فربما جلس عمر وصحبه يقولون الشعر الرائع، واستمعت النساء الى الغريض أو ابن سريج يغني في هذه الأبيات، فيسمح المجال للقاء، وللوصال، ولعرض الجمال:

---

(١) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٩٥ وانظر ص ١٣٠، ١٣٥.

(٢) الأغاني : ٢١٧/٦ وانظر ٢١٥/٦ خبر عائشة بنت طلحة.

(٣) ديوان الاحوص : ٢٢. برقة خاخ: موضع بين الحرمين غنى فيه معبد. قبا : قرية على مسيلين من المدينة على يسار القاصد الى مكة انظر ص ٣٨، ٦٠.

هلْ تذكرينَ عقيلُ أو أنساكِهِ بعدي تقلبُ ذا الزمان المفسدِ
يومي ويومك بالعقيق إذِ الهوى منّا جميعُ الشّمل لم يتبدّدِ
لي ليلتان، فليلةٌ مَعْسولةٌ ألقى الحبيب بها بنجم الأسعُدِ
ومريحةٌ همّي عليّ كأنني حتى الصباح معلّقٌ بالفرقدِ[1]

وأصبح الحج مكاناً لاصطياد العواطف، وللرفاهية، وعرض الشعر والفن والجمال معاً تتزين المرأة له بأحسن عدتها من الزينة، سواء كانت حجازية أو قادمة من الشام أو العراق، وأحسن العرجي وصف امرأة :

أماطتْ كساءَ الخزِّ عن حُرِّ وجهها وأدنتْ على الخدّين بُرْداً مهلهلا
فلاحَ وميضُ البرق في مكفهرَّةٍ من المُزْنِ لما لاح فيها تهلّلا
من اللائي لم يحججن يبغين حسبةً ولكن ليقتلنَ البريءَ المغفّلا[2]

وحصلت بعض النساء على حريتها خاصة المرأة الحجازية، وأصبح دخولها إلى عالم الترف الثقافي، والالتقاء بالشعراء والمغنين شيئاً مألوفاً، وقد تحتال لذلك ما وسعها، وأشار العرجي إلى مجلسٍ له مع خمس نساء :-

ومجلسِ خمسٍ به مَوْهناً تواعَدْنَهُ إذ أردن اجتماعا
بعثنَ رسولاً كتوماً لما أردنَ اذا ما الرسول اذاعا
إليَّ بأن إيتنا واحذرنْ وقاكَ الرَّدى، أهلنا والشّناعا[3]

وذكر مجلساً آخر لاربع[4] ومجلساً آخر لثلاث من النساء، وعشق احداهن فقال:-

وممشى ثلاثٍ بعد هدءٍ كواعبٍ كمثل الدُّمى بل هنَّ من ذاك أنضرُ
إليَّ وقد بلَّ الرُّبا ساقطُ الندى ونام الأولى كنا من الناس نحذرُ

---

(١) ديوان الأحوص : ١٠٩ : عقيلة : إحدي المغنيات في عصر الشاعر

(٢) ديوان العرجي : ٧٤ . الاغاني : أخبار سلامة القس: ٨/٣٤٧-٣٦٥، البرد المهلهل: الكساء الرقيق تضعه المرأة على وجهها، المكفهرة: السحابة الغليظة السواد تهلل المزنُ: تلألأ، الحسبة: التقدمة لوجه الله تعالى.

(٣) ديوان العرجي : ٨٥

(٤) ديوان العرجي: ٩٣.

تهادى نعاجُ الرّملِ مرّتْ سواكناً تريعُ إلى ألآفها وتأطّرُ

بجوٌ من الجهْراءِ يخرجُ نبتُهُ ويذهبُ طولاً في السما ويُحيّرُ

يروقُ الألاءَ الجعْدُ والمكرُ وحشةٌ وحوذانهُ والأقحوانُ المنوّرُ

فلمّا هداهنّ الجريُّ بمجلسٍ وهنّ به لولا التجاهل أبصرُ

يسلّمنَ تسليماً خفيّاً وسقطت كما سقّطت ظلعٌ من السرِّ حسّرُ[١]

وليس الأمر كذلك فحسب إنما ملكت النساءُ القدرة على جذب الموسيقيين والمغنين، والتحكم بفنونهم، فهذه سكينة بنت الحسين تتحكم بالغريض وسعيد وأشعب وابن سُريج، وتجيزُ عائشة بنت طلحة الشعراء وتحاورهم، وتستمع إلى المغنين.[٢] فهذا التبدل الاجتماعي لا بد أنه جاء بفعل تبدل الأوضاع الاقتصادية.

وبحثت النساءُ الشريفات في العراق والشام والحجاز عن الغزل والشعراء الغزلين، ويممن شطر الحجاز، مستغلات فرصة الحج . وكأنهن لم يشددن الرحال إلى الحج، إلا لرؤية عمر أو العرجي، خصوصاً الأول، لتتحادث معه، وتكلمه، فيذيع صيتها، ومن هنا ظهرت صورة العبشمية والكندية والجمحية والقرشية والثُّريا، وأمُّ البنين، وعاتكة، وغيرهن من سيدات العصر الأموي. وتبودلت الرسائل بين السيدة القادمة من العراق أو الشام كزينب الجمحية، أو ابنة الاشعث وعمر، فيراها، ويقول فيها شعراً، ويطير في الآفاق، ويغني ابن سريج الابيات بلحن، ويثنيّ الغريض بلحنٍ آخر للأبيات كما قال :-

لقد أرسلتُ جاريتي وقلتُ لها: خذي حذركْ

وقولي في ملاطفةٍ لزينَب: نوِّلي عمرَك

فهزّت رأسها عجباً وقالت: منْ بذا أمركْ

أهذا سحرُك النسوا نِ؟ قد خبَّرْتَني خَبَرَكْ[٣]

(١) ديوان العرجي ٩٠، الهدء: الهزيع من الليل، وقيل من أوله إلى ثلثه، تاطر: تتمايل الجو: الوادي المتسع، الجهراء: الأرض لفسيحة، يحيّر: الأرض المخضرة، الالاء: شجر دائم الخضرة، الجعد: المتثني غير السبط، المكر: نبات له ورق وليس له زهر، الحوذان: نبات زهره أحمر طيب الطعم، الجري: الرسول، سقطت: جلست في استرخاء، حسّر: بلغ منهن الجهد.

(٢) الاغاني : ٦/٢١٧-٢١٩، ١/١٧١، ٤/ ٢٣٢

(٣) الاغاني ١/١٠٠ أنظر شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة: ٤٧٢

وروى ابو الفرج عن زينب هذه : أنه قدم قدامة بن موسى الحج بصحبة أخته زينب الى العمرة، فلما وصل (سَرِف) لقيه عمر بن أبي ربيعة فسلمَّ عليه، وسأله : أين وجهته : (فقال عمر : ذُكرتْ لي امرأةَ من قومي برزة الجمال، فأردت الحديث معها، فقال : هل علمت أنها أختي، فقال : لا، واستحيا وثنى عنق فرسه راجعاً الى مكة). (١)

وقد سعت بعضُ النساءِ إلى عمرَ، وتصدّين له كما قال في احدى قصائده :

قالت لِتربٍ لها مُلاطفةً!	لنفسدنَّ الطوافَ في عمرِ
قالت : تصدَّيْ له ليبصرَنا	ثم اغمزيه يا أختُ في خِفرِ
قالت لها : قد غمزتُه فأبى	ثم اسبطرَّت تسعى على أثري (٢)

ولم يقتصر الأمرُ على بنات الحجاز فقط انما قصدته فاطمة بنت عبدالملك زوج عمر بن عبد العزيز، وأم محمد بنت مروان بن الحكم، وغيرهن من سيدات الشام والعراق، قصدنه ليشهر بهن كما ذكرت قصائده، وقال في أم محمد بعد أن نشدته أن يقول فيها شعراً :

أيها الراكبُ المجدُّ ابتكارا	قد قضى من تهامَة الأوطارا
منْ يكن قلبه صحيحاً سليماً	ففؤادي بالخيفِ أمسى معاراً ... (٣)

فبعثت إليه بألف دينار! فقبلها، وابتاع بها حللاً وطيباً، فأهداه اليها، فردَّتهُ، فقال لها : والله لئن لم تقبليه لأنهبنَّه، فيكون مشهوراً، فقبلته ورحلت. وتعرضت له ابنة محمد بن الأشعث وقال فيها شعراً. (٤)

وساعدت بعض النساء المترفات بعض الشعراء على القيام بمغامراتهم الغزلية، والاجتماع بالنساء كما هو حال سكينة بنت الحسين اذ اجتمع نسوة من

---

(١) الاغاني ١/١٠٥-١٠٦

(٢) شرح ديوان عمر، ص ١٤٥ في الاغاني، قومي تصدّى له ليعرفنا في أثري بدلاً من على أثري الاغاني ١/ ١٨٠.

(٣) الاغاني ١/١٧٧

(٤) الاغاني ١/١٧٦ انظر ديوان عمر غزله في أم البنين

اهل المدينة من اهل الشرف فتذاكرن عمر، وشعره، وظرفه، وحسن حديثه فتشوقن اليه، وتمنينه، فقالت سكينةُ انا لكُنَّ به، فأرسلت اليه رسولاً وواعدته الصورين، فوافاهن عمر على راحلته، وحدّثهن حتى أضاء الفجر، واستاذنته سكينة لزيارة قبر جدها فقال فيها :

قالتْ سكينةُ والدموعُ ذوارفٌ منها على الخدَّين والجلبابِ
ليتَ المغيريَّ الذي لم أجزه فيما أطالَ تصيدي وطلابي
كانت تردُّ لنا المنى أيامنا إذ لا نُلامُ على هوىً وتصابي
خبِّرتُ ما قالتْ فبتُّ كأنما ترمي الحشا بنوافذ النُّشَّابِ
أسكينُ ما ماءُ الفرات وطيبُهُ منّا على ظمأ وفَقْد شرابِ
بألذَّ منك، وإن نأيتِ وقلّما ترعى النساءُ أمانةَ الغُيَّابِ (١)

وزعموا أيضاً أن سكينة فخرت بجدها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمام الأحوص الأنصاري لما سمعت الآذان الى الصلاة فقال :-

فخرتْ وانتمتْ، فقلتُ : ذريني ليس جهلٌ أتيته ببديعِ
وأنا ابنُ الذي حمتْ لحمَهُ الدبْـ ـرُ قتيلِ اللّحيان يومَ الرَّجيعِ
غسّلتْ خاليَ الملائكةُ الأبـ ـرارُ ميْتاً طوبى له من صريعِ(٢)

ويبطل اتهام الأمويين للأحوص بالكفر، أو أنه كان يزدري الرسول ازدرائه للرسول -صلى الله عليه وسلم- وإلا لما افتخر بجده وخاله، وهما من اتباع محمد، حملة لواء الدعوة الكبرى.(٣) واحتالت بعض النساء للجمع بين عمر وهند بنت الحارث المُرِّية بمساعدة خالد الخريت (القسري) وكذلك أخباره مع عدد من نساء عصره الشهيرات ككلثم بنت سعد المخزوميه(٤) زوجته (٥) ولبابة بنت عبدالله بن

---

(١) الأغاني ١/١٧٢-١٧١ قصد بالمغيري: عمر بن أبي ربيعة. أنظر الديوان ٤٣٥.

(٢) الأغاني ٤/٢٣٢

(٣) طه حسين ١/٢٦٥

(٤) الأغاني ١/١٨٤-١٨٦

عباس[١] وعائشة بنت طلحة[٢] والثريا بنت علي[٣] وظهرت صورة عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين في شعر عمر والعرجي والاحوص وابن قيس الرقيات والحارث بن خالد. ولم يجد الأشراف ولا الشريفات غضاضة في الاجتماع بالشعراء وطلب المغنيين، وهذه حال الفئة الاستقراطية؛ ارستقراطية الأغنياء من ذوي المال والجاه. وكأن الغزل بإحدى الشريفات حالة واقعة. فعلى الحرية التي نالتها بعض النساء الأمويات، وهي تلهم الشاعر او تنتقده، أو تجالسه، أو تبعث اليه بالجائزة الا انها تتحرك ضمن حركة المجتمع المسلم، فلا ترتكب الأثم، ولا تؤذي الشاعر، ولا يؤذيها غزله فهذه عائشة بنت طلحة تغزل بها الحارث بن خالد المخزومي حين كان والياً على المدينة، وقد قدمت للحج ورحلت دون أن يلم بها ::

أثْل جودي على المتيمِ أثلاً ... لا تزيدي فؤادهَ بكِ خَبْلا

أثلَ إنّي والراقصات بجمعٍ ... يتبارين في الأزّمة فُتْلا

سانحاتٍ يقطَعْن من عرفاتٍ ... بين أيدي المطيِّ حَزْناً وسَهْلا

والأكفِّ المضمَّراتِ على الركـ ... ـنِ بشعثٍ سعَوْا إلى البيت رجلى

لا أخون الصديقَ في السرّ حتى ... ينقل البحرُ بالغرابيل نقلا

أنعم الله لي بذا الوجه عينا ... وبه مرحباً وأهلا وسهلا

إنَّ شخصاً رأيته ليلة البد ... ر، عليه انثنى الجمالُ وحلاّ

جعل اللهُ كلَّ أنثى فداءً ... لكِ، بل خدَّها لرجلك نَعْلا[٤]

وأصبح الغزل بالحرائر حالة ارستقراطية نعم بها الأرستقراطيون الذين نعموا بأموال التجارة والفتوح، ودخلت بعضُ النساء كما يفهمُ من النصوص عالمَ

---

(٥) الأغاني ١/٢٠٧

(١) الأغاني ١/٢٠٩

(٢) الأغاني ٣/٣١٥

(٣) الأغاني ١/٢٢٠-٢٣١

(٤) الأغاني ٣/ ٣٣٦- وشعر الحارث بن خالد المخزومي : تحقيق يحى جبوري- النعمان- النجف الأشرف- ط١- ١٩٧٢ ص ٨١-٨٤. وانظر الأغاني، ٣/٣١٦-٣٢٦.

الرفاهيةِ واللهو والمجالس الغنائية والثقافية ولم تظهر المرأة (الجارية)، خاصة لدى عمر بنفس الصورة التي ظهرت فيها المرأة الشريفة، وظهر التركيز على النساء الارستقراطيات، عظيمات القدر، والمكانة، كثيرات المال، بفعل تغير الأوضاع الاقتصادية، والاجتماعية التي أحلتهن هذه المكانة العالية، فرجل قرشي غني ارستقراطي كعمر بن أبي ربيعة المخزومي مثلاً، لا تناسب شعره الا امرأة شريفة غنية ارستقراطية كفاطمة بنت عبدالملك، وابن قيس الرقيات القرشي لا تناسبه إلا أمُّ البنين بنتُ عبدالعزيز بن مروان وأبي دهبل القرشي لا تناسبه إلا عاتكة وهكذا.

ولا بد أن للأوضاع الاقتصادية الجيدة التي عاشها بعض الشعراء الغزليين خصوصاً شعراء الحجاز أمثالُ عمر بن أبي ربيعة، والحارث بن خالد كانت وراء توجههم نحو اختيار النساء الشريفات. ولم يعد الشاعر يكتفي بامرأة واحدة، إنما تعددت النساء اللواتي تغزل بهن. فكثر المال في يديه. فكثر شوقه إلى إسعاد ذاته، فتغزل بعديدات ومنهن الارستقراطيات. وارتبط الغزل الحجازي حيناً بالتسلية وقطع الوقت بالحديث الطيِّب اللّين الرّطب، فكانت رائية عمر (أمن آل نُعْمٍ انت غاد فمبكر) من أجمل المغامرات الغزلية. وقد يكون خصبُ خيال الشاعر قد أوحى له بهذا النص الجميل مما جعل الكثيرين يعجبون له. ويشيدون بالنص إشادةً رائعة.

سرّع الترفُ والثراءُ المنتشران في الحجاز بظهور الغزل الحضري، فضلاً عن أن العاصمة دائماً تتسارع فيها الحضارة ومنتجاتها، ومنها الغزل الجضري دون باقي الأقاليم الاسلامية الاخرى. وما إن نقلت العاصمة من المدينة الى الشام حتى كانت الحضارة قد غزت الحجاز بمدنه الثلاث. وظل المدد الذي لا ينضب يمد الشام والعراق بالشعراء الغزليين والمغنين والمطربين. ولما اكتملت للشام صورة العاصمة استقطبت الشعر الغزلي من الحجاز، والغناء كذلك بصورتيهما الحجازية. وتنحت الحجاز عن زعامة شعر الغزل الحضري ورغم ذلك لم نلمح في العصر الاموي شاعراً كعمر أو الحارث أو العرجي أو الأحوص يظهر في الشام الا الخليفة الوليد بن يزيد في نهايات الدولة الأموية وقد ملك كلّ المؤهلات الاقتصادية- بل ويزيد عليها- التي تهيء لظهور الغزل الحضري كما ملكها قرشيو الحجاز.

لقد توفرت في الوليد بن يزيد كلُّ المؤهلات التي كانت في عمر وأترابه، فهو مؤهل اقتصادياً، يملك المال والحرية والجاه. ومن ملك هذه الثلاثة ملك القدرة على إسعاد الذات، ولذا سعى الى إسعادها بكل ما يملك. وتجاوز الوليد حد الترف المعقول الى الخمرة والمجون اللذين ما كنا نراهما في شعر عمر مثلاً، وان كان غزله غزلاً حسياً. ولم يكن أحدٌ يعيب على عمر لهوه وغزله إنما كانوا يستظرفونه. ومجالس اللهو والغناء في الحجاز كانت على الأغلب مجالس ثقافية أكثر منها مجالس تسلية كما هي عند الوليد، فاستمع عبدالله بن عباس إلى عمر بن أبي ربيعة واستنشده شعره، كما مضى[1] وسمع عمر بن عبدالعزيز شعر عروة بن أذينة الذي غني فيه :

وقد قالت لأترابٍ	لها زُهْرٍ تلاقينا
تعالينَ فقد طاب	لنا العيش تعالينا
وغاب البرم الليلة	والعينُ فلا عينا
فأقبلن إليها مُسر	عاتٍ يتهادَيْنا
إلى مثلِ مهاة الرّمـ	ـل تكسو المجلس الزينا
تمنينَ مناهنَّ	فكُنّا ما تمنينا

فقال عمر بن عبدالعزيز : نعم الرجلُ أبو عامر على أنه الذي يقول .. وذكر الأبيات السابقة.[2]

وعمل الوليد على استقطاب الشعراء الغزليين من باقي الأقاليم الاسلامية وجلب المغنين اليه، وكانت الحجاز قد تنازلت عن مكانتها الغزلية المتقدمة لفقدان المؤهلات الاقتصادية : (من مالٍ وسبيٍ وغناءٍ وعطاء) بفعل التحول السياسي ومن هنا جنحت الحجاز الى مكانة أخرى، تنافس فيها الشام وهي الفقه. فالبيئة الاقتصادية الحجازية في أواخر العصر الأموي لم تعد قادرة على إيجاد هذا النوع من الغزل بينما بيئة الشام (العاصمة) أصبحت مؤهلةً اقتصادياً وحضارياً لإنتاج

(١) أنظر، ص ٢٠٦ من هذا الفصل.

(٢) الأغاني ١٨/ ٢٣٥-٢٣٦ البرم: الضجر.

هذه النوع من الغزل، ومارس الوليد الترف بكل أنواعه وكانت له مجالس الشعر والغناء والشراب.[١] وظهرت في شعر الوليد (سلمى وسُعْدة بنتا سعيد بن خالد) زوجتاه، وكانت سُعْدة زوجته الأولى، قد أحبها وتغزل بها ولما نشأت أختها سلمى هام بها وقال فيها شعراً، وطلق اختها سعدة ثم تزوج سلمى.وفي غير هاتين المرأتين لم نجد غزله غزلاً شائناً يتعرض فيه لنساء الحي كما تذكر أخبار السير، بل كان شعره أكثر رزانةً من شعر الأحوص أو العرجي أو غزل عمر ومغامراته، وهو شعر عفيف جداً مقارنة بأشعار الكوفيين والبصريين، وما شاع فيها من غزل ماجنٍ عابث، وارتبط غزله بسلمى حتى قال فيها :

شاع شعري في سُليمى وظهرْ ورواه كلُّ بادٍ وحَضرْ
وتهادته العذارى بينها وتغَنّيْنَ به حتى انتشرْ
قلتُ قولاً لسليمى معجباً مثلَ ما قال جميلُ وعمرْ
لو رأينا لسليمى أثراً لسجدنا ألف ألف للأثر[٢]

وقرن الوليد نفسه بجميل وعمر زعيمي الشعر الغزلي. وكان قد احتال لرؤية سليمى مرّات، فجعل نفسه زياتا، وعبّر عن خسرانه الصفقة [٣] وعلى اشتداد سليمى في الهجران كان يصرُّ على الوصال فقال :-

أرسلي بالسلام يا سَلْمَ إني منذ عَلِقتكمْ غنيٌ فقيرُ
فالغنى إن ملكتُ أمرك والفقـ ـرُ بأني أزورُ منْ لا يزورُ
ويحَ نفسي تسلو النفوس ونفسي في هوى الرِّيم ذكرها ما يحورُ
منْ لنفسٍ تتوق أنتِ هواها وفؤاد يكاد فيكِ يطير [٤]

وغرق الوليد في الترف والمتعة حتى اختلطت عليه الأمور، ويبدو أنه لم يكن يفصل بين سلمى والخمره حين قال :-

(١) طه حسين: حديث الأربعاء- دار المعارف- مصر- ط١٢: ٢٤٢/١

(٢) شعر الوليد بن يزيد، جمعه وحققه حسين عطوان مكتبه الأقصى - عمان ط١٩٧٩ ص ٥٣

(٣) شعر الوليد بن يزيد ٣٦

(٤) شعر الوليد بن يزيد ٥٨

وجدت العيش يا سلمى مزاجَ الكأس بالكاس
إذا ما كأسُنا دارت فهزَّت فروةَ الرأس
وفتياناً أنادُمهمْ كراماً غير أنكاسِ
فلولا رقبةُ اللهِ وأني رهنُ أرماسِ
لقد زرتك يا سلمى على خوفٍ وإيجاس
ولا والله يا سلما يَ، ما بالحبِّ من باس [1]

فخاطبها بشؤون حياته وفلسفته للأمور وطلب منها أن تتفهم متعة الخمرة والغزل، ويبدو أن سلمى نفسها كانت قد رفضته او رفضت تصرفاته، ولكنه كثير اليقين من أن سلمى لو عاينت حالَ الوليد وحياته لاستظرفتها كما يتوقع في قوله:-

ويحَ سلمى لو تراني لَعَنَاها ما عناني
مُتلفا في اللهو ما لي عاشقاً حور القيان
إنما أحزنَ قلبي قولُ سلمى إذ أتاني
ولقد كنتُ زماناً خاليَ الذَّرع لشاني
شاقَ قلبي وعناني حبُّ سلمى وبراني
ولكم لامَ نصيحٌ في سليمى ونهاني [2]

ولعلَّ سلمى سيف العقل المسلط على ضمير الوليد، فهي تنتقد أفعاله ولا ترضاها، تنتقد لهوه الذي لا يعني، وإنفاقه جلّ وقته في الغناء والشراب وبالتالي سيجعله يتخلى عن مسؤولياته تجاه الرعية، وكان الأولى أن تصرف في مجالاتها المحددة. وليس الغزل وحده كان ملهى الوليد فحسب إنما كان أكثرها قبولا. فكان يقول النص، ويدفعه إلى المغني أبي كامل، أو ابن سريج، أو عمر الوادي، أو ابن عائشة، ليغنيه، فيشيع. وهذا انتصار ثقافي وحضاري ضد الفشل السياسي الذي كان يهدده، ثم مني به.

---

(١) شعر الوليد بن يزيد ٦٩

(٢) شعر الوليد بن يزيد ١٢١

ويبدو الاعتزاز بالترف والانغماسُ فيه وفي قول الشعر، حتى أنه نصَّب نفسه ملكاً في الخمرة والغزل والغناء حين قال :

كلّلاني توّجاني وبشعري غنّياني

أطلقاني من وثاقي واشدداني بعناني

فعلّق الخليفة المعتضد على النص بقول : « أما ترى زهو الملوك في شعره »[١]

وظهر أثر الحياة الاقتصادية في الشعر الغزلي بيناً، وكان صداه في لغة الملوك التي لحظها المعتضد في اعتزاز الوليد بن يزيد بشعره. وفي استعلائية عمر بن أبي ربيعة، وتلطفه إلى النساءِ، فامتازت لغة الغزل الحضري بالسهولة والسلاسة، ومال الشاعر فيها الى المقطوعات القصيرة التي تخدم الغرض المترف المقطوعات ذات الايقاع الموسيقي الساحر الغني. فكانت منجماً لكل الملحنين يتعاقب عليها الملحنون والمغنون في العصر الأموي وكذا في العصر العباسي. وطوّع كلٌّ من عمر والعرجي والأموي والوليد أيضاً لغتهم للغناء كثيراً، وكتب لها السيرورة والنجاح، فالنص الواحد كان يغنيه ابن سريج بلحن أول، ثم يأتي الغريض ويغنيه بلحن ثانٍ في المجلس الواحد لعمر، وتكرَّر هذا مراراً. وظل النص العمري بالذات قابلاً للتجديد الموسيقي حتى في العصر العباسي.

وجنح الشاعر الحضري في غزله الى ترك الأطلال والبدء بالتشبيب حتى كان التشبيب بدلاً من النسيب، والتشبيب يغني عن الأطلال (المعادل الموضوعي). وهذا ماعبر عنه الفرزدق حين قال : «هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ».[٢]

ويحمل الجنوح عن الأطلال تعليلاً اقتصادياً إلى جانب كونه ظاهرة ثقافية وحضارية جديدة فالشعراء الحضريون لم يعودوا يقاومون قسوة الطبيعة من جدب وقحط وفقر وغزو، ورحيل نحو مناطق الكلأ والغيث، ورحلة في الفيافي المجدبة، ووقفة مع ناقة السفر والتحام بها وصراع الوعول والكلاب الوحشية

---

(١) شعر الوليد بن يزيد ١٢٣ . الاغاني ١٠/٨٤.

(٢) الاغاني ١/١٨٥

وغيرها مما نراه في الشعر التقليدي لا سيما الشعراء البداة. فالشعراء الحضريون بوجود الماء، واستقرارهم، لم نعد نرى عندهم ذلك. ويروى أن عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد وأبا ربيعة المصطلقيّ ورجلاً من بني مخزوم وابن اخت الحارث خرجوا يشيعون بعض خلفاء بني أمية فلما انصرفوا نزلوا بسرف» فلاح لهم برق، فقال الحارث : كلنا شاعر فهلموا نصف البرق .. فكلهم قال، ثم قال عمر :-

أيا ربّ لا آلو المودةَ جاهداً لأسماء فاصنعْ بي الذي أنتَ صانعُ

ثم قال : ما لي وللبرق والشوك![1] عبارة توحي برفض كل شيء عدا الترف، فالبرق والشوك لا يشكلان شيئاً في حياته المترفة ولكنهما يعنيان الشيء الكثير في حياة ذي الرّمة مثلاً الذي أطال في وصف الصحراء وأشيائها.

وبدا الشاعرُ الحضري عفوياً وكيّساً ولطيفاً مع النساء، وكان عمر أكثرهم تمثيلاً للعفوية والكياسة مع النساء، والتلطف اليهن. وشعر المناسبات والاستناد الى عادات عربية عد لها المجتمع الأموي الانتقالي والطالب للذات، وإلى سماع منفرد للموسيقى، وإلى المحادثة، ونوعٍ من اللامبالاة بالخلفية النفسية للأشياء بشكل التشبيب لهذا المتانق، وبذلك يكون عمر ممثلاً لمجتمع، هو المجتمع الأموي، وليس محباً بسيطاً للجمال.[2]

وقد يكون للحالة الإقتصادية دور فاعل جداً في رفاهية الشاعر الغزل، فيميل الى التجديد في الغزل، ولم يعد الشاعر الغزل يكتفي بامرأةٍ واحدة سواء كانت زوجة أم محبوبةٌ أم جارية. ورغبة الشاعر بالغزل في غير واحدة من النساء تتعلق بسبب من أسباب الاقتصاد. فهو يملك القدرة المادية على الانفاق في مجالس اللهو. وكذلك يملك القدرة على الفوز بزوجة جديدة الى جانب زوجته أو زوجتيه أو زوجاته الثلاث. وهذه الحالة من حالات الرجل المترف، ليس في العصر الأموي فحسب، إنما نلحظها في كل العصور، ويبدو أن الرجل يراها من قبيل الاحساس بالسعادة والحرية الفردية، وأن المال وجد للسعادة، والمرأة بعض سعادته ومن هنا لم

---

(١) الأغاني ١/١٦٤-١٦٥

(٢) احسان سركيس : الظاهرة الادبية في صدر الاسلام والدولة الاموية : دار الطليعة : بيروت ط١ - ١٩٨١ : ص ٤٠٧

يتأنٌ في الحصول على السيدة الشريفة في العراق أو الشام أو الحجاز أميرةً كانت أم غير ذلك، ذات زوج أو غير ذات زوج، للزواج أو للغزل فقط. لأنه يملك المال والجاه كما تملكهما المرأة المتغزل بها. ورغم ذلك اشترى بعض الناس الجواري لجمالهن ورخامة صوتهن في الغناء، ومن هنا لم يتأن الوليد بن يزيد في شراء الجواري المغنيات كصدوف وسرفي، كما حاول يزيد بن عبد الملك من قبل شراء حبابة وسلامه القس. [١]

وتظهر المرأة في الشعر الحضري في لوحة الخصْب دائماً، ومن هنا يسند اليها الشاعرُ كل صفات الخصوبة المتوفرة فيها فهي :-

خوْدٌ تضيءُ ظلامَ البيت صورتُها   كما يضيءُ ظلامَ الحندسِ القمرُ
مجدولةُ الخَلْقِ لم تُوضَعْ مناكبُها   ملءُ العناقِ، ألوفٌ، جيبُها عَطِرُ
ممكورةُ الساقِ مقصومٌ خلاخلُها   فمشْبَعٌ نشبٌ منها ومنكسرُ
هيفاءُ، لفّاء، مصقولٌ عوارضها   تكاد من ثقلِ الأرداف تنبترُ
تنكلُّ عن واضحِ الأنياب متَّسقٍ   عذْب المقْبل، مصقولٍ له أشرُ [٢]

عظيمة الردفين، ممتلئة الساقين، دقيقة الخصر هيفاؤه، بيضاءُ مشربةٌ بالحمرة كالقمر، عجيزتها ثقيلة، يصيبها البهر إن قامت، صفات تؤهلها للخصب أو تستدعيه. وإن قال قائلٌ: هذا قد يظهر في كل أنواع الشعر، وليس في الشعر الحضري فقط. فاننا نجده في كل قصيدة من قصائد الشعر الحضري، لا سيما شعر عمر والعرجي. فنجد المرأة عندهما لا تظهر إلا في هذه الصورة فتجذبهما المرأة التي لا تمنعهما من خصوبه الاستمتاع، وممارسة الحب إذ يقول عمر :-

واكْتَنَّنا بُرْدينِ من جَيِّد العَصـ   ـبِ معاً بين مُطْرفٍ وشعارِ
بتُّ في نعمةٍ وباتَ وسادي   معصماً بين دُمْلُجٍ وسوارِ
فنهضْنا نمشي نعفّي بروداً   ومُروطاً، وهْناً على الآثارِ [٣]

---

(١) الأغاني ٧/٣٠، ٧/١٢-٦٣

(٢) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة: ١١٢ مجدولة الخلق تامة الأعضاء مفتولتها ليست برهله - خود : الفتاة الشابة الناعمة ممكورة الساق : ممتلئة مع دقة العظام، تنكلّ : تضحك.

(٣) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة: ١٣٥ : العصب : ضرب من البرود. - الشعار الثوب الذي يلي سد.

وأصر عمر والعرجي على إبراز الريق في صورة المرأة المتغزَّل بها، لتكتمل صورة الخصب في الحب، كما الخصب في الطبيعة. وما تغزَّل أحدهما بامرأة، ووجد الوصال إلا كان للريق نصيب، وظهور في لوحة الغزل، وأنها منحت بعد منع :-

ثم قالتْ وسامحتْ بعدَ منعٍ   وأرتني كفَّاً تَزينُ السّوارا
فتناولُتها، فمالت كغصنٍ   حرَّكَتْهُ ريحٌ عليه فخارا
وأذاقت بعدَ العلاج لذيذاً   كجَنَي النحلِ شابَ صِرْفاً عُقارا
ثم كانت دونَ اللّحافِ لمشغو   فٍ، معَنَّىً بها صبوبٍ شِعارا
واشتكت شدَّة إلا زار من البَهْـ   ـر والقتْ عنها لَديَّ الخمارا(١)

لوحة خصبةٌ ذات نبض وحرارة، على غير ما نجده في الشعر العذري من جدْب في العلاقات، وهناك تظهر صورة المرأة جافة جداً، لا يسودها الوصال، وعلاقتهما علاقة جدب لا خصب أبداً، وإذا ما تمنعت امرأة على عمر مثلاً فتمنعها كان يلين جداً أما رغبته، فهي لا تصمد ابداً .. (ثم قالت وسامحت بعد منع ..) ولذا لجأ عمر إلى المغامرات لتكتمل صورة الخصب لدى المرأة الحضرية حتى تكون المعانقة، وتبادل الريق من أكثر الأشياء توفراً في غزل عمر. ولكننا لا نجده حلماً من أحلام الشاعر يبقى أسير الكلمة دائماً إنما هو واقع عمر والعرجي والأحوص وحياتهم في بعض أحايينه فلا يشكون الصد والحرمان إلا قليلاً ليكون الخصب في مجال الحلم، فيلين الصد كما قال العرجي.

فلا تُجمْعي أن تحبسيني وتمْطلي   أأحْبَسُ عن أرضي هُديتِ وأمْطَلُ ؟
فإنَّ ثوائي عندكُمْ لا أزوركم   ولا أنا مردودٌ بيأسٍ مُزَحَّلُ
ولا أنا محبوسٌ لوعدٍ فارتجيْ   ولا أنا مردودٌ بيأسٍ فأرحل
كمقتنصٍ صيْداً يراه بعينهِ   يُطيفُ به مِنْ قُرْبِهِ. وهو أعزلُ
وممترسٍ بالماء أحرقهُ الظَّما   تَحلاً فلا يندى ولا هو مُمْثَلُ (٢)

---

(١) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة: ١٤٠ ، انظر ص ١٢٥ ، ١٢٨

(٢) ديوان العرجي : ١٤ : المزحل: المبعد : تحلأ الأصل تحلأ : مطرود عن الماء.

ويتجلى الخصب في مغامرات الشعراء مع النساء، وقد نال الشاعر من محبوبته بعض أنواع الخير والخصب في مغامراته :

فبتُّ أُسقى عتيقَ الخَمْرَ خالَطهُ   شهْدٌ مُشارٌ، ومسكٌ خالصٌ ذَفِرُ

وعنبرَ الهند والكافورَ خالَطهُ   قَرَنْفلٌ فوق رقراقٍ له أُشُرُ

فبتُّ ألثمُها طوراً، ويمنعني   إذا تمايلَ عنه البردُ والخصَرُ

حتى إذا الليل ولىَّ، قالتا زَمَراً   قوما بعيشكُما قد نوَّر السَحَرُ

فقمتَ أمشي، وقامت، وهي فاترةٌ   كشاربِ الخَمْر بطّى مَشْيهُ السَّكَرُ (١)

ومن هنا لم يتأن الشاعر في أن يصف محبوبته في جوِّ الخصب الآمن، يسود الأمن والاستقرار فيسود الترف الاقتصادي والغناء ويكثر المال، وبالتالي ينتشر الترف والخصب في الحبِّ :-

رأيتها مرَّةً ونسوتَها   كأنها من شُعاعها القمرُ

يمشين في الخزِّ والمراحل أنْ   يعرف آثارهن مقتفرُ(٢)

تدخل المرأة في النعيم، وتلبس من الملابس أغلاها وأحلاها، وتمارس حياتها بهدوء ودعة، وتحب كما تريد. ومن هنا أبرزها بين النساءِ الجميلات وهن يمارسن الحرية والدعة، وقد استعدّت بكامل زينتها لتواجه (عمر العطر) :

والزعفرانُ على ترائبها   شَرِقٌ به اللَّباتُ والنحرُ

وزبرجدٌ ومن الجمان به   سَلِسُ النظام كأنه جمرُ

وبدائدُ المَرْجانِ في قرن   والدُّرُّ والياقوتُ والشَّذْرُ(٣)

ولذا حرص شعراء الحاضرة وخاصة الحجازيون على إبراز أجواء الخصب التي تعيش بها المرأة، فهي ذات قصور وزينة رائعة، كثيرة التعطر، والتختم

(١) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ١١٥، الخصر: شدة البرد، زمراً: أراد الصوت الحسن، عتيق الخمر: قصد ريقها.

(٢) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ١٤١..

(٣) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ١٤١، الشذر: جمع شذرة: وهي حبة من الخرز يفصل بها بين الجواهر في نظم العقود.

والاصطباغ وكثيرة الاتجاه إلى الحبّ وممارسته، فكانت المرأة الحجازية صورة للخصب المدني، حاول الشاعر استدراره واستكناهه إلى الوجود بلوحة فنية تصلح أغنية يعزفها ابن سريج أو الغريض.

ثانياً- الغزل السياسي

ومن ملامح الغزل في المدن والحواضر الغزل السياسي أو ما يسمى بالغزل الكيدي حيناً أو الغزل الهجائي حيناً آخر، وأجاد فيه قائلوه إلى حدٍ يصعب علينا التفريق فيما إذا كان الشاعر يتغزل بامرأةٍ أحبها ام يهجوها، ولكن الامر يفصل فيه بعد أن عرفنا الوضع السياسي والاقتصادي للحجاز الذي ظهر فيه هذا النوع من الغزل. وان ما قاله الدكتور طه حسين من ان الامويين اغدقوا على شباب الحجاز الاموال لإلهائهم عن الخوض في أمورالسياسة فأمر يجانبه الصواب في بعض جوانبه[1] فالحجازيون كانوا معارضين لسياسة الأمويين ولحكمهم أيضاً وثاروا ضد الامويين ثورات منظمة ومتتالية، فثار القرشيون في مكة تحت زعامة ابن الزبير وكان لهم رأي في انتقال العاصمة إلى دمشق، وشَكْلِ الحُكْم الملكي بدلا من الخلافة. وكان قد قُتل الحسين بن علي من قبل، وتلتها موقعة الحرّة وكان لها وقع خاص في نفوس الأنصار خاصة، والحجازيين عامة. فكانت مصدر غضب الامويين على الانصار لأنهم خالفوهم في اتجاههم السياسي وكانوا يشكلون ارستقراطية الدين. وكانت مصدر غضب الانصار خاصةً، والحجازيين عامة، على الدولة الاموية لانها أطاحت بخيرة شباب مكة والمدينة، وانفردت بالحكم دون باقي القبائل. وحوت الاموال والخبرات التي كانت ترد سابقاً الى المدينة (العاصمة الاولى) للدولة الاسلامية، وبانتقال الخلافة الى الشام سيطر عليها فرع واحد من قريش، وحرمت باقي أفرع قريش، وحرم الانصار طبعاً من هذا الامتياز وبالتالي صبّت الاموال والخبرات في دمشق، وستكون من نصيب الامويين بينما سيكون نصيب الحجازيين قليلاً جداً.

---

(١) طه حسين: حديث الاربعاء ٢٥٢/١، وانظر ٢٤٠/١

ونلمح هذا الغضب السياسي الذي لا يخلو من غضب اقتصادي- إن جاز التعبير- في شعر أهل الحجاز خصوصاً الانصار، وأحياناً كان يصل إلى مرحلة الاحتجاج الاقتصادي، ليتطور فيدخل مرحلة الغزل السياسي. إذن فمن غير الممكن أن يرضى الأمويون عن الحجازيين أبدا، ولذا بدأت المهاجاة بين عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الانصاري وبين عبد الرحمن بن الحكم ثم يبدو أنها انتهت إلى أن شبب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية فقال:

رملَ، هل تذكرينَ يومَ غزالٍ   إذ قطعنا مسيرنا بالتمني

إذ تقولين عمرَكَ اللهُ هل شيـ   ـءٌ وإن جلَّ سوف يسليكَ عنّي

أم هل اطمِعْتُ منكمُ يابن حسّا   نَ، كما قد أراك أطمعت مني[1]

فثارت ضغينة معاوية ويزيد، وبدأ الاخير بالبحث عمن يهجو الانصار، فيسلبهم اعتزازهم بأنصاريتهم، فوقع اختياره على الأخطل فقال يهجو الانصار:-

لعن الإلهُ منَ اليهودِ عصابةً   بالجزع، بين جُلَيْجِلٍ وصرارِ

قومٌ إذا هدر العصير رأيتهم   حمْراً عيونهم من المُسْطَارِ

ذهبت قريشٌ بالمكارم والعلى   واللؤم تحت عمائم الانصار

فذروا المكارم لستم من أهلها   وخذوا مساحيكم بني النجار

إن الفوارسَ يعرفون ظهورَكم   أولاد كل مفسّحٍ أكّارِ

وإذا نسبتَ ابن الفرَيْعَة خلتهُ   كالجحش بين حمارةٍ وحمارِ[2]

فأثار الهجاءُ النعمانَ بن بشير الأنصاريَّ على الامويين، ودخل الى معاوية محتداً كاشفاً عن رأسه يخاطبه: «هل ترى لؤماً؟ فأجابه بكياسة: لا، بل أرى كرماً وخيراً» واستطاع معاوية أن يهدىء خواطر الانصار، وراح النعمان يفتخر بالانصار وأنصاريته، ويرد على الاخطل.[3]

---

(١) الاغاني: ١٥/ ١٠٣

(٢) ديوان الاخطل: ٢/ ٤٨٣ - ٤٨٤. بنو النجار: رهط حسان بن ثابت، المساحي: آلات تقشر بها الأرض. الأكار: المزارع، الفريعة: أم حسان بن ثابت. جليجل وصرار: مواضع في المدينة المسطار: الخمرة.

(٣) الاغاني: ١٥/ ١٠٤ - ١٠٧ جيرون: قصر في دمشق وقيل هي دمشق، الألوة: ما يتبخر به.

وروي خبر أيضاً مؤداه ان عبد الرحمن شبب بأخت معاوية، فغضب يزيد، وقال: يا أمير المؤمنين، أقتل عبد الرحمن بن حسان. قال: ولم؟ قال:شبب بعمتي قال: وما قال:

طال ليلي، وبتُّ كالمحزونِ ... ومللتُ الثوَاءَ في جيرونِ

فلذال اغتربتُ بالشام حتى ... ظن أهلي مرجَّمات الظنونِ

هى زهراءُ مثلُ لؤلؤة الغوَّا ... صِ ميزت مِن جوهرٍ مكنونِ

وإذا ما نسبتها لم تجدْها ... في سناءٍ من المكارم دُونِ

ثم خاصرْتُها الى القبَّة الخَضْـ ... راءِ، تمشي في مَرْمَرٍ مَسنونِ

قبةٍ من مراجلٍ نصبوها ... عند حدِّ الشتاءِ في قيْطونِ

عن يساري إذا دخلت من البا ... ب وإن كنت خارجاً فيميني

تجعل الند والألوة والعو ... دَ صلاءً لها على الكانون

وقبابٌ قد أشرجتْ وبيوتٌ ... نُطِّقت بالريحان والزَّرْجونِ[١]

أظهر عبد الرحمن علو شرفها، وشرف نسبها وجمالها، وكذلك غناها إذ تقيم بالقصر ذي القباب والأسوار والابواب يعبق بالروائح العطرة، وقد لها بها الشاعر أياماً. وهذه الصفات لا تتوفر الا لبنت الملوك أو أخواتهم، ويروى أيضاً أن هذه القصيدة رويت لابي دهبل الجمحي على أنها غزل في عاتكة بنت معاوية وكان قد أكثر الغزل فيها، وحرمه معاوية عطاءه، وكان قد قال في عاتكة[٢] أيضاً:

ألا لا تقل مهلاً فقد ذهب المَهْلُ ... وما كلُّ من يلحى مُحبًا له عَقْلُ

لقد كان في خوليى حالاً ولم أزر ... هوايَ، وإن خُوِّفْتُ عن حبها شغلُ

حمى الملكُ الجبَّار عني لقاءها ... فمن دونها تخشى المتالف والقتلُ

فلا خيرَ في حبٍّ يُخاف وبالُهُ ... ولا في حبيب لا يكون لهُ وَصْلُ

---

(١) الاغاني: ١٥/ ١٠٦ - ١٠٧ جيرون: قصر في دمشق ، الألوة: ما يتبخَّر به.

(٢) ديوان أبي دهبل الجمحي: رواية أبي عمرو الشيباني. تحقيق عبد العظيم عبد المحسن: ط- مطبعة القضاة - النجف - ١٩٧٢ / ص ٧٠- ٧٢

فواكبدي إني شهرتُ بحبّها ولم يك فيما بيننا ساعةً بذلُ

وياعجبا إني أكاتمُ حبُّها وقد شاع حتى قُطِّعَتْ دونها السُبُلُ

ثم اشترى معاوية منه لسانه(١)

يبدو أن الحرمان الذي عاناه الحجازيون في بعض أيامهم كان وراء ولادة الغزل السياسي في أحضان بلدهم. وليس الامر ببعيد إذ قطع بعض الخلفاء الأمويين العطاء عنهم، وحرموهم المشاركة في جيش الفتح، فكانوا لا يشاركون فيه وبالتالي حرم أكثرهم العطاء إلا أقلهم، وفي سنة ٥٨٨هـ ضرب الوليد بن عبد الملك البعث على أهل المدينة إذ قال لعامله: «اضرب عليهم بعث ألفين، وأنهم تجاعلوا، فخرج ألف وخمسمائة فغزوا الصائفة مع مسلمة والعباس»(٢) ولما حج هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦هـ ورأى كثرة الناس ضرب على الناس بعث أربعة الآف من الناس فسمي عام الأربعة الآف.(٣)

يتبين لنا مما سبق أن الأمويين كانوا يمارسون بين الفينة والأخرى التضييق الاقتصادي على أبناء الحجاز، فالدولة لم تغدق الأموال على الحجازيين دائماً، بل كانت تقطع العطاء عنهم أحياناً، أما النعيم الذي كان يعيشه بعضهم أمثال عمر بن أبي ربيعة والعرجي والحارث بن خالد فجاءهم من إرث آبائهم الذي حازوه بفتح أو تجارة، فوالد عمر بن أبي ربيعة كان يسمى العدل «فيكسو الكعبة مرة، وكل قريش مرة، وكان متجره اليمن، وكانت جدة عمر اسماء بنت خربة عطارة يأتيها العطر من اليمن.(٤)

وأصبح الغزل السياسي ظاهرة ملحوظة في الحجاز، ولعبت الخلافات السياسية دوراً مهماً في هذا الغزل، وبدا ذلك واضحاً جداً في شعر ابن قيس الرقيات، شاعر الزبيريين عامة، وشاعر مصعب خاصة، فحرموا من العطاء، فأصبح الحرمان من

---

(١) الاغاني: ٧/١٤١– ١٤١. انظر ص ٣٧، ٣٨

(٢) تاريخ الطبري: ٦/ ٤٣٤

(٣) تاريخ الطبري: ٧/٢٩

(٤) الأغاني: ١/ ٧٣، ٧٤

العطاء محرضاً اقتصادياً لقول شعر الغزل. فابن قيس شاعر زبيري الهوى قرشي النسب، ساءه ما صنع الامويون في نقل العاصمة من الحجاز الى الشام، وما لحقهم من مضرة اقتصادية كما لحقتهم مضرة سياسية تماماً، إذ سيطر الامويون على مقدرات الحكم، وكذا المقدرات الاقتصادية معاً، دون أبناء عمومتهم، فراح يتغزل بأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان؛ زوج الخليفة الوليد بن عبد الملك في قصيدة يمدح فيها مصعب بن الزبير أحد أشخاص حزب المعارضة الزبيريين

ألا هزئتْ بنا قرشـ	ـيّةٌ يهتز موكبُها
رأت بي شيبة في الرأ	سِ مني ما أُغيِّبها
فقالت: ابن قيسٍ ذا	وغيرُ الشيب يعجبُها
رأتني قد مضى مني	وغضَّاتٌ صواحبها
ومثْلِكِ قد لهوت بها	تمامُ الحسنِ أعيبُها
لها بعلٌ غيورٌ قا	عدٌ بالباب يحجُبُها
يراني هكذا أمشي	فيوعدُها ويضربها
ظلِلْتُ على نمارقها	أُفَديِّها وأخلُبُها
فدعْ هذا ولكن حا	جةٌ قد كنت أطلبُها
إلى أمِّ البنين متى	يُقَرِّبها مُقرِّبُها
أتتني في المنام فقلْـ	ـت هذا حين أُعقَبُها
شربت بريقها حتى	نهلتُ وبتُّ أُشْرِبُها ......الخ [١]

واحتاط الشاعر لنفسه حتى وصل الى ما يريد إذ جعل وصاله بأم البنين من قبيل الحلم، وبأنه قد لها مع زوجة الخليفة، ولم يجعل علاقته بها علاقة حقيقة خوفاً من سيف الدولة البتار. وعلى الرغم من أن الحالة كانت في المنام إلا إنه قد أبرز صورة المتغزل بها (أم البنين) وذكر أن علاقته بها كانت علاقة لا يسودها الحرمان

---

(١) ديوان عبيد الله بن قيس الرُقيات: تحقيق محمد يوسف نجم: دار صادر: ص ١٢١ - ١٢٤. انظر ص ١٢٧، ١٤١ ١٤٩ - ١٥١. ١٧٥. وتروي الروايات أنه أخذ الامان لنفسه بمساعدة أم البنين نفسها، فالغزل لم يكن إذن غزلاً حقيقياً إنما كان هجاءً سياسياً مبطناً

والجفاف أبداً. إنه يغرق في شرب ريقها، ومداعبتها، وتتمنى هي وصالهُ. وجعل هذه المقدمه الطويلة نسيباً ليمدح مصعب بن الزبير، والأمر نفسه نجدهُ عند العرجي حين أكثر من التشبيب «بجيداء» أم محمد بن هشام والي المدينة، وكذا (جبرة) زوجته. تغزل بهما حين ضيق عليه محمد بن هشام، والأمر المستهجن في ذا أن ما فعله العرجي لا يختلف في أكثر أحواله عما فعله عمر بن أبي ربيعة مع فاطمة بنت عبد الملك وأم مروان بنت محمد، ولكن لماذا يهاجم العرجي ويسجن، ويتهم في خلقه، في حين يخلىَّ عمر؟

فالعرجي لم يتصل بالدولة متكسباً أو مادحاً، وكذا عمر بن أبي ربيعة، ولكن العرجي كان رَجلاً طموحاً تواقاً إلى المجد السياسي وقد شارك في الفتوح، ولكن عمر حجز نفسه على قول الشعر الغزلي. وإذا كان ابن قيس الرقيات شاعراً إعلامياً خطيراً للحزب الزبيري خاصة أنه قرشي فإن العرجي كان رجلاً طموحاً فارساً، جواداً، غنياً، متلافاً. وهذا ما كان يتعارض مع الأمويين. ويبدو أنه الخوف من أن يطالب أبناء عثمان بحقهم في العرش ومنهم العرجي، خاصة أن النظرية الأموية في الحكم تقول: إن معاوية أحق بالمطالبة بدم عثمان من علي، وحمل الأمويون قميصه ضد الهاشميين، فكيف وقد كبر أبناء عثمان، ولا يقلون قدرة وحزماً، وشجاعة ونسباً عن المروانيين: إذاً فلا بد من توجيه أتهامات سياسة خطيرة للعرجي، ومنع الأموال عنه إن استطاعوا، وحبسه حتى لا يتمكن من ذلك، وهذا الأمر لم يكن خاصاً بالعرجي فقط بل رأيناه في سعيد بن عثمان بن عفان إذ عزله معاوية لما أحسَّ بخطره السياسي، فالاحساس بالخطر السياسي يقود إلى إستعمال الادوات الاقتصادية فيتضافر العاملان معاً، فينتجان ما أنتجا من الغزل السياسي.

وكان العرجي قد قال في جبرة:-

عوجي علي، وسلّمي جبرُ   فيمَ الصدودُ؟ وأنتمُ سَفْرُ

فكفى به هجراً لنا ولكمْ   أنَّى، وذلك فاعلمي الهَجْرُ؟

لا نلتقي إلا ثلاث منىً   حتى يشتِّتَ بيننا النَّفْرُ

وعرفت منزلةً، فقلت لها بالقصر مرٌّ لعهده عصرُ
أقوى منْ آل جبيرة القصرُ فقرانُها فتلاعُها العفرُ
قَصُرَ به رودُ الشُباب لها نسبٌ يقصُرُ دونه الفَخْرُ
زهراءُ يسمو للعلاءِ بها آباؤها وعقائلُ زهْرُ(١)

ودفع النص الى ابن سريج فغنى به صوتاً كان مشهوراً. وفي حقيقة الامر لم يكن العرجي متغزلاً بجبرة أبداً إنما أراد إغاظة الذي يتحكمون بمصائر الامة، خاصةً أنه أحدُ أحفاد عثمان بن عفان الذي أبلى بلاء حسناً في خدمة الاسلام والمسلمين. ولما سجن محمدُ بن هشام العرجيَّ تغزل بجيداء أمه، في السجن ليغيظه بهذا الغزل الذي في حقيقته هجاء مبطن لمحمد إذ يقول فيها:

يمانيّةٌ هاجتْ فؤادي ووكَّلَتْ بها النفسُ حتى دمعُ عيني يذرفُ
وإني لموفيها من الودِّ كَيْلَهُ إذا نقص الودَّ الملول المطفِّفُ
كعابٌ إذا قامتْ قليلاً تأودتْ كمشي الحسير مكرهاً وهو مُزْحَفُ
من البيض أما ما يواري إزارَها ففعمٌ، وأما ما علاه فمرهفُ (٢)

ومَن هنا لا نجده يسلب المرأة علو النسب أو يدني بها الى الحضيض، ولذا فالغزل في الحالة هاته ليس خطيراً على المرأة في ظل هذه المعرفة، ولكنه خطيرٌ جدا على السياسة والسياسيين وتبلغ الجرأة بالشعراء أن يدفعوا النص الغزلي الخطير الى أحد المغنين فيصبح مشهوراً.

وإن جاز لك أن ترد الغزل السياسي لدى العرجي إلى حالة فردية خاصة به، فالامر قد يصدق الى حد بعيد، ولكنه لا يخلو من الرأي الذي قلنا به آنفا من أنه كان أحد أبناء عثمان الذين لم تعجبهم مواقف الدولة الأموية فكان مغضوباً عليه إذ حيل بينه وبين المناصب المهمة، وكان قد شارك في الفتوح، ثم صرفوه عنها، والصرف السياسي يتبعه صرف إقتصادي، فلجأ العرجي الى حيلة يهجو بها

---

(١) ديوان العرجي: ٤٢– ٤٥.

(٢) ديوان العرجي: ١٥٦. الفعم– الممتليء وانظر ١٩٠، الحسير: المتعب.

خصومه فكان الغزل السياسي. ولما صُرف عن المناصب وكثر فراغه، صرفه في الغزل عامة حتى اتهم بالفجور ، ومنه هذا الغزل السياسي على مستوى الولاة إذ جعل المروانيين يسمحون لمحمد بن هشام، بأن يتلعب بحفدة عثمان، فصورة الغزل السياسي لدى العرجي وان كان لها وجه اقتصادي تختلف عن صورتها عند ابن قيس الرقيات أو عبد الرحمن بن حسان. فالترف الاقتصادي الذي كان قد ورثه، والضياع السياسي الذي مني به كانا من أسباب اتجاهه الى الترف الثقافي فالتحق بالمغنين واتصل بعمر، والأحوص، من الشباب اللاهي في الحجاز وجالس ابن سريج والغريض، ولحنوا نصوصه الغزليه، ومنها نصوص الغزل السياسي. ولا ندهش لهذا التفسير فمن الطبيعي أن يطمع العرجي حفيد عثمان بما حازه المروانيون من مال ومنصب فمال إلى الفتوح مرة، وممارسة الغزل الذي يدل على الضياع والظمأ إلى الحياة مرات لتجاوز الأمر الواقع فكانت محنته شديدة كما صورها بقوله:

أضاعوني، وأيّ فتىً أضاعوا ... ليوم كريهة وسِداد ثغرِ
وخلّوني لمعْتَرَكِ المنايا ... وقد شَرَعَتْ أسنتُها لنحري
كأني لم أكن فيهم وسيطاً ... ولا لي نسبةٌ في آل عمرو
أجرَّرُ في الجوامعِ كلَّ يومٍ ... ألا لله مظلمتي وصبري [١]

« أضاعوني وأي فتى أضاعوا » هذا البيت الذي كان خلاصة تجربة العرجي مع الحياة، فالضياع قادم من جهة أخرى. والخسارة الاقتصادية التي عاناها أهل الحجاز عامة كانت من الأسباب غير المباشرة في ولادة الغزل السياسي. نظر الحجازيون حولهم فرأوا حضارتهم قد سلبت منهم، وكذا تقدمهم، وغناؤهم، وخبراتهم ، وأموالهم، وحرموا خيرا الفتح، كما سلب من قبل الحكم، وحول إلى خارج الجزيرة. فبحثوا عن نصر ثقافي يثبتون به وجودهم، ويدافعون عنه وكانوا قد ملكوه في بدايات تكوين الهوية العربية، فكان الغزل السياسي وكذا الغزل الحضري من قبل.

(١) الديوان: ٣٤- ٣٥ آل عمرو بن عثمان بن عفان أي رهط الشاعر

ثالثاً: الغزل العذري

ثمة دراسات درست الغزل العذري وفنونه، واتجاهاته، وكانت لهم مواقف تختلف عن وقفتنا هذه، فكانت عند بعضهم حالة من اليأس أو حالة من حالات الكبت نتيجة للظروف الدينية الجديدة، ولكن الأمر قد يصلح أن يكون للحياة الاقتصادية ونظام الإنتاج دور في ظهور الغزل العذري في نجد وبوادي الحجاز.(١)

والذي يبدو أن الغزل العذري ظاهرة من ظواهر الادب في نجد وبوادي الحجاز، والنظام الإقتصادي الذي ساد في هاتين المنطقتين هو نظام الكلأ والاعتماد على الرعي وتتبع مساقط الغيث، وبالتالي كان الجدب والفقر عنوانين لنظام الحياة في البوادي، وإمكانية العيش في ظل هذا النظام صعبة جداً، خصوصاً إذا ما قورنت بالحياة الاقتصادية المتطورة في جارتها (الحجاز) فشكا شعراء هذه المنطقة كما مر لدينا من الجدب وضيق الحال، واحتجوا على الظلم الاقتصادي حيناً، ولجأوا الى التكسب حينا أخر. فطبيعة نظام الانتاج لا بد أنه أثر في الغزل. فكان غزلهم بواحدة فقط حتى ارتبطت اسماؤهم بهن، فكان جميل بثينه، وغيلان ميّة وكثيّر عزه، وقيس ليلى وقيس لبنى وغيرهم.

أكان مصادفة أن يظهر الشعر العذري في البوادي دون المدن؟

لماذا ظهر الغزل بعديدات لدى عمر في حين لم يتغزل جميل إلا بواحدة؟ وعلى أن النساء أكثر الناس إيماناً بالغزل العذري قيمة وخلقاً ووفاء- إلا أنها ظاهرة تستدعي التساول والتفسير، وأرى أنها مرتبطة بنظام الإنتاج . فنظام الانتاج المتطور في المدينة الذي اعتمد على الزراعة والتجارة وصناعة الحرف أحياناً جعل علاقات الناس أكثر تعقيداً منها في حياة البادية. ونظام الانتاج في البادية مجدب وفقير يقوم على التكافل الاجتماعي مرة، وعلى الصراع مع القبائل المجاورة على لقمة العيش ثانية.

---

(١) اتجاهات الشعر في العصر الاموي: صلاح الدين الهادي. الشعر الاموي: دراسة في التقاليد والأصالة الادبية / محمد فتوح أحمد. في الشعر الإسلامي والأموي: عبد القادر القط. الحب والموت في شعر الشعراء العذريين في العصر الأموي: ابراهيم السنجلاوي. في الشعر الأموي: دراسة في البيئات: يوسف خليف التقليد والتجديد في الشعر العربي حتى نهاية العصر الاموي: صلاح مصيلحي على عبد الله. اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري: يوسف بكار

هذه العلاقات المتضادة بفعل الجدب والفقر، جعلت الغزل مرتبطاً بواحدة من النساء على غير ما وجدنا في الحاضرة من ثراء وغنى، إذ جعلت الغزل مرتبطاً بعدد من النساء. وإن نظرنا في علاقات الشعراء العذريين بمحبوباتهم نجدها علاقة يسودها الصد والحرمان، والمنع والجفاء، والخوف، والعذال والوشاة، ولا يسودها الوصال والخصب والزواج علاقة يسيطر عليها الجفاف «ولذلك يظهر الشعر العذري معرضاً لهذه العلاقة، لا لصورة المرأة المحبوبة، ويكثر فيها صيغ التعبير عن العلاقة مع المحبوبة كالحوار معها، ومعاتبتها، والشكوى اليها، والتوجع من صدها، واليأس من وصلها، والوشاة، والقناعة بالقليل من رضاها» [1]

وأبرز جميل صدود بثينة عنه فقال:

صدَّت بثينةُ عنِّي أن سعى ساعٍ ... وآيستْ بعد موعودٍ وإطماعِ

وصدَّقتْ فيَّ أقوالاً تقوَّلها ... واشٍ، وما أنا للواشي بمطواعِ

يا بثنُ جودي، وكافي عاشقاً دنفاً ... واشفي بذلك أسقامي وأوجاعي

إن القليلَ كثيرٌ منك ينفعني ... وما سواه كثيرٌ غيرُ نفّاعِ [2]

ألحف جميل في طلب جودها بالوصال، وكانت قد أطمعته بذلك ثم صدَّته خوف الوشاة. طلب جميل يختلف جداً عن طلب الأحوص أو العرجي أو عمر، فهو يرضى بالقليل جداً، وقليل الوصال نافعةُ، ويتوجّها جميل بقوله:

وأني لأرضى من بثنية بالذّي ... لو أبصرهُ الواشي لقرّت بلابلُهْ

بلا وبأن لا أستطيعُ، وبالمنى ... وبالأمل المرجوِّ، قد خاب آمله

وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضي ... أواخره لا نلتقي وأوائله [3]

كلمات تلك التي يريدها من وصالها، فهو لا يبحث عن المغامرات، والعناق .... وغير ذلك من مجالس اللهو التي كان شعراء مكة والمدينة والطائف يلهون بها مع

---

(١) نبيل خانجي: أثر الحياة الإقتصادية في شعر الهداة في العصر الأموي: ١٤٨.

(٢) ديوان جميل بثينة تحقيق حسين نصار- مكتبة مصر- ط٢- ١٩٦٧، ١٢٢.

(٣) الاغاني: ١١٢/٨. انظر الديوان، ١٦٩، ١٨٦.

محبوباتهم وهذا أمر ليس بعيداً، لقد اعتاد البداة على الإقلال والجدب ورضوا من محبوباتهم بكلمات قليلة تساوى الندى والرذاذ أو المطر في السماء يرونه ولا يصلهم خيره، ولكننا نجد الشاعر نفسه كثير البكاء على فراق المحبوبة وصدودها حتى قال المجنون:

لم تزل مقلتي تفيضُ بدمعٍ يشبه الغيثَ بعد أن فَقَدَتْها
مقلةٌ دمعُها حثيثٌ وأخرى كلما جفَّ دمعها أسعَدَتْها
ما جرت هذه على الخد حتى لحقت تلك بالتي سبقَتْها
دمعةٌ بعد دمعةٍ فإذا ما لحقت تلك هذه أحدرَتْها(١)

وكان المجنون أكثر صدقاً في وصف حالة الغزل بليلاه، فشبه نفسه بأعرابية قذفت بها النوى بعيداً عن مواطن معيشتها، فتمنَّت أحاليب الرِّعاء تمنت الأمن والغذاء، وكأن الغذاء وفقدانَ الأمن الذي يجلب الغذاء أثَّر في تمسك الشاعر بمحبوبته، فكأنها غذاؤه الوحيد، يخاف فقدانه برحيل المحبوبة مع أهلها، تتبَّعُ مساقط الغيث:

فما وجدُ أعرابيةٍ قذفَتْ بها صروفُ النَّوى من حيثُ لم تكُ ظنَّتِ
إذا ذكرَت نجداً، وطيبَ تُرابِهِ وخيمةَ نجدٍ أعولَتْ وأرنَّتِ
بأكثرَ مني حُرْقةً وصبابةً إلى هضباتٍ باللّوى قد أظلَّتِ
تمنَّت أحاليبَ الرِّعاءِ وخيمةً بنجدٍ فلم يُقْدرْ لها ما تمنَّتِ
لها أنَّةٌ قبل العشاء وأنَّةٌ سُحيراً، فلولا أنَّتاها لجُنَّتِ
بأوجدَ منْ وجدٍ بليلى وجدْتُهُ غداة ارتحلنا غدوةً واطمأنَّتِ(٢)

وهزىء بعض الشعراء من تضييع دهره بانتظار بثينة أن تجود عليه يوماً بالرضا والوصال، وهذا أمر بعيد المنال عانى منه جميل فقال:

فأفنيتُ عيشي بانتظاري نوالها وأبلتْ بذاك الدهرَ وهو جديدُ

---

(١) ديوان مجنون ليلى: شرح يوسف فرحات دار الكتاب العربي - ط- ١. ١٩٩٢، ص٥٠.

(٢) ديوان مجنون ليلى: ٤٧

ألاليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادي القرى إني إذن لسعيدُ
وهل ألقيَنْ سعدى من الدهر مرةً ... ومارثٌ من حبل الصفاء جديدُ
وقد تلتقي الأهواءُ من بعد يأسةٍ ... وقد تُطلبُ الحاجات وهي بعيدُ(١)

فنصيب جميلِ الحرمانُ من نوال بثينة، وكان قد رحل إلى مصر جرّاء حبها بعد أن أستعدى أهلها عليه لدى السلطان، وتحمل الغربة، حتى وجد نفسه لم يستمتع بالحياة ولذا تمنى الإقامة في وادي القرى، مكانه، ومكان أهله، ومكان ذكرياته مع بثينة، ذاك المكان الذي استقرت فيه بثينة مع أهلها، وكان قد اغترب عنه محمَّلاً بكلمة منها:-

وما أنس م الأشياء لا أنس قولها ... وقد قرِّبَتْ نضوي: أمصرَ تريدُ؟
ولاقولَها: لولا العيونُ التي ترى ... أتيتك فاعذرني فدتك جدود (٢)

وظل الشاعر دائم العطش، وهي قليلة العطاء، تملك الماء ولا تسقيه إياه، ومع ذلك لا يلومها أبداً إنما يبرز علاقتهما في ظل صورة الجدب حتى الموت، وتمنى أن يشرب من بحر الوصال والخصب مرة واحدة، ولكن لا تستطيع هي ذلك، وإن كان فالموت أقرب إليه، ولذا يفضل الحياة والعطش على الوصال فالموت:

هل الحائمُ العطشانُ مسقىً بشربةٍ ... من المزن تروي ما به فتريحُ
فقالت: فنخشى إن سقيناك شربة ... تخبِّر اعدائي بها فتبوحُ
إذن فأباحتني المنايا وقادني ... إلى أجلي عضبُ السِّلاح سفوحُ
لبئس إذن مأوى الكريمةِ سرُّها ... وإني إذن من حبِّكم لصحيح(٣)

وكان أكثر دقة في توضيح صورة العطش اذ شبه نفسه بالطائر الحائم ينشد الماء، ولكن الموت دون الماء فرجع خائباً يحمل عطشه أو موته فاختار العطش على الموت:

---

(١) ديوان جميل بثينة، تحقيق: حسين نصار: مكتبة مصر- ط٢- ١٩٦٧ ص ٦٤- ٦٥

(٢) ديوان جميل بثينة: ٦٢

(٣) ديوان جميل بثينة: ٥٠ ديوان ابن الدُّمينة: تحقيق أحمد راتب النفاخ : دار العروبة مصر: ١٩٥٩، ٢٦- ٢٧

وما صادياتٌ حُمْنَ يوماً وليلةً على الماء يخْشَيْنَ العصيَّ حواني
لواغب لا يصْدُرْنَ عنه لوجهةٍ ولا هنَّ من بَرْدِ الحياض دواني
يرين حَباب الماء والموتُ دونه فهنَّ لأصوات السُقاة رواني
بأكثرَ مني غُلَّةً وصبابةً اليكِ، ولكن العدوَّ عراني[1]

لم تلب له رغبة واحدة لفك العطش عنه وظلت تعيش في ظل الظرف الاجتماعي، إذ يقود نظام الكلأ الى رحيل بثينة مع أهلها أو زوجها بحثاً عن الماء والكلأ وتترك الشاعر يعاني حرمان الحب، كما يعاني أهل بثينة حرمان الغذاء والماء، ولذا يلجأ إلى النوم يستدعي الأحلامَ، لاستمالة الوصال في الواقع اذ قال:

وإني لأستغشي وما بي نعسةٌ لعل لقاءً في المنام يكونُ
ولما علوت اللابتين تشوقت قلوبٌ إلى وادي القرى وعيونُ
كأن دموعَ العينِ يوم تحمَّلت بثينةُ يسقيها الرّشاشُ معينُ[2]

فهي تعيش في ظل الفقر، ولاتستطيع أن تقدم أكثر مما قدمت، وكان طه حسين قد رأى أن الاعراب كانوا: «في شيء من اليأس والفقر غير قليل وان هذا اليأس والفقر قد أحدثا في البادية مثل ما أحدث اليأس والغنى في الحاضرة من نشأة هذا الفن الشعري»[3]

وصورة العطش ألح اليها ابن الدمينة كثيراً في شعره حتى كانت ظاهرة ملحوظة وقال في ذلك:

ولو جئت استسقي شراباً وعنده عيون رويّاتٌ لهنَّ جداولُ
صدياً لما قالت ليَ: اشربْ وما درَت أفي العام أُروى أم اذا عاد قابل؟[4]

فهو على موعد معها للاستسقاء، استسقاء الحب والإحساس بالأمن في ظل

---

(١) ديوان جميل بثينة:٢٠٣- ٢٠٤ والأغاني: ١٩/١٠٥-١٠٩، حواني: متعطفات على الماء، اللواغب: جمع لاغبة وهي الضعيفة الرواني: جمع رانية وهي التي تديم النظر في سكون، عراني: ألم بي.

(٢) ديوان جميل بثينة:٢٠١.

(٣) طه حسين، حديث الأربعاء: ٢٢/١

(٤) ديوان ابن الدمينة: ٢٠

الطبيعة الاجتماعية القاسية، إذ كان ابن الدمينة مطارداً؛ ولم يشعر بالامن فكانت المرأة أحياناً معادلاً موضوعياً للأمن الروحي، والأمن الغذائي معاً.

وقال يخاطب محبوبته من مهجره:

فيا ليت شعري هل تغيَّر بعدنا مغان تعفَّت أم كعهدي ظلالُها

وهل حُرِّمتْ تلك المياهُ على فتىً سوايَ، وهل خيضتْ برنْقٍ ثمالُها[1]

ومما يلفت النظر في أخبار العذريين أن نقطة البداية في تعارفهما كانت شربة ماء يحتاجها الشاعر في الصحراء المقفرة ولا يملك الماء الا ميَّة أو بُثينة أو لُبنى- وتبقى شربة الماء هي الحياة: فالمرأة منفس الشاعر الوحيد للحياة ولذا تمسك بها أيما تمسك، وكانه لا يعرف عين ماء غيرها.

وتظهر المرأة في شعر البداة كذي الرمة في صورة مختلفة عما ظهرت فيها أخواتها ليلى ولبنى وعزة، تظهر مية في صورة الظُّعن المهاجرة، وهي تخضع لنظام الطبيعةالقاسي بجبروته، فترتحل مع من يرتحلون بحثاً عن الحياة. وكان علاقتهما (غيلان ومية) علاقة مجدبة جافة لا تغني شيئاً، والحياة مهمة جداً له بل أهم من الحب فيراقب غيلان حركة الظعن وهي تحمل محبوبته.

نظرتُ إلى أظعان ميٍّ كأنَّها مُوليَّةٌ ميَسٌ تميل ذوائبُهْ

فأبديت من عينيٍّ، والصدر كاتمٌ بمغرورقٍ نمَّت عليَّ سواكبُهْ

هوى آلفٍ جاءَ الفراقُ ولم تجُلْ جوائلَها أسرارُهُ ومعاتبُهْ

ظعائن لم يحللن ِالاَّ تنوفةً عذاةً إذا ما البرد هبَّت جنائبُهْ

تعرَّجْن بالصمَّانِ حتى تعذَّرت عليهن أرتاعُ اللِّوى ومشاربُهْ

وحتَّى رأين القنْعَ من فاقيء السَّفى قد انتسجت قُريانُهُ ومذانبُهْ

وحتَّى سرَتْ بعد الكرى في لويِّهِ أساريع معروفٍ، وصرّت جنادبُهْ[2]

---

(١) ديوان ابن الدمينة: ٦٠.

(٢) ديوان ذي الرمة: ٨٢٥/٢- ٨٢٩ - انظر ١١٤٨ عذاة: بعيدة عن الريف. القرياني مجاري الماء إلى الرياض واحده قري. المذانب: مدفع الماء إلى الرياض. الأظعان: النساء في الهوادج. الميس: شجر تعمل منه الرحلة-تميل ذوائبه: اغصانه وأعاليه: لم تجل جوألها: لم توجه وجهتها أي لم يستطيع أن يعاتب.

التنوفة: القفر. تعرّجن: أقمن الصمّان: مكان بين الدو والدهناء. اللوى: مكان. أرتاع اللوى: المرتعى والمشرب. القنع: مكان مطمئن وسطه وما حوله مشرف.

وأظهر صورة مية مع الظعائن ترتحل طلباً للماء والكلأ، فتنزل الصحراء تارة، ومحاضر الماء العذب تارة أخرى:

ظعائنُ يحلُلْنَ الفلاةَ وتارة محاضرَ عذبٍ لم تخُضْهُ الضفادعُ

تذكرْنَ ماءً عُجْمَةُ الرَّملِ دونه فهنَّ الى نحو الجنوب صواقعُ

تصفَّين حتى أوجفَ البارحُ السُّفى ونشَّت جراميزُ اللِّوى والمصانعُ

يَسُفْن الخزامى بين ميثاء سَهْلةٍ وبين بَراقٍ واجهَتْها الأجارعُ

بها العِيْن والآرام فوضى كأنها ذبالٌ تذكَّى أو نجومٌ طوالعُ

غدون فأحسنَّ الوداع فلم نقُلْ كما قلن إلا أن تشير الأصابع [١]

وظلت حياة البادية ونظامها الاقتصادي القاسي ديدن ذي الرمة وموطن همه فرحيل المحبوبة مع أهلها أقلق مضجعه:

لا أحسبُ الدَّهرَ يبلي جدَّةً أبداً ولاتقسَّمُ شعْباً واحداً شُعَبُ

زار الخيالُ لميٍّ هاجعاً لعبتْ به التنائفُ والمهرِيَّةُ النُّجُبُ [٢]

صورة المرأة في شعر الغزل عند البداة عامة وعند غير العذريين خاصة، ظلت تدور في حلم الخصب، ومن هنا ركزوا على ابراز مواطن الخصب عندها فهي مرتجة الأرداف عجزاء كفل، ممكورة الساقين، صورة لا تختلف كثيرا عن صورتها لدى الشعراء الحضريين في الظاهر. وتغزله بها كان يضعها في ظل الظعائن والرحلة، حيث أن المرأة تنزل حيث الخصب يكون كما هو في قول ذي الرمة:

تميميَّةٌ نجديةٌ دارُ أهلها إذا مُوِّه الصَّمَّانُ من سَبَلِ القَطْرِ

بأدعاصِ حوضى ثم يوردُ أهلَها جراميزَ يطفو فوقها ورقُ السِّدْرِ [٣]

---

(١) ديوان ذي الرمة: ١٢٨٢/٢- ١٢٨٥: المحاضر: حيث ينزل على الماء. لم تخضه الضفادع: أي أنه في البادية صوادع: ذاهبات في السير. تصفين: صفين الماء للشرب. جراميز: حياض الماء: يسفن: يشممن، عجمة الرمل: وسطه ومعظمه، صواقع: يقال صقع تعمد وقصد، تصفين: استصفى الماء للشرب البارح: الريحُ التي تهب في الصيف، السفى: شوك البهمى، نشت: يبست، جراميز: الحياض، الخزامى: نبت طيب الرائحة، الميثاء: مجرى الماء من شفير الوادي، البراق: حجارة ورمل مختلطة، الأجارع: واحدها أجرع: وسط الرمل ومعظمه، تذكى: توقد. فأحسن الوداع: لم نقدر على الكلام.

(٢) نفس المصدر: ١/ ٤٩٨- ٤٠٠ وانظر ١٦٩

(٣) نفس المصدر: ٢/ ٩٥٠ سبل القطر: ما انحدر من المطر، موّه: أن تمتلىء بالماء، أدعاص: رمال صغار.

وسيطرت على باله رحلة الظعاشن وراء الماء والكلأ، ومن هنا لجأ الى وصف ملامح الخصوبة عندها بشيء من الطبيعة الغضة المترعة الخصبة اللينة، فربط موطن الخصوبة (الريق) بالرياض فقال:-

فما روضةٌ من حرِّ نجدٍ تهلّلتْ — عليها سماءٌ ليلةً، والصَّبا تسري

بها ذُرَقٌ غضُّ النباتِ وحنوةٌ — تعاوَرَها الأمطارُ كَفْرًا على كَفْرِ

بأطيبَ منها نكهةً بعد هجعةٍ — ونشْراً ولا وعساءُ طيِّبةُ النَّشْرِ[1]

جعل ذو الرمة ريق المرأة موازناً للروضة الغناء التي تعبق بالرائحة الطيبة وتتغذى بالامطار التوالي، حتى أنه فوَّق ريقها المخصب على الروضة المخصبة في تشبيه دائري (فما روضة... بأطيب) وهذه حالة تمناها البدوي في ظل نظام الإنتاج فهو يعيش مآسي هذا النظام الاقتصادي وأحياناً يحتل الريق المفقود في عالم الحرمان البدوي صورة من صور القداسة، اكتمل جمالها وخصوبتها حين يقول النابغة الشيباني:

ما دميةٌ ظلت الرُّهبانُ تعهدُها — يوماً بأحسنَ منها حين تَغْتَسِلُ

يعلو مآكمها فَرْعٌ لها حَسَنٌ — من السُّخام أثيثٌ نبتُهُ رَجِلُ

وزان أنيابها منها اذا ابتسمت — أحوى اللِّثاتِ شتيتٌ نبتهُ رَتِلُ

كأن ريقتها في فِيْ مضاجعها — شيبتْ بها الثَّلج والكافورُ والعسلُ[2]

فملامح الجمال التي رآها البدوي في المرأة دليل على نعمة العيش التي ترفل فيها. فيكتمل نموها، ويتعاظم، لتتمكن من مقاومة الفقر وشقاء الرحيل والجدب وخوف الفناء ولكن الشاعر ابرزها لوحة فنية رائعة للخصب ولم نلمح الجدب في علاقتهما، إنما هي حلم من أحلامه في الغزل وغالبا ما يكون الغزل جزءاً في لوحة

---

(١) نفس المصدر:٢/٩٥٨- ٩٥٩. (ذرق، حنوة: نبت. وعساء: الرملة اللينة تنبت أحرار البقل، كفراً على كفر: أي مطرة على مطرة بعد هجعة: بعد نومة، النشر: ريح الجسد والفم بعد النوم.

(٢) ديوان النابغة الشيباني: ٢٠٠-٢٠١. مآكمها: جمع مآكمة وهي العجيزة، الفرع: الضفيرة من الشعر، السخام: الشعر اللين المسترسل، أثيث: كثير عظيم، الرجل: المسترسل، الحوة: سمرة الشفه، الشتيت: الأفلج، الرتل: الحسن التنضيد.

الحياة، يجلوها حلم الخصب، أعني ليست موضوعاً يرسم الشاعر من خلاله صبوته الى الخصب كما يرسم هذه الصورة من خلال موضوعات الحياة الأخرى. [١]

رابعاً: الغزل عند شعراء البلاط

أما الغزل عند بعض شعراء البلاط فصورته تختلف اختلافاً بيناً عن صورة الغزل العذري أو الغزل الحضري او الغزل السياسي. وتكاد تنحصر صورة الغزل عند جرير والفرزدق والأخطل في المقدمات الغزلية لقصيدة المدح وفي ذلك تكون نسيباً تقليدياً، تعتبر في كثير من مواضعها معادلا موضوعياً للوحة المدح مرتكز النص البلاطي، ويكاد التشبيب أو الغزل الخالص الذي عهدناه لدى عمر أو جميل أو كثيّر، أو غيرهم يختفي عند شعراء البلاط.

وتختلط لوحة الغزل بشكوى الفقر عند جرير غير مرة فقال يخاطب الخليفة عبد الملك بن مروان في أول نص يربطهما:

أتصحو بل فؤادُك غير صاحِ   عشيَّةَ همَّ صحبُكَ بالرَّواحِ

تقولُ العاذلاتُ علاكَ شيبٌ   أهذا الشَّيْبُ يمنعني مِراحي

يكلِّفني فؤادي مِنْ هواه   ظعائنَ يجتزعْن على رُماح

ظعائنَ لم يدنَّ مع النصارى   ولايدرين ما سمك القُراحِ

تعزَّت أمُّ حزرَة ثم قالت   رأيتُ الموردين ذوي لقاح

تُعلِّل وهي ساغبةٌ بنيها   بأنفاسٍ منَ الشَّبِمِ القَراح [٢]

ارتباط الشاعر بمحبوبته جعله يجهز الظعائن للرحيل، تحمل قلب الشاعر معها، وقد ارتبط بهن، لميزات خاصة اتسمن بها، فهن مسلمات متدينات، لسن بنصرانيات، وبدويات غير متحضرات. وبذلك يشير الى تغلب وإلى الأخطل عدو القيسية وشاعر عبد الملك، ليستدر عطاءه وعطفه عليه، وعلى هاته النسوة؛ إذ كان

---

(١) نبيل خانجي: ١٤٨

(٢) ديوان جرير: ٨٧/١- ٨٩ القُراح: قرية في البحرين أي أنهن بدويات لسن حضريات. الشبم: الماء البارد، الساغبة: الجائعة.

الفقر هو السمة العامة للمحبوبة نرى العاذلة (وهي زوجته) تطفو على سطح النص، تحيا الفقر وتعانية كونها (بدوية)، وأورد صورة أم حزرة «تعلل وهي ساغبة بنيها» لنرى أنه ذهب يمتاح بحور العطاء من عند عبد الملك ويطلب منها أن تكف عن اللوم حينما قال: «فجنبيني أداة اللوم، وانتظري امتياحي» وطمأنها بنجاح الأمر، ليصل الى مدح الخليفة وذكر حاجته الى المال والرزق ورفع الفقر عنه، فيهدىء من روع صاحبته بقوله، وقد جنح الى لوحة المديح:

أغثني يا فداكَ أبي وأمي	بسيبٍ منك إنك ذو ارتياحِ
وإني قد رأيتُ عليَّ حقاًّ	زيارتي الخليفةَ وامتداحي
سأشكرُ إن رددتَ علي ريشي	واثبتَّ القوادمَ في جناحي
ألستمْ خيرَ من ركب المطايا	وأندى العالمين بطونَ راحِ

ويلقي جرير همومه في لوحة الغزل التي ترتبط ارتباطا وثيقاً بالتكسب، وبدا ذلك في غير موقف من مواقفه المدحية:

حيوا أُمامةَ واذكروا عهدا مضى	قبل التصدُّع من شماليل النوى
قالتْ بليتَ فما نراك كعهدنا	ليت العهودَ تجدَّدت بعدَ البلى
أأمامَ غيَّرني وانت غريرةٌ	حاجات ذي أربٍ وهمٌّ كالجوى
قالت أمامةُ ما لجهلك مالَهُ؟	كيف الصبابةُ بعدما ذهب الصِّبا
ورأت أمامةُ في العظام تحنياً	بعد استقامتها وقصراً في الخطا
ورأت بلحيته خضابا راعها	والويل للفتياتِ من خضب اللحى
وتقول: إني قد لقيت بليةً	من مَسْحِ عينك، ما يزالُ بها قذى[1]

صورة الغزل هنا غامضة جداً فهى أقرب الى الحوار بين الشاعر والمرأة الرافضة كبر سنه، وتحنِّي عظامه، وخضاب لحيته، وحالته السيئه، وعدم قدرته على رعاية الحب، وكأن الشاعر أراد أن يقول: إن هناك اسباباً مؤلمة وراء هذه الحالة السيئة، فتنفر منه المرأة، ونفور المرأة من الرجل شيء مؤلم جداً. وعندها يصل

(١) ديوان جرير: ٢٤٣/١-٢٤٦ الشماليل اشتمالها في كل وجه وتفرقها لا واحدة لها. النوى: النِّية: ابن عائشه: عبد الملك بن مروان

الى لوحة الغزل والتي هي شكوى غير صريحة بلوحة المديح، هذا البيت هو الكشف المضيء عن أمره، وحالته:

لولا ابن عائشة المباركُ سيبُهُ   أبكى بنيَّ، وأمَّهم طولُ الطوى

فجوع زوجته واولاده كان السبب وراء تحني عظامه، وقصر خطاه، فالحالة الاقتصادية عند جرير قد لعبت دوراً كبيراً في تشكل لوحة الغزل في النص المدحي لدى أحد شعراء البلاط.

وتكاد تختفي صورة الغزل الخالص عند جرير، حتى وهو يريد تحديد علاقته بأم العمر » فنجده قد أضفى عليها هالة من القداسة، وكأنها خليفة المسلمين وينفي عنها النصرانية، ثم يتعرض للذين هجوه ليجنح فيما بعد الى الخليفة فهو (خليفة الله، قارئ القرآن، أمين الله .. الخ وكان قد قال:

أواصلٌ أنتَ أمَّ العَمْرِ ام تدعُ   ام تقطعُ الحبلَ منهم مثلَ ما قطعوا

تمَّت جمالا وديناً ليس يقربها   قسُّ النصارى ولا من همِّها البيع[1]

واضح جداً أنه يعرض بالتغالبة النصارى خصوم القيسية، التغالبة الذين اعتمدهم الخليفة في حرب القيسية. فإننا لا نرى غزلاً حقيقياً متوهجاً في النص إنما هي لوحة المدح، أو التكسب، أو شكوى الفقر والضيق الاقتصادي، أو الاحتجاج الاقتصادي، بإيحاء.ولكن إذا جنح جرير نحو النقائض أو المهاجاة، كانت صورة الغزل تأخذ اتجاهاً أكثر جمالاً:-

أقلِّي اللومَ عاذلَ والعتابا   و قولي، إنْ أصبتُ لقد أصابا

أجدَّكَ ما تذكَّرُ أهلَ نجد   وحيّاً طال ما انتظروا الإ يابا

بلى فارفضَّ دَمْعُكَ غيرَ نزرٍ   كما عيَّنْتَ بالسَّربِ الطبابا

وهاجَ البَرْقُ ليلة أذْرِعاتٍ   هوىً ما تستطيعُ له طلابا

فقلت بحاجةٍ، وطويتُ أخرى   فهاج عليَّ بينهما اكتئابا

أباحتْ أمُّ حَزْرَةَ من فؤداى   شِعابَ الحُبِّ إنَّ لهُ شِعابا[2]

---

(١) ديوان جرير:١/٢٩٣- ٢٩٦

(٢) ديوان جرير: ٣/٨١٣- ٨٢٥

تمنى جداً أن ترفع عاذلته اللوم عنه، وطلب منها أن تشهد له بالصواب إن أصاب، وشكا حباً قد برى جسمه، وكتمه طويلاً، حتى غلبه حب أم حزرة، وملك عليه قلبه. ويبدو أن أم حزرة هذه تمثل له هنا الشرف الرفيع السليم من الأذى وكان الراعي النميري قد قرر هجاء جرير فاستغل جرير الفرصة، وهجا الراعي والفرزدق معاً حتى كان بيته في هجاء نمير مثلاً:

فغضَّ الطَّرْفَ إنك من نُميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وسار في الآفاق.

فصورة الغزل تكاد تختلط بصورة المرأة، ليختفي الغزل تماماً، وتحل محلها المرأة، وأي امرأة هي عند جرير؟! تتعاظم صورة الزوجة المرثية عندجرير، حتى تكون من أجمل ألوان الغزل، ولكنها لا تحمل ملمحاً اقتصادياً:-

لولا الحياءُ لعادني استعبارُ ولزرتُ قبرَكِ والحبيبُ يزارُ

ولقد نظرتُ وما تمتُّعُ نظرةٍ في اللَّحْدِ حيث تمكَّن المحفارُ

ولَهْتِ قلبي إذ علتني كبرة وذوو التَّمائمِ من بنيك صغارُ

كانت مُكَرَّمةَ العشير ولم يكن يخشى غوائلَ ام حزرة جارُ

ولقد أراكِ كُسيتِ أجملَ منظرٍ ومع الجمال سكينةٌ ووقارُ

والرِّيحُ طيِّبةٌ إذا استقبلتها والعِرْضُ لا دَنِسٌ ولا خوَّار

أفأمُّ حزرةَ يا فرزدق عبتُمُ غضبَ المليكُ عليكمُ القهارُ(١)

ويعلو صوت الزوجة عند الفرزدق بنفس الإيقاع الذي علا فيه صوتها عند جرير وارتبطت لوحة الغزل بالزوجة عنده في معظم أحايينها، ثم جنح إلى شكوى الفقر والإقلال، ليصل فيما بعد إلى لوحة المديح، كما هو حاله في خطابه عمر بن الوليد:

تسائلني: ما بالُ جنبك جافيا أهمٌّ جفا، أم جَفْنُ عينك أرمدُ

فقلت لها: لا، بل عيالُ أراهمُ وما لهم ما فيه للغيث مَقْعدُ

---

(١) ديوان جرير: ٨٦٢/٢ – ٨٦٧، الطباب: جمع طبة: وهي رقعة من جلد تضرب على أسفل المزادة.

فقالت: أليس ابنُ الوليد الذي له   يمين بها الإمحالُ والفقر يُطْرَدُ[1]

شاركت الزوجة هموم الفرزدق، وهموم جوعه التي حملها لوحة الغزل في قصيدة التكسب، وعندئذ تتداخل لوحة الغزل مع المرأة، فإننا لا نكد نلمح غزلاً حقيقياً أبداً. وحمل الشاعر هموم أولاده وزوجته معاً الى الممدوح ليخلع عليها خبر رضا الممدوح، وغيثه المديد. فيخاطبها برقة ويبشرها بانتهاء الفقر ما دام البطل الفاتح نصر بن سيّار موجوداً:

وكيف نخافُ الفقر يا طيب بعد ما   أتتنا بنصر من هراةَ مقادرُهْ

وإنْ يأتِنا نَصْرٌ من التُّركِ سالماً   فما بعدَ نصرٍ غائبٌ أنا ناظرُهْ

تنظرت نصراً والسِّماكين أيهما   علي من الغيث استهلت مواطرُهْ[2]

وعلى حبه «لنوار» كما تروي الاخبار، إلا أنه لم يفرد لها لوحة غزلية تخصها وتخصه، إنما ظلّ يحمل لوحة نوار في النص المدحي همومه وهموم قبيلته - مثل جرير- حتى بعد طلاقها بما يتناسب ونوع المدح وغايته وجعل نوار مقدمة غزلية لمدح سليمان بن عبد الملك فقال:-

طرقَتْ نوارُ ودون مَطْرقِها   جذْب البُرى لنواحلٍ صُعْرِ

ورواحُ معصفةٍ وغَدْوتُها   شهراً ، تواصله الى شَهْرِ

أدنى منازلها لطالبها   خِمْسُ المؤوِّب للقطا الكُدْرِ

وإذا أنام ألمَّ طائفها   حتى ينبِّه أعيُنَ السَّفْرِ[3]

ثم يذكر رحلتها لماماً، ليصل الى الممدوح الذي سكنت به الدنيا واطمأنت، ولم يستطيع أن يجعل نوار أكثر مما يقول فيها:

طرقت نوارُ مُعرِّسَيْ دويةٍ   نزلا بحيثُ تقيلُ عُفْرُ الأبَّدِ

---

(١) ديوان الفرزدق: ١٣٦. انظر ١٣١، ١٦٤، ٣٧.

(٢) ديوان الفرزدق: ٢٤٦ انظر ١٢٤، ١٢٧، ٣٧، ٤٠٧

(٣) ديوان الفرزدق: ٢٣، البُرى: الواحدة بره: حلقة توضع في أنف البعير، الصُعْر: المائلة خدودها من جذب الأزمّة، الرواح: السير في أول الليل- المعصفة، الريح العاصفة، المؤوب السائر طيلة الليل.

نزلت بملقيةِ الجِرانِ وهاجدٍ والصبحُ منصدعٌ كلون المُسْنَدِ
حرفٌ ومنخرقُ القميص هوى به سكْرُ النُّعاس فخرَّ غيرَ موسَّدِ
وكأنما نزَلْت بنا عطّارَةٌ برياض ملتَّفٍ حدائقه ندي[1]

لم يستطع الفرزدق أن يجعل نوار حالة غزلية خاصة أبداً وإن حاول[2] وظلت مقدمة غزلية للدخول الى الموضوع الاصل وهو المدح أو شكوى الفقر أو طلب العطاء. وفي الأخيرتين تحمل معنى اقتصادياً

وإذا كان الأمر في المديح الخالص دون استجداء أو طلب حاجة خاصة به فإن مقدمته تمتاز بالقصر وفي كلماتها شيء من التعقيد.

وعلى أغلب الأحوال فإن مقدمات الفرزدق الطويلة كان يضعها ضمن لوحة الخصب لطلب العطاء كما هو حالهُ في مديحه لهشام بن عبد الملك:

ومطروفة العينين قد قدْتُ للصبا تُقادُ إلى أخرى لذيذ شميمُها[3]

وأطال في وصف ليلة قضاها، مع محبوبته، ولكنهما كانا يخافان الهلاك والموت، حتى وصل الشاعر إلى الخليفة، ومدحه، وكأنه يعرض للعلاقة الجميلة التي تربطهما، وبدا ذلك من خلال لوحة الغزل، وكان أحياناً يتجاوز القيم في وصف صورة المرأة المادية، وهو يمضي فجوره معها أحياناً:

وآلفةٍ بَرْدَ الحجالِ احتويتها وقد نام منْ يخشى عليها وأسحرا
تغلغل وقّاع اليها وأقبلتْ تجوس خدارياً من الليل أخضرا
لطيفٌ إذا ما انسل أدرك ما ابتغى إذا هو للطنءِ المخوف تقتَّرا[4]

ثم تحول الى وصف ناقته التي رحل عليها لينصر قبيلته تميم، وقد حنت الى مواطنها وهي ناقة عجفاء شديدة الهزال، لتصل الى امير المؤمنين:

---

(١) ديوان الفرزدق:١٢٧ انظر ٤٢٤، طرقت: زارت ليلاً، المعرسات: أراد مكان نزوله، عفر: الواحد أعفر: نوع من الظباء، الآبدة: المتوحشةالحرف: الناقة الضامرة، منخرق القميص: أراد به نفسه.

(٢) ديوان الفرزدق: ٤٠٧- ٤١٨

(٣) ديوان الفرزدق: ٥٧٢

(٤) الفرزدق ٢٩٧- ٢٩٨: وقّاع: اسم رسوله اليها. الخُداري: الليل المظلم. طنء: الريبة. تقتر: أتاه من نواحيه

تساق وتمسي بالجريض ولم تكن ... من الليث أن يعدو عليها لتُذْعَرا
فإنَّ مُنى النَّفسِ التي أقبلتْ بها ... وحِلَّ نذوري إنْ بلغتُ الموقَّرا
به خيرُ أهلِ الأرض حيّاً ومَيْتاً ... سوى مَنْ به دين البريَّة أسفرا
جزى اللهُ خيرَ المسلمين وخيرهم ... يَدَيْنِ، وأغناهم لمن كان أفقرا
سائلني على خير البرية والذي ... على الناس ناءَ الغيثُ منه فأمطرا
أرى الله في كفيك أرسل رحمةً ... على الناس ملء الارض ماءً مفجَّرا(١)

وشغلت لوحة الغزل مساحة كبيرة من مساحة قصيدة مدح الخلفاء والأمراء والأجواد في شعر الأخطل، وعلى رقة كلمات الغزل وجمالها وارتباطها بالخمرة، إلا أن لوحة الغزل عنده لم ترتبط بالنص ارتباطاً وثيقاً إلا ماندر. وفي غالب الأحوال كان يمر مروراً سريعاً على لوحة الغزل، ويذكر علاقته بالنساء، فهي إما علاقة لوم وعتاب وشكوى، أو علاقة لهو، فشكا حبه المتجدد لأروى ضمن قصيدة يمدح فيها بشر بن مروان ورحل اليه بها:

صحا القلبُ عن أروى واقصر باطلهُ ... وعادَ لهُ من حبِّ أروى أخابلُهْ
أجدَّكِ ما نلقاكِ الا مريضةً ... تداوين قلباً ما تنام بلابلُهْ
عفا واسطٌ منها، فالّجام حامزٍ ... فروضُ القطا، صحراوُهُ فخمائلُهْ
وقد كان منها منزلٌ، نستلذه ... أُعامِقُ: برقاواتُهُ، فأجاولُهْ
وأدّت إلينا عهدها أمُ مَعْمَرٍ ... فقد جعلتْنا كالخليط تُزايلُهْ
دعتها نوىً عنا، شطونٌ وليتها ... ثوَتْ ما ثوى عند الكُلاب جنادلُهْ
رأت أنَّ ريعان الشّباب قد انجلى ... وأنَّ مشيبي حاضرتني عواجله(٢)

---

(١) ديوان الفرزدق: ٢٩٩-٣٠١، وانظر: ص ٢٤٨. الجريض: الغاصّ بريقه. الموقرّ: اسم موضع بنواحي البلقاء، كان يزيد بن عبد الملك ينزله.

(٢) ديوان الأخطل: ١/٣٢٨- ٣٤٨
شَهْدَ: أي شَهِدَ
واسط، فالّجام حامز، وروض القطا: اسماء مواضع الخمائل: جمع خميلة، وهي رملة تنبت الشجر، أُعانق: وادٍ أجاوله: ساحاته الخليط: الشريك، الجنادل: الحجارة، ريعان الشباب: أوله، حاضرتني: سابقتني فغلبتني.

فاغترب الأخطل ليمدح بشر بن مروان في الكوفة، وكان قد اغترب ليقول في لوحة المدح:

إذا غاب عنا غاب عنا فُراتُنا وإن شَهْدَ أجدى فيضُهُ وجداولُهْ

ظل الأخطل يريد عطاء الممدوح ونيله، ويتمنى استمراره حتى لو اغترب أو تركته أروى. وظلت الصفات التي يسندها الشاعر إلى المرأة الصفات نفسها المعهودة في المرأة عند الشعراء الجاهليين فهي:

حوراءُ عجزاءُ، لم تُقْذَفْ بفاحشةٍ هيفاءُ رُعبوبةُ ممكورة القصَبِ

يسقي الضجيغ لديها بعد رَقْدتها منها ارتشافُ رضابِ الغرْب ذي الحببِ[1]

وبالغ النابغة الشيباني جداً في إبراز لوحة الغزل، وقد تتبع محبوبته مهاجرة مع أهلها، وظهرت المرأة ترفل في النعيم والحلي فقال:

جاعلاتٌ قطْفاً من الخزِّ والبا غزِ حولَ الظِّباء فوقَ البغالِ

جازئاتٌ جمعن حسناً وطيباً وقواماً مثل القنا في اعتدالِ

غصٌ منها بعد الدماليجِ سورٌ والخلاخيلَ والنحورُ حوالِ

فكأن الحُليِّ صيغَتْ حديثاً يتألقْن أو جلاهن جالِ

فوق صُفرٍ تدمجَّت في عبير مخْطفاتِ البُطونِ ميثَ التَّوالي

لثنَ خمراً على عناقيدِ كرمٍ يانعاتٍ أتممنَ في إكمال... [2]

حتى وصل الى الممدوح

ولكن ما التفسير الاقتصادي للوحة الغزل في المدحة؟

إنها رغبة الشاعر في رضى الخليفة المادي والمعنوي عنه، وعن قبيلته، كانت هذه الرغبة وراء تجليات الشاعر في إجادة هذه اللوحة الفنية كما هو عند جرير في (أتصحو أم فؤادك غير صاح) وفي نص الاخطل (خف القطين) ... فانتشى

---

(١) ديوان الأخطل: ٢٤٢/١ رعبوبة الممتلئة البدن، المكورة: المعتدلة الخلق.

(٢) ديوان النابغة الشيباني: ١٤٦- ١٤٧، القطف: جمع قطيفة وهي دثار مخمل، الخزُ: الحرير. الباغزيّة: ضرب من الثياب. الجازئات: المكتفيات بالرطب عن الماء، سور: جميع سوار.

الخليفة لمدح الشاعر وتصابيه معاً. ويصل الى عمق انفعاله وكانت لوحة الغزل تحمل بعض هموم الشاعر او القبيلة، وهموم العيش وآمال الشاعر في الأمان، الأمن السياسي، والأمن الغذائي، وتحمل تطلعاته الى كسب مواقف سياسية لذاته، وللقبيلة، فتستفيد القبيلة جمعاء من هذا الرضا العام، وتنفق الأموال على المؤيدين. ونشوة الشاعر للوحة الغزل المرتبطة بالمديح جعلته يدفع النص الى ساحة الغناء، فغنيت قصائد المدح، واعتنى بها بعض الخلفاء كالوليد بن يزيد.

الخاتمة

كان العصر الأموي المرحلة الأولى من مراحل تكوين الهوية العربية، والوعي العربي، إذ انطلقت الجيوش الإسلامية من الجزيرة العربية انطلاقة ضخمة، وبتضحيات كبيرة، تجاوزت البيد والفيافي، وراحت تشارك السياسيين في صنع الهوية العربية بفتوحاتها في الهند والسند والصين وخُراسان وبلاد فارس والأندلس، وما وراء النهر، حتى أصبحت الفتوح سمة من سمات هذه الأمة، وهي تدخل البلاد المفتوحة تحمل مشعل الهداية من جهة، وتستولي على العرش والأرض، والمقدرات الإقتصادية للبلد المغلوب من جهة أخرى، مما جعل الجانب الإقتصادي ذا قيمة مهمة في عمق الخلفاء والولاة وقادة الجيش والجند ومراكز العطاء. وللإرتباط الوثيق بين الشعر والمجتمع أدرك الشعراءُ قيمة المال، وأدرك الخلفاءُ والولاة قيمة الكلمة، فوظفوا اموالهم في استمالة الشعراء للدعوة اليهم، فدخل الشعراء دائرة الإعلام، وظهرت على السطح ظاهرة التكسب. تناولت بعض الدراسات ظاهرة التكسب في الشعر الأموي، ولكنها لم تتناولها على أنها ظاهرة اقتصادية بالدرجة الأولى مما جعلني أدرسها من وجهة اقتصادية، وبدا ارتباط التكسب بالبيئات، وبرز في العراق والبادية شعراء متكسبون سواء كانوا وافدين على القصر الأموي أو ممن رفض ذلك، وبدت العلاقة واضحة بين أنواع الإنتاج والتكسب كما لمحناه في بيئات التكسب كما عاد بعضه إلى التضييق الإقتصادي الذي مارسته الدولة على البداة الذين لم يشتركوا في الفتوح، ولم تصلهم أمواله وبالتالي ليس لهم حظ في العطاء. وظلوا يمارسون نظام الكلأ. أما أهل الحجاز فقطعت عنهم الإمدادات حيناً، ومن هنا ارتبط التكسب بالسياسة لتحديد الشعراء الذين يمكن جذبهم إعلامياً، وبالتالي يدخلون دائرة الإعلام وإن كان الفقر عاملاً من عوامل التكسب لسد الحاجة، ودفع الموت في نجد وبوادي الحجاز، فإن الترف الذي شاع في الأوساط الأخرى جعل الشعراء يتكسبون لإشباع رغباتهم الحسية أو ممارسة الترف، فشاع التكسب المبتذل في بيئتي العراق والحجاز.

وتأنيت جداً، وأنا أتناول شعر الفتوح كون الخوض فيها ليس سهلاً ومزالقه خطيرة، ولكن دراسة النصوص الشعرية، أثبتت أن شعر الفتوح يحمل جانباً اقتصادياً في بعض أحواله إلى ثمة جوانب أخرى. وتناولت الدراسات السابقة شعر الفتوح من وجهة نظر جهادية فقط. ولم تول الجانب الإقتصادي أية أهمية. وكشف هذا البحث عن ظاهرتين فنيتين ارتبطتا بالتفسير الإقتصادي، وهما:

ظاهرة الشعر الذي تظهر فيه صورة الإنسان العربي المنطلق الذي خلّف وراءه الصحراء المجدبة، ويحمل لواء الجهاد، ليؤسس دولة جديدة قوية، غنية بحاجة إلى مقدرات اقتصادية لتستمر، وبحاجة إلى تضحيات ضخمة لتنجح. والظاهرة الأخرى ظاهرة شعر الفتوح الذي طغى فيه الجانب الإقتصادي على الجوانب الأخرى، فتحدثوا عن الغنيمة والفيء وسياسة التجمير، وشكوى الجوع وألم الحصار والغربة عن الوطن الذي ترك دون جنود بينما هم يدافعون عن عرش الشام كما رآه بعضهم.

وكشف البحث عن ظاهرة مهمة عني بها الشعراء في قولهم؛ وهي شكوى الفقر وضنك المعيشة، وكثرة الديون وانتشار الجدب، وهذه الظاهرة ظهرت في بيئة البادية، ولكن الشكوى من الفقر في هذا النوع من الشعر كانت شكوى فردية تخص الشاعر وحده، ورافقتها ظاهرة الاحتجاج الاقتصادي على سياسة الولاة والسعاة وجامعي الصدقات والإضرار بالعرفاء، وتأخير العطاء. ولكن الاحتجاج هنا احتجاج على سياسة الحكومة الاقتصادية. والشاعر هنا يعبر عن هموم الجماعة، لا عن همومه الفردية، ومنها ملحمة الراعي النميري ومشوبة عمرو بن أحمر الباهلي... وفي ذا الفصل تلمح العلاقة الاقتصادية بين الشعب والحكومة وهذه الظاهرة كانت ملمحاً من ملامح بيئة البادية التي لم تتغير حياتها عما كانت عليه سابقاً. والنوع الأخير ظهر بصورة نص طويل اندمج فيه الشاعر مع هموم القبيلة، بينما ظهر الشكل الثاني بصورة مقطوعات قصيرة يشكو فيها الشاعر همَّ ذاته، أو جعلها مقدمة في قصيدة التكسب أو المدحة.

ومن النتائج التي يعتز بها البحث التفسير الاقتصادي لشعر الغزل، فإذا كان الفقر سبباً مباشراً في ولادة ظاهرتي التكسب والاحتجاج الاقتصادي، فإن الغنى شارك الفقر في ولادة شعر الغزل بصوره المتعددة، فالترف كان سبباً من أسباب ظهور الغزل الحضري لدى شعراء الحجاز، ولم نجد الغزل بصورته الحضرية المترفة إلا لدى الشعراء الأغنياء أمثال عمر بن أبي ربيعة، والحارث بن خالد والعرجي والأحوص فسعوا إلى إسعاد أنفسهم، والمرأة بعض سعادتهم وظهرت صورة المرأة المخدومة المترفة، وشاع الغزل بالارستقراطيات، وهذه حال الفئة الأرستقراطية. في حين ظهر الغزل العذري في نجد وبوادي الحجاز وارتبط الغزل هناك بواحدة من النساء، وظلّ الشاعر يتأرجح بين الجدب والفناءِ والفقر، مما جعل الشاعر لا يستطيع أن يرتبط إلا بواحدة من النساء وظلّ وفيّاً لها، دائم العطش إلى وصالها، وعلاقتهما علاقة مجدبة لا مخصبة وكأنها صورة لحياة الإنسان ببيئته. فكانت حلماً للخصب، والأمن الاقتصادي، وظهرت معادلاً موضوعياً للمدحة أو قصيدة التكسب، وكشف البحث عن ارتباط الغزل السياسي بالمحرِّضات الإقتصادية التي مارستها الدولة على بعض شعراء الحجاز كابن قيس الرقيات والعرجي.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم بن هرمة: "ديوان ابن هرمة" تحقيق حسين عطوان ومحمّد نفاع- مجمع اللغة العربية- دمشق- ١٩٦٩.
- ابن الأثير: (عز الدين بن أبي الحسن علي بن الكرم الشيباني): الكامل في التاريخ دار بيروت ودار صادر- ١٩٦٥.
- الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف: دار احياء التراث العربي- بيروت- لبنان.
- إحسان سركيس: "الظاهرة الأدبية في صدر الإسلام والدولة الأموية"، دار الطليعة بيروت- ط١- ١٩٨١.
- إحسان العمد: الحجّاج بن يوسف الثقفي (حياته وآراؤه السياسية): دار الثقافة- بيروت- ط١- ١٩٧٣.
- إحسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعرالأموي، دار الفكر- بيروت- ط٢- ١٩٧٣.
- أحمد أمين: فجر الإسلام: دار الكتاب العربي، بيروت، ط٩.
- الأحوص بن محمد الأنصاري: "ديوان الأحوص بن محمد الأنصاري" تحقيق إبراهيم السامرّائي مطبعة النعمان- النجف الأشرف- ١٩٦٩.
- الأخضر اللهبي (الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب: "ديوان الأخضر اللهبي" جمع وتحقيق محمود عبد الله أبو الخير- دار الفرقان- عمان- ١٩٩٣.
- الأخطل (شعر الأخطل ابي مالك غياث بن غوث التغلبي- صنعة السكري- روايته عن أبي جعفر محمد بن حبيب. تحقيق فخر الذين قباوة- دار الآفاق الجديدة- بيروت، ط٢، ١٩٧٩.
- الأزرقي- (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الثقافة- مكة المكرمة، ط٢، ١٩٦٥

- أبو الأسود الدؤلي: ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي: ديوان أبي الأسود الدؤلي" تحقيق محمد حسن آل ياسين- ط٢- طبعة مزيد ومنقحة- مكتبة النهضة- بغداد- ١٩٦٤.

- الأصبهاني (أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني) "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"، دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان- ١٩٦٧.

- الأصفهاني (الراغب الأصفهاني): "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء"، القاهرة، ١٩٦٧.

- الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني) :"الأغاني"، شرحه وكتب حواشيه: عبد أ- علي مهنا- وسمير صبري وسمير الطويل- دار الفكر للطباعة والنشر - ط١- ١٩٨٦.

- الأصفهاني، مقاتل الطالبيين: شرح وتحقيق أحمد صقر- دار المعرفة- بيروت.

- الأصطخري (أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الأصطخري المعروف بالكرخي): مسالك الممالك- ليدن. ١٩٢٧.

- ابن أعثم (أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي) "الفتوح"- دار الندوة الجديدة- ط١- بيروت- لبنان، د.ت.

- الأقيشر الأسدي: (ديوان الأقيشر الأسدي). جمع خليل الدويهي- دار الكتاب العربي بيروت- ط١- ١٩٩١.

- الآمدي: (أبو القاسم الحسين بن بشر الآمدي) المؤتلف والمختلف في اسماء الشعراء تحقيق عبد الستار فرّاج- القاهرة- ١٩٦١.

- البخاري (محمد بن اسماعيل البخاري): صحيح البخاري، دار احياء التراث العربي، د. ت.

- البصري (صدر الدين علي بن أبي الفرج البصري): الحماسة البصرية. عالم الكتب- بيروت. د.ت.

- البغدادي (عبد القادر البغدادي): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: تحقيق عبد السلام هارون- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٧٩.
- البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري): "معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع"، تحقيق مصطفى السقا- عالم الكتب- بيروت.
- البلاذري: الإمام أحمد بن يحيى البلاذري: أنساب الأشراف: ج٤/ ق١/ إحسان عباس: بيروت- ١٩٧٩، فرانتس شتاينر، بڤيسبادن.

ج٤ / ق٢/ تحقيق إحسان عباس- بيروت- ١٩٧٩.

ج٥/ مكتبة المثنى- بغداد.
- البلاذري فتوح البلدان: تحقيق رضوان محمد رضوان- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٩٨٣.
- التبريزي (أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي)- شرح الحماسة- عالم الكتب- بيروت.
- الجاحظ عمرو بن بحر: البخلاء: تحقيق طه الحاجري دار المعارف-مصر.
- الجاحظ البيان والتبيين: تحقق وشرح عبد السلام هارون- ط٤- المجمع العربي الإسلامي- ط٤- مزيدة ومنقحة.
- الجاحظ الحيوان: تحقيق وشرح عبد السلام هارون دار احياء التراث العربي- بيروت- لبنان- ط٣- ١٩٦٩.
- الجاحظ رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام هارون- مطبعة الخانجي: ١٩٧٩.
- الجاحظ المحاسن والأضداد: تحقيق فوزي العطوي- الشركة اللبنانية للكتاب- بيروت- ١٩٦٩.
- جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي- راجعها حسين مؤنس- دار الهلال.
- جرير. "ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب"، تحقيق نعمان محمد أمين طه- دار المعارف- مصر- ١٩٧١.

- جمال جودة: الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية للموالي في صدر الإسلام: دار البشير- عمان- ١٩٨٩.

- جميل بثينة: ديوان جميل بثينة: جمع وتحقيق حسين نصار، مكتبة مصر- ط٢- ١٩٦٧.

- جميل المصري: الموالي وموقف الدولة منهم: دار أم القرى للنشر والتوزيع- ودار عمار للنشر ط١- ١٩٨٨.

- جواد علي: "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، دار العلم للملايين- مكتبة النهضة- بغداد- ط١- ١٩٧١.

- ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم دراسة محمد عبد القادر عطا- ومصطفى عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٩٩٢.

- أبو حاتم السجستاني: المعمرون والوصايا: تحقق عبد المنعم عامر- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة- ١٩٦١.

- الحارث بن خالد المخزومي: ديوان الحارث بن خالد المخزومي: جمع يحيى الجبوري النعمان- النجف الأشرف- ط١- ١٩٧٢.

- ابن حبيب (محمد بن حبيب): المحبّر، رواية أبي سعيد السكري- اعتنى بتصحيحه إيلزة ليختن شتير- دار الآفاق الجديدة- بيروت.

- حسّان حلاّق: "تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي"- دار الكتاب اللبناني- بيروت- ودار الكتاب المصري- القاهرة- ط١- ١٩٧٨.

- حسين عطوان: الوليد بن يزيد عرض ونقد"، دار الجيل، بيروت، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٨٧.

- حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، دار الجيل- بيروت- ط٢- ١٩٨٧.

- حسين عطوان: شعراء الدولتين الأموية والعباسية- دار الجيل- بيروت- ط٢- ١٩٨١.

- حسين عطوان: الشعراء الصعاليك في العصر الأموي- دار المعارف- مصر- ١٩٧٠.

- حسين عطوان: الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي-مكتبة المحتسب ودار الجيل- ١٩٧٤.

- ابن حوقل: صورة الأرض، ليدن.

- ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة): المسالك والممالك- ليدن- ١٩٨٩.

- ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق إحسان عباس- دار الثقافة- بيروت- ١٩٦٩.

- خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط: تحقيق أكرم العمري- مؤسسة الرسالة بيروت- ودار القلم- دمشق- ط٢- ١٩٧٧.

- الخوارزمي: (أحمد بن يوسف الخوارزمي): مفاتيح العلوم: تقديم جودت فخر الدين- دار المناهل- بيروت- ط١- ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

- خير الدين الزركلي: الإعلام. دار صادر، بيروت.

- ابن الدمينة: "ديوان ابن الدمينة" صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب- تحقيق أحمد راتب النفاخ- القاهرة- دار العروبة- مصر- ١٩٥٩.

- أبو دهبل الجمحي: (ديوان أبي دهبل الجمحي): رواية أبي عمرو الشيباني، تحقيق عبد العظيم عبد المحسن: مطبعة القضاة- النجف الأشرف- ١٩٧٢.

- الدينوري: (أبو حنيفة الدينوري): "الأخبار الطوال"، تحقيق عبد المنعم عامر- ومراجعة جمال الدين الشيّال- مكتبة المثنى- بغداد.

- ذو الرمة (ديوان ذي الرمة بشرح أبي نصر الباهلي) رواية الإمام أبي العباس ثعلب- دمشق، وقدم له وعلق عليه عبد القدوس أبو صالح، مطبعة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٣.

- الراعي النميري- "شعر الراعي النميري" دراسة وتحقيق نوري حمودي القيس وهلال ناجي مطبعة المجمع العلمي العراقي- ١٩٨٠.

- ابن رستة (الأعلاق النفيسة) ومعه كتاب البلدان لليعقوبي، ليدن، ١٨٩١م.

- ابن رشيق القيرواني: "العمدة في صناعة الشعر ونقده"، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣.

- الزبير بن بكّار: "الأخبار الموفقيات": تحقيق سامي مكي العاني- مطبعة العاني- بغداد- ١٩٧٢.

- زياد الأعجم: شعر زياد الأعجم: جمع وتحقيق ودراسة الدكتور يوسف بكار: دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٩٨٣.

زياد الأعجم: جمهرة نسب قريش وأخبارها: تحقيق محمود محمد شاكر- القاهرة- ١٣٨١هـ- ١٩٦١م.

- القرشي أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام. حققه وضبطه وزاد في شرحه علي محمد البجاوي- دار نهضة مصر للطباعة والنشر- الفجالة- القاهرة.

- ابن سعد الزهري: الطبقات الكبرى- دار صادر- بيروت. د. ت.

- السمهودي: "وفاء الوفاء بأخبار المصطفى"، دار احياء التراث العربي- بيروت- ١٩٧٣.

- ابن سيده "أبو الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيدة": المخصص: تحقيق لجنة احياء التراث العربي- دار الآفاق الجديدة- بيروت. د. ت.

- الشريف المرتضى (علي بن الحسين الموسوي): أمالي المرتضى أو غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم- دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان- ط٢- ١٩٦٧.

- شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري، نشأتها ومقوماتها، تطورها اللغوي الأدبي- دارا لعلم للملايين- بيروت- ط٣- ١٩٧٣.

- شوقي ضيف: - التطور والتجديد في الشعر الأموي- دار المعارف- مصر- ط٦- مزيدة ومنقحة. د. ت.

- شوقي ضيف: العصر الإسلامي: دار المعارف- مصر- ط١٢. د. ت.

- شوقي ضيف: الشعر والغناء في المدينة ومكة في العصر الأموي- دار المعارف- مصر. د. ت.

- صالح العلي: التنظيمات الإجتماعية والإقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري: دار الطليعة- بيروت- ط٢- ١٩٦٩.

- صالح العلي: الحجاز في صدر الإسلام دراسة في أحواله العمرانية والإدارية- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط١- ١٩٩٠.

- طه حسين: حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، ط١٢. د. ت.

- الطبريّ (محمد بن جرير الطبري): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار المعارف- مصر- ١٩٦٤.

- الطرماح بن حكيم الطائي: ديوان الطرماح بن حكيم: تحقيق عزة حسن- وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دمشق- ١٩٦٨.

- طهمان بن عمرو الكلابي: ديوان طهمان بن عمرو الكلابي، تحقيق محمد جبار المعيبد- مطبعة الإرشاد- بغداد- ١٩٦٨.

- عبد الله السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، مؤسسة الرسالة، بيروت- ط١- ١٩٨٣.

- عبد الله بن الزّبير الأسدي: "شعر عبد الله بن الزّبير"، جمع وتحقيق يحيى الجبوري منشورات وزارة الإعلام (دارا لحرية)- بغداد- ١٩٧٤.

- عبد الله يوسف غنيم: جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري ذات السلاسل- ط١- ١٩٧٧.

- ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي البجاوي نهضة مصر- القاهرة.

- ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز، نسخهاو صححها وعلق عليها أحمد عبيد-مكتبة وهبة- مصر- ط٢. د. ت.

- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب: تحقيق عبد المنعم عامر- لجنة البيان العربي. د. ت.

- ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الأبياري، لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- ط٢- ١٩٥٢.

- عبد العزيز الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية (دراسة في الهوية والوعي)- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت- ط١- ١٩٨٤.

- عبد العزيز الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام: دار المشرق- بيروت- ط٣- ١٩٨٤.

- عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي- دار الطليعة- بيروت- ط٣- ١٩٨٠.

- عبد المعين الملوحي: أشعار اللصوص وأخبارهم، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق: ط١- ١٩٨٨.

- عبيد الله بن قيس الرُّقيات: ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: تحقيق محمد يوسف نجم دار صادر- بيروت- ١٩٧٨.

- أبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال، تحقيق خليل هراس- مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة- ط١- ١٩٦٨.

- أبو عبيدة معمر بن المثنى- نقائض جرير والفرزدق، تحقيق أ. أ. بيفان- دار الكتاب العربي- بيروت- ١٩٠٥.

- عدي بن الرقاع العاملي: ديوان عدي بن الرقاع: جمع وتحقيق ودراسة الدكتور الشريف عبد الله الحسيني البركاتي- مطبعة الفيصلية- مكة المكرمة- ١٩٨٥.

- العرجي- ديوان العرجي: رواية أبي الفتح الشيخ عثمان بن جنيٍّ، شرحه وحققه خضر الطائي ورشيد العبيدي- الشركة الإسلامية للطباعة و النشر المحدودة بغداد- ط١- ١٩٥٦.

- عروة بن أذينة: "ديوان عروة بن أذينة"، تحقيق يحيى الجبوري - الأندلس- بغداد.

- عمر بن أبي ربيعة: شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد- دارا لأندلس- بيروت- د. ت.

- عمر رضا مروة: الصعاليك في العصر الأموي: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

- عمر بن لجأ التيمي: ديوان عمر بن لجأ: تحقيق يحى الجبوري دار القلم- الكويت- ط١- ١٩٨١.

- عمرو بن أحمر الباهلي: تحقيق حسين عطوان- مجمع اللغة العربية- دمشق.

- ابن عساكر: تهذيب تاريخ مدينة دمشق الكبير، هذبه ورتبه عبد القادر بن أحمد المعروف بابن بدران، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.

- أبو علي القالي (اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي): الأمالي- دار الكتب العلمية بيروت- ذيل الأمالي والنوادر- دار الكتب العلمية- بيروت.

- فالترفانتس: المكاييل والموازين الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري: ترجمه عن الألمانية، كامل العسلي: منشورات الجامعة الأردنية. د. ت.

- فالح حسين: الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي: نشر بدعم من الجامعة الأردنية، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م

- ابو الفداء عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر: تقويم البلدان: دار صادر- بيروت.

- الفراء (ابو يعلى محمد بن الحسين الفرّاء) الأحكام السلطانية صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي مطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر- ط٢- ١٩٦٦.

- الفرزدق (همام بن غالب): ديوان الفرزدق: شرحه وضبطه وقدم له: علي فاعور- دار الكتب العلمية بيروت- لبنان- ١٩٨٧.

- ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه): مختصر كتاب البلدان- ليدن- ١٣٠٢هـ

- الفيروزأبادي- القاموس المحيط دار الجيل- بيروت.

- القتّال الكلابي: ديوان القتال الكلابي، تحقيق احسان عباس- دار الثقافة- بيروت- ١٩٦١.

- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم الدينوري): الشعر والشعراء: تحقيق أحمد محمد شاكر- دار التراث العربي- القاهرة- ط٣- ١٩٧٧.

- ابن قتيبة الإمامة والسياسة: طبعة محمد الزبيري- القاهرة- ١٩٦٧.

- ابن قتيبة المعارف: تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة، ط٤، ١٩٦٩.

- ابن قتيبة عيون الأخبار: المؤسسة المصرية العامة للكتاب القاهرة- ١٩٧٣.

- قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي- دار الرشيد- بغداد- ١٩٨١.

- القطامي (عمير بن شييم التغلبي)- ديوان القطامي: تحقيق ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب دار الثقافة- بيروت- ١٩٦٠.

- ابن كثير (ابو الفداء الحافظ بن كثير القرشي): البداية والنهاية، مكتبة المعارف- بيروت- والنصر- الرياض- ط١- ١٩٦٦.

- كثير عزة: ديوان كثير عزة: تحقيق إحسان عباس- دار الثقافة- بيروت- ١٩٧١.

- الكتبي (محمد بن شاكر الكتبي(: فوات الوفيات)- تحقيق احسان عباس- دار صادر- بيروت.

- الكتاني: عبد الحي الكتاني: التراتيب الإدارية- تحقيق حسن جعنا- بيروت- (د. ت).

- الكميت بن زيد الأسدي: ديوان الكميت بن زيد، تحقق داوود سلوم- الأندلس والنعمان- بغداد- ١٩٦٩.

- الكندي (الولاة وكتاب القضاة)- صححه رفن كست: مكتبة المثنى- بغداد.

- ليلى الأخيلية- ديوان ليلى الأخيلية، تحقيق خليل ابراهيم عطية- وجليل عطية- دار الجمهورية بغداد- ١٩٦٧.

- الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية: دار الكتب العلمية بيروت- ط١- ١٩٨٥.

- المبرد: محمد بن يزيد المبرّد: الكامل في اللغة والأدب: عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل ابراهيم- والسيد شحاته- دار نهضة مصر- القاهرة.

- المتوكل الليثي (شعر المتوكل الليثي): تحقيق يحيى الجبوري- الأندلس- بغداد.

- مجنون ليلى: ديوان مجنون ليلى: شرح يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، ط١- ١٩٩٢.

- محمد علي نصر الله: تطور نظام ملكية الأراضي في الإسلام، نموذج في أراضي السواد، دار الحداثة- بيروت- ط١- ١٩٨٢.

- محمد ضياء الدين الرّيس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية. دار الأنصار- القاهرة- ط٤- ١٩٧٧.

- مخيمر صالح: (شعر الاحتجاج الاقتصاديّ في العصر الأموي)- دار الفيحاء- عمان- ط١- ١٩٨٨.

- المرزوقي أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي): شرح ديوان حماسة ابي تمام- نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- ط٢- ١٩٦٨.

- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي): التنبيه والاشراف، دار التراث العربي- بيروت- ١٩٦٨.

- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر- دار الأندلس للطباعة والنشر- بيروت.

- مسكين الدارمي: ديوان مسكين الدارمي، تحقيق عبد الله الجبوري وخليل عطية، دار البصرة- بغداد- ١٩٧٠.

- معن بن أوس المزني ديوان معن بن أوس، نوري حمودي القيسي وحاتم الضامن- دار الجاحظ- بغداد- ١٩٧٧.

- المفضل الضبي: المفضليات، تحقيق محمد أحمد شاكر وعبد السلام هارون- بيروت لبنان- ط٦.

- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: مكتبة خياط- بيروت- لبنان.

- مالك بن أنس الموطأ: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي- المكتبة الثقافية- بيروت- ط٢- ١٩٩٢.

- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور): لسان العرب، دار صادر، بيروت.

- ابن ميادة (شعر ابن ميادة) جمعه وحققه: حنّا حدّاد- مجمع اللغة العربية - دمشق- ١٩٨٢.

- النابغة الجعدي: ديوان النابغة الجعدي، عبد العزيز رباح- المكتب الإسلامي دمشق- ١٩٦٤.

- النابغة الشيباني: ديوان النابغة الشيباني: تحقيق عبد الكريم ابراهيم يعقوب، منشورات وزارة الثقافة السورية- دار احياء التراث العربي- دمشق- ١٩٨٧.

- ناصر النقشبندي: الدرهم الإسلامي- بغداد- ١٩٦٩.

- نبال خماش (شعر الخلفاء في العصرين الراشدين والأموي)، (د. م)، ١٩٨٤.

- نجدة خماش: الشام في صدر الإسلام، من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية دراسة للأوضاع الإجتماعية والإدارية، دار طلاس للدراسات-دمشق- ط١- ١٩٨٧.

- نخبة من الباحثين العراقيين (حضارة العراق)- بغداد- ١٩٨٥.

- النعمان بن بشير الأنصاري: ديوان النعمان بن بشير: تحقيق يحيى الجبوري- دار المعارف- بغداد- ط١- ١٩٦٨.

- نصيب بن رباح: ديوان نصيب بن رباح: جمع وتحقيق داوود سلوم- مطبعة الإرشاد- ١٩٦٧

- نوري حمّودي القيسي: شعراء أمويون: جامعة بغداد- ١٩٧٦.

- هاشم ياغي: معاناة ومعايير من جمال في طائفة من القصائد الجاهلية والمخضرمة، دار الفجر- عمان- ط١- ١٩٩٠.

- هدبة بن الخشرم العذري: ديوان هدبة بن الخشرم: جمع وتحقيق يحيى الجبوري وزارة الثقافة والإرشاد القومي-بغداد- ١٩٧٦.

- ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية- القاهرة- ١٩٤٥.

- ابن هشام: سيرة ابن هشام، (السيرة النبوية) تحقيق طه عبد الرؤوف سعد- دار الجيل- بيروت.

- الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع- دار اليمامة- الرياض- ١٩٧٤.

- الوليد بن يزيد: (شعر الوليد بن يزيد)، جمعه وحققه حسين عطوان- مكتبة الأقصى- عمان- ط١- ١٩٧٩.

- ياقوت الحموي: معجم الأدباء: تحقيق احسان عباس- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط١- ١٩٩٣.

ياقوت الحموي: معجم البلدان- دار صادر- بيروت.

- يحيى بن آدم القرشي: الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر: المطبعة السلفية، ط٤، ١٣٨٤هـ

- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي دار صادر- بيروت- ١٩٦٠.

- يوسف خليف: حياة الشعر في الكوفة حتى نهاية القرن الثاني الهجري دار الكاتب العربي للطباعة والنشر- القاهرة- ١٩٦٨.

- أبو يوسف: الخراج- المطبعة السلفية. د. ت.

ب- رسائل الماجستير:

- ابراهيم محمد الغماري المغربي: شعر الفتوح الإسلامية في العصر الأموي: رسالة ماجستير- جامعة اليرموك- اربد- ١٩٨٦.
- نبيل خانجي: "أثر الحياة الاقتصادية في شعر البداة في العصر الأموي" رسالة ماجستير، جامعة اليرموك- اربد- ١٩٨٧.

ج- الأبحاث والدوريات:

- أحمد بدر: الإقطاع في بلاد الشام خلال القرنين الأول والثاني للهجرة. ضمن كتاب بلاد الشام في العهد الأول تحرير محمد عدنان البخيت من أعمال (المؤتمر الرابع لبلاد الشام- عمان- الأردن- ١٩٨٩.
- صالح العلي: - الألبسة العربية في القرن الأول الهجري- مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الثالث عشر- بغداد- ١٣٨٥هـ- ١٩٦٦م.
- صالح العلي: تنظيم جباية الصدقات في القرن الأول الهجري، مجلة العرب- جـ١٠/ سنة٣/ تموز- ١٩٦٩- دار اليمامة- الرياض.
- صالح العلي: الحمى في القرن الأول الهجري، مجلة العرب/ ج٧/ سنة ٣- محرم ١٣٨٣هـ نيسان- ١٩٦٩- دار اليمامة الرياض.
- عبد العزيز الدوري ١- نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية مجلة المجمع العلمي العراقي- بغداد- ١٩٧٠.
- عبد العزيز الدوري "العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام" مؤتمر بلاد الشام الجامعة الأردنية- ١٩٧٤.
- محمد خريسات: القطائع في صدر الإسلام (عصر الرسول والخلفاء الراشدين)، مجلة دراسات تاريخية- دمشق- ٢٧ و٢٨- أيلول- كانون أول- ١٩٨٧.
- محمد خريسات: عشور التجارة في الجاهلية وصدر الإسلام حتى نهاية القرن الأول الهجري دراسات الجامعة الأردنية- عمان- تموز- عدد ٧٥- مجلد ١٥- ١٩٨٨.

- محمد خريسات: القطائع في العصر الأموي" دراسات- الجامعة الأردنية. المجلد السادس عشر- العدد الثالث- ١٩٨٩.
- محمد زيود- نظام الحسبة في الإسلام، دراسات تاريخية- دمشق- ٢٩، و ٣٠ آذار- حزيران ١٩٨٨.
- فالح حسين: العشور: "ضرائب التجارة في صدر الإسلام"- دراسات تاريخية- دمشق- ٢٩-٣٠ آذار- حزيران: ١٩٨٨.
- نجدة خماش: أوضاع الفلاحين في العراق والشام في صدر الإسلام- دراسات تاريخية- دمشق- العددان السابع عشر والثامن عشر- ١٩٨٤.
- نجدة خماش (تعريب النقد وأثره على العلاقات العربية البيزنطية والوضع الإقتصادي)- دراسات تاريخية- دمشق - عدد ١٥- ١ أيار- ١٩٨٤.

Abstract

"Economic Condition and their impact on Umayyad" Poetry

Name: Ena'am Mousa Ibrahim Rawaqah

Supervised by

Professor Hashim Yagi

The Umayyad era is a golden period to study the economic life and its influence on poetry. The Arabs took colossal strides outside the Arabian Peninsula by virtue of the great Conquests. They established cities in the conquered lands as Kofa, Basra, Rusafah and others. Consequently all sorts of productions burgeoned alongside the pastoral system that was common in the desert Agricultural and Mercanfile professions became rather characteristic of the provinces of Great Syria. Iraq and Hijaz. New literary forms developed belong of the close reciprocal relation between the economic conditions and literature for instance, poetry was used as amedia to make a living, especially in Iraq and the desert. The poets sought the patronage of rich emirs to earn money. The poets also played the role of information agents they depicted in their poetry the economic dimension which is clearly shown in the poetry of the panegyrists, satirists, lampposts and soldier poets. Poverty and the protest against object economic circumstances became characteristic of the Umayyad are Complaint form poverty and the protest against object economic situation started to appear in Arabic poetry of the Umayyad periods poetry demonstrating the worries of the Arab man and the economic constraints he was subjected to due to the environment or the policies of the state, concerning especially the systems of provisions distribution, the collections of donations and the heavy taxes. Love poetry in all its aspects was never devoid of illusions to economic changes relating the economic circumstances and the social and cultural conditions.